كلمة الوزارة

عصام خليل
وزير الثقافة

يوم الثقافة (*)

عندما تتعرض الأمم لاختبارات المصير والوجود، تستدعي مخزونها الثقافي، بوصفه الإطار الأشمل، والأعمق، للتعبير عن شخصيتها، وهويتها، والأكثر قدرةً على تحريض طاقاتها، وحيويتها للمواجهة.

ونحن - في سورية - عندما نحتفل بيوم وزارة الثقافة،

(*) كلمة السيد الوزير- التي ألقاها في «يوم وزارة الثقافة (اليوم السوري للمصالحة الوطنية)» في دار الأسد للثقافة والفنون (دار الأوبرا) بدمشق (٢٣/١١/٢٠١٤)

فلأننـا نـدرك حاجتنـا إلى استنهاض الإرث السـوري العظيـم، بمـا فيـه من حريّة وجـلال وكبريـاء، لنواجه مشروعـاً ظلامياً تكفيرياً، يهدد أمن الينابيع، واستقرار الغابات! نمتشق العقل، ونشهر الثقافة، دفاعاً عن قيمٍ، وعـن مشروع حضاري، كان ـ وما يزال ـ ملهماً للإنسانية كلهـا، بما فيـه من سموٍّ روحـيّ، وقدرة علـى التجديد، والإبداع.

اليـوم تنهض الشمس كلّهـا في مواجهـة العتم كلّه. فهذه اللحظـة الشاحبة، المضرّجة برائحة الموت، ليست زمناً سوريّاً! لأنَّ السماء السورية لا تحتفل إلا بأجنحة الفراشات وبحفيف النجوم وبنوافير الصباحات.

ليس بالخبـز وحده يحيـا الإنسان، كما قـال السيد المسيـح. وليس بالقتل وحده يمـوت الإنسان! فالجهل، والتخلّـف، والخـواء الفكـري، أدوات المـوت القادم على شفير السواطير المسنونة بحقد الغرائز.

ولأنَّ «الثقافـة هـي الحاجـة العليـا للبشريـة» كمـا قـال القائد المؤسس حافظ الأسـد؛ فسوف يظلّ رهاننا الأكيـد والحاسـم، على مشروعنـا الثقافي القـادر على ترسيـخ وعي عام، يستجيب لحاجاتنا المجتمعية، راهناً ومستقبـلاً، ويحشـد السوريين جميعـاً، في الاصطفاف

الوطني الصحيح، والقادر على حسم المواجهة، بانتصار السوريين جميعهم، بجميعهم، ولجميعهم. ومن هنا كانت احتفاليتنا يوماً سورياً للمصالحة الوطنية، لأن الوطن بحاجة إلى أبنائه جميعاً، ليكونوا يداً واحدةً في مواجهة الإرهاب، والتطرّف، والفكر الغريب، البعيد عن اعتدال ووسطية المجتمع السوري.

مشروعنا الثقافي رديف حيوي لجيشنا المقدّس؛ لأن بطولاته الأسطورية مؤسسة على ثقافة الفداء، ثقافة التضحية، ثقافة الاستشهاد في سبيل الوطن، ومن يحمل ثقافة الاستشهاد، يملك ثقافة الحياة الخالدة.

نحن مصممون على تحقيق المصالحة الوطنية، لأننا مصممون على النصر، ذلك أن «الإرهاب لا يُستأصل بالحرب وحدها، بل بالثقافة، والتعليم والتواصل». كما أكّد السيد الرئيس بشار الأسد.

ولأننا حراس الذاكرة والوجدان، ولأننا المسؤولون عن حماية العذوبة، ستظلّ وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية بوابةً للشروق، ساطعةً بالخير والحق والجمال.

باسـم عائلـة وزارة الثقافـة، أتوجـه بالشكر الجزيل إلى السيد الدكتور وائل الحلقي، رئيس مجلس الوزراء، لرعايته الكريمة لهـذه الاحتفالية؛ وأسمح لنفسي أن أشكر باسمه الكريم، عائلة الوزارة فرداً فرداً، مثنياً على الجهـود النبيلة والمخلصة، التـي بذلت في هذه الوزارة النوعية، منذ تأسيسها حتى اليوم.

والشكر الأسمـى، والتقدير الأعمق، للقامة العربية الشامخة، لرمز العنفوان العربي، سيادة الرئيس القائد بشار الأسد. وكل عام وأنتم بألف خير.

❁ ❁ ❁

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

«اليونسكو» تحتفي بالأطرش والشوّا

أقرّت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» في الدورة السابعة والثلاثين، للمؤتمر العام (باريس ٢٠١٣) جدول الاقتراحات بشأن احتفالات الذكرى، التي ستشارك فيها اليونسكو في عامي (٢٠١٤ و٢٠١٥) وقد تمت الموافقة على طلب الجمهورية العربية السورية (اللجنة الوطنية) بالاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد الموسيقار فريد الأطرش (١٩١٥-١٩٧٤) وذكرى مرور خمسين عاماً على وفاة الموسيقار سامي الشوا (١٨٨٩-١٩٦٥) ونجدها مناسبة مهمة للتعريف ببعض عطاءات وإنجازات هذين العملاقين في مجال الموسيقى

العربية السورية، ونحن على أبواب هذه السنة الجديدة التي ستكون حافلة بالنشاطات والفعاليات المحليّة والعربية والعالمية تقديراً لفريد وسامي..

❁ ❁ ❁

تجمع المصادر، على أن الموسيقار فريد الأطرش، ولد في سنة ١٩١٥م في بلدة «القريّا» في محافظة السويداء، والده الأمير فهد الأطرش، والدته علياء المنذر، التي نزحت مع أولادها: فؤاد، فريد، آمال (أسمهان) في عام ١٩٢٣م، أثناء الأحداث التي سبقت الثورة السورية الكبرى، إلى لبنان، ثم إلى مصر، لتبدأ العائلة هناك رحلة الكفاح من أجل العيش والفن معاً، وقد أتاحت الظروف في مصر لفريد الأطرش أن يلتحق بمعهد الموسيقى العربية، وأن يتتلمذ على يدي الموسيقار رياض السنباطي، والملحن اللبناني، عازف العود، فريد غصن، وفي بعض الأحيان على يدي الموسيقار محمد القصبجي.. ومن خلال عملهم تكوّنت شخصية فريد الفنيّة..

تشاء الأقدار أن يستمع إليه صدفة، الموسيقار (مدحت عاصم) فيطلب منه، تقديم فقرات من عزفه على العود في الإذاعة المصرية، وكانت فرصة جيدة لانطلاقته الفنية، التي أثرت الوجدان العربي بكل ماهو جميل ورائع وأصيل على مدى نصف قرن من العطاء المتجدد، قدّم خلالها شتى ألوان وأنماط وقوالب الموسيقى والغناء من «الأوبريت» و«الدويتو» والقصيدة، والأغنية الشعبية، والطقطوقة، والأغاني الدينية والوطنية، وغيرها..

لقد حصد فريد الأطرش خلال حياته شهرة وشعبية على امتداد الوطن العربي، من خلال ألحانه الرائعة وصوته النادر القوي، وعزفه الفريد من نوعه على آلة العود، ومن مآثره الكثيرة، نذكر أنه الفنان الأوّل في الوطن العربي الذي

استطاع أن يصل بالموسيقى العربية نحو العالمية، من خلال ألحانه وموسيقاه، التي تشكل سجلاً رائعاً لإبداع هذا الفنان العربي على امتداد المعمورة، وكان أوّل من غنّت أوروبا وأميركا وتركيا وروسيا أغانيه وألحانه، بثماني لغات عالمية، وأشهر هذه الأغاني «يازهرة في خيالي» و«يا جميل.. يا جميل» و«ويّاك» وقد قدّمت بأصوات شهيرة مثل «داليدا» و«إنريكو ماسياس» و«مايا كازابياكا» وغيرهم، كما قام الموزع الموسيقي العالمي الشهير «فرانك بورسيل» بتوزيع بعض أعماله الموسيقيّة، ونشرها عالمياً..

عندما نذكر فريد الأطرش، نذكر عبقريته في العزف على آلة العود.. هذه الآلة الشرقية الساحرة التي تمسّك بها حتى آخر أيام حياته، وكانت أصابعه على أوتار عوده، تشكّل فرقة موسيقية كاملة، ونذكر أيضاً، أنه أول من أدخل فن «الأوبريت» للسينما العربية، وأول من أدخل قوالب «الفالس» و«الرومبا» و«التانغو» وغيرها، ويشهد بذلك أول عمل أذيع له في الثلاثينيات من القرن الماضي، هو «تانغو» (محبة من غير أمل) الذي غناه في ٣١ أيار عام ١٩٣٤م، وكان أول «تانغو» عربي لا اقتباس فيه.. كما كان لفريد الأطرش دوره الريادي في إدخال المقدّمات الموسيقيّة الطويلة إلى الأغنية العربية، وهو أول من أدخل آلات «الأورج» و«الجيتار» و«الكلارينيت» إلى الفرقة الموسيقية العربية.. وأول عربي يفوز بجائزة أبرع عازف عود في العالم، في المسابقة العالمية التي أقيمت في تركيا عام ١٩٦٢م، وكان أول موسيقي عربي سوري في العصر الحديث والمعاصر، يدوّن اسمه مع أعماله في الموسوعة الموسيقيّة الفرنسيّة، وقد تقلّد في حياته أكثر من عشرين وساماً ونيشاناً وقلادة، من بينها وسام الاستحقاق السوري،

وتقديراً لمكانته الموسيقية والفنية الكبيرة، فقد قامت وزارة الثقافة في سورية بإطلاق اسمه على المعهد العربي للموسيقى في مدينته «السويداء».

ونشير باختصار، بأن موسيقارنا الكبير، قدّم /٣٧/ فيلماً سينمائياً استعراضياً، تعد من كلاسيكيات السينما العربية، وقام بنقل الألحان السورية الفلكلورية إلى البيئة والألحان المصرية والعربية كافة، وكان من أشد دعاة الوحدة العربية من خلال أوبريت «بساط الريح» التي ظهرت عام ١٩٤٦م ضمن نحو /٢٠٠/ أغنية ولحن وطنيّين من خلال ما يزيد على /٥٠٠/ لحن خلال مسيرته الفنية الحافلة بالعطاء، التي عبر من خلالها عمّا في قلبه من حب وعشق للعروبة، متفاعلاً مع كل الأحداث العربية بأفراحها وأتراحها.

❀ ❀ ❀

لقد كتبت الدراسات والأبحاث والمؤلفات الكثيرة عن الموسيقار فريد الأطرش وأغلبها كانت تشيد بموهبته وإبداعه وإنجازاته في مجالات الغناء والعزف على آلة العود، والتلحين وموسيقاه الفريدة، وصوته الرائع الذي صمد أمام تقلّبات الأيام، ولم تبتلع الكهولة والمرض مقاماته ورنينها، كما فعلت مع أصوات رجاليّة كانت معاصرة له، يقول الموسيقار مدحت عاصم: «لقد قدّم فريد الأطرش، أغلى ما يمتلكه في الحياة، روحه، وقلبه، قرباناً في هيكل الفن، فأقامه الفن راهباً من رهبانه، وكلما احترق هذا القلب، وتعذبت هذه الروح، تصاعدت ألحانه، فتخفق لها قلوب سامعيها، وترتجف أرواحهم.. وما أكثر ما احترق قلب فريد، وتعذبت روحه!..».

لقد ظلَّ فريد الأطرش، حتى آخر أيام حياته الحافلة بالعطاء والتجدد، نضر الموهبة، رائع الحضور الفني، في حفلات أعياد «شم النسيم» التي لم تكن تكتمل

في مصر الشقيقة إلا بأغنية «الربيع» الشهيرة، وتقاسيمه «الأطرشية» على آلة العود، ويرى النقاد أن سبب شهرة فريد الطرش، تعود إلى أسلوبه الأمثل في التعبير والتطريب، وألحانه تتميز بالعاطفة الجياشة، وهي تتراوح بين صعود وهبوط، حول هذا يقول الناقد الأستاذ صميم الشريف: «سبب هذا يعود إلى التأثيرات النفسية التي يقع تحت وطأتها، فإذا كان سعيداً، وأموره العاطفية تسير كما ينبغي، طفحت أغانيه وألحانه بالفرح والمرح، وإذا كان حزيناً يعتصره الألم والأسى، غرقت ألحانه بالدموع والنواح والبكاء، فهو دون مغالاة، أسير الحالة النفسيّة التي يكون عليها عندما يلحّن أو يغنّي».

فريد الأطرش هو أول من استخدم أسلوب «المواليا» في العرض الصوتي في الأغنية العربية، وعنه أخذ محمد عبد الوهاب هذا الأسلوب في العديد من أغنياته، وهو بحق سيد الأغنية الخفيفة الجماهيرية المطربة التي تعيش زمناً طويلاً في الذاكرة، وهو من أهم الملحنين العرب الذين يتميزون بشخصية لحنيّة واضحة، وهو كما يقول صميم الشريف: «لم يحاول أن يقلّد أحداً، أو يتبع أسلوب أحد» ومن هنا جاءت شهرته الكبيرة التي لا حدود لها، في شتى أرجاء الوطن العربي..

يمكن القول بثقة، إن فريد الأطرش، قد أعطى الأغنية الراقصة ملامح خاصة بها، وقد تسابق في ذلك مع محمد عبد الوهاب في مجموعة من الأغاني التي مازالت تشهد -حتى اليوم- بفهم فريد الأطرش، العميق لمقومات الأغنية الراقصة، مثل «ايمتى تعود يا حبيب الروح» و«عشّك يا بلبل» التي لحّنها على إيقاعات «التانغو»..

وقد تربع فريد على عرش الأغنية الشعبية، واختص بألوانها، وبرز فيها، حتى أضحت أغانيه علامة بارزة في تاريخ الأغنية الشعبية العربية، وقد استفاد فريد من مئات الألحان الشعبية السورية الدارجة، التي كان يحفظها قبل نزوحه مع والدته وشقيقته آمال (أسمهان) إلى مصر.. لقد نقل هذه الألحان السورية إلى الشعب العربي المصري، وبنى شهرته عليها..

في العرض الغنائي المقيّد بالتلحين، أعطى فريد أغنيات رائعة، سما فيها إلى مشارف لم تعرفها الأغنية العربية الحديثة قبله، وهذا ما تؤكده أعماله «نجوم الليل» و«الربيع» و«أول همسة» و«حبيب العمر» و«بنادي عليك» و«حكاية غرامي» وغيرها.. لقد أراد فريد في هذه الأعمال أن يظهر لنا براعته في العرض الصوتي الحر غير المقيّد بالتلحين، فقدم خلال حفلاته الموسمية، هذه الأغاني، التي ذكرناها، محرراً في بعض مواضعها العرض الصوتي المقيّد من قيده التلحيني، لينطلق إلى آفاق المقامات القريبة والبعيدة عن مقام الأغنية الأصلي، مبرهناً، بذلك على براعته الكبيرة، التي أشاد بها كبار النقاد العرب..

يجمع النقاد على التسابق الحقيقي، الذي تم بين فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب، في مجالات الغناء والتلحين والسينما.. لقد تفوق فريد في أفلامه الاستعراضية، ومبيعات أغانيه التي فاقت كل حدود وتصور، ويعود السبب إلى تراجع المساحات الصوتية عند عبد الوهاب، واستعانة فريد بالملحن «أندريه رايد» الذي قام بتوزيع «وهرمنة» ألحان فريد، مفرقاً بين أغنية شعبية، لا تحتاج إلى توزيع، وأغنية ذات إيقاعات راقصة، وأغنية ذات نفس -كلاسيكي-.

لقد ظلّ فريد الأطرش على مدى أكثر من أربعين عاماً، المغني والملحن العبقري، الذي يفيض جمالاً، ويمنح الحقل روحاً وغراساً نامية، وينشر الحب

ندياً في القلوب الحانية، وكم كان الشاعر المرحوم إسماعيل عدره صادقاً حين قال في رحيله (٢٦ كانون الأول ١٩٧٤م):

سكت اللحنُ الذي غنى لنا
وشدا للخلد، أحلام البشر
وهزار الدوح وسنان الرؤى
تائه الإيقاع، مجروح البصر
كيف ننسى أنملاً لو لمست
خشب العود غدا العود درر؟!
يارسول الفن بلّغت الدنى
شرعة الفن وإبداع الوتر

❀ ❀ ❀

تجمع المصادر على أن أمير الكمان، وعبقري الفن، ونابغة الشرق، سامي أنطون الشوّا، قد ولد في شهر تموز سنة ١٨٨٥م، في حلب الشهباء، وهو من أسرة ذائعة الصيت في العزف والغناء، والده كان نابغة في العزف على آلة الكمان، وكان يدعى إلى عواصم البلاد العربية، ليعزف في أعراس الملوك والأمراء، وكان له شهرة كبيرة في كثير من بلدان العالم، أنجب «الشوا» ثلاثة موسيقيين هم، سامي، وكريم، وفاضل، فاختصّ كريم بالعزف على آلة القانون، كما اختصّ سامي وفاضل بالعزف على آلة الكمان..

نشأ سامي، في هذا البيت العريق في الفن، فأحب الموسيقى حبّاً ملك عليه جميع مشاعره، ومالبث أن اشترى كماناً، بدأ يتعلّم عليه أصول العزف، ولم يطل

به الأمر، حتى أطاعه القوس، وانقادت إليه الأوتار، وأخذت النغمات تتصاعد من كمانه الساحر..

في عام ١٩٠٥م، كما يقول الباحث الكبير عبد الله يوركي حلاق، ذهب سامي الشوّا إلى القاهرة، فلقي فيها أجمل ترحيب، وما هي إلا سنوات قليلة، حتى عمّت شهرته مصر كلها، فأخذ الناس يهرعون إلى سماع ألحان كمانه، وأخذت شركات الأسطوانات تتسابق إلى تسجيل ماكان يبدعه من تقاسيم وبشارف وسماعيات، وفتحت أمامه القصور الملكية، فدخلها وملء إهابه العبقرية، وطوع أنامله الفن الأصيل والأنغام الساحرة، وانتزع الإعجاب، وأطلق عليه لقب «أمير الكمان» وكان بحق خير سفير للإبداع الموسيقي العربي السوري، حيث زار معظم البلاد الأوروبية، وزار الأميركيتين مراراً حاملاً اسم سورية، وكان حيثما سار، يقابل بالحفاوة والتكريم..

في عام ١٩٣١م، سافر سامي الشوا إلى برلين، والتقى بالعازف العالمي الشهير «كوبليك»، وقد عزف أمامه، وأعجب به كثيراً، وتابع رحلاته وجولاته ورفع اسم بلاده في المهجر، واشترك في «الفرق الفنية الكبرى» مع أشهر العازفين في فرق يوسف المنيلاوي، والسيد الصفتي، وعبد الحي حلمي ومع الشيخ (أبو العلا محمد) ومحمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفتحية أحمد وغيرهم وكان أول عازف كمان يصاحب الشيخ علي محمود في غناء ديني صوفي..

لسامي الشوا، آراء كثيرة نقلها عنه، الباحث المؤرخ أدهم الجندي والسيد الصفتي، وعبد الله حلاق، نقتطف منها:

• إنَّ الذي يدعو للأسى هو أن الموسيقا العربية مهددة بخطر الفناء والزوال

تجاه تيّار المدنية الغربية الجارف، وأنّ افتتان العرب بكل شيء غربي نذير سوء.

• هواة الفن ينظرون بعين الازدراء لكل ما هو شرقي عربي، ويمجدون كل ماهو أجنبي، وهذه الفئة ترى أن الفن مهما سما قدره لا يستحق عندهم شيئاً، فهذه الفئة معادية لكل ماهو عربي، مهما كان الإنتاج رائعاً..

• وهناك طائفة أخرى، تتنكر لكل جديد، ولا تحب أن تساير ركب الحضارة الفنية، وتتنكر أيضاً لكل ماهو عربي، وتحاول أن تطمس كل فن عربي موروث، بدعوى أنها تحمل شعلة التطور والتجديد.

اشترك سامي الشوا مع الفنان منصور عوض في تأليف كتاب طبع في مصر عام ١٩٤٦م، بعنوان «القواعد الفنية، في الموسيقى الشرقية والغربية» كما أسس مع هذا الفنان معهداً لتعليم الموسيقى، كان له أثره الكبير في تعليم هذا العلم والفن الجميل في مصر العربية، وهناك من يقول إن الشوّا، قد ألّف كتاباً لتعليم العزف على آلة العود، وكتاباً آخر عن «الثقافة الشرقية»..

لقد ظلَّ سامي الشوا، مخلصاً لفنه، حتى آخر لحظة في حياته، مساء يوم الجمعة في ٣١ كانون الأوّل سنة ١٩٦٥م، في القاهرة، وأُلحد الثرى مع أسرار فنونه، وقد نعته محطات الإذاعة في أنحاء المعمورة، وكتبت عنه الجرائد والمجلات العربية والعالمية، وأسهبت في الحديث عن عبقريته الفنية، والحديث عن صحبته لآلة الكمان، التي استطاع أن يحاكي بأوتارها الأربعة، وأحياناً بوتر واحد فقط، صداح البلابل، وتغريد العنادل، وخرير الجداول، وحفيف الغصون، وعصف الرياح، وكل مافي الطبيعة من حركات وأصوات..

شهرة أمير الكمان سامي الشوّا جعلت كبار الشعراء والأدباء في الوطن العربي، يقولون فيه القصائد الرائعة، وكان في مقدمتهم أمير الشعراء أحمد شوقي الذي قال:

يا صاحب الفن هل أوتيته هبة
وهل خلقت له طبعاً ووجدانا
لا تسألِ الله فناً كل آونة
واسألْهُ في فترات الدهر فنانا
يا واحد الفن في أشجى معازفه
هذا أوان الثناء العدل قد آنا

ونظم به شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة تقول بعض أبياتها:

سلم القلب للوترْ
ما على القلب من خطرْ
ذا أمير الكمان
أوتاره الخمر والزهر
قامت الأرض حوله
وانطوى عالم البشر
واختبا كل ما على الأرض
في اللحن واندثر
قل لسامي يا نعمة السمع
والروح والفكر

كـــم صـــريـــعٍ نـــشـــرتـــه
بــين كــفــيــك الــوتــر

وحيّاه خليل مطران بقصيدة تقول في بعض أبياتها:

أيــتــم أنــس أم يـطـيـب تـرنُّمُ
إلا إذا كــان المـرجِّـع سـامـي
تـتـدفـق الأوتـار تحـت بـنـانـه
كـتـدفـق الأنـهـار بـالأنـغـام
يـجـري عـلـى أسـلاكـهـا إيـقـاعـه
مـتـحـدراً مـن مـصـدر الإلـهـام

وقال شاعر المهجر إيليا أبو ماضي في الشوا قصائد عدّة، نقتطف منها:

يـا شـاعـر الألحـان إنّي شـاعـر
أمـسـى ضـئـيـلاً عـنـد نـورك نـوره
أسـمـى الـكـلام الـشـعـر إلاّ أنّـه
أسـمـاه مـا أعـيـا الـفـتـى تـصـويـره

وحيَّاه الشاعر معروف الرصافي فقال:

صـاحِ قـم بـي إلى أمـير الـكـمـنـجـة
أصـدق الـنـابـغـين في الـفـن لـهـجـة
قـم بـنـا نـسـتـمـع إلى نـغـمـاتٍ
تمـلأ الأنـفـس انـتـعـاشـاً وبـهـجـة
ذلـك سـامـي الـشـوّا الـذي قـد سـمـا
في فـلـك الـفـن بـالـغـاً مـنـه أوجـه
شـهـد الله أن كـل الحـيـاة
لم تـزنـهـا بـدائـع الـفـن سـمـجـة

وقال جميل صدقي الزهاوي:

هزّنا الفن في كمنجة سامي
وهو فينا أميرها الجحجاح
حبذا الموسيقى وحسبك منها
لغة في غموضها إفصاح

وقال شاعر «الأطلال» إبراهيم ناجي:

آه من لحنٍ سماوي
عجيب النغماتِ
أيها الساحر لم تضرب
بقوس، بل عصاة
يا أبا الفن المصفّى
هات ألحانك هات

وقال الأخطل الصغير (بشارة الخوري):

أجراحٌ تسيل أم أرواحُ
على أنمليك ذبن حنينا
أم شآبيب من جداول شتى
يتفجرن ضاحكاً وحزينا
وترٌ يأخذ العيون فيجمدْنَ
عليه كأن خلقْنَ سكونا
فترفَّقْ إذا ضربت فما
تضرب إلا مكامن الحس فينا

❀ ❀ ❀

استعراض مختصر لتطور الفكر الإنساني

د. أحمد عمران الزاوي ❁

جميع ما غمر صدر الإنسان من القيم والأفكار والأماني لم يحظ بالخلود حتى ما صمد وما يصمد منه على الزمن لم يكن أبدياً بل كان على الدوام فريسة الانحلال ولم تكن تلك الحصون التي قامت على الدماء والدموع غير جدران مرحلية بعثرتها عواصف الزمن وتركتها أثراً بعد عين.

هذه الحقيقة بإيجابياتها المحدودة وسلبياتها الراسخة هي المسطرة التي تقاس بها لا بسواها تصرفات الأمم والأفراد.

حتى الشعراء والأدباء الذين انفصلوا عن حياة المجتمع وانطووا على أنفسهم في البروج العاجية تنقضي حياتهم المادية والأدبية تحت أرقام هذه المسطرة لا فرق بين نهاية من سَجَن قلمه في بُرجِه العاجي وبين من صاغ كلماته من هموم الناس وأوجاعهم.

نعم في عالمنا المحدود كنا وما نزال نفرّق بين من لا يتقن غير اجترار الآلام وبين من يشتعل بالنضال حتى الترمّد في سبيل ما رآه قيماً يُستمات في سبيلها.

كل منهما وجد نفسه في نهجه إذ كل منهما يجلس تحت نافورة من مياهه الخاصة فمياهها مهما ارتفعت فإنّها تعود لتسقط عليه.

❁ أديب وباحث ومفكر سوري.

طبعاً لا تستوي في نظر الناس الغابرين والحاضرين نافورة الماء الآسن ونافورة الماء الطهور.

هذا الفرق الطبيعي هو الذي جعل الصراع سُنّة أبدية دائمة ما دامت الحياة.

صراع بين القديم والجديد

صراع بين الجمود والإبداع

صراع بين الخير والشر

الجمود على ما مضى ولو صار شيخاً يتوكأ على العصا.

وبين القافز على سلم الحياة الصاعد إلى الأعلى.

كانا و- ما زالا- مختلفين على الدوام حتى لو كانا ينتميان إلى جذرٍ اجتماعي واحد أو جذرٍ عقائدي واحد فقد اختلفا في التفكير والتفسير أولهما: اعتمد على ما كان يعتمده القدماء قائلا:

«**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**» الزخرف ٤٣/٢٣

الثاني: لقد وُجِدنا لنتمّم ونعدّل ونضيف من دون جمود على ما أسلفه الأقدمون.

«**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**» (البقرة٢/١٣٤)

ويضيف:

لن نثاب ولن نعاقب على ما فعله غيرنا «**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**» (المدثر ٣٨/٧٤)

«**قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**» (الأنعام ٦/١٦٤)

«**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً**» (لقمان ٣١/٣٣)

الصراع بين القديم والجديد قام وسوف يبقى ما بقيت الحياة.

فالقديم من يتشبث بثوابت الماضي ويحاول فرضها.

والجديد كان وما يزال عاملاً على طي الماضي والانتقال منه إلى الحاضر على أنه ليس لأي منهما خلود.

إذ مثلما استطاع الجديد أن يتخطّى القديم سوف يصبح - مع الزمن - قديماً يتخطاه الجديد الذي يتهيأ للقدوم.

وهما في جميع العصور تحركا تحت سقف الحاجات الاجتماعية وكان نشاط كل منهما تلبية لهذه الحاجات يجمد بجمودها ويتطور بتطورها.

هذه حقيقة لا ينكرها ولا يستنكرها إلا من ينكر ويستنكر تاريخ الإنسانية.

فقد ثبت أن تاريخ الإنسان لم يتجمَّد على فكر أو نظام أو قانون إلى الأبد وما «الحتمية» التي تغنى بها النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي غير وهم وصَلَفٍ إذ لم تعش حتمية الشيوعية أكثر من ثلثي قرن إلا قليلاً.

أمَّا الثانية فإنها تتهاوى الآن شرفةً شرفة.

هنا لا بد من الوقوف ملياً عند فكرة «الشيطان»

فالشيطان:

فكرة عاشت وتعيش بجانب ضمير الإنسان من دون سواه من المخلوقات فالإنسان منذ أن اجتاز مرحلة البدائية اكتشف أن لديه القدرة على فعل الخير وفعل الشر مع الغير.

فاضطر إلى العودة بأفعال الشر إلى تنيّن في داخله أطلق عليه اسم (الشيطان) وجعل منه سلة المهملات التي «يلقي فيها أوساخه الأخلاقية» فالحيوانات بأنواعها من وحيد الخلية إلى الحوت والفيل مخلوقة على الجبر والالتزام بالغرائز من دون تعديل فلا سلة مهملات ولا شيطان ولا تفريق بين الخير والشر والشفقة والأذى أي لا وجود للضمير ولا وجود للشيطان في حياتها.

لماذا هذا الاختلاف؟

الحيوانات لا تتكلم وإن كانت تتكلم فبلغة خاصة لا نفهمها أمَّا الإنسان المتكلم فقد جاء بإجابتين:

الأولى: «**صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ**» (البقرة٢/١٣٨)

والله «**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**» (الأنبياء ٢١/٢٣)

الثانية: يقول القائلون بها ولكن لماذا لم توجد في الحيوانات وهل الحساب الإلهي المبني على الأقوال والأعمال لن يشمل المخلوقات التي لم تصدر عنها أقوال ولا أعمال عن نية أو قصد؟

ولماذا لم يفرض الحساب على الإنسان إلا بعد أن اكتشفت إنسانيته أن لديه القدرة على فعل الخير وفعل الشر وأن لديه المعرفة الكاملة بكليهما؟

وهل هذا يعني أن جميع الشرور التي صدرت من الإنسان قبل وعيه لا فرق بينها وبين غيرها من التصرفات فلا ثواب على الخير ولا عتاب على الشر عند من لا أهلية عقلية له...

متاهة:

لا خروج منها إلا بإعلان الجهل بها.

لذلك:

فضلنا في هذه الأطروحة أن نبتعد عما لا نستطيع الجواب عليه لأنَّه من المغيبات عن عقولنا وأن نقتصر في بحثنا على عالم الطين -عالم المادة.

حتى عالم الطين آثرنا عدم التوغل فيه بل نبدأ منذ ابتداء الوعي علماً أن الوعي لم يظهر إلا بعد أن ولد العقل عند الإنسان الذي أدرك به امتلاكه للقدرة على فعل الخير وفعل الشر للغير أي منذ أن استوعب معاني وأيلولة الخير والشر.

تساءل الإنسان بفضول شديد:

لماذا أجمعت الديانات والفلسفات على

احتقـــار الطين فمن الطيـــن تبتدئ الحياة وإليه تنتهي غذاؤنا وغذاء الحيوان والنبات والطير والسمك والحشرات والدود الأعمى منه فلا حياة للأحياء إلا به ومنه.

وقـــد أوضح القـــرآن هـــذه الحقيقة إذ قال:

«**إِذْ قَـالَ رَبُّـكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّـي خَالِقٌ بَشَراً مِـن طِيـنٍ • فَـإِذَا سَوَّيْتُـهُ وَنَفَخْـتُ فِيهِ مِن رُّوحِـي فَقَعُـوا لَـهُ سَاجِدِينَ**»(ص،الآية ٧١-٧٢) وأيضاً في سورة الحجر ١٥/٢٨-٢٩

«**مِنْهَـا خَلَقْنَاكُـمْ وَفِيهَـا نُعِيدُكُـمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**» (طه٢٠/٥٥)

وغير ذلك الكثير من الآيات والأدلة التي أوضحت شرف الطيـــن وكرامته وضرورته للحياة.

ممـــا يوجـــب علينـــا أن نولـــي التقدير لمظاهره وأسراره

الأثمـــار والأزهـــار وأســـراب الطيـــور بأنواعهـــا جماعات لصائق الأرض الزاحف والقافز والطيار والمتقلب وعجائب التكوين والمتكونـــات التي لا تزال أسباب صيرورتها ومصيرها مجهولة لدينا ذلك جميعه - دون استثناء - من الطين.

لقد اهتدينا إلى وجود بعضها بالجوارح

وإن كان القرآن حدد سبب خلق الإنسان والجن بقوله «**وَمَا خَلَقْـتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**» (الذاريات٥١/٥٦)

كمـــا أوضح أن خلـــق الأنعـــام والخيل والبغال والحمير هو لفائدة الإنسان (١٦/٥-٦-٧-٨-)

فثمـــة مخلوقات لا نعلم شيئاً عن خلقها ودورها في الحياة ومصيرها بعد الحياة.

ثم -وهذا مهم- حتى الذي ذكر بالقرآن فيـــه أسباب خلقه فنحن حتى الآن لا نعرف كيـــف خلق ولا كيف بدأ لذلـــك أمر القرآن جميع الأجيال أن تسير في الأرض لتكتشف بذاتهـــا كيف بـــدأ الخلق فقال آمـــراً النبي (صلـــى الله عليـــه وسلـــم) أن يبلغنا مشيئة الله:

«**قُـلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْـقَ ثُـمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْـأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» (العنكبوت ٢٩/٢٠)

هنا:

لابدَّ أن نـــرى في الأمـــر الإلهي تكليفاً لأهـــل العلم أن يسيروا فـــي الأرض باحثين ومكتشفين كيف بدأ خلق المخلوقات جميعاً خلافـــاً لما قال بعض المفسريـــن أن الآية كانت نداءً موجها إلى الكفار ليكتشفوا كيف بدأ الخلق ويتمعنوا فيما تركه السابقون من آثـــار لعلهم حينما يتأكـــدون يقتنعون بأنَّ لا خالق غير الله ولا معبود سواه.

لهؤلاء رأيهم وللغير رأيه.

ولكن الأقرب إلى المنطق هو أن النداء موجه إلى العلماء الذين يستطيعون اكتشاف أسرار الطبيعة لا إلى الجهلة الذين يعجزون عن ذلك.

ولكنهما وإن اختلفا في التفسير. متفقان على أنهما كليهما وجميع من في وما في الوجود صائر إلى الزوال والتحول إلى الطين والطين هذا الخليط العجيب الذي منه صيرورة الكائنات من إنسان وحيوان وجماد تصدر عنه الأشكال مختلفة.

فهذه طينة طرية ناعمة بشرتها بيضاء وعيناها متألقتان وخداها ورديان وقامتها مستقيمة ووجهها وجيه يعلوها ويتحكم بها رأس أنيق جميل يحتوي في أحد دهاليزه على كتلة مرنة رخوة هي الدماغ المعجزة الكبرى فمن بين تلافيفها ومنحنياتها وأخاديدها تصدر صور الحياة حلوة أو مرة قذرة أو طاهرة مترامية الأهداف أو مقصوصة الأجنحة صور تستطيع أن تبقى بعد زوال الكتلة بين أيدي الأجيال تذكيراً عبّر عنه أحمد شوقي في حديثه مع أبي الهول:

أبا الهول طال عليك العصر
وبُلِّغت في الأرض أقصى العمر
فيالِدة الدهر لا الدهر شبَّ
ولا أنت جاوزت حدّ الصغر
تسافر منتقلا في القرون
فأيان تلقي غبار السفر
ولكن إلى متى؟ لا أحد يدري

تحت طبقات الثرى طويت أشكال (بناة الأهرام) و(الحدائق المعلقة) و(برج بابل) و(ماري) و(بعلبك) و(جماهير الفكر والفلسفة والإبداع).

حتى (أبو الهول) الذي أذهل رائية شوقي اختلط مصمّمه وبانيه بالتراب وبقي الأثر صامداً على الدهر وصائراً إلى المآل الذي آل إليه سواه.

الأنبياء نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والراشدون والصحابة الأقربون ذهبوا مثلما ذهب غيرهم وتركوا ألقهم الفكري والأخلاقي بيننا.

ولكن إلى متى؟ لا أحد يدري.

كل ما استقر في مداركنا أن لا دوام إلا للدائم.

فنحن رضينا أم رفضنا أشكال طينية حيوانية[1] كل منها يتألف من جمهرة كثيفة متعددة مرئية ومخفية وجوارح هي وسائل الإيصال والاتصال وروابط وشرايين وعضلات وعظام وسوائل قام ويقوم كل منها بدور أساسي في معونة هذا الهيكل حتى موته.

فمثلاً:

في كل منا معدة تشبه البرميل المثقوب في أسفله ولكل من فوهته وقعره وظيفة أساسية لا غنى للحياة عنها تقوم بدورها المعتاد باستمرار ونمطية من ابتداء حياة الكائن حتى موته.

برميل يفرغ فيطلب الامتلاء وبعد الامتلاء يضج الجسد في طلب ال إفراغ

حاجة الجسد إلى الإخــلاء ليست أقل من حاجته إلى الإملاء.

هذا البرميــل على بساطة ترتيبه وشدة الحاجة إليه.

قذفنــاه بعبــارات التهميشــ والتحقير وعلى الأخص ما يدفعه إلى الخارج من بول وغائط فأكثر عبــارات السخرية والتحقير التي تداولناها ومــا نزال مشتقة من هناك مع هذا الحظ السيئ.

فهو أي البرميــل كان ومازال قبل سواه أهم وأوَّل وسائل الحياة.

وذلك لأن جميع الغرائز تتحمل الضغط لإسكات زئيرها ولو إلى حين.

بــل إنَّ بعضهم يستطيــع إخماد بعضها وأن يحولها عن مسيــرة حياته مثل الزّهّاد والرهبان وكبار المتصوفين وأهم ما يتوجه إليــه للكبت والربط عند هــؤلاء هو غريزة الجنس.

ولكن غريــزة (حاجة المعــدة إلى الامتلاء وحاجتهــا إلى الإفــراغ) لا يمكــن إسكاتها ولا إحلال سواها مكانها لأن الحياة لا تقوم إلا بها.

هي مكــررات يوميــة يلتزم بهــا يوميا كل مخلوق (إنساناً وحيوانــاً وهواماً) حتى النبات الــذي تموضعت معدتــه في جذره تنطفئ حياته بعد انقطاع المدد عن المعدة والمدد هو الماء.

فإن كانت الأرضــ كما قالوا قبراً كبيراً هامداً مديد الاتساع يستطيع ابتلاع الأحياء جميعاً وتحويلها إلى أشياء تتغذى منها وتعيش عليها الأحياء القادمة فمن المؤكد انطلاقا مــن هذه الحقيقة أن كل حي هو قبر صغير يتلخص الفرق بينهما في الحجم والمساحة والحركة والسكون.

على أن مــا يجب ألاّ يفوتنا هو الإعلان أن كل حركــة في الحــي صائرة في النهاية إلى جمــود وكل كلام صائر إلى صمت وأن القبــر الصغير في طريقه إلى القبر الكبير هذا ما دفع بعض الفلاسفة إلى التعبير عن قناعتهم بأن لا جحيم سوى المصاعب التي يعاني منها هــذا الفاني أثناء حياته الفانية ولا جنه ســوى ما يتوافر من أسباب الراحة أثناء وجوده في الدنيا.

إنَّ معانــاة الإنســان مــن الظروف وما يرهق عقله مــن فكر وفلسفــة وفن وشعر ورؤيته انتهــاء جميع ذلك إلى الأرض جعله يفكر في المطلــق الذي لا تحده حدود ولا تقيده قيود ولا تتحكم به حاجة ولا يذبل أو يضعف أو يموت.

واقتنــع إذ ذاك وبعــد مخاضٍ تفكيري عسير ومرير أن:

- المطلق هو غير المحدود.
- والموجد غير الموجود.
- والخالق غير المخلوق.
- والكائن غير المكوّن.

وإن التغايــر أزلي لا يمكــن تعديله ولا تبديله.

أمَّا الأوصاف والأسماء التي نخاطب بها الكون والطبيعة فهي من صنعنا استعرناها من مفاهيمنا في الحياة.

(القمر منير) (الشمس مضيئة) (النار حارقة) (الثلج قارس) (الماء عذب) (الحر لاهب) (البرد شديد) وغيرها من المفاهيم استعرناها جميعاً من واقعنا لكي يتيسّر لنا التفاهم بها وعنها.

نحن جماهير الفناء شوقاً منَّا إلى البقاء وامتعاضاً من الزوال أطلقنا صفة الخلود على البارزين والمبرزين.

(عباقرة الفكر) (قادة الجيوش وقادة المجتمع) (فلسفة اليونان وفلاسفتهم) (فلسفة العرب وفلاسفتهم) (أرباب المبادئ والرسالات) (عباقرة الفن والشعر) قلنا هؤلاء وأمثالهم يزول الزمن ولا يزولون من ذاكرة الأجيال ولكن مدارس الفكر جميعاً وثوابت التاريخ أكدت أن لا دوام إلاّ للدائم ولا بقاء إلا للباقي.

قال التاريخ:

- إنَّ تلال القتلى التي تركتها حروب الإسكندر المقدوني وجنكيز خان.

- وعبيد الفراعنة الذين كانوا ينفقون كالخراف تحت أطنان الحجارة التي اقتلعوها من الجنوب وحملوها إلى الشمال لكي تقوم بها الأهرام.

- هؤلاء لم يسبقوا الإسكندر وفرعون وجنكيز إلى الموت غير سنوات قليلة ففي أحضان الأرض تهاوى الجميع.

حيث أصبحت تلك الأسماء الكبيرة مثل الأسماء الصغيرة بعضاً من بعض الأرض وتراباً من ترابها.

ومثلما قامت حياتهم على أشياء الأرض أثماراً وفواكه وحبوباً ولحوماً باتوا هم أشياء تتغذى بها الأحياء.

- المصير واحد ومحتوم من دون تفريق بين (الحدائق المعلقة والأهرام وبرج بابل وبدائع بعلبك وتدمر وماري) وبين «أعمدة الفولاذ التي تصك خد السماء في نيويورك وموسكو ولندن وباريس»

- **كذلك لا فرق في النتيجة:**

بين جنكيز خان الذي أخرج أهل بخارى وهم مليون ونصف مليون وذبحهم جميعاً وبين ترومن الديموقراطي جدّاً الذي قتل بقنبلة واحدة من هيروشيما مئة وستين ألفا. ومن ناغازاكي ستين ألفاً.

و لا فرق

- بين الإسكندر الجبار.

- و بين جونسون المستعمر القاهر.

بعد هذا التجوال في فضاء المطلق وصلنا إلى العجز المطلق.

مما اضطرنا لأن نعود إلى الأجواء الفكرية التي تعيش تحت سلطان الحواس وأقنعنا عجزنا بأن المخلوقات جميعاً تمارس نشاطها بين تلك الجدران فالإنسان يمارس تحت سقفها نشاطه المادي والفكري

والحيوان يمارس جبروته الغرائزية والنبات وظائفه ودَلَعه.

هذه الحقيقة لن تحجب عنا ما جرى فيما بعد.

فيما بعد اختل التوازن في الإنسان بين المستوى المادي والمستوى الروحي وتفاقم مع الزمن الذي منح - كما قال برغسون - المادة اتساعاً وقوة وشمولاً تجاوز قوة الروح وسعتها وعمقها.(٢)

فالروح أضحت ضعيفة عاجزة عن قيادة الجسد وإغراقه بالوصاية وتجمعت على بعضها في الزوايا الصوفية وبيوت الذكر.

أمَّا المادة التي أنجبت أنواع الآلات ولوازم الحياة فقد خطفت قضيب الإمارة من الروح وطفقت تعبث في ثوابت الأخلاق والقيم تجاوزاً وإهمالاً وإبعاداً وتجريحاً.

والمصيبة ليست هنا فقط بل المصيبة في الاستخدام الخاطئ لإنجازات المادة مما حمل بعض المفكرين إلى القول: إنَّ عدداً محدوداً من علماء المادة منحوا الإنسانية تلك المبتكرات العبقرية ولكن عدداً لا يحصى من الحكماء عاجزون عن إقناع الإنسان بالسماح للضمير أن يشرف على كيفية استخدامها.

نعم وألف نعم.

فأين كان الضمير عندما هاجمت طائرات إسرائيل وصواريخها ومدمراتها جنوب لبنان؟ وأين كان عندما هاجمت غزة؟ وأين كان عندما هاجر ملايين الفلسطينيين تحت كابوس السلاح الصهيوني؟

ولكن: ما حيلتي؟؟

حتى بعدما عدت خائباً من أجواء المطلق وذهبت لاجئاً إلى البيت المادي وجدت أيضاً تعداداً واتساعاً وشمولاً مما يقصر عن الإحاطة به أي كتاب أو كتابة.

لذلك ولأنَّ وطني سورية ولأنَّ بعض أقطار أمتي يتعرضون لهجمة شرسة باسم الدين يقتلون، ويصلبون، يمثل بهم، وتُقتطع منهم القلوب والأكباد خصصت ما تبقى من هذا المقال للبحث الحيادي العلمي عن الدين.

إذ تقوم هذه الجائحة بما تقوم به دفاعاً عنه وعوداً به إلى واحته الأخلاقية الأولى كما تدعي وتزعم.

الأصل القاموسي لكلمة الدين

انطلقت هذه الكلمة من (الدّيْن) أي الإقراض.

فالمقرض هنا هو الله والمقترض هو الإنسان والمخلوقات كافة ولكن من بين جميع المقترضين وجب الوفاء وجوباً دينياً على الإنسان

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات٥١/٥٦)

«يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً...» (النور٢٤/٥٥)

وثمة فرق كبير:

- بيـن إقراض الله للإنسان والاستيفاء منه.

- وبيـن إقراض الإنسـان للإنسـان واستيفائه.

فالله أقرض:

(الحيـاة والجمـال والفكـر والصحة ومكارم الأخلاق).

وحـدد استيفاء قروضـه تحديداً بقوله ((إلاّ ليعبدون) أي ليعترفوا ويقرّوا.

أمَّا قرض الإنسان للإنسان فإنه ينطفئ بالوفاء أو تقديم المقابل فالدَّين، أي الإقراض هو المصدر وأنشطته كافه هي إنسانية.

أمَّـا الدين الـذي هو اسـم مشتق من مصدره فنشاطه في الحياة وهو في جوهره علاقـة بين الخالـق والمخلوقات وأخصها الإنسان

هو في مجمله:

- دعوة إلى الله والإقرار بالعبودية له.

- وحض علـى التصـرف الحسـن مـع الغير أيا كان جنسه ومذهبه وانتماؤه وذلك لأنَّ الله هو المبدئ والمعبد وإليه المعاد.

ولأنَّ الديـن يرسم حـدوداً واضحة بين المحـدود واللامحـدود ولأنَّـه -أي الدين يرسم للإنسان صراطـاً مستقيماً لا يتسنى للمادة.

ولأنَّـه - يبعث فـي الإنسـان توقاً إلى الكمال عـن طريق التصـرف الأحسن من قول وعمل...

والديانات:

إذ تعددت «اتفقت» و«اختلفت»

اتفقت فـي الوحدانية إذ جميعها تؤمن بأن الله هو الخالق وهو الديّان.

واختلفت فـي التعليل والتسبيب فقامت لدى كل منها ممارسـات وعادات وعبادات وحـركات ميزتها عن غيرها نقول (ميزتها) ولا نقـول (فضّلتهـا) «**إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**» (آل عمران ٣/٧٣)

وبما أن هذا البحـث لا يستطيع تقديم نبذه عن جميع الأديان فقد اكتفى بأوسعها وأكثرهـا انتشـاراً بيـن الأمـم «البوذيـة والمسيحية والإسلام»

فالبوذية:

أسسهـا الحكيـم الهندي بـوذا[٣] ضد البراهماتيـة التي كانت سائـدة في الهند حيث قامت على الزهد المطلق للوصول إلى النيرفانا التي هي التوق إلى اللانهائي.

تحدث عنها طاغور[٤] بالرمز فقال:

((إنَّ حياة الإنسان والكون حقيقة كبرى مبدأ وحدة الوجود ليس فكرة فلسفية بقدر ما هو غرض الحياة، إنَّ عظمـة الإنسان ليست في تملكـه لقوى الطبيعة بل في قوة اتحاده بها لأنه اتحادٌ بالله الذي يتراءى في كل شيء في الأبهى كالنور والبستان والوجه الصبوح وفي الأخسّ كالحيوان والهوام)).

(انتهى كلام طاغور)

ثم المسيحية:

التي ولدت في فلسطين وانتشرت منها فقد انفردت بما يلي:

- كانت فلسطين من البلدان التي وقعت تحت الحكم الروماني.

ولم تكن الإمبراطورية الرومانية تسمح أن يقوم أي تشريع أو تنظيم أو عمل إداري غير ما صنع في روما.

لذلك خلا تاريخ الدعوة المسيحية من القوانين والأنظمة الاجتماعية وطبق كرهاً أو اقتناعاً قوانين روما وأنظمتها.

هذا الحظر الحديدي هو الذي جعل السيد المسيح يتجاوزه ويقول:

«مملكتي ليست في هذه الأرض مملكتي في السماء».

وقال لسائليه: اتركوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

- اعترافاً بهذا الواقع ركزت الدعوة المسيحية نشاطها على جمهرة الأخلاق وتربية الإنسان (عبادياً وسلوكياً) مختلفة عمَّا كان اختلافاً جوهرياً.

(الاتجاه الوحيد إلى الله والتوكل الوحيد هو عليه).

(الزهد المطلق في مفاتن الدنيا).

(التواضع الكبير فلا حر ولا عبد ولا سيد ولا مسود الكل واحد في المسيح)..

(وجوب الانشغال بنقد النفس قبل نقد الغير. أيها المغرور ترى القشة في عين أخيك ولا ترى الخشبة في عينك).

- وبالجملة:

دعت المسيحية إلى بناء الإنسان الجديد الذي يجب أن يكون أسير حب الله وأن يبقى على الدوام محدقاً في الأعلى منتظراً أن تتجسد الفضائل لتغدوَ سلوكاً عاماً يمارسه جميع الناس.

أمَّا الإسلام الذي هو آخر الأديان العالمية فقد بدأ بتعاليمه (دين وسط) في كل شيء: إذ تعددت تعاليمه الوسطية:

نادى بعدم خلع الدنيا نهائياً وأوجب عدم نسيانها حتى لو كان الواجب الديني يقضي بأن تكون الآخرة هي الغاية.

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا..» (القصص٢٨/٧٧)

- **«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ..»** (الأعراف ٣٢/٧).

- **«وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا»** (الإسراء ٢٩/١٧).

- **«يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ»** (الأعراف٧/٣١).

- **«يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ...»** (التوبة٩/٧١).

- «وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً..» (آل عمران٣/١٠٣).

- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (الحجرات٤٩/١٣)

- «وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً». (الإسراء١٧/١١٠).

- «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ • وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ» (لقمان٣١/١٨-١٩)

- كما حرم الإسلام:

(القتل) و(السرقة) و(الزنا) و(الربا) و(المثلية) و(السكر) و(الفساد في الأرض)

وكان التزامه بمضمون الوصايا لا يقل عن التزام السابقين هنا نرى من الواجب أن نفرد (الوصايا) بكلمة مختصرة هي الآتية:

الوصايا العشر التي ملأ الكون صياح اليهود بأنّها أوَّل أخلاق اجتماعية عرفها الإنسان وهي من ثمرات عقولهم وضعوها مباشرة من دون مصدر ولكن التاريخ الإنساني الذي اتفق عليه جميع المؤرخين قال:

ذلك افتراء من اليهود فقد جاءت الوصايا بحذافيرها في قانون (حمورابي) الذي اكتشفته حفريات (الشوش)[٥] سنة ١٩٠٢م المؤلف من ٢٨٥ مادة منقوشة على لوح من حجر الديوريت تنظم حياة الناس وتحمي الهدوء الاجتماعي وتلجم الفوضى.

وحمورابي بدوره كان قد أخذها عن (أورنامو) مؤسس السلالة السومرية[٦] وهما وما تركاه من تنظيم اجتماعي وتشريع وتقاليد يسبقان موسى والتوراة قروناً عديدة.[٧]

والوصايا ليست في حقيقتها سوى ضرورة أوجبتها الحاجة فلن يتم أي استقرار اجتماعي ما لم تضع السلطة روادع لتحمي المجتمع من القتل والسرقة والزنى والربا وشهادة الزور وغصب مال الغير واحترام الوالدين.

فالمجتمع السومري الذي امتد على مساحات جغرافية واسعة ألزمته الضرورة بوضع الروادع التي تحمي المجتمع فكانت الوصايا إبداعا سومرياً دفعت إليه الحاجة الاجتماعية.

وبعدما حل الأكاديون في الجغرافية السومرية وأضافوا إليها عدداً من المناطق حافظوا على قوانين السومريين الاجتماعية التي كان من أهمها مضامين الوصايا.

على كل حال.

ففي جميع الأنظمة التي مورست سواء ما سلف منها وما حضر كان النشاط في

سبيـل التفوق هو أقـوى الأنشطة وبالتالي أكثر الأفكار انتشاراً في الحياة هذا الدافع هـو الجد النسبي لما حصل من تسابق إلى الثـروة والجاه فصار مبـرر قتل عمرو بيد زيد هو تنظيف الطريق من عمرو.

- وهـو الذي دفـع الإنسـان لامتطاء الشراسة الاجتماعية.

- وهـو القلـق الدافع دومـاً إلى سبق الآخرين.

- هو الطمـوح المستمر إلـى الجديد الذي لم ولن يقع في أيّة يد.

- هو محاولة إلى أن نصير ما نريد وليس ما أريد لنا سواء اكتسح النشاط جميع ما في المجتمع من القواعد القانونية والدستورية وحتى الدينية.

هـذا في الواقع حقيقـة ولكنها تترافق مـع الحيرة التي تمسك النفس فتمنعها عن الحركة.

قـال القرآن: «**لَقَـدْ خَلَقْنَـا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**» (التين٩٥/٤).

والعهـد القديم قـال: «**يـوم خلـق الله الإنسـان عملـه علـى شبـه الله، ذكـراً وأنثى خلقـه وباركـه ودعـا اسمـه آدم يـوم خلقـه**» (تكوين ٥/١-٢)

فـإن كان الإنسان علـى شبه الله وكان الله خلقه فـي أحسن تقويـم فكيف امتلأ بالنواقص التـي حتمت على أولي الأمر أن يضعوا العديد الشديد من الزواجر والروادع للحماية منها مثل (الوصايا)

إن افترضنا أن خالـق الفوضى والآثام الأخلاقية هو الشيطان فذلك إقرار بوجود قوة خالقة غير قـوة الله قوة معاكسة لقوة الله وإرادتـه قـوة تناهض الخيـر ودائمة التحدي له.

فالقتـل والغضـب والكـره والسرقـة والزنا والغصـب والاغتصاب وشهادة الزور والنميمة وسواهـا جميعها وما شابهها ضدٌّ صارخ لإرادة الله وخلقِهِ ومخلوقاته.

نعم:

هي حيرة تفترسنا وتعجزنا عن الجواب لذلك:

نقر بالعجز ونتشبـث بالإيمان الذي لا يتطلب غيـر التسليم ونبقى علـى قناعتنا بـأن الله (له في خلقه شؤون) «**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**» (الأنبياء ٢١/٢٣).

وقناعتنا أيضاً بأنَّ هذه الكهوف الملأى بالآفاق الفكرية سوف تبقى إلى ما شاء الله مرهقة الكواهـل بأكداس الوصايا والألواح والتعلق بها نصوصـا وشروحا وتفاسير مع أن الجميـع ذرية آدم الـذي خلقه الله على شبهـه وفـي أحسـن تقويم وسـوف تبقى ثرثرتنا بالفلسفـة والشعر وتلال النظريات والمعـارف مجاهدات يائسـة لطي الحيرة وامتلاك الحقيقة.

وبعد:

فإنَّ ما تقدم من الانسياح في عوالم الافتراضات وجماهير الأدوية الأخلاقية والعقائدية التي حقنت بها المجتمعات لم تزد أكثر من أنها أحدثت ثقوباً صغيرة في الجدار الاجتماعي الدامس الذي عزل و- ما زال-يعزل أمتنا عن عالم الحضارة

إننا نعاني:

تقول أكثريتنا: ليتنا لم نلد في هذا الزمان هذا الزمان سلب منا حرية القول والعمل وأخرس أفكارنا وأرهق اقتصادنا نعم: إننا نعاني ولكن هذا التمني هذه (اللّيتنا) هروب من الواقع أي هو في جوهره جبن واستخذاء شتان بين موقف الأكثرية وبين موقف ناظم حكمت(8) الذي واجه ظروفاً مماثلة فكان جوابه كما يلي:

«سألني أحدهم قائلاً: يا عزيزي هل تريد أن تنام لتستيقظ بعد مئة عام؟

قلت: كلا فما أنا بهارب ثم إني لا أشعر بأدنى خوف من عصري. عصري المسكين الذي يحمّر من الخجل عصري الجريء وعصر الأبطال.

أنا لم آسف قط على أنني ولدت باكراً وإني لفخور بأن أعيش اليوم في القرن العشرين».

هذه كلمات كبرى صدرت عن قلب كبير أبى أن يخفق إلاَّ بحب الإنسانية...

السياط التي انهالت عليه كأنها الأفاعي

الوجوه كأنها وجوه زبانية الجحيم

الزنزانة كأنها عتمة القبر

حيطان السجن وقد لطختها بقع من دماء الأحرار والقاووش الذي تناثرت فوق أرضه أظافر المناضلين التي اقتلع معها الجلادون بعضاً من لحوم الأنامل كل هذا لم يخمد كبرياء ناظم حكمت ولا أن يسكت قلبه عن الخفقان في حب الوطن.

لقد أعلن بعد أن قضى في عذاب السجن اثني عشر عاماً أنه لا يشعر بالخوف من العصر وأنه صامد حتى النهاية.

هو وإن كان الألم يرعاه على العصر المسكين واثق ثقة راسخة أن الشفق قد احمّر خده وأن موعد انبثاق الفجر لم يعد بعيداً.

نحن العرب

نعيش في مثل الظلمة الزنزانية التي عاش فيها ناظم حكمت ولكن بدلاً من الإيمان الذي ملأ مزاميره (انقلبنا على الأعقاب).

- فمنا من كسر سلاح الوحدة وخلع دروعها وتقوقع تحت سقف الأجنبي راضياً أن يكون منه بمثابة الذيل من مؤخرة صاحبه

يعيش بتخطيطه ويتسقط فتات موائده السياسية

- ومنَّا من تنحى ونأى بنفسه مكتفيا برجعها مردداً قول الشاعر:

حب السلامة يثني همّ صاحبه

عن المعالي ويغري المرء بالكسل

- ومنّا وهم الأقلية المجاهدون الصابرون المرابطون القائلون مقالة

ناظم حكمت المقتنعون بعقيدته المرددون معه قول الشاعر:

إذا لم يكن غير الأسنة مركبا

فما حيلة المضطر إلا ركوبها

هذه في حالة الأقلية تعقد الآمال

هؤلاء يقولون دوماً: صبراً يا أخوتي، فما من شتاء إلا يليه ربيع، يصب الشتاء جام غضبه على الطبيعة وما فيها يريد أن يوقف الزمن عن المسير ولكن شمس الربيع سوف تنبثق جهيرة لتبدد كراريس الظلام وتملأ بالنشوة والنشاط أحياء الكون التي كانت متقوقعة في البيوت والأوكار والأوجرة هرباً من بروق الشتاء ورعوده وأمطاره وثلوجه.

البيوت في الربيع تفتح أبوابها للأطفال.

الطيور في الربيع تحلق في الأجواء والنحل يدندن والبراعم تتفتح وتنشر الطيب.

الأرض في الربيع تنفض يُبس الشتاء وعبوسه وتكتسي أزهى الأثواب وتتلون بأبهى الألوان.

هذه هي هوية الربيع التي تعبّر تعبيراً شاملاً عن شخصه.

وليس ذلك القمطرير[٩] الذي ما زال يملأ حياتنا بالغزاة والأفكار والمنكرات.

وصفوا مانحن فيه بالربيع الثاني-

هذا الوصف هو سخرية واستهزاء.

أي ربيع هذا والوطن يمتلئ بالغزاة القادمين من جميع الجهات.

غزو استكباري عالمي لم تسلم منه غير الأقطار التي اختبأت في جيب الاستعمار من ثمانين بلداً قدموا إلينا.

ذقون غزيرة وألسنة مريرة ونفوس طافحة بالحقد.

يزعمون أنهم مسلمون وأنهم الورثة الحقيقيون للإسلام وأنهم يقومون بما يقومون به وفاءً للنسب وانتشالاً له من مستنقع العار الذي وقع فيه منذ قرون.

يذبحون العشرات تحت سقف «الله أكبر» «سبحان من حللك على الذبح» يغتصبون النساء تحت سقف «الله أكبر»، ينسبون إلى الإسلام ماليس في الإسلام أبداً «جهاد النكاح» و«ختان النساء» يحتلّون بيوت الناس ويطردونهم منها تحت سقف «الله أكبر» يهدمون المساجد والكنائس ويمثلون بالناس تحت سقف «الله أكبر» يوزعون الكفر والإيمان على الناس وفقاً لغاياتهم السياسية.

أجمع المؤرخون على أن هنداً ابنة عتبة زوجة أبي سفيان حملت بعد معركة أُحد صفة «آكلة الأكباد» لقد ألبسوها هذه الصفة

لأنها جثمت على صدر الشهيد حمزة وشقت صدره واقتلعت كبده وصارت تنهش منها، كانت حادثة وحشية لم تسبقها سابقة ولم تلحقها لاحقة حتى رأينا على التلفاز أحفاد هند بالعشرات يشقون الصدور ويقتلعون القلوب والأكباد ويمضغونها.

أيها المخططئون:

– إنه احتضان جميع المواطنين من دون تفريق من حق الوطن.

بل من واجبه.

ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أوّل من وضع أساس المواطنية الحقة حينما وصل إلى المدينة مهاجراً وكانت المدينة تضم آنذاك (مهاجرين) و(أنصارا) و(نصارى) و(يهود)

فقال في الوثيقة التي كتبها (وثيقة المدينة)

«المدينة حلال لأهلها وحرام على غيرهم».

للنصارى واليهود من الحقوق مثل ما للمسلمين.

وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين.

ومن المبدأ القرآني العظيم (لاَ إِكْرَاهَ فِي) كتب في الوثيقة التي سلمت إلى أساقفة نجران:

«لنجران وحاشيتها عهد الله وذمة رسوله محمد لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا كاهن عن كهانته ولا يحجرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش».

– ثم وهو الأدهى ما رأيناه على التلفاز وما نراه وما نسمعه من تصاريحكم وأقوالكم

– فقد زرع الشكوك في كل صدر وأحزن كل قلب على ما لاقاه وما يلاقيه الإسلام من تقديم صورة سوداء عنه لكل الناس فقد استقرت قناعة الجميع على أن ما صدر عنكم وما يصدر لا يعبر عن الوجه الحقيقي للإسلام إن ما يراه الناس من المنكرات كل يوم أقنعهم أن ذلك ليس من الإسلام في شيء بل هو ضد الأخلاق الإسلامية

و عبثاً تحاولون فالقرآن شديد الوضوح والتأكيد حين قال:

«**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**» (البقرة ٢/٢٥٦).

«**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ...**» (الكهف ١٨/٢٩)

«**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ...**» (الطور٥٢/٢١)

«**وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ..**» (الأنعام٦/١٠٨)

«**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**» (يونس١٠/٩٩).

أيُّها المخطئون

كيف سمحتم لخناجركم أن تبقر البطون وتقتلـع القلوب والأكبـاد ولصواريخكم أن تهـدم المساجد والكنائـس على عباد الله وتقصف المشافي على أطبائها وممرضيها ومرضاها.

والجامعـات والمدارس علـى رؤوس المعلمين والمتعلمين.

والبيوت على سكانها مـن شيوخ ونساء وأطفال.

والبنيـة التحتية التـي تستمر بها حياة المواطنين.

هل عرفتـم معرفة مانعـة للجهالة أن جميـع القتلـى والمشوهين ينطـوون على قلوب غير مؤمنة؟

من فوضكـم بالتصفيـة الدامية والله يقول:

«**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى**[10] **وَالْمَجُوسَ**[11] **وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**» (الحج ١٧/٢٢).

أي إنَّ التصفية هي في يد الله وذلك يتم يوم القيامة إذ فـي ذلك اليوم تبيض وجوه وتسود وجوه. أيُّها المخطئون لا أستطيع أن أقف تجاه تصرفكم بغير الآتي:

وهو إنني التزمت حينما أرى صعبا دينياً أو أخلاقيـاً أن أنجو بنفسي وأقول «**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**» (آل عمران ١٧٣/٣)

الهوامش

١- «**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**» (العنكبوت ٦٤/٢٩).

قال الطبرسي: معنى الحيوان هي الحياة الدائمة.

٢- برغسـون فيلسوف فرنسي عاش ١٨٥٩-١٩٤١م) دافع عن الروحانية ضد المادية تأثر به أدباء عصره له مؤلفات فلسفية عديدة منها (محاولة درس أوضاع المجتمع. والمادة والذاكرة. والتطور والمبدع).

٣- بـوذا حكيم هندي أسس البوذية على الزهد المطلق للوصول إلى (النيرفانا) أي الفناء التام قامت البوذية فـي القرن الخامس قبل الميلاد ضـد (البراهماتية) التي كان قد أسسهـا براهما مع شيفا وفشنو حيث حملوا في الهند اسم الثالوث الهندوسي.

٤- طاغـور أو رابندراتـا: شاعـر هندي من أعـلام الآداب العالمية امتاز شعره بالتديّـن عاش بين (١٨٦٠-١٩٤١م). (مرت شخصيته سابقاً).

٥- حمورابي أشهر ملوك الدولة البابلية عاش بين (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م). والشوش أو السوس هي موقع أثري في إيـران بخوزستان كانت عاصمة العيلاميين دمرها آشوربانيبال سنة ٦٤٠ق.م وفي عهد الإخمينيين كانت لدارا الفارسي.

٦- أورنامو مؤسس السلالة السومرية عاش بين ٢١٢٤-٢١٠٧ق.م والسومريون شعب إيراني استوطن ما بين النهرين كمجموعات بشرية حتى أسس السلالة فيها أورنامو.

٧- موسى في القرن الثالث عشر ق.م كانت حياته حيث توفي في١٢٥٠ق.م.

٨- ناظم حكمت كاتب تركي ذو نفحة دينية عاش بين ١٩٠٢ - ١٩٦٣م، نعتذر عن تكرار استعادة قول ناظم حكمت في مقال آخر.

٩- قمطرير الصعب الشديد وقيل الذي يقلص الوجوه ويقبض الحياة وما بين الأوعية وقد جاءت هذه الكلمة في القرآن ليصف يوم الحساب «**إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً**» (الإنسان ٧٦/١٠).

العربية وعصور العلم

د. صلاح الدين يونس ❋



كثيرة هي التساؤلات التي تطرح من طبيعة العصر حول «العربية» وعلاقتها بالمشكلة العلمية ويكاد السؤال الحيادي يحصر الإجابة في «التجريب» بدءاً من القرن السابع عشر، وما التجريب - عند تفكيكه كمصطلح تجاوز فضاءات اللغات

❋ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

- إلا «النزعية المادية» على أنَّها حصيلة تأثير أشياء العالم الخارجي وظواهره على حواس الإنسان، ولكن هذه النزعة تجلّت على أشدها في عصر ولادة العلاقات الرأسمالية وتشكل العلوم الطبيعية المعاصرة، وذلك لدى فرنسيس بيكون ١٦٢٦م- وجان لوك ١٧٠٤م ومادية القرن الثامن عشر الفرنسية»[1] وكان لهذه النزعة بالغ الأثر في الانفجار المعرفي الذي حصل في القرنين التاليين لها؛ ففي القرن الثامن عشر تطورت العلوم الفيزيائية والبيولوجية، وفي القرن التاسع عشر تقدمت العقلية الصناعية لتربط بين الكشف العلمي وإمكانيات التحقق المادي، وكان « للتجريبية» أثرها الآخر، وهو إقصاء الذهنية السكونية للعصور الوسطى ومواجهة «اللاهوت» كمنظومة معيقة للتقدّم التاريخي، أما التساؤل المركزي الحيادي فيختزل بقولنا: هل لغتنا لغة لعصرنا؟ وينبثق منه تساؤل لازم مؤداه: ما طبيعة عصرنا؟ وكأن طبيعة عربيتنا لم تأت عليها الأزمنة المتخالفة، ولم تداهمها طبائع الحداثة بدءاً من التأسيسات الكبرى للحداثة، ونعني بها تجريبية بيكون ونيوتن ومنهجية داروين وفرويد حتى نصل بما «نعنيه» الكشف الفضائي وثورة الاتصالات وما نتج عنها من سماوات مفتوحة.

وإذا كنا قد تساءلنا عن طبيعة العصر وعن طبيعة اللغة، فإن التساؤل لازم عن طبيعتنا كأمة لزوم النتائج عن المقدمات؛ وكأننا نقيم علاقة تعارضية بين اللغة وبين أصحابها... فقد لا يكون التعارض قائماً، ولكن التماثل والتماهي غير قائمين أيضاً، وقد يحلو لمن يعتقد بـ «كمالية» العربية أن يرى في العصر ومعاصريه «المشكلة»، نائياً باللغة عن النقد وإعادة النظر ويحلو على الطرف المقابل - لمن يرى في التغيير سمة العصر الواسمة وديدنه المفروض على اللغة والأشكال والمعاني، فـ «العلم» لم يعد شأناً لغوياً، منذ القرن السابع عشر، ولم يعد شأناً في علوم الإنسان وحسب، وإنما احتوى مصطلح «العلم مفردات كلية»، لكنه فرض عليها سمتين هما: التجريب واللانهائية... ومن هنا ينتقل «العلم» من المعرفة الكلية الكاملة إلى «المتكاملة» وأهم مفرداته «الرياضيات، الفيزياء، الأحياء،» وقد أطلق على هذه «العلوم الدقيقة» ولأنها لا تقبل الترجيح والظن والهوى سميت كذلك، وفي الجانب الآخر حوى«العلم» حقولاً معرفية أخرى دعيت بـ «التطبيقية» وأهمها علم الاجتماع، الاقتصاد، الزراعة، التربية... وفي كل حقل من هذه وتلك تنبثق الفروع، ثم تتنامى تحت تأثير الحاجة، وتحت شرط القلق الباعث نحو التقدم فتغدو أصلاً له فروعه، وشاهد هذا «الاستنساخ» فقد انفصل عن علم البيولوجيا، ليؤسس لنفسه أصلاً في العصر قائماً، ومن قبل الاستنساخ انفصل

علم التربية عن علم النفس، وغدا عالماً جديداً يغزو المدارس والأكاديميات ، وشاهد هذا «السلوكية» في ضبطها لسلوك المتعلم ضبطاً آلياً يمكن التحكم من خلاله بعملية التلقي، فتغدو النتائج في ميدان «التعلم» مقاربة في الدّقة للعلوم الدقيقة.

ومنذ «الفتح» الدارويني ١٨٠٩-١٨٨٢م» والفوارق بين العلوم تتكسر من دون أن تلغى، والانكسار حدث بفعل المنهج، والفتح الدارويني أمدّ علمي التاريخ واللغة بالمنهج وبالمصطلح بعد ركود دام حقبة العصر الوسيط كلها على الأرجح منذ عام ٤٧٦ إلى ١٤٥٣م وعلى هذا الأساس أخذ التجريب «يواجه الفلسفة على قاعدة «التغيير» طبيعته وهدفه» ولكن التواصل بين طبيعة المجتمع وطبائع العلم ليس مطرداً، فالتواصل قد يصل حدّ التفاضل ويبلغ حدود التفاصل.

ولم تقف «الداروينية» عند الحدود البيولوجية، فمنذ أن كتب داروين أصل الأنواع ١٨٥٩م وآثارها تمتد إلى الفلسفة وميادين المعرفة الأخرى، فقد داهم كثيراً من القناعات «اللاهوتية» عندما تساءل عن الاعتقاد في الخلق الخاص بكل نوع، ثم تقدم ببياناته عن تطور الأشكال الحية جميعها، فخلص إلى أن هناك كفاحاً من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد، وأكد وجود تغير فردي في داخل النوع، والمعيار في البقاء هو الملاءمة... على أساس «الانتخاب الطبيعي»... إن الفرد في تكوينه يعيد تاريخ تكوين الجماعات التي ينتمي إليها.[٢]

ولم يصل داروين إلى هذه الآراء إلا تحت شرطين: الأول هو الرحلة الكشفية الفردية التي قام بها لمدة خمس سنوات في البحار على متن الباخرة البحثية «بيجل»، ومن الشعاب المرجانية ابتداً ، ثم انتقل إلى أصل الإنسان وفكرة الانتخاب بالنسبة للجنس ١٨٧٧م، ثم انتقل إلى التنوع النباتي والحيواني تحت الاستئناس ١٨٦٧، والشرط الثاني هو إفادته من المناخ السائد في القرن السابع عشر باتجاهيه: الفيزيائي البيكوني والفلسفي السبينوزي، والمناخ نفسه متواصل من المرحلة اليونانية في بعض من أصوله، فقد قرأ داروين آراء هيروقليطس ٤٧٥ق.م في الأصول والتغير» فالعالم كان أبداً وهو الآن وسيكون ناراً حية أبدية، فالنار هي المبدأ الأساسي والتغيّر هو القانون الأبدي فليس لشيء ما صفات الثبات على حال... إذا ما استمعتم إلى صوت الحق لا إليّ، فإنه من الحكمة أن تعترفوا بوحدة الوجود.[٣]

الشعوبية والهوية:

لم تعرف العربية مشكلة الهوية إلا بعد مرحلة التدوين، بدايةً عهد عثمان بن عفان ومتابعة عهد معاوية ٦٦١-٦٨٠م حيث استهلكت القرن الهجري الأول كله، والتي نشأ تأسيساً عليها العصر البغدادي، وهو عصر الفكر العربي الوسيط، وما كانت الهوية لتعني كما تعنيه اليوم، فقد فارقت الكلمة الأطر

اللغويــة، لتغدو مصطلحاً دالاً على جملة من المفاهيـم تبدأ من «اللغــة» كخاصية فارقة، ولكنهــا تمضي نحو تخوم الحضارة والثقافة والاقتصاد والسياسة.

وفي العصــر العربي الوسيط، أو العصر البغــدادي اختصــاراً، ظهــرت المشكلــة «الهوية»، علــى أساس من التنازع بين أعراق دولة الخلافــة المركزية في بغداد، فالعربية لغة «الوحي» و لغــة «النبوّة» وبالاستتباع لغة القرآن والحديث، وأمَّا الأعراق الأخرى فقد حملـت معها معارفها فــي الحضارة والفكر والتفلسف على ألسنة «النخبة» طبعاً، وحينها أقرّت تلك الأقوام بالحــال الراهنة وهي أن «العربية» مكرمة باختيــار السماء لها، ولكن التكريـم السماوي للعربيــة لا ينسحب على العرق العربي بوصفه العــرق الأقل تاريخية في مسألة الحضــارة والمدنية، وكانت هذه المشكلــة الشغــل الشاغــل للمتنازعين على امتلاك الحضــارة الجديدة، والبادرة الباكرة من ابــن المقفــع ٧٥٩م، عندمــا دعا قومه للتمســك بلغتهم وعدم تركهــا، وقد جاء في وصايــاه غيــر المباشرة لأبنــاء قومه: وأنك تركــت لسانك الذي طبعت عليه وأقبلت على لسان العبرانية، وهــو لا يشاكلك وأخاف ألا تدركه، وتنسى لسانك، وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لساناً فإنَّه قد قيل إنه يعد جاهلاً من تكلف من الأمور ما لا يشاكله، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل».(٤)

ولم يكن ابــن المقفع مباشــراً ليقع في «المباشــرة»، لكنه كنــى بالعبرانية ويقصد العربية، وعلى الرغــم من الوضعية الثقافية لابــن المقفع إلا أنه لــم ينس أصله ولا لغته، وأمــا مشاركته العلمية في المفاعلة الثقافية لعصره فهــي مشاركة النخبــي الذي يعرف ثنائية الخروج والانتمــاء، وثمة نخبٌ عديدة شاركــت في المنازعــة الشعوبية في مجتمع دولــة الخلافة، ويعد أبــو الريحان البيروني ت١٠٤٨ ذو الأصــل الفارســي مــن أهمهم، حيــث أسفر إلى الهند، درســ اللغة السائدة المركزيــة، أقام فتــرة طويلــة خوّلته قراءة العوالــم الهندية فتعــددت اهتماماته، فغدا مؤرخــاً فلكياً متصوفاً رياضيــاً أديباً، كغيره مــن نخبويي العصر الوسيط مذكراً بالكندي ٧٩٦-٨٧٣، وقد كتب في كل مجال عملاً أثبت فيه خصوصيته، ومــن أهمها: الآثار الباقية عن القرون الخالية، تاريخ الهند، شرح ديوان أبــي تمام، مختار الأشعــار والآثار. ثم كتب» المراسلات» مع ابن سينا، وفيها حوار حول الصوفيــة والفلسفة، كتب هــذه وتلك بمنهج دقيــق شمولي، ولم ينســ اهتمامه بالهندسة فاستخرج محيط الأرض «قانون البيروني» ثم وضع قانون تعيين الكثافة النوعية للمعادن، ثم وضع قانــون تثليث الزاوية..(٥) كل هذا جعله يعلن إيمانه بالفلسفة العملية، وعلى الرغم مما هو عليه لم ينسَ أن ينتقد «العربية» والهندية انتقاداً، لا يخلو من النزاع الأممي القائم حول

خصوصيــة كل أمة، قبل أن تشكل تلك الأمم ما عرف حينهــا وما يعرف اليــوم بـ «الأمة الإسلامية» وهــذا المصطلح كما نرى زائف بالاعتباريــن: التاريخــي والاصطلاحي، أما أنه زائف تاريخياً فلأن الأعراق الداخلة في تركيب دولة الخلافة لم تشكل «أمة» واحدة، وإنما شكّلــت إمبراطورية متعــددة الأعراق واللغات والثقافات، وفي المراحل التي بدأت الخلافة المركزية في بغداد تتداعى تشكلت دويــلات على هامش الدولــة المركزية حتى غدت مدعــوة بـ «الدول المتتابعــة» وأما أن مفهــوم «الأمة الإسلاميــة» زائف بالاعتبار الاصطلاحــي فلأن مفهوم الأمــة اتخذ في سياق تاريخي متواصل الوضعية غير الدينية، وقد وردت في لغــة القرآن الكريم في ستين موضعاً مفردةً، ووردت فــي عشرين موضعاً آخــراً متضايفةً، والنبي محمــد (صلى الله عليــه وسلم) بعــد أن سيطر علــى المدينة حصر الأمة في أتباعــه حصراً مخصوصاً، (آل عمران ٣-١٠٤-١١٠)، وبعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى اتســع المصطلح لتشمل القبائل العربية كلها والشعوب التي انتمت إلى الإسلام، أي صار الجميع في دين واحد ولغة واحدة، ويرى الراغــب الأصفهاني ت٥٠٢هـ فــي كتابه مفردات ألفاظ القــرآن أن «الأمة كل جماعــة جمعها عنصر مــا مثل الدين أو الزمان أو المكان». ولم يستقر مصطلح الأمة إلا بعد نهوض البرجوازية الأوروبية وتشكيلها لمفهوم الدولة في القرنين الأخيرين.

يقــول البيروني في معرضــ حديثه عن الهنــود، وهــو يقيســ العرب عليهــم قياساً مضمراً «فإنَّهم يسمون الشيء بأسماء كثيرة جداً، والمثــال بالشمس، فإنهم سموها بألف اسم على مــا ذكروا كتسميــة العرب للأسد بقريــب من ذلك بعضهــا مقتضبة اقتضابا، وبعضها مشتقة مــن الأحوال المتغايرة فيه، أو الأفعــال الصــادرة... وهم ومــن شابههم يتبجحــون بذلك، وهــو من أعظــم معايب اللغــة... إذا كان للشيء الواحد أسماء كثيرة ولــم يكن سبب ذلك استبداد كل قبيلة بواحد منهــا. وكان في الواحد فيهــا كفاية اتصفت الباقية بالهمــر والهذيان والهــذر... وصار سبــب التعمية والإخفاء لحفــظ الجملة بلا فائدة غير ضياع العمر».(٦)

لا يخلــو كما هو واضح من النص السابق - كلام البيروني من أمرين: الأول هو المعرفة العلميــة الناتجــة عــن المعرفــة التاريخية والاجتماعية للأمم الشرقية، بما هي متواصلة وبما هي متفاصلــة، والثاني هو الخروج من سحــر «العربية» الذي غالى فيه العرب كأمة مركزية فــي وجه شعوب الدولة الخلاقة ولم يكن العرب يتقبلون «الأعاجم» تقبلاً عضوياً، فقــد تقبلوهم كعناصر مشاركة، وعلى الرغم من جهــود النخــب الأعجمية لــم يحققوا انتمــاء «العضونة» وهنــا نتفهم زيف «الأمة الإسلامية» ويروي صاحب العقد الفريد: أن

أبا نواس «٧٥٧-٨١٤» هجا أشجع بن عمرو لادعائه نسباً عربياً، فقال:

وقل لمن يدّعي سليمى سفاهاً
لست فيها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سليمى كواو
ألحقت في الهجاء ظلماً بعمرو[٧]

ولم يكن أبو نواس لينتمي إلى العرب بشكل عفوي أو فطري، وإنما رادَ مشروع الخروج على «البداوة»، ودعا إلى الالتحاق بالنظام الحضري، الذي وجده مشخصاً في النموذج الفارسي:

فهذا العيش لا خيم البوادي
وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى
وأين من الميادين الزروبُ؟[٨]

وأمَّا بشار بن برد (٧١٤-٧٨٤م) فلم يتقبل الانتماء إلى «العرب» وعندما قيل له: ما للموالي والشعر انتفض وهجا العرب جميعاً، يقول مخاطباً الرجل ويهجو أمته:[٩]

أحين كسيت بعد العري خزّاً
ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا بن راعية وراع
بني الأحرار حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح
شركت الكلب في ولغ الإطار
تريع بخطبه كسر الموالي
وينسيك المكارم صيد فار

ومما هو واضح اتساع الفارق بين الشاعر والناثر، فقد رأينا كيف أدار البيروني الحديث عن الهند والعرب وغيرهم من أمم الشرق إدارة يغلب عليها الجدل والإقناع، في حين يظهر من شعر بشار الانفعال والمباشرة، ويروي ياقوت الحموي ١٢٢٨م: أن الجاحظ ٧٧٥- ٨٦٨ كان يسخر من بعض من ادعى نسباً في العرب، فقال: «كان يأتيني رجل فصيح من العجم، فقلت له. هذه الفصاحة وهذا البيان لو داعيته في قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها».[١٠]

ولم تكن سخرية الجاحظ ببعيدة عن هجاء الشعراء فقد غادر موقعه كمؤلف موسوعي في المفاخرة بين العرب والفرس إلى موقع الشعراء.

أمَّا ابن خلدون ١٣٣٣-١٤٠٦م فقد سوَّغ انتشار العربية وإقصاءها اللغات الأخرى بارتباط العربية بالشريعة، متغافلاً عن اختلاف اللغات في البنية النحوية وتباينها بين مرحلة وأخرى، يقول: «إنَّ لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها، لذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية، وإن كان اللسان المضري قد فسدت ملكته وتغيّر إعرابه، والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغالب على الأمم، والدين والملّة صورة للوجود والملك، وكلها مواد له، والصورة مقدمة على المادة، والدين، إنَّما يستفاد من الشريعة وهي بلسان

العــرب، كما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) عربي فوجد هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها».[11]

وانسجامــا مع طبيعته يســوّغ ابن خلدون الظاهــرة اللغويــة مــن خارجهــا، فيرى في المشروع الإسلامــي وضعية تاريخية لا تخرج عن فكــرة النزاع بين الأقويــاء، إلا أنّ الأقوى يفرضــ على «المزاج» مشروعه بصرف النظر عــن طبيعة لغته أو مشروعيــة مشروعه، لكنّ للتاريخ منطقــاً لا يقبل التوافق مع منطق ابن خلدون، فالإمبراطوريــة الرومانية غالبة على «اليونانيــة» لكن اليونان غلبــت الروم بعلومها ونظمهــا، فالغلبة العسكريــة لا تستتبع الغلبة الأخرى، ونذكّر بأن الأتراك غلبوا الشام ومصر بالقــوة العسكرية التي أفصحــت عن مشروع إمبراطوري عثماني، لكــنّ «العثمانية» هُزِمَتْ لغتها التركية أمــام «العربية»، ويعود ذاك إلى عامليــن: الأوَّل يتعلق بالبنية التركيبية للعربية المتقدمــة على البنية التركيــة، والثاني يتعلق بالتاريخ الثقافي للأمتين: الشام ومصر كوحدة متكاملــة، والأتــراك كمجموعة مــن الأعراق التــي شكلت الدولة العثمانية في ظرف تراجع الإمبراطوريتين: الرومانية والفارسية.

اللغة والفكر:

ما اللغة بوعاء، وما الفكر بمحض محتوى ليتشكل فــي ذاك الوعاء، على قانون الأواني المستطرقة أو غيرها، فتشكّل الفكرة يطابق تشكل الكلمة، فكل علم، أي علم يقتضي لغة مهيّــأة ومكوّنة، ومن شــروط تقدم العلم، أي علــم نموّ البنية اللغوية نمّوا مطرداً لا يعرف السكون، فــإذا كان القــرن التاسع عشر قد شغــل بدراســة اللغــات الهندوأوروبية تحت تأثيــر الداروينية، فإنَّ القــرن العشرين بدأ يفك ارتباطــه بآليات القــرن السابق، ولعَّل المفكر اللغوي جبيــرون ١٨٥٤-١٩٢٦م كان البادئ في الدرس اللغوي على أساس العامل الجغرافي، منكراً أن تكون التغيرات الحاصلة في اللغة مماثلة لتلك التي تحدث في العالم الطبيعي، لقد أخذ العلماء ينظرون إلى اللغة على أنهــا بنية أو نظــام، عناصره المختلفة يعتمد بعضها على بعضــ، ووجود هذا مهم بالنسبــة لفهم كل من التغيــر اللغوي، واللغة من حيث هي لغــة، والدور الذي تقوم به في المجتمع.[12]

ومن البنية والنظام إلى التمييز بين اللغة والكلام، وهــي الآراء التي طلع بها فرديناند دوسوسير ويعني بتمييــزه هذا المسافة بين النظــام والاستعمال إلــى أن يصل إلى فكرة مؤداهــا «إن اللغــة ظاهــرة اجتماعية» وقد اعتمــد فيما وصــل إليه على علــم اجتماع إميــل دوركهايهــم. ودوركهايهــم نفسه كان متأثراً بماركســ، وهنا لابد من الاستنتاج أن البحث اللغوي في النصــف الأوَّل من القرن العشريــن قــد وقع تحــت تأثيــر الفلسفات الكبرى في القــرن التاسع عشر، على الرغم من محاولة هــذا العلم فــك الارتباط بتلك الفلسفــات، وليس هــذا المخاض ببعيد عن

مخاض العصر الوسيط العربي عندما تنازع كل من التفلسف والبيانية على نظرية اللغة، ولاسيما أن العصر البغدادي « من القرن الهجري الثاني إلى نهاية الخامس قد تأسس على جدل الداخل والخارج، تأسس بالعربية، وكانت العربية هوية أممية غادرت هويتها الداخلية «بداوة – عرب» إلى أممية الإسلام بأعراقه ونخبه واتساعة الجغرافي، وما كانت أممية الإسلام لتعني العقائد الشرعية، إنما بدأت منها وانتهت إلى غيرها،ولم تكن العلوم العربية وحدها بقادرة على صنع الهوية الأممية، فتلك العلوم مهما تزايدت تبقى أحادية، أمام العلوم التجريبية، فسرعان ما تتجاوز الحدود الوطنية، وذلك لصنعها السريع لمنافع البشر، ولم يكن الشعر العربي وحده بقادر هو الآخر على تركيب صورة عالمية عن العرب والعربية، إلا أن الفلسفة بالعربية قد أقالته من تلك المهمة لتضع الثقافة واللغة العربيتين في الصف المتقدم من تاريخ الفكر «إن البحث العلمي الجدلي في تاريخ الفلسفة قد أتى معتمداً في ذلك على معطيات العلوم الاقتصادية والتكنولوجيا والاجتماعية واللغوية بفهم جديد لقضية الفلسفة والعلم».[١٣]

مشكلة شيوع اللغة:

إنَّما تنتشر اللغات وتشيع خارج حدودها الجغرافية تحت شروط عدة، نرى أهمها يكمن في طبيعتها الداخلية « البنية النحوية والأخرى الصرفية» واستسهال النطق وتعدد مخارج الصوت، وسهولة الاشتقاق، وقد احتوت العربية كمّاً هائلاً من المفردات تراكمت عبر تمرحلات المجتمعات العربية وتشكيلاتها الاجتماعية، وقد تضخم قاموس العربية انسجاماً مع وحدة التطور التاريخي وتنوعه، شاهداً في الوقت ذاته على مسيرته المتصاعدة وفق طابعه القانوني، وفي المسار نفسه أخذ مشروع التفكير المعجمي يفصح عن نفسه نوعاً عبر المنهجية، ونشير هنا إلى فكرة معجم القافية التي أسس لها الفيروزأبادي ١٣٢٤-١٤١٥ لتعين الشعراء على اكتشاف حرف الروي من المهمل والضائع والممكن اشتقاقه من الشائع، وأخذ أيضاً يتزايد تلقائياً كما بإنتاج العديد المتناسخ من بعضه، إلى أن وصل حد الموسوعية على يد ابن منظور المصري١٢٣٣-١٣١١م في «لسان العرب» أمَّا في مرحلة النهضة فكان التفكير المعجمي إحدى مفردات العمل الموسوعي الذي تأخر ظهوره في متون النهضة إلى أن عززه بطرس البستاني ١٨١٩-١٨٨٣م في عمله «المحيط» مستعيداً «محيط» الفيروز أبادي، مؤسساً عليه متجاوزاً له، ثم انتقل إلى الموسوعية الفكرية وألف «دائرة المعارف» ولعل أهمية العملين تكمن في التأسيس للغة جديدة تقوم على شيوع المصطلح بعد توحيده، ومن ثمّ إشاعة روح العلم على أنقاض المرحلة العثمانية، التي زعزع أستاذيتها

نابليون مـن خلاله العلمـاء الذين صحبهم للحوار مع علماء الأزهر.

ومن عوامل شيوع اللغة «العقل التاريخي» ونعني الدور الذي قامـت به الأمة في إنتاج المعرفـة وفي المساهمات فـي الاكتشافات العلميـة، وفي لحظـة دخـول المجتمعات الإنسانيـة مرحلـة الثنائية «اليـد، الفكر» أخذ كلّ مـن الفلسفة والعلم يتوضعان بشكل مائز، لكنهما بالثنائية هذه أفصحا عن وضع اجتماعي معين، وإذا كانت الفلسفة شكلاً من أشكال الوعي الاجتماعي، فإن أشكالاً أخرى تفصح عن تطـور الذهنيـة البشرية كالعلم والفن والأخلاق والحقوق.... والإفصاح هنا وهناك تمّ بلغة منسجمة في البنية والوظيفة مع التقدم المجتمعي.

وإذا كان العقـل التاريخـي للبورجوازية الأوروبيـة يقوم على إسقـاط العالم القديم وتعميم ثقافتهـا، من خلال التوجه الليبرالي المستنير، فإن مشروع النهضة العربي أدرك أن الإحياء هو استعادة الفعل التراثي التاريخي، لكن الفـارق يكمن في اعتقـاد البورجوازية الأوروبيـة أنه لا يوجد نظـام اجتماعي فوق التاريخ، في حين كرسـت النهضوية العربية فكرة مؤداها: الأزمنة الهجرية الأولى لها من الكمال والعصمة ما يجعلها فوق التاريخ، وقد نتج عن التصوريـن المذكورين تقدم اللغات الأوروبية تحت شرطـي الحذف والاصطفاء وفـي مناخ النقد والتجريب، أما العربية فقد دخلـت عصر السكون من حيـث هي شاهد الاكتمـال، لقد أفصح الشاعر الألماني غوته ١٧٤٤-١٨٣٢م في ملحمته الشعرية» فاوست عن العقل الجدلي القادم بقوله: « أنا الروح التـي تنفي كل شيء» في حين لم تقو الأزمنة العربيـة على أن تقفز فوق الأطوار السكونية لمسيرتها.

ولم تكن « العربية» لتواجه العالم الجديد بمعطياتـه السياسيـة والثقافيـة والعلمية، وذلك لضعف الاقتصـادات العربية التي لم تنشـأ إلا تابعة للمراكز الدولية، فلقد عممت النجاحـات الاقتصادية لبريطانيا في القرن التاسـع عشـر والنصـف الأول مـن القرن العشرين والولايـات الأميركية المتحدة في النصـف الثاني من القـرن المنصرم، اللغة الإنجليزية علـى العالم كلّه، بفعل الإنجازات المتلاحقـة فـي العلم التجريبـي والفلسفة والتربية والنظم الأكاديمية، والتعميم مستمر، وتكاد الإنجليزية تكون كلّ يوم في شأن.

ولعل الإنجليزيـة الأميركية كانت العامل الراجح فـي تعزيز الإنجليزيـة بعد الحرب العالميـة الثانية ١٩٤٥م، فـي زمن تراجعت بريطانية فيه، عن اتساعها الإمبراطوري، ولم تكـن الإمبراطورية الأميركية لتقبل بالنماذج السابقة، فقد تجـاوزت الأشكال كلها، وتعد عبارة الشاعر رالف والدو إيمرسون ١٨٠٣-١٨٨٢م «آن لنـا أن نؤمرك أميـركا» شاهداً على الخصوصية الجديـدة المائزة لأميركا

حتى في اللغة نفسها، ولقد ولدت مفردات جديدة من طبيعة الحياة الواسعة الصاخبة المضطربة، لم تكن موجودة في السابق، حتى في مهد الإنجليزية الأم.

ولعلنا نستذكر مقولة طه حسين «لي علمي ولكم دينكم» التي وجهها إلى المؤسسات المصرية «دار العلوم، الأزهر، طبقة رجال الدين واللغويين» دالة على ثنائية الحراك والسكون، حراك العقل النقدي الذي بنى عليه طه حسين مشروعه، والسكون القائم على تضخم الذات والإعجاب إلى درجة الانبهار بالذات.

وتعزيزاً لمشروع طه حسين مضى الشاعر الناقد أدونيس يدفع بالحداثة الشعرية إلى الحد الأقصى، وكان يعزز الحداثة بالإنجاز النقدي «الثابت والمتحول» ١٩٧٣م فاتحة لنهاية القرن ١٩٨٠م الكتاب ١٩٩٤م -سياسة الشعر-١٩٨٥م- الصوفية والسريالية -١٩٩٢م- النص القرآني وآفاق الكتابة -١٩٩٢م- النظام والكلام -١٩٩٣م- الصوفية والسريالية ١٩٩٢م- ديوان الشعر العربي١٩٦٤-١٩٨٦م- ديوان النثر العربي ٢٠١٢م الذي تزامن مع إنجازه الشعري، وفي كلا الإنجازين يلجأ إلى التحليل المضمر وإلى إعادة التركيب بصورة مفتوحة، وفي لقاءاته الصحفية ومقالاته ومحاضراته كان يلجأ إلى تحطيم «القار» المطمئن، على أن التحطيم خطوة منهجية لإعادة الخلق، والتحطيم أبلغ من التحليل، فالتحليل يعقبه تركيب من مادته، وأما التحطيم فقد لا يترك لـ «السابق» أية بقية، لعلّ الجديد ينبثق بخصوصيته هو، غيرمتأثر بغيره.

لغة أم لغات؟ أمة أم أمم؟

شغل الدرس اللغوي بما ينبغي له أن يشغل به، كالتساوق بين التفكير والتعبير والتراث والحداثة، والنسبي والمطلق، والواقعي والميتافيزيقي، ولكن المشكلة لا تكمن في الانشغال بقدر ما تكمن في كيفية الانشغال حدوداً ومنهجاً وخلاصة، والانشغالات مستمرة، لكن الانشغال الأكبر لم يحدث وهو هل العرب أمة أم أمم؟ وبمجرد الطرح يعني أننا لم نسلم بما هو مسلم به، وأن البحث التاريخي سيعود إلى نقطة البدء، وهي كيف تكون العرب في أمة أو في دولة؟ وتحت أي شرط؟

إنَّ التكون حدث تحت الضرورة التاريخية التي اقتضت أن تستنفد «نظم البداوة، طاقاتها» في وقت صادفت فيه «المشروع الإسلامي» وهو يعلن عن مرحلة جديدة على مستويين: الأول دين توحيدي يرث الأديان ويزيحها، والثاني اجتماعي انقلابي يزيح الشخصيات التجارية والقوى التي تتحالف معها، لذا فإن استيعاب مقدمات هذا المشروع تضعنا أمام توافر إمكانية التقدم

المسبــق التخطيط لأوَّل مرة فــي الجزيرة العربية، ممــا سيهيئ المنــاخ لتطور القوى المنتجة، بمــا يتناسب وطبيعة المشروع ومع الوعي الجديــد للمستوى الشعبي الذي أخذ يفصــح عن نفسه من خــلال انضمام الجيل الثاني إلى الجيش المحمدي في وجه قريش وحليفاتها.

أمام هــذه الوضعية فإننا نرى في المعلّم اللغوي طبيعة حيــة كطبيعة الكائن البشري، بصرف النظــر عن قدرات اللغــة الشعرية، فاللغة طالما هي حية، هي ذات نماء مستمر مع الميادين البشريــة ذات النشاط الهادف، وتأسيســاً عليه، فإنَّ تحليل ظاهرة اللغة لأية أمة هــي تحليل لوتائــر النمو لهــذه الأمة، ودراسة تلك الوتائر لا تقتصر على الجوانب المادية وحسب، وإنما تشمل الجانب الثقافي أيضاً، وهذا الجانــب ينبئ عن ضرورة اللغة لتشكيــل أي كيــان ثقافــي» لا تحمــل اللغة بذاتهــا، أي ببنائها المعجمــي، ولا بنظامها الغراماطيقــي أية دلالــة أيديولوجية، فهي إذاً لا تحمــل أية دلالة طبقية، هي أداة طيّعة لكل أيديولوجية، لكل طبقــة بمستوى واحد في المجتمــع الواحد... في كل أمر مشترك بينهم».(١٤)

مهمــا كانــت العلاقــة بيــن «الشــكل» و«المضمــون» محكومة بقانــون التناسب أو التنافــر، فإنَّ لكل منهما ما يميزه عن الآخر، فالشكل أدعــى إلى البقــاء، وإن المضمون أدعى للتحول، فبقاء الشكل لزمن أطول يعني أن التناقض لم يصل بــه حد الانفصال عن مضمونه، وعند حصول الطلاق بين الطرفين يعني أن تحولاً نوعيــاً ينبثق من جديد، هذا المبــدأ يحكــم العلاقة بيــن «العربية» كلغة للشعر الجاهلــي والحياة البدويــة، والشعر الجاهلي أنتجته أمة القبائل «البداوة»، وعلى العمــوم فإن عدم التطابق التــام بين النظام القبلي والشعــر المصاحب لتلك المرحلة لا يلغي أن الشعر ناتج طبيعي عن ذاك النظام، فأشــكال الثقافــة لا تفصــح بالضرورة عن التوافق التام مع البنية الاجتماعية العامة.

ومع نمو «الإمبراطورية العباسية» أخذت العربيــة تتوســع من الداخل ليــس استجابة للتوســع الجغرافي طبعاً، وإنمــا تحت تأثير الصراعات الفكرية الجديدة ونشوء المدارس السوسيوثقافية التي وضعــت أسس النهضة الفكريــة، بدءاً من مدرسة الــرأي والحديث في العهد الراشدي، ثم نشوء حركة التدوين، ثم اندلاع النزاعــات السياسية المذهبية، ثم انطلاقة حركة الترجمة فــي عهد المأمون، ثم نشــأة علم الــكلام بمدرستيــه الأشعرية والمعتزليــة، وانبثاق مسائــل فلسفية صرف كالمسألــة الذرية ومسألة خلق القرآن، ومنها مسألة علــم الله، رؤيــة الله، مسألة الخلود ونظرية الجبر، وهــذه المسائل فرضت على العربي مستوى من الأداء لم يكن الشعر ليقوى

علــى فرضه، ثم فرضت توظيفــاً للمفردات جديــداً، لم تكن العلــوم الأخرى بقادرة على توظيفــه، ومن هنا نتفهم محاولــة أبي تمام الباكرة الارتقاء بلغــة الشعر إلى المستويات الجديدة.

وفي غمار علم الكلام بنسقيه: الأشعري والمعتزلي تنشأ مسألة خلق القرآن من حيث التزام المعتزلة مفهوماً لــ «التوحيد»: يقوم علــى التحليل العقلي المحضــ المخالف لـ «السلفيــة» مما أدى إلى دفــع الفكر العربي الإسلامي إلــى غمار الخــلاف الاجتماعي والسياســي منتقلا مــن «علم الــكلام» إلى الفلسفــة، وتعدّ مسألة وحــدة الذات الإلهية وصفاتها أساساً لمشكلة خلق القرآن، ثم نتج عنها نفــي الصفات الزائدة عن الذات، ومن خلال الصفات الواردة في « النص»تم التفكير العقلي من دون نفي «التوحيدية» ومنها قوله تعالى في سورة النساء (الآية١٦٤) «**وكلّم الله موسى تكليماً**» فالقرآن إذاً هو كلام الله على نحو ما جــاء في «سورة التوبــة» : وإن أحد من المشركين استجــارك فأجره حتى يسمع «كلام» الله والمقصود هنا كلام الله نفسه.. وبنــاءً عليه ارتأت المعتزلة أن كلام الله ليس بقديم، وإنّما هو حادث، أي مخلوق، لأنّ كون الله متكلّماً إذاً هو خالق كلام.(١٥)

وأمّــا المسألــة التي تلي «خلــق القرآن» بالأهمية فهــي المسألة الذرية، وتعتمد هذه المسألــة على صفــات الله، العلــم، القدم، القدرة.

فالصفــة النقيض للقدم هي الحدوث... والعالــم الطبيعي حــادث غير أزلــي، لأنه مخلــوق، أما العلم والقــدرة فهما في الرؤية المعتزليــة عين الــذات الإلهيــة، ولأنَّ ذات الله غيــر متناهية فإنَّ علمه وقدرته شاملان غيــر متناهيين، ولا قديــم غير الله، من هنا أي مــن الأرضيــة الإسلامية تــمَّ الانطلاق نحو التجريــد العقلي، ويزعمون أن التجريد العقلــي هــو استجابــة للنصوصــ الدينية، وهكذا راح أصحاب المذاهب العقلية الناشئة عــن المخاض الفكري يبحثــون عن إمكانية صهــر المتراكمات الإسلاميــة بقصد إنشاء عملية تحويليــة تضع «النظريــة» الفلسفية بـ «العربية».

وتعد المسألة الذريــة ذات منشأ يوناني من عهد ديموقريطس أواخر القرن الخامس ق. م الذي واجــه عديداً من الأفكار القائمة علــى نفي وجود «الحركة» بــل كانت الأفكار المتقدمة عليه تنفي أيضــاً إمكانية التفكير في الحركــة لكن ديموقريطس رأى أن العالم الطبيعي يفســر «بالتركيب الذري» إذا حللت المادة انتهــت إلى اللامتناهــي العددي من الــذرات في إطار الفــراغ المفتوح من الأزل إلى الأبــد مستنتجاً « أن الحركة هي الوضع الطبيعي للمادة» وأتبعها باستنتاج آخر مؤداه: «وجــود الحركة يعني وجود الفراغ» ومما هو مألوف قديماً وحديثاً أن الذرات هي «كليات»

أو الوجـود، وأن الفراغ هو اللا «كيان» ومما أفضـى بـه ديموقريطس أن وحـدة الذرات والفراغ دالة على وحدة الأضداد.

ولعل التساؤل الذي ينبثق من طبيعة المشاكل الفلسفيـة مفـاده: كيف استجابـت «العربية» لهـذه التحولات الفكرية؟ بـل كيف انتقلت من لغـة محدودة إلى لغة لأفـراد ومؤسسات تنتج الفلسفة والعلم؟ وعلى عكس السؤال المطروح، ثمة سـؤال يطرح نفسه، هل تنتج العربية علماً طالما هي لغة لأمة بدأت تتهيَّأ للاحتضار منذ القرن الثالث عشـر الميلادي «١٢٥٨م» ونعني سقوط بغداد وانتهاء العهد الإمبراطوري، فمن الراجـح أن قوانين إنتاج المعرفـة بعيدة عن وضعية الأمصار العربيـة، ولو أنّ نصوصاً في ضروب العلـم» تمت كتابتها بالعربية، فإن هذا لا يعني أننا أنتجنا علماً بلغتنا، ولكنه يعني أننا كتبنـا ما أنتجه الآخرون بلغاتهـم، ونقلناه إلى لغتنـا، وسيبقى غريباً عن الأبنية اللغوية وغير اللغوية طالما لا تنتج الذهنية العربية علومها.

حيوية الإبداع... حيوية اللغة

قبل أن تبدأ النخب في أية أمة مشروعها في العلم لابدّ من أن تتحقق من تقبّل المجتمع لمنـاخ العلم، فالمجتمـع الغائب عن حضوره العصـري لا يساعد الأفـراد مهما كانوا على الإبـداع، فالعلمـاء المبدعـون والمكتشفون يفرضـون على اللغات القوميـة ما لا يفرضه غيرهم، فالجديد في الواقـع يفرض جديداً علـى اللغة، إن كان الفرض اشتقاقاً، أو إنزالاً من علٍ أو توليفاً بين لغتين، واللغة المنكمشة هنا لا تستجيـب للمتغيرات الضرورية، وهذا ما فعله الروسي ميخائيل لامانوسوف ١٧٦٥م عندما أخضع النحو الروسي المعقد للحذف والاصطفاء، لتستجيب الروسية لمشروع علمي، بدأه لامانوسوف وتابعه مانديليف وبافلوف ت ١٩٣٦م وميخائيل كوبكيـن المعروف بأبحاثه الجيولوجية، ثـم استثمرته المرحلة البلشفية ١٩١٧ -١٩٩١م فـي ارتيـاد الفضاء وكذلك لوباتشوفيسكـي ١٨٦٥ الـذي أسس الهندسة غير الإقليدية، ونذكّر في هذا المقام بتجربة الكندي الذي صال في العلوم التجريبية وجال، ولـم يأبه بالنحـاة ولا باللغويين ولا بالفقهاء، لتمضي تجربته فـي تأسيس وعي عام لتقبُّل العلوم الجديدة لـدى الخاصة والعامة، وهنا نذكّر دعاة الاعتماد على اللغات الأجنبية في العلـوم الدقيقة بأن الإجراءات البحثية باللغة الوطنية يمنـح الذات الوطنيـة نفسها أبعاداً خارج حدودهـا، فأبو العـلاء المعري ٩٧٣-١٠٥٧م برسالة الغفران وضع الأعمال الأدبية العربيـة ضمن الآداب العالميـة في العصور الوسطـى، وكم أجريت دراسـات عربية وغير عربية حـول العلاقة بين الرسالـة المذكورة و«الكوميديا الإلهيـة» لدانتي اليجيري ١٢٦٥ - ١٣٢١م- وقد دفع الشاعـر الناقد أدونيس بالشعر العربي الحديث إلى المستوى المتقدم ضمن الشعر العالمـي عندما فتحت له قاعة

الشعر الكبرى في باريس في بداية القرن الحالي كشاعر عالمي يبتدئ به العصر، وعندما فاز نجيب محفوظ ت٢٠٠٦م بجائزة نوبل للآداب ١٩٨٨م حقق للرواية العربية بعداً عالمياً، وعندما عمل عالم فيزيائي مصري في البحث الفضائي الأميركي أدخل العربية إلى مركبة الفضاء كرمز لا كفعل، وكانت خطوة مهمة لعلها تغري الباحث العربي بلغته أولاً وباللغات الحية ثانياً. وهذه الشواهد مجتمعة تدل بشكل أكيد على أن العربية قابلة للنمو الداخلي إن توافرت لها المحرضات العلمية سواء من الداخل أم الخارج.

وحتى لا نقع في البعد الواحد فإن الاعتماد على اللغة الواحدة، أية لغة يفقر البحث العلمي ولا يعلي من شأن الذات الوطنية، فالعلماء الألمان والروس يتقنون الإنجليزية ويصرحون بذلك، والأدباء الألمان يقرؤون الأدب الروسي بشغف متزايد، وعلى الرغم من ذلك يعتد كل من هؤلاء بلغته على أنه بعده المفاخر به وذاته الوطنية التي يعمل لها، وعندما يكتب بها أدباً أو يجعلها لغة لبحثه التجريبي يشعر بالمسؤولية إزاء انتماء الشخصية الوطنية إلى علوم العصر، ومهما يكن فإن العربية اليوم هي الرابط الأوثق بين الشعوب الناطقة بها، وستغدو لغة عالمية إن استطاعت النخب العربية أن تحملها مشروعاً ثقافياً عالمياً يغادر الأسر العقلي العربي للعصور الوسطى ويمضي في فلسفة جديدة.

الهوامش

١- المعجم الفلسفي المختصر، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦م، ١٠٨.
٢- الموسوعة العربية الميسرة، مؤسسة فرانكلين ١٩٨٦م، ١٢ ص ٧٧٤، القاهرة.
٣- عظماء الفلاسفة في الشرق والغرب، ترجمة: متري أمين، دار نابليون، باريس ٢٠٠٧م، ص٧١.
٤- كليلة ودمنة، باب الناسك الضعيف.
٥- راجع الموسوعة الميسرة، مصدر سابق ١٨٠ -٤٦٤.
٦- ما للهند من مقولة للبيروني، تحقيق ج ١، ص١٨٥.
٧- العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٢، ١٣٠، المروية مدونة.
٨- ديوان أبي نواس، تحقيق: عبد المجيد غزالي.
٩- رواية أبي الفرج الأصفهاني، ج٣، ص٣٣.
١٠- معجم الأدباء، ١٦-٩٤، ج٣، ص٣٣.
١١- المقدمة، ص٣٧٩، البيان العربي.
١٢- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة، د.محمود السعران، ص٣٤١.
١٣- د.طيب تيزيني، حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم الثالث، دار دمشق، ١٩٨٢م، ص١٤٦.
١٤- حسين مروة، النزعات المادية، ج أ ص ٢٤٥، ١٩٧٨م، دار الفارابي.
١٥- للاستزادة راجع النزعات المادية، مصدر سابق، ج١، ص ٦٧٨.

دعوة إلى العقل

❋
عبد الفتاح قلعه جي



منذ بداية النهضة العربية المجهضة ونحن نشهد ظواهر وتحولات متتالية ثم غدت متسارعة صاخبة في الحقبة الحالية، وحتى نقف بتأن أمام الظاهرة لا بد من نقد الذات، ومعرفة واكتشاف الآخر، وتفكيك الممتنع، وبسط ومعالجة الظواهر الجديدة ليكون الحديث أكثر سهولة وصراحة.

منذ فجر التاريخ كان هنالك الشرق والغرب، وكان الصراع

❋ أديب وباحث ومسرحي سوري.

بينهما، الشرق بما حمل من رسالات سماوية وفلسفات وعلوم وحكم وأمثال وديانات أخرى تدعو إلى السمو الروحي والتعامل الإنساني، والغـرب بما حملته جيوشه من غزو وتدمير ومطامع، وكان خير مـن جسَّد هذا المعنى أمير الشعـراء أحمد شوقي فـي قصيدته التي ألقاهـا في حفل لإعانة منكوبي الثورة السوريـة ضد الانتداب الفرنسي عام ١٩٢٦ ومطلعها:

سـلام مـن صبا بـردى أرق
ودمـع لا يكفكف يـا دمشقُ
دم الـثـوار تعرفـه فرنسا
وتعلـم أنـه نـور وحـقُ
ألست دمشق للإسلام ظئراً
ومرضعة الأبـوة لا تُعقُّ

وهكـذا يؤكد أميـر الشعـراء المكانة الكبيرة لسورية فهي القلب النابض ومرضعة الأبوة لأمتنـا العريقة. وبيـت القصيد في هذه الأبيـات هو قول الشاعر بـأن الشرق شرق والغـرب غرب، وما علـى الشرق كي يحصل على حريته سـوى أن يطرق أبوابها بالنضال:

نصحتُ ونحن مختلفون داراً
ولكن كلُّنا في الهم شرق
وللحرية الحمـراء بـاب
بكل يـد مضرجـة يـدقُّ

يطّلُع الغرب اليوم بنظريات الغطرسة يعلن فيها «حاكميته» علـى الكون، كنظرية نهاية التاريخ لفوكوياما وأنَّ التاريخ البشري انتهى بسيادة أمريكا على العالم، ولا شيء بعدها، وبنظرية صـراع الحضارات لهينتغتون، ومع هذا المنطق الاستعماري المطلق والمركزية الغربية الفاضحـة أُعَجَب كيف يرى بعضنا أن الغرب هو النبي الديموقراطي المخلّص للإنسانية والشعوب.

بانوراما تاريخية

إذا تجاوزنـا الحمـلات التي جاءت إلى شرقي المتوسط مـن أواسط آسيا (المغول والتتـار) والتي انكفـأت بسرعة فنحن أمام بانورامـا تاريخية مستمـرة ولا تزال قائمة للصراع بين الشرق والغرب.

حوالـى عـام ١٢٠٠ق.م غـزت شعوب البحر وهو تعبير يُطلَق على الغزاة القادمين مـن اليونان وصقليـة وسردينيا وكريت من البحـارة الذين هاجمـوا الأناضول وسورية وفلسطين وقبرص ومصر وقد صد رمسيس الثالث شعـوب البحر عندمـا حاولوا غزو الساحل المصري. وكانوا هم المسؤولين عن تدمير الإمبراطوريـة الحثية في الأناضول وسورية، وعن تدمير مدينـة أوغاريت التي أعطت للبشرية مفاتيح المعرفة باختراعها الأبجدية.

وفي عـام ٣٣٣ق.م كانت الموجة الثانية من الغـزو الغربـي حيث اندفعـت جيوش الإسكندر المقدوني نحـو الشرق فاستولى علـى سورية ومصر ثم تابـع طريقه ليدمر

المملكة الإخمينيــة الفارسية ويغزو الهند، لتصبح من بعده سورية تحت حكم السلوقيين اليونان ثم الرومان من بعدهم.

وفــي عام ٦٤ احتــل القائــد الروماني بومبه سورية منهيــاً الحكم السلوقي. وفي عام ٢٧٢م هاجم جيش الإمبراطور الروماني أورليان مدينة تدمــر درة الممالك السورية فدمرها وأســر ملكتها زنوبيــا. كما قضى الرومــان أيضاً على مملكة الأنباط السورية وكانت عاصمتهــا سلع أو البتراء، وقد بلغت أوج ازدهارها في القرن الأول ق.م. في عهد ملكها الحارث الثالث.

وشهــد العصــر الوسيط أكبــر موجات الغــزو الأوروبي لسوريــة ومصر تحت اسم الحروب الصليبيــة، وظهرت بطولات رائعة في التصدي للغزو الاستعماري، وظهر ملوك عظام، متجــردون عن المغريــات الدنيوية وعــن حب المــال والرفاه وبــذخ السلطان، تجردوا لخدمــة الوطن وتحريــره مثل نور الديــن زنكي الــذي أوقف زحــف الإفرنج علــى مدن سوريــة الداخلية وحــرر الكثير من المدن والمناطــق التي احتلوها، وحمى مصر الفاطمية من عدوانهم، وصلاح الدين الأيوبي الذي وقعت في عهده معركة حطين (٥٨٣هـ = أيــار ١١٨٧م (وهَزَم فيها الغزاةَ الإفرنــج القادمين من أوروبــة وتمَّ تحرير مدينــة القدس. وفي مصر حقق المصريون نصرهم المؤزر على الصليبيين عام ١٢٥٠هـ وأسروا ملك فرنسا لويــس التاسع وسجنوه في دار ابن لقمان في عهدة الطواشي صبيح حتى افتدى نفسه بمبلغ كبير، يقول الشاعر مهددا الفرنسيين.

فقل لــه إن أضــمــروا عــودة
لشــن حــرب أو لـفـعـل قـبـيـح
دار ابــن لـقـمـان عـلـى عـهـدها
والـقـيـد بـاق والـطـواشـي صبيح

ويبدو أنَّ موجــات الغزو الغربي لبلادنا لم ولن تنتهي فهاهــم الفرنسيون والإنكليز والطليــان في شمال أفريقيــا، أمَّا الجزائر فقــد قدمت من أجل حريتهــا مليون شهيد لتنتزع استقلالها مــن فرنسا، وهاهم غزاة الأمس واليوم يقتسمون المشرق العربي من بغداد إلى القاهرة حســب معاهدة سايكس بيكــو، وتدخــل الجيوش الفرنسيــة دمشق بعد معركة ميسلــون، ويتجه الجنرال غورو مباشــرة إلى ضريح صلاح الدين الأيوبي ثم يضــرب القبر برجله ويقول: ها قد عدنا يا صلاح الدين واحتللنا سورية فانهض لترانا. عدنا ولن نخرج مــن هذه الأرض بعد اليوم أبــداً، الآن انتهــت الحــروب الصليبية، ثم انكفأ راجعاً.

وقد وصف الشاعر عمر أبو ريشة هذا الموقف بقوله:

رُبَّ غــازٍ أَذَلَّ جَــاءَ صَــلاحَ الـدِّ
يــنِ فـي هَـدأةِ الـخـلـودِ الـمـهـابِ

هاتفاً في رميمه الطُّهر: إنَّا
ها هنا يا صلاحُ، يا للعابِ
إنَّ للمجدِ دَمعةً حين يلقى
جُثَّةَ اللَّيثِ عُرضَةً للكِلابِ

ذلك هو جوهر القضية، وليس كما ادعت فرنسا في بيانها حين غزَت سورية بأنها جاءت تحمل لنا التقدم والمدنية والحضارة.

في سنة ٤٩٢هـ استولى الفرنجة على بيت المقدس، فقتلوا الأطفال واغتصبوا النساء ومثلوا بالشيوخ، وهدموا المساجد، وأحرقوا البيوت، وذبحوا الآلاف واقتحموا المسجد الأقصى، وقتلوا كل من احتمى فيه، وبلغ عدد القتلى في هذه المذبحة أكثر من سبعين ألفًا.

هذه صورة لحضارة الغرب، وفي مقابلها صورة أخرى فقد دخل جيش صلاح الدين بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ- ١١٨٨م) فلم يقتل طفلاً أو امرأة أو شيخًا كبيرًا، بل عاملهم بالرحمة والشفقة، وأطلق سراح الشيوخ والضعفاء، ولم تنهب جيوشه بيتًا من البيوت أو تخرب زرعًا أو تقطع شجرًا، وحينما جمعت غنائم الحرب وقسمت بين الجنود والقادة، تنازل صلاح الدين عن نصيبه للفقراء من المسيحيين، وجعل الأسرى الذي كانوا من حظِّه أحرارًا.

وتندلع الثورات الوطنية ضد الاحتلال لتنتهي بالتحرير والجلاء. أمَّا الموجة الأخيرة والمعاصرة للغزو الأميركي - الأوروبي للشرق العربي والإسلامي فكانت كما هو معروف مع غزو أفغانستان والعراق وأكثر من مليون قتيل عراقي شاهدٍ على همجية الغزاة، وقصف ليبيا والتدخل السافر والوقح في شؤون البلاد لصياغتها حسب أهوائهم.

الحقائق بأقلام مبدعيهم

يقتضي البحث الموضوعي مجانبة العواطف، وتفكيك الظواهر، والاعتماد على الوثائق، والاستشهاد بأهل العدل من المبدعين، وهذا ما سنعرضه في هذه الخلاصة.

في مسرحية (أنشودة أنغولا) يعرض بيتر فايس حقيقة الاستعمار المجرم البغيض في أفريقيا الذي يدعي بأن مهمته تبشيرية روحية وأنه يتلقى أوامر الرب لينقذ الإنسان من هوة الغواية ويربيه تربية أخلاقية، وكمثال على ذلك الاستعمار البرتغالي لأنغولا الذي دام خمسة قرون وسالازار غول البرتغال يردد: «إنني أتلقى أوامر الرب/ إنَّ مهمة لوزيتيانا هي نشر رسالة الرب على الأرض/ والإنسان محتاج إلى أن تقوده سلطة ما/ من أجل أن تحميه من السقوط في الأنانية والمادية»

ملاحظة، ألم يغز بوش العراق باسم الرب أيضاً، وأنه كان يتلقى الوحي من ربه.. ولا أدري أي رب هذا يعطيه الحق بقتل أكثر

من مليون إنسان من أجل غالون من النفط.

أية حضارة، وأية قيم روحية و أوامر للرب، تلك التي تسوق شعب أنغولا بأكمله في العمل الإجباري في المناجم والمزارع لصالح حفنة من المستغلين، ولا يجني شعبها سوى الجوع والمرض والضرب بالعصا. والمسرحية تحفل بالإحصائيات والوثائق التي تدين الاستعمار ففي المزارع يعمل ٥٠٠٠٠٠ امرأة وطفل في السخرة مقابل ١٥٠ دولاراً في السنة! وبعد ٥٠٠ سنة من رسالة التمدين لم يتعلم من كل ١٠٠ أفريقي القراءة والكتابة إلا فرد واحد،

وفي مسرحية (افتتاحيات الهادئ) للكاتب الأميركي جون ويدمان يتحدث عن غزو أساطيل الدول الغربية للسواحل اليابانية بدعاوى إخراجها من العزلة وحمل الحضارة إليها.

وفي مسرحية «us» نحن والولايات المتحدة التي أعدها وأخرجها بيتر بروك ثمة عرض لمجموعة مذهلة من الصور والوثائق والأرقام والإحصائيات عن الحرب الأميركية في الفيتنام.

يقول جون في المسرحية متحدثاً عن نورمان الذي أحرق نفسه على عتبة البنتاغون: كان نورمان يعرف أنه حين يرسي شعب من الشعوب آماله في الطمأنينة على تفوقه التكنولوجي الذي يتيح له قتل عشرات الألوف من أعدائه غير المقاتلين، من نسائهم وأطفالهم، فإن هذا المجتمع يكون في هذه اللحظة قد وصل إلى مرحلة من الانحطاط الخلقي تنكر عليه هو نفسه أي حق في الحرية في داخله.

ويقول بادي: نأسف لأن راهبة بوذية في الرابعة والعشرين من عمرها في مدينة هيو، قطعت شرايين معصمها لتكتب بدمها رسالة إلى الرئيس ليندون جونسن تدين فيها السياسة الأميركية في فيتنام.

وتوجه مارجي هذه الرسالة في المسرحية وتقول: ١٨ فبراير ١٩٦٣ عزيزي الرئيس كنيدي: إنَّ شقيقي الأخصائي جيمس ديلماس ماك أندور هو واحد من طاقم الطيارين السبعة الذين قتلوا في حادثة طائرة الهليكوبتر في فيتنام بتاريخ ١١ يناير.. أنا أستطيع أن أكتم إحساسي بأن الإنسان حين يقدم حياته لبلاده فهذا شيء، أما أن يرسل إلى بلاد لم يسمع نصفنا باسمها على الإطلاق من قبل، ثم يطلق عليه النار حتى دون أن تكون له فرصة الرد، فذلك شيء مختلف كل الاختلاف

وبعد ما الذي تغير في منطق الغزاة اليوم؟ لا شيء.. جوهر الأمر هو الغزو والتدمير والدم والاستغلال، إنَّهم لا يرتوون أبداً من دماء الشعوب، إنَّهم يستعمرون العالم باسم الرب حيناً وباسم التمدن والتقدم والحضارة حيناً آخر، وباسم الحرية والديمقراطية وحماية المدنيين والدفاع عن حقوق الإنسان أخيراً

ما بعد الحداثة وغزو القوة الناعمة

ارتبط اتجاه ما بعد الحداثة بالعولمة، وقد جاءت طوالع ما بعد الحداثة مع كتاب وفناني الحداثة، ثم تجاوزتها في تعبيرها عن الرفض المطلق لكل المرجعيات والكليات والحكايات الكبيرة والمفاهيم السائدة بدعوى أنَّها زائفة وكولنيالية، بمعنى أنَّها تستعمر الإنسان، ولهذا جاءت دعوة منظري ما بعد الحداثة إلى أن يتحرر الإنسان تحرراً مطلقاً، جسدياً وفكرياً وأخلاقياً، أي أنَّهم دعوا إلى كولنيالية الذات، ولا بد لهذا الأمر أن يبدأ بالإلغاء والعدمية ليصل إلى الفوضى التي هي التجسيد الأمثل للتحرر المطلق، ثم تبدأ الفوضى بالانتقام من الذات المستعمِرة لنفسها. وعندما تنتقم تعود إلى الرفض من جديد، انطلاقاً من أن المجتمعات التي تكتفي فقط بالحفاظ على نفسها لا يمكن اعتبارها حية فعلاً.

عالَم مابعد الحداثة دفع دعاة هذا الاتجاه، وبالتالي شبابَنا إلى التقليد الصِّرف والفهم الخاطئ، إلى التخلي عن قيم الحداثة العظيمة والديموقراطية والحرية والتحلل من المسؤوليات الأخلاقية وقدرة الإنسان على المشاركة في صنع مصيره، لقد تميز اتجاه ما بعد الحداثة بتدمير المركز والمرجعيات، فإذا كان الإله هو المركز في أغلب تيارات ما قبل الحداثة، والإنسان هو المركز في تيار الحداثة، فإنَّ تيار ما بعد الحداثة دعا إلى اللامبالاة بهما ورفض مركزيتهما، وإلى خيانة المقولات والمفاهيم والوحدات الكبرى كالإنسانية والحب والوحدة والقومية والدين والتحرير والحق.. إلخ، فالإيمان بهذه المفاهيم حسب مقولاتهم أدى إلى استعمار الإنسان ولا بد من خيانتها، فالحب مثلاً لا بد من انتفائه والعلاقة بين الرجل والمرأة يجب ألا تتعدى مجرد كونها علاقة جسدية جنسية آنية، كما دعت في الآداب إلى كتابة نص لا مرجعية له، وهكذا يكون اتجاه ما بعد الحداثة في جوهره تدميري دادائي لا يطرح بديلاً، ولا يدعو إلى اختراق السائد والمتعارف بهدف التطوير كما في التجريب، وإنَّما يدعو إلى تدمير كل ما هو سائد ومتعارف من مقولات ومفاهيم وأنماط وإحلال نوع من الفوضى والعدمية في الوجود الإنساني.، وهكذا يتحول الراهن وضمنه راهن المسرح إلى حكايات وعوالم فردية صغيرة معزولة منسلخة عن أية مرجعية، إنَّه عصر أفول الأسماء والقيم الكبرى الراسخة، وحلول ركام من الأسماء والموضوعات الصغيرة الطيّارة، ففي الموسيقى والغناء تغيب الأسماء والأعمال الكبيرة لتسود طقطوقات الحب المستهلك التي تعتمد على الجسد والإبهار البصري، الأمر نفسه في الشعر والفنون الأخرى، وفي المسرح أيضاً تسود ظاهرة المسرحية التي تعتمد الإبهار البصري ولغة

الجسد، أو عروض «الشو» التي لا تحمل أية فكـرة أو تدعو إلى أيـة قيمة، ورقص يقفز من فـوق التصميم يتسـم بفوضى الجسد، وموسيقى صاخبة غير نغمية.

يرى تيـري تيشأوت وهو ناقد موسيقى ومسرحـي أن حركة ما بعـد الحداثة للفن في الولايـات المتحدة تقترب مـن نهايتها فقـد «تردت» مع مـرور الوقـت، وتحولت إلى أيديولوجيا متصلبـة تقدم استنتاجات زائفة مبنيـة على فرضيات زائفـة، ويتابع تيشـأوت هجومه على مـا بعد الحداثة في حقلها الفني فيرى أن ما بعد المحدثين هم نسبيـون مطلقون. وهم لا يؤمنون بالحقيقة والجمـال، ويدّعـون عوضا عن ذلـك بأنه ليس هناك شيء جيـد أو حقيقي أو جميل بحد ذاتـه، بـل إن «الجـودة» و«الحقيقة» و«الجمال» و«النوعية» هي تركيبات يفرضها الأقوياء على غير الأقوياء لأسباب سياسية، أمَّـا شكسبير وبيتهوفن فهـم مجرد أدوات رأسماليـة استخدمـت لتخديـر الجماهير ولدعـم الطبقات الحاكمـة المتدهورة في الغـرب. إنَّ ما بعـد المحدثين لا يرفضون هذه الأسمـاء التاريخيـة عظيمة فحسب، وإنَّمـا يرفضون بشدة فكرة العظمة نفسها. كانت العشوائية بالنسبة لفنان مابعد الحداثة لا تقل جودة عـن النظام، والضجيج لا يقل جودة عن الموسيقى.

القـوة الناعمـة فـي الفكر والفنـون: إنَّ الولايات المتحـدة الأميركية كمجسَّد كوني للعولمة، ومنتِج لها، استطاعت أن تغزو العالم بالقـوة الناعمة (الرقص والموسيقى وفنون الدرامـا) وما تستدعيه من قيم إبان الحرب الباردة وذلك قبل أن تلجأ إلى القوة الفاضحة بعد أحداث أيلول سبتمبر ٢٠٠١. إنَّه إرهاب الموسيقى الذي يتسلل بنعومة جلد الأفعى إلى كل العالم المتعطش للحياة وفق النموذج الأميركـي المتحرر من كل القيم والأخلاق، تسلل إلى دول المنظومة السوفييتية السابقة وأوروبـة الشرقية والـدول العربية والصين مما دعـا بعضهم إلى تحصيـن نفسه ضد الهيمنـة أحادية الجانب على غرار ما فعلته كوريـا الجنوبيـة التي عبرت عـن رفضها للثقافـة الأميركية من خـلال إقامة مركز سياحي يأخذ مسمى هوليوود يهتم بالدراما والرقص والموسيقى الكورية وتوفير قاعدة ثقافية لشـرق آسيا لتتمسـك بهويتها أمام الثقافة الغربية التي تتزعمها هوليود بعيداً عـن ثقافـة البـوب والـراب والهيب هوب الأميركية، ومن الطريف في الأمر أن الرئيس الأميركـي اعتـرف أخيراً بهـذا النوع من الإرهاب المتمثل فـي الرقص والموسيقى الماجنين اللذين ينشران العنف والمخدرات فـي كل العالم الى جانب القنوات الفضائية الاباحية، وهذا لا يقـل خطراً عن الإرهاب

الدموي، وقد نصح لمواجهته باستعمال جهاز التحكم «الريموت كونترول».

غزو القوة الناعمة في البحث الفكري: وأكثر ما يتجلى ذلك في أبحاث المستشرقين غير المنصفين، ومن كلفتهم وزارة المستعمرات البريطانية ومثيلاتها من المؤسسات في الغرب بمهام في الشرق الأوسط، وسأعطي مثلاً واحداً لذلك:

يقف سوفاجيه في كتابه (حلب) طويلاً عند العهد الهيلّينستي (اليوناني) في تاريخ حلب، و يعدد ثلاث مراحل حضارية وثقافية مرت على المدينة:

١- الحضارة الغابرة.
٢- الحضارة الهيلّينستية.
٣- الإسلام.

يقول: «إنَّ عهد السلوقيين (اليونان) يمكن أن يعتبر بجدارة وحق العهد الحاسم في تاريخ حلب». ذلك لأنه في رأيه هو الذي أوصل حلب إلى الوظيفة المدينية بشكل قطعي، ورسخ مصيرها بصورة حاسمة. وعلى الرغم من أن سوفاجيه يؤكد أن لحلب ماضياً طويلاً قبل أن تدخل التاريخ، وأن آثار التجمع السكاني الأوَّل لأهل حلب هو في تل العقبة فإنَّ سوفاجيه وبتعصب غريب للحضارة الهيلّينستية ينفي أي أثر لما قبل أو بعد هذه الفترة: يقول: «إنَّ حلب لم تحتفظ بشيء من حضارات العصور العظيمة الآسيوية، أو أنَّها احتفظت على الأقل بأشياء بسيطة مثل اسمها، ولا شيء غير ذلك». أمَّا العهود التي تلت «الزمن اليوناني»، أي الإسلام-حسب زعم سوفاجيه- فإنَّها لم تقدم شيئاً حضارياً لهذه المدينة. يقول: «إنَّ الإسلام في تاريخ حلب الطويل لم يكن إلا حادثاً عرضياً)... ويبلغ به التعصب والتحامل أقصاهما حين يقول: (إنَّ العصر الإسلامي لم يقم بأي إسهام إيجابي، إنَّه سارع في انحطاط هذه المدينة... إنَّ العصر الإسلامي لم يفعل شيئاً سوى تفكيك كل ما كان حتى ذلك الوقت مبنياً بصورة متجانسة».

الغرب يشوه الشخصيات التاريخية العربية المناضلة

هذه صفحة من صفحات النضال الوطني ضد الاستعمار الأوروبي في القرن السادس عشر لم تُسلَّط عليها الأضواء الكافية.

بدأت القصة بعد سقوط غرناطة في الأندلس عام ١٤٩٢م، وهذه الحروب في البحر وشمال أفريقيا هي في جوهرها استمرار للحروب التي شنتها أوروبة على الشرق العربي والإسلامي منذ معركة نيقية عام ١٠٧٩م بين السلاجقة والغزاة الأوروبيين، إلى أن بدأ فصل النهاية بمعركة حطين الخالدة. قام الإسبان بعد سقوط الأندلس بغزو شمال أفريقيا، فاحتلوا «المرسى الكبير» غرب الجزائر سنة (٩١١هـ - ١٥٠٥م)، واستولوا على مدن: مليلة،

والجزائــر، وبجايــة، وطرابلــس، ووهران، وغيرهــا وقد دفــع هذا الخطــر عددًا من البحارة المسلمين فتعاهــدوا على مواجهة الغــزاة، واتخــذوا جزيرة«جربة»التونسيــة مركزًا لعملياتهــم، وكان يقودهــم الأَخَوَان عروج وخير الدين بربروس.

قــام (عــروج) بمقابلــة سلطــان مصر والشــام قانصوه الغوري الــذي كان بصدد إعــداد أسطــول لإرساله إلــى الهند لقتال البرتغاليــن. فأعطــاه سفينــة مجهــزة فــي الإسكندريــة بالجند والعتــاد لتحرير المتوســط من القراصنــة الأوروبّيين. ومن غرائب منطــق المستعمرين الأوروبيين أنَّهم كانوا يعتبرون هؤلاء المدافعين عن بلادهم مجرد قراصنة، وهذا المنطق لم يتغير حيث يعتبر الأوروبيون المستعمرون اليوم النضال الفلسطيني والعربي عامة إرهاباً.

حقــق عــروج انتصــارات ساحقة على الإسبان فحرر ميناء «بجاية» الجزائري عام (٩٢١ هــ = ١٥١٥م) ونقــل قاعدة عملياته البحريــة إلى مينــاء «حيجــل» الجزائري واستطاع أن يقيم حكومة قوية في الجزائر، و يطرد الإسبان من السواحل التي احتلوها، ويوســع نطاق دولته حتى بلغــت «تلمسان». طبقت شهرة عروج الآفــاق عندما استطاع بين العامين ١٥٠٤ و١٥١٠م إنقاذ الآلاف من مسلمــي الأندلس ونقلهم إلى شمال أفريقيا وبعد سقوط دولــة المماليك في مصر تابع السلطان العثمانــي سليم الأول، دعم حركة التحرير في المتوســط وشمال أفريقيا، ثم قام الإسبان بشن حملة واسعة على الجزائر واستشهــد عروج في معركــة مستغانم عام ١٥١٨م وبقــي ذكــره حياً فــي القلوب فهو المؤسســس الأول لدولــة الجزائــر ويسميه الجزائريون اليــوم «باب عروج». وخلفه في الجهاد ضــد الاستعمار الإسباني أخوه خير الديــن خضر بن يعقــوب برباروسا (أي ذو اللحية الحمراء) وهــو أصغر أخوته الأربعة المجاهدين الذين عملــوا كبحارة ومقاتلين في البحــر ضد قراصنــة فرسان القديس يوحنا المتمركزين في رودس.

ولــد (خير الدين) في جزيــرة ليسبوس فــي اليونان وأمه كاتالينا مسيحية. استنجد بالسلطــان سليــم فأمــده بقــوة من سلاح المدفعيــة وألفين من جنــوده الأشداء، ثم واصــل السلطــان سليمــان القانونــي هذه السياسة، فاستمــر خير الدين في النضال، وتابــع عملياته البحرية حتى تمكن من طرد الإسبــان من الجيــوب التــي أقاموها على ساحــل الجزائــر، وضمّ إلــى دولته مناطق جديــدة، وتهيّأ لغــزو السواحــل الإسبانية، الأمــر الذي أفزع الغــزاة المستعمرين، ثم قام خير الدين بعمل جليل حيث أنقذ سبعين ألف مسلم أندلسي من قبضة الإسبان الذين كانوا يسومونهم سوء العــذاب، فنقلهم سنة (٩٣٦هـ = ١٥٢٩م) علــى سفنه إلى شمالي

أفريقيا، وهنا استدعاه السلطان سليمان القانوني إلى استانبول وكلفه بتنظيم الأسطول والاستيلاء على تونس قبل أن يعمد شارل الخامس ملك إسبانيا إلى الاستيلاء عليها، فغادر استانبول على رأس ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي، واتجه إلى تونس، فأنهى حكم الدولة الحفصية التابعة للإسبان عام ١٥٣٤م، وتحرك شارل على الفور، وقاد حملة جرارة فاستولى على تونس، ورد خير الدين على هذا بغارة مفاجئة على جزر البليار الإسبانية في المتوسط، فأسر ستة آلاف من الإسبان، وعاد بهم إلى قاعدته في الجزائر، وهنا كافأه السلطان بتعيينه قائدًا عامًّا للأسطول العثماني، وعين ابنه حسن حاكماً للجزائر، وتداعت أوروبة بتحريض من البابا إلى الحرب ضد العرب والمسلمين وهنا قاد خير الدين عدة حملات بحرية موفقة، كان من أشهرها فوزه العظيم في معركة «بروزة» وكانت معركة هائلة جاءت استجابة لنداء البابا في روما، فتكوّن تحالف أوروبي من ٦٠٠ سفينة تحمل نحو ستين ألف جندي، ويقوده أعظم قائد للبحر في أوروبة هو «أندريا دوريا»، وتألفت قوات بارباروسا من ١٢٢ سفينة تحمل اثنين وعشرين ألف جندي، والتقى الأسطولان في بروزة في ٩٤٥ هـ= ٢٨ أيلول ١٥٣٨م، وفاجأ خير الدين خصمه قبل أن يأخذ أهبته للقتال، فتفرقت سفن العدو من هول الصدمة، وهرب أندريا من الميدان.

وقد أثار هذا النصرُ الفزعَ والهلعَ في أوروبة. وخلال الحرب الإسبانية الفرنسية طلب فرانسوا الأول ملك فرنسا مساعدة من السلطان سليمان فأرسل له خير الدين عام ١٥٤٤م على رأس أسطول كبير تمركز في مارسيليا التي تنازل عنها الفرنسيون للعثمانيين لمدة ٥ أعوام، فنجح في دحر الإسبان من نابولي والساحل الفرنسي.

هذا هو خير الدين بارباروسا القائد والمناضل الكبير الذي تصوره الأفلام الأجنبية ومؤرخو الاستعمار الأوروبي مدّعو الديمقراطية وحقوق الإنسان على أنه قرصان بحري نشر الرعب في نفوس الآمنين! ويعلمون جيداً أنَّهم كانوا ولا يزالون هم قراصنة البر والبحر.

بعد هذا العرض السريع هل ننخدع بدعاوى الغرب حول الديموقراطية وحقوق الإنسان فننثر الورود لهؤلاء الغزاة أو لسفرائهم الذين استعلوا على الشعوب واستعبدوها، أم نصفع منهم الوجوه بالشوك والصبّار؟

❁ ❁ ❁

إنَّما جئت بهذه المقدمة التاريخية السريعة لمن يفكر أو ينادي بأن يستقوي بالغرب وسياساته المخادعة وآلته التدميرية على أبناء الوطن مهما بلغ الاختلاف بين أفراد البيت الواحد، وهل لدى الغرب

الاستعماري سوى أن يدمر المدن والمنشآت والبنى التحتية لتقوم بعدها شركاته وغيلانه الجشعة بالاستمرار في نهب البلاد بحجة إعادة الإعمار.

أي منطق هذا؟ يقتلون ويدمرون ويخرِّبون البيوت والمرافق العامة ويفلحون الأرض بالقنابل والصواريخ، ثم يعيدون إعمارها من جديد، وما تلبث أن تتكشف الكذبة بعد فوات الأوان، فأي إعمار حدث في العراق وأفغانستان، وأي إعمار سيحدث غداً في ليبيا! والحبل جرّار..

إنَّ القضية ليست مؤامرة فحسب، لأن المؤامرة تعني أنَّ أحد الطرفين يخفي عن الآخر ما ينتويه من شرور تجاهه بدعاوى عديدة كالصداقة والحرية والديمقراطية وغيرها.

ولكن القضية هي حرب صليبية مستمرة أعلنها بصراحة وفي خطاب رسمي الرئيس السابق للولايات المتحدة جورج.د.بوش بدعاوى محاربة الإرهاب.

لست سياسياً ولكني أديب وشاعر ومسرحي نذر كتاباته لمصلحة الوطن والإنسان، يرهص بالأحداث قبل وقوعها، لأنَّ الأدب الحقيقي هو الذي يقرأ التاريخ والواقع بعمق ويرهص بالأحداث قبل وقوعها، فالأديب الحقيقي المبدع هو الذي يملك الرؤية الفلسفية العميقة والحدس الصادق، وذلك هو جوهر الإبداع.

وإنَّ ما يشهده الوطن العربي اليوم يدعونا كمثقفين ومبدعين ومفكرين إلى أن ندلي بما نفكر فيه أو نحدس به، فليس لصامت ولا لمتفرج مكان، وكلنا متصوفون بحب الوطن وإن اختلفت الآراء وتعددت سبل التعبير، وكل تعبير مشروع بشرط أن يكون خارج نطاق الدم المهراق.

❁ ❁ ❁

لقد بلغت الأمور مبلغاً لا مخرج منه سوى الاستماع إلى صوت العقل، وإلا فنحن نسير نحو المجهول الكارثي، ما عاد العنف في عصر الاتصالات وقطبية العالم يقمع ثورة، ولكنه قد يولِّد الثأر، وهنا الخطورة على الوطن والحاكم والشعب، فالثأر يحرف الحق عن مساره، فيتحول الفعل من فعل ثوري إلى فعل ثأري، والثأر فعل فردي أعمى والأخطر إن تبنَّته الجماعات.

إنَّ قراءة واعية مسؤولة للوضع تُبين أن الأمور تنحرف عن مساراتها وتسير إلى أحد طريقين:

١- طريق مسدود يكرر نفسه إلى ما لانهاية في حلقة دائرية من العبث الدموي.

٢- طريق ينفتح على الكارثة والمجهول، فالشعوب والدول لم تعد تعيش في جزر منفصلة، وقوى التدخل والاستعمار الجديد، هذه القوى الوالغة عبر التاريخ وإلى الآن في الدم العربي والإسلامي تتحفز اليوم باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان، ونصرة

الشعوب وحماية المدنيين للعق الدم العربي والإسلامي، وتدمير الوطن، والأمثلة أمامنا شاهدة.

الحاكم والمحكوم طرفا المعادلة في مسألة الوطن، ولابدّ لصحة أيَّة معادلة أن يكون طرفاها متساويين، وهذا هو المبدأ الأساس في أي حوار وطني، وإذا كانت الحاكمية مشتقة من الحكمة، وأنَّها وُجدت بعقد اجتماعي ينص على أن مهمة الحاكمية هي خدمة الشعب، فإنَّ الشعب في النهاية هو التجسيد الحي لطرفي المعادلة، وعلى هذا الأساس فإنَّ الشعب بمختلف أطيافه وطبقاته وتنوعاته مدعو إلى حوار حر صريح مسؤول تُبنى على منجزاته وتُولد من جدلياته حياة جديدة عادلة.

الحوار إذاً ضرورة حتمية في المراحل الصعبة، وفي جميع مراحل البناء عامة، والاستنكاف عن الحوار والجهر بالرأي هو اعتزال واستقالة من المواطنية. وإنَّ أية دعوة لأي تدخل أجنبي مهما كانت صفته أو أسبابه لن تؤدي إلا إلى الكارثة، وإنَّ حضور الغرب بأسلحته وأطماعه هو الموت، ونحن قادرون على حل مشاكلنا بأنفسنا، ومتمسكون بوحدتنا الوطنية.

لا بدَّ من إعادة الثقة بين من فقدها من الشعب وبين المفوضين بخدمته، قد يكون هذا صعباً ولكنه ليس بمستحيل، وذلك بالعودة إلى طاولة الحوار، وإنَّ أقسى أنواع الحوار وأكثره فشلاً وأسوأه نتائج هو الحوار بالدم المهراق، وإنَّ التأسيس للحوار الحي الصادق والفاعل يقتضي إطلاق الحريات العامة في التعبير، وهذا يجب ألا يكون مقتصراً على المنتديات فحسب وإنَّما ينسحب على الصحف والإذاعات ووسائل الاتصال، لأنَّ بعض القائمين على أمر هذه المؤسسات ما يزالون يعيشون الرقيب الأمني في دواخلهم.

نحن بحاجة إلى أن نعيد عمارة الوطن الحديثة من الحجر الصلد، أصلها ثابت وفرعها في السماء، لأنَّ مدينة كهذه تبقى خالدة صامدة، إنَّ الفساد، وانعدام العدل والمساواة، وغياب الحريات، لا يبني سوى مدن من قش، وإنَّ مدينة من قش سرعان ما تندلع فيها النيران.

إنَّ الانتقال بالبلاد من القطبية الواحدة إلى التعددية والتداول الفعلي للمسؤولية الحاكمية المنبثقة عن إرادة الشعب، واتباع ذلك والإيمان به يجب أن يكون فخراً للحاكم والحاكمية، ولا ينتقص من قدرهما، لأنَّ العرش الحقيقي للسلطان هو قلب الشعب، وغاية الوجود هو الإنسان في حريته وأمنه وكرامته ولقمة عيشه، وأذكِّر بقول ياقوتة حلب الشاعر عماد الدين النسيمي:

«اعلم بأنَّ ذروة الخلق وسيد الكون هو الإنسان

فإذا كنت باحثاً عن الحقيقة فعليك أن تتخلى عن الحياة السهلة

وإذا حكمت الآخرين فعليك أن تتخلى عن أنانيتك»

ومن شروط الحاكم الراعي سواء أكان سياسياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً.. أن يكون متجرداً، كنزه وثراؤه ومجده ليس المال أو السلطان وإنَّما هو شعبه ومن هم في رعايته كما أشار النبي (صلى الله عليه وسلّم) بقوله: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».**

بين العولمة والعالمية

لابدَّ من إزالة الالتباس بين العولمة والعالمية، فالعولمة التي تعمل على فرض مشروعها المادي والثقافي، وتحول العالم المتنوع إلى قرية كونية تتحكم بمصائر شعوبها ودولها القبضة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية للقطب الواحد المسيطر على العالم مدعمة ومؤللة بالقوة العسكرية والاقتصادية، والإعلامية المتمثلة بمئات المحطات الفضائية والصحف والمواقع الإلكترونية، وبثورة المعلومات والاتصالات والتكنولوجيا الحديثة وتغوّل الشركات الكبرى والمصارف، هي غير العالمية التي تحتفظ ببعدها الإنساني، وتحترم خصائص الشعوب واستقلال هوياتها، وتعدد ثقافاتها، وتكون علاقتها معها قائمة على التبادل الحضاري.

ولكن لئلا نقع في فخ الاستلاب وتثبيط الهمم فإننا نشير إلى أن هذا التغوُّل في تقنيات واقتصاديات وسياسات العولمة هي التي دفعت الشعوب إلى الدفاع عن خصوصياتها وهوياتها وتنوعها الثقافي والتعبير عنها وتسويق ذواتها عبر التقنيات والتواصليات المتاحة، ولهذا فإن الثقافة الإنسانية المعاصرة تعيش في ظل متناقضين، ففي ظل فظاظة انتشار النموذج الثقافي الأميركي، استخدمت الشعوب التقنيات نفسها لتعبر عن خصوصياتها ومنتجها الثقافي حتى غدا العالم لوحة صاخبة بالألوان الثقافية المحلية والعرقية واللغوية والثقافية، إذ مما ينافي منطق التاريخ أن تعيش البشرية كلها بثقافة أحادية واحدة.

وإذا كانت العولمة قد نجحت في صناعة الحروب وفي اقتصاد المصارف وفي دكتاتورية الشركات الرأسمالية الكبرى، وهذا الأمر يشهد اليوم زلزالاً مع الأزمة الاقتصادية العالمية اليوم واحتجاجات الشعوب ضد العولمة، فإنَّ عولمة الثقافة تصطدم بنزعة الشعوب للحفاظ على ذاتيتها، وتبقى العولمة الثقافية مجرد وهم بالنسبة للشعوب التي تتسلح بأصالتها الحضارية التاريخية.

لم يعد من الضروري أن يأتي الغزو العولمي من مصدره الأساس، القطب

الواحد، وخاصة بعد انكشافه ورفضه، وإنَّما من الممكن أن يأتي بالتبعية والعمالة من بلدان تعتبر صديقة أو شقيقة متسلحة برأسماليات المال والنفط وقنوات الإعلام الأسود، ومتقوية بتبعيتها لمنتج العولمة، وبسيطرتها بهذه الأدوات على المؤسسات العربية الجامعة، لتنفيذ مشاريع السيد الكوني في السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة وحتى في الغزو العسكري، كل ذلك بدعاوى كاذبة ترفع شعارات مؤازرة الشعوب والدفاع عن حقوقها في الوقت الذي تشارك فيه في لعق دمائها، أليس غريباً أن نجد دويلة صغيرة بمساحة الكف، لا يزيد عدد سكانها عن عدد سكان حي أو حيين من أحياء حلب أو دمشق، وليسً لها أي إرث حضاري، تتطاول لتملي إرادتها على أمة بأسرها لها مجدها وتاريخها الحضاري لتقودها إلى الدم والهلاك! ولكنها شهوة الدم، وإن البغاث يستنسر بمؤللات العولمة وسادتها ومنتجيها.

أخيراً..

في واقع سياسي غارق في الأخطار: فبعد حرب الأشقاء والجوار مدن تقصف، وشعوب تذل، ومجازر ترتكب، ولحم الشعب العربي والأمم الإسلامية على موائد الطامعين والمتنفِّطين، وتَبتلِعُ العواصمَ والمدنَ والثقافاتِ رمالٌ متحركة، لا بد من دعوة إلى العقل (بمعنى الربط) والتعقل، وإلى الاستبصار والتبصر، ومعالجة الأمور بحكمة ورؤيةٍ ورويَّة، واضعين نصب الأعين سلامة الأوطان وطموحات شعوبها بالحرية والعدالة والعيش الكريم.

إنا لا نشك في أن هنالك قوى أجنبية تبيت للوطنين العربي والإسلامي الشرور وتحرض بأدواتها وقنواتها على الفوضى والدمار وتعد للوطن ما يضمن مصالحها ومصالح وأمن إسرائيل وطموحاتها في التوسع والعدوان، ولكن يجب ألا نشك أيضاً في أن هذه الاحتجاجات الشعبية التي انطلقت في أوطاننا من المحيط إلى الخليج بالعدوى أو شجعتها العدوى وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، إنَّما هي احتجاجات عفوية مؤسسة على تراكمات من القهر والخوف والبطالة والفقر ومشاعر الكبت الدفينة في مقابل فئة أثرت ونمت وتحكمت بمصائر الناس وقوت الشعب مستفيدة من الاسترخاء والترهل والفساد والاطمئنان إلى القبضة الأمنية، ولو أن أولي الأمر قرؤوا ما كتبه الأدباء والشعراء والباحثون من أيام نكسة حزيران إلى الآن، وما أرهصوا به في كتاباتهم لعلموا أنَّ شيئاً ما سيحدث.

ولكن مهما يكن الأمر فعقارب الساعة لا تعود إلى وراء ولابد أن نتعقل ونتحاور لنصل إلى حلٍ لأزماتنا قبل أن تأتي النار على البيت المقدس.

سميح القاسم...
الشاعر والموقف السياسي الصحيح..

❋
خالد أبو خالد



لم يكن الخامس عشر من أيار وهو تاريخ النكبة العربية في فلسطين بمثابة إسدال ستار على النكبة كقضية ولكنه كان مفصلاً هاماً في حياة شعبنا وأمتنا ذلك أن النكبة قد واصلت تمظهراتها على امتداد أرض فلسطين وصولاً إلى وضع المخططات الصهيونية المدعومة من الغرب بزعامة أميركا في سلسلة من الأحداث أولها إبادة مايزيد على أربعة آلاف قرية عربية فلسطينية إبادة عرقية ومحوها عن الخريطة من (البروة) «قرية محمود درويش» إلى

❋ أديب وشاعر وناقد فلسطيني.
العمل الفني: الفنانة رفاه كريدي.

قريتي (إقرت و كفر برعم) مروراً بسلسلة من المذابح التي ارتكبها الصهاينة بدءاً من «دير ياسين» وصولا إلى «كفر قاسم» وليس نهاية بمذبحتي «قبية» و«قلقيلية» و«السموع» في أراضي الضفة الغربية قبل احتلالها عام ٦٧ والمذابح المتتالية التي استمرت بعد الاحتلال.

كان هذا المشهد المتتابع يقع دائماً في مرمى النظر بالنسبة لمن تبقى من شعبنا العربي في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ بعد أن تشرد شعبنا في مجمله في محيط فلسطين وفي المنافي ولم يكن ممكناً للباقين أن يغمضوا أعينهم متجاهلين مايجري على أرضهم وماحولها إذ عاشوا نكبتهم في مواجهة سلسلة العدوانات الصهيونية بدءاً من العدوان الثلاثي وصولاً إلى عدوان ١٩٦٧ مروراً بعدد من العدوانات على منطقتي الجولان وجنوب لبنان منذ العام ١٩٥٦ حيث العدوان الثلاثي إلى النكبة الجديدة في العام ١٩٦٧.

بسبب من وعي شعبنا ومثقفيه ومشرديه لهذه الحالة نشأ نوع من الأدب توزع مابين ثلاثة مواقع هي فلسطين المحتلة عام ٤٨ والمخيمات والمنافي فكان أبرز شعراء الأرض المحتلة الشاعر حنا أبو حنا، وخليل زقطان في المخيم، وأبو سلمى «عبد الكريم الكرمي» و«يوسف الخطيب» في الشتات وقد عبر هؤلاء جميعاً عن عمق النكبة واستمراريتها في الحياة العربية.

هنا لابد من الإشارة إلى أنَّ جيلاً جديداً من الشعراء شكل ظاهرة في تاريخ الشعر العربي الحديث وكان وجهي التجربة الشعرية الواحدة نعني به شعر المقاومة في داخل فلسطين وشعر الشتات خارجها بحيث تشكلت صورته داخل خريطة الشعر العربي كعلامة فارقة إذ كان الشعر العربي مستغرقاً في التوسل إلى المناسبات القومية أو العربية الفلسطينية لكي ينشد بكائياته على المخيمات والنتائج التي ترتبت على النكبة لكنه وبعد ذلك استغرق في حدث النكبة بحيث أصبحت قضية فلسطين مركزية في التجربة الشعرية العربية خاصة بعد العام ١٩٦٧.

لم يكن شعراء فلسطين المحتلة والذين عرفناهم كشعراء مقاومة موجودين في الصحافة العربية الثقافية أو غير الثقافية لكن إذاعة واحدة هي (صوت فلسطين من دمشق) قد سلطت الضوء على قصائد هؤلاء الشعراء منذ العام ١٩٦٣ ذلك أن دوريات الاستطلاع في الجيش العربي السوري قد حملت هذا الشعر إلى جانب ماحملته دائماً إلى الأفق العربي عبر دمشق.

والملاحظ أن شعراء فلسطين المقاومين قد تعددت انتماءاتهم الحزبية داخل فلسطين ١٩٤٨ بسبب من ضرورات فرضتها قوانين الاحتلال على شعبنا هناك لكنهم جميعا ظلوا أقرب إلى تكوين الأوركسترا كل يعزف في سياق انسجام هرموني واحد مؤسس على

موروثين رئيسيين الأول هو اللغة التي شكلت ركيزة ورافعة لتجربتهم الشعرية والثانية هي اتصالهم بالموروث من ديوان الشعر العربي وموروثهم من شعراء فلسطين أمثال مطلق عبد الخالق إبراهيم طوقان أبو سلمى وعبد الرحيم محمود، كما شكل اتصالهم المحدود بسبب من ظروف الاحتلال بالحداثة الشعرية العربية رافعة إضافية لإغناء تجاربهم فجاؤوا وليداً شرعياً ومكتملاً في مشهد شعري مؤثر في الداخل كما في الخارج.

وهكذا نستطيع القول بأن هذه الظاهرة الشعرية التي حاول بعض النقاد أكاديميين وغير أكاديميين أن يعتبروها جملة اعتراضية أو شعراً معارضاً للاحتلال لأنهم نظروا إليها بعين قاصرة لم تستطع أن ترى إلى جوهر الحال حيث أن من تبقى من الشعب العربي الفلسطيني في أرضه هو زبدة ومحصلة صمود لم يسبق له أن حدث في تاريخ شعب من الشعوب حيث بدأ يعبر عن نفسه أداء ديمغرافيا بالتوالد من جهة وأداء ثقافياً مبدعاً من جهة أخرى.

لقد تمثلت طليعة الشعراء من عدد منهم يمكن تسميتهم على سبيل التذكير لا الحصر بـ«توفيق زياد – محمود درويش – سميح القاسم – وراشد حسين» وكان لمؤسسة الوحدة للطباعة والنشر في سورية قصب السبق في نشر أولى المجموعات الشعرية فكانت مجموعة درويش التي عنونها بعنوان «آخر الليل» فأضافت الجهة الناشرة كلمة أخرى للتأكيد على مقولة التحرير فجاءت المجموعة بعنوان «آخر الليل نهار» تلى ذلك ديوان الوطن المحتل الذي جمعه وقدم له وأصدره الشاعر الراحل يوسف الخطيب في (٥٦٦) صفحة ضمت قصائد لمحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وسالم جبران وراشد حسين وعصام العباسي وسليم يوسف جبران ونايف صالح سليم وحبيب زيدان شويري وشادي الريف.

ولأننا في هذه العجالة بصدد الحديث عن الشاعر سميح القاسم فلابد من التأكيد على أنَّ الشعراء كما الشهداء لا يموتون أبداً ذلك أنهم يحضرون في الإرث الذي تسلمه من جاء من بعدهم والذي يعني أنهم يغتنون بمركب القيم التي أسسوا لها أو التي تربوا عليها وتلك التي تجلت أكثر ما تجلت في إبداعاتهم حيث يحضر هؤلاء الشعراء دائماً لا في غيابهم ولكن في مايمكن أن نسميه حضورهم الدائم.

وإذ أتحدث عن سميح القاسم في هذا الإطار فسميح في الشعراء نسيج وحده وهو المثابر على تصعيد قصيدته على سلم خط واحد من مرحلة إلى أخرى وصولا إلى نهاية ماأنجزه على مستوى الكتابة قبل الرحيل.

سميح القاسم الذي تشرفت دائماً بقراءة قصائده من إذاعة دمشق منذ وصلتنا وحتى قصيدته التي يتحدث فيها عن الانتفاضة

والتي عنوانها «تقدموا» ظل يصعد في أدائه هذا محافظا على الثابت في موضوع القصيدة أعني فلسطين وعلى الثابت فيما يتعلق بكونه شاعراً عربياً قومياً بامتياز مطوراً هذا الأداء من مرحلة إلى أخرى ومن نص إلى آخر مستفيداً من اتكائه على ديوان الشعر العربي وعلى صلته بهذا الديوان فهو وإن كان شاعراً حداثياً فهو شاعر حداثي أيضاً داخل قصائده العمودية في الإطار ذاته وتجدر الإشارة هنا إلى أنني التقيت الشاعر في أكثر من مساحة مؤتمر من مصر إلى الأردن وسبرت روحه المقاومة والعروبية وهما مصطلحان لالبس فيهما لدى الشاعر.

وإذا ماأردنا أن نحسن قراءة تجربة سميح فلابد من تحقيبها حتى لا تختلط علينا المحاولة ولكي نعطي لكل حقبة حقها ففيما يتعلق بالطرح في هذا السياق فإنني سوف أكتفي بالحديث حول تجربته منذ البدايات في دواوينه الأولى وهي الدواوين التي وصلتنا وقد حملتها لنا كما أسلفت دوريات الاستطلاع في الجيش العربي السوري في الستينات إلى جانب ماحملت من قصائد رفاقه وزملائه ومن وثائق ثقافية كشفت لنا في ذلك الوقت أن شعبنا في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ يدق علينا أسوار عزلتنا ليفتح لنا عليه أبواباً ونوافذ لم تعد قابلة للإغلاق كما حاول العدو الصهيوني أن يفعل وكأنه يمحو من تاريخنا وخريطتنا جزءاً من شعبنا جاء سميح ومجايلوه ليعلن لنا أن قصائدهم جميعها هي التعبير الأكثر صدقاً عن وجودهم في علاقة عضوية مع شعبنا تحت الاحتلال الصهيوني وأنهم لم يكونوا على هامش الحياة وإنما كانوا دائماً في القلب منها مناضلين شجعاناً وأكثر إخلاصاً وقدرة على التعبير عن وطن عربي يمتد من الماء إلى الماء وعن أمتنا العربية الخاضعة لحالة تجزئة التجزئة كما خطها ورسمها على الخرائط سايكس وبيكو في عملية اقتسام مناطق النفوذ على امتداد الوطن العربي.. سميح القاسم في حياته هذه كان شاعراً عربياً بامتياز وكان شاعراً عربياً فلسطينياً بامتياز أيضاً حتى أنه اخترق حصاره إلى ما احتل من الأرض في كل من فلسطين والجولان وجنوب لبنان وسيناء في العام ١٩٦٧م.

لم تكن قصائد سميح القاسم وهو في الطليعة من شعراء شعبنا تحت وطأة الاحتلال الصهيوني مقصورة على صيغة الكانتون ولكنها تجاوزت دائماً إلى الأرحب والأعلى فكانت جديرة بأن تصل إلى الأمة العربية في لحظة فارقة فأصبحت نشيداً لكل المهتمين بالشعر أو المهتمين بالسياسة في آن.

وهنا لابد أن أسجل في هذا الذي أقدمه سلماً متدرجاً عبر إبداعات الشاعر كما وصلتنا.

هنا أفتح مجموعة من الأقواس لتقديم الشواهد التي تدلل على خط سميح في

الشعر كما في الحياة ففي قصيدته أغاني الدروب يتحدث سميح عن جدلية العلاقة بين الجدب والخصب بين الضحك والدموع ليوجه رسالته إلى المتلقي فيقول:

«من رؤى الأثلام في موسم خصب
ومن الخيبة في مأساة جدب
من دمى الأطفال من ضحكاتهم
من دموع طهرتها روح رب
من زنود نسقت فردوسها
دعوة فضلى على أنقاض حرب»

وإذ يتوقف عند جيل المأساة لايراوح في أحزانها أو في أحزان القصيدة وإنما يستلهم الشمس الطالعة عائداً في قصيدة الأسلاف إلى جذوره ملاحظاً أن القرن العشرين جاء محملا بالحقد والكراهية وإذلال الشعب واضطهاد الملايين إن على يد الاحتلال الصهيوني أو على أيدي مرتكزاته في النظام العربي وهو إذ يتصور الجنة الضائعة في لحظة يأس على امتداد معايشته لأحوال شعبه يكتب رسالة إلى الله مستنهضا شعبه في قصيدة «أنتغونا» كما في قصيدة بابل بينما يضع أصابعه حين يهدي قصيدته إلى الحكم العسكري وهو يسخر من تشدقه بالسلام فلا سلام والخيام خلف الأسلاك الشائكة حيث الشعب العربي الفلسطيني ضحية الحزن والحمى وسل الذكريات.

وحين يستدعي كفر قاسم يستدعيها بكلمات قليلة لم يبخل الرقيب العسكري على حذف بعض مقاطعها لكن سميح الحزين والمحوّم مع أبناء القرية المنكوبة بالمذبحة التي ارتكبها جنود العدو الصهيوني يصرخ كمن ينفخ في قربة مقطوعة أو كمن يصرخ في واد فهو في كل الحالات يصرخ في برية العرب.

«لانصب.. لا زهرة.. لاتذكار
لابيت شعر لاستار
لاخرقة مخضوبة بالدم من قميص
كان على إخوتنا الأبرار
لاحجرٌ خُطت به أسماءهم
لاشيء ياللعار

❁ ❁ ❁

أشباحهم مابرحت تدور
تنبش في أنقاض كفر قاسم القبور»

وحين ينتقل إلى تذكار النكبة وما أورثت يستحضر روما ليؤكد أن «الجذر الضارب في أرضه لم يفقد في النكبة معنى نبضه».

وإذ يسمي الشاعر نفسه أبا كرمل قبل أن يولد كرمل يتحدث في هجائية عنوانها «كرمائيل» بمعنى بين قوسين إسرائيل.. وهي المستوطنة التي أنشأها العدو الصهيوني على جبل الكرمل بعد عام ١٩٤٨ يرى أن في هذا التاريخ تاريخ النكبة ينتهي سفر تكوينهم ليبدأ سفر تكويننا نحن أهل الأرض وهنا أيضاً ينعطف قليلاً إلى حالة يومية هي حالة السجن التي كانت بمثابة روتين يواجهه في كل يوم إذ إن هذا البوليس لاينام فهو وإن كان خلف

القضبان فـي السجن فهو خارج قضبانه في سجن أوسع.. في السجن الذي تحرسه شرطة العدو يكتشف الشاعر في مستوى مباشر من الأداء الشعـري أن ليس لديه في جيبه ورقاً أو قلماً لكنه مـن شدة الحرّ ومن مرارة الألم لم ينم وعندما نام واجـه الخفاش في ردائه الأسود فهو لا يقـرأ الصحف ولايعرف شيئاً عن الأهل والأحباب وتصور أنَّ حارسه سجين يشبهه ومحكوم مثله في هذه المهمة مؤكداً

«أومن أن زائري الأخير لن يكون
خفاش ليل مدلجاً بلاعيون
لابد أن يزورني النهار
وينحني السجان في انبهار
ويرتمي معتقلي مهدماً.. لهيبهُ النهار»

ويؤكد سميح القاسـم في مقالة له تحت عنـوان «شعراء لادبلوماسيـون» (وأنا عندما كتبت قصائدي المرفوضة تناولت مواضيعها من قلبـي من أعماق قلبي بكل مايلابس هذه المواضيع من اتفـاق أو تناقض مع الأوضاع السياسيـة التـي تحيط بـي وبالشعب الذي أومـن أنني أحمل قضاياه علـى كتفي وأبذل طاقتـي وإمكانياتـي في سبيـل التعبير عن طموحه بما فيه من معاناة وتفجُّر وعذاب ولا أنكر أن الظروف فرضـت نفسها علي وعلى الأدب العربي (فـي إسرائيل كلها) ولكن بعد أن أصبـح الموضـوع جاهـزاً يستحيل علي إبدالـه أو تجميده وهنـا كان الصراع المولد الذي فرضـ علي شكلاً معيناً يتسم بالرمزية المغرقة في التكثيف أحياناً والشفافية أحياناً أخرى بحيث تبدو الفكرة واضحة الوجه).

ماذا يعنـي هذا القول إنه يعني باختصار أن الرمزية في الشعر العربي الحديث عموماً قـد ولدت بسبب من الرقابـات وليس بسبب مـن التأثر بالشعر الأوروبـي وهو مااستطاع الشاعـر أن يطوعه بهدف توصيل المضامين إلى المتلقي فمـن المعتقل يشهد الشاعر أن السجان سجين أيضاً أما هو فسيظل بانتظار النهـار الذي يدفـن فيه وإلـى الأبد طوطم الاستعمـار علـى امتداد الأرضـ من غابات لومومبا في الكونغو إلى عذابات زنوج أميركا والأعداء دائما في تصوُّره هم الجنود وبالطبع من يديرهـم معتبراً نفسه قربانـاً للكلمة إذ يتمثـل أسطـورة عروس النيـل التي يضحى بهـا لاستجلاب الخصب وهو يـرى في أكثر من قصيدة أن جهـات الأرض الأربع طافحة بالمقابـر ولامكان بعـد لشواهد جديدة تلك الرؤيا مؤسسة أصلاً على رؤية الوقائع وليس على التصـورات أو الخيـال فسميح يوظف رؤيتـه للوصول إلـى رؤيـاه الملوّحة برايات العودة ودمه على كفه مادام الشعب يخفق في رياح الحزن والشدة.

وفـي الوقت الـذي يمجد فيـه الشاعر البطولة والشهـادة ويستحضر النكبة لاينسى أن جوهـر المسألـة كلها كامن فـي الصراع الطبقي وأن الخـروج من المحنة والاستبداد لايكون خروجا مأموناً إلا بخروج أمته من حيز

الزراعة المتخلف بأدواته إلى حيز التصنيع لكن السرطان الذي ينتشر في جسد الأمة من الاحتلال والاستعمار والطبقات المضطهدة من الرأسماليين والإقطاعيين والكومبرادور والذي يحول الإنسان إلى رقم لابد من مواجهته واجتثاثه للوصول إلى الوعي بحجم الفقدان والخسارات واتساع الجراح للخروج من هذا كله لابد أن يكون الدم على الكف في استلهام واضح لقصيدة الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود حيث عنون الديوان الذي ضم واحدة من أهم قصائده «خطاب من سوق البطالة» وهي القصيدة التي سأفرد لها تحليلا في نهاية هذا القول فإذا كان جذعه للفؤوس ضحية فجذر هذا الجذع له في الثرى طريق على الرغم من أنه عريان في طريقه إلى الغد الذي يرتاح في أفيائه أو يصلب فهو يقول:

«ولأجل عينه وأعين أخوتي أمشي
وأعطي الدرب مايتطلب
هذا أنا أسرجت كل متاعبي
ودمي على كفي يغني فاشربوا»

رحل سميح القاسم وظلت يده تقاوم كما يقال يرحل العازف وأصبعه يعزف فهو في بركة دكناء:

«في القلب وفي الوجه سحابة
ونجيع ساخن يصرخ في وحشه غابة
وعلى قارعة الدرب وعاءات نحاس
أيقظت بضع رصاصات
وألقت في جفون الإخوة القتلى النعاس
وعلى روث المواشي
بقع حمر
وفي الدوار
تعديد مواتٍ
كفرقاسم
كفرقاسم»

إنه أبداً يستحضر هذه القرية التي شهدت مجزرة أهلها في غياب كامل لأمته بينما يهتف:

«والذي في القلب في القلب
ومن جيل لجيل
وإلى أن يُبعث النهر
وتشدو في أغانيَّ الحمائم
أملأ الدنيا هتافاً لايساوم
كفرقاسم»

وستبقى قصائده كما يؤكد في قصيدته التي أعلنها خبزاً وسلاحاً في أيدي الثوار.

ويرى في رمزية صقر قريش أنه الذاهب العائد إلى الأرض التي هي أجمل النبضات في قلب الشاعر فهو يخاطبها:

«يامن نعت لديك بالحب
أتراي أشقى فيكي بالبغض
ردي على ابنك المفجوع
يا أرضي»

وينفتح الشاعر على أخوته في أفريقيا وآسيا حيث يتعامل معهم من خلال التاريخ

ونشـــرة الأنبـــاء المتداولة وهتـــاف أطفالهم موشوم علـــى زنودهم أمـــا لقمتهم وطعامهم فهو هتافهم (الموت للغزاة) كما في قصيدته «لو»

وفي نسيـــج دواوينـــه المبكـــرة غزليات عابـــرة على الرغم مـــن أنها ترتـــدي رمزية الأرض والأمة والشعـــب فالعشق هنا ذو أفق شمولي يتعدى الحبيبة إلـــى الحبيبة الأرض والشعـــب والأشجـــار والأحجـــار مقاوما كل المعوقـــات التـــي تقف في وجـــه عشق كهذا مستلهما فـــي كل ذلك تجربة زيتونة فلسطين الشاعر عبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» الذي وحد القضيـــة بالحبيبة بالأرض بالأم بالابنة والشقيقة والحلم.

«واحداً تلو واحدِ
يسقط الميتون تباعاً
فاحرسي يابلادي الشراعا
عائد فارس الريح عائد»

وهاهـــو يحشـــد جيشـــه من قلـــب نكبته ومحنته ليقاتل مقاومـــاً مستبسلاً غير هياب في الطريـــق إلى بيته والبيـــت هنا هو الذي خلفـــه حزينا ومرتعشاً وعلـــى وشك أن يهدم إذ يقول:

«وتدحرجَتْ خُوَذٌ على قلبي
وهمهم لاجئون
فغسلت من وحي الهزيمة
راية الحرف الطعين
وخرجت للدرب المعبَّدِ
بالجماجم والعظام
وهتفت بالجثة المعفرة
الطريحة بالرغام
باسم الحياة إلى الأمام
إلى الأمام
إلى الأمام»

وإذ يخاطب مايسمـــى بالمجتمع الدولي يدقق في التوصيـــف إلى درجة تبدو مستفزة إلا أنهـــا في حقيقتها تقدم توصيفاً دقيقا لما يسمى تحـــت هذا العنوان إن الشاعر يتحدث فـــي وقت مبكـــر عن هـــذه المؤسســـة التي تحاول أن تفرض كل قيـــم الغرب الرأسمالي وأن تضـــع القضايا العادلة فـــي أدراجها وأن يواصـــل موظفوهـــا الارتزاق مـــن ميزانيات الشعـــوب المساهمة في ماليتهـــا من بدلات سفر ورشاوى وقوات حفظ سلام إلى آخر من هنالك مـــن مؤسسات يثبت فـــي كل يوم أنها ليست مؤسسات لخدمة الشعوب. وموظفوها هـــم أصحاب الياقات الأنيقـــون الذين عنوَن رسالة إليهم وخاطبهم بالقول:

«أيها السادة من كل مكان
ليكن عاريَ طاعونا
وحزني أفعوان
أيها الأحذية اللامعة السوداء
من كل مكان
نقمتي أكبر من صوتي
والعصر جبان»

ولا يكـــف سميـــح القاســـم عـــن التبشير كرسوليّ لاهم له إلا القول بالوحدة على الأرض وفي الناس المقاتلون:

«جمّعوا سعف النخيل

أيها الأخوة للآتي الجليل
بردى فيه تلاقى والفرات
والتقى عاص ونيل»

ولعل أهم مايميز قصيدة سميح هي أنها القصيدة التي رافقته دائماً دون أن يسمح لنفسه بمغادرتها كقصيدة مقاومة لصالح الفانتازيا كما فعل شعراء عديدون اهتموا أكثر بالتقنيات وترصيع النصوص بماهو غريب أو متغرب.

ويمكن القول في هذا السياق بأن سميح القاسم قد بنى قصيدته بقاموس ومصطلحات تحيل دائما إلى الوقائع العربية والعربية الفلسطينية كما تحيل إلى التاريخ والجغرافيا ورموزهما في الأرض والناس من هنا تغدو قراءة أشعار القاسم أكثر سهولة ويسر من قراءة أشعار عربية أو فلسطينية حداثية استلهمت الوقائع نفسها ونهلت من الواقع نفسه لكنها ظلت أقل قدرة على توصيل المضامين فجاءت قصيدة سميح القاسم وبعض من زملائه لتسد هذه الثغرة ولتقدم لنا نصاً متماسكاً قويا مقروءاً من أوسع شريحة ممكنة حتى عندما يوظف الرموز السائدة أو المستمدة من الأساطير والتاريخ.

ولأن سميح القاسم الذي التحم بأرضه وناسه استطاع أن يتحدث لنا بلغة تلك الأرض وهؤلاء الناس فقد حفر عميقاً في وجدان المتلقي خارج فلسطين حتى إنه وعندما حضر لم يجر التعامل معه كواحد من المواطنين الفلسطينيين الذين غادروا فلسطين المحتلة في زيارة عابرة إلى خارجها أو في هجرة إلى هذا الخارج وإنما تعاملوا معه باعتباره مواطنا عربياً فلسطينياً واقعاً تحت احتلال العدو الصهيوني وفي الوقت ذاته هو مواطن عربي يناضل خارج الاحتلال الصهيوني أيضاً ولأن الأمر كذلك فقد حاول المتلقي دائماً أن يسبر هذه العلاقة في شخصية الشاعر بين الداخل والخارج بحيث لاحظ أن الخارج يرتبط بعلاقة جدلية بالداخل وأن هذه العلاقة هي الجسر الذي يقطعه سميح القاسم ذهاباً وإياباً إلى فلسطين وبالعكس.

وإذا كان لابد من الحديث عن قاموسه الشعري فإن هذا الحديث ينطلق أساساً من نص القصيدة لامن خارجها باعتبارها قصيدة مقاومة عربية فلسطينية بامتياز وباعتبارها قصيدة قومية مقاومة بامتياز أيضاً ومامن شك في أن هذا الذي يتصف به سميح من صفات شخصية ومعنوية هو مايتصف به شعراء آخرون جايلوه أو كانوا لاحقين له.

أعود الآن إلى قصيدته الهامة التي رافقتنا طوال تعرفنا إلى ديوانه الكبير وهي القصيدة التي شكلت وعياً في مواجهة العجز عن الحرب وعدم القدرة على شق الطريق الآخر فثمة إذاً من يرى القاسم أنه عاجز عن الحرب لاستعادة حقه وثمة من استسهل فاستسلم لكن الطريق الثالث الذي تمحورت حوله القصيدة هو الطريق الذي شق لنا نفسه وفتح ذراعيه لكل من تقدم ليسير فيه إنه طريق المقاومة حيث لاطريق سواه

إلـــى فلسطين أو إلى إسقــاط الطغيان وإلى إسقاط الهجمة المتوحشة للغرب الاستعماري على أمتنا وبلادنـــا سميح القاسم الذي تربى علـــى المقاومة ورضع حليبهـــا ترجمها حية وصريحة ومباشرة فـــي قصيدته التي تواكب أجيـــالاً باعتبارهـــا قصيدة عابـــرة للأجيال أيضـــاً فـــي هـــذه القصيدة لـــن أتحدث عن القيـــم الفنية العالية التي يؤكد الشاعر عليها في كل سطر من سطورهـــا فهذه مهمة ناقد متخصص ولكنني أشير بوجه خاص متحدثاً عـــن المضامين التـــي انطوت عليهـــا والتي تحمل في نسيجهـــا كل قيم البطولة المتمثلة فـــي حركة شعبنا العربـــي الفلسطيني وأمتنا العربية فـــي مواجهة كل هذا الظلم فيما يلي أقـــرأ مقاطع من هذه القصيدة التي وصلتكم كما وصلتني والتي أخذت من وجداناتكم كما من الوجدان العام وردت إليكم ما أخذته نقياً لالبـــس فيه هذا هو القول غير القابل للتأويل والتفسيـــر كما هي عادة بعض الشعراء الذين يفتحـــون قصيدتهـــم على تأويـــلات تجعلها مؤهلة لمغادرة قيمة المقاومة.

في هـــذه القصيدة يشيـــر سميح القاسم إلـــى عـــدوِّه المباشر ويسميه عـــدواً للشمس عـــدواً للضوء والنهار والخضرة والنماء عدواً للإنســـان في كل مكان في مثل هذه القصائد يتربـــى الجيل والأجيـــال التي تليـــه على أن الشاعر قد برهن عن شجاعة فارس لايخشى القـــول بـــأن قصيدتـــه مباشرة كمـــا درجت العادة عند بعض الكتبة هذه قصيدة مباشرة كالطلقـــة كالحرية في يد من يحسن توظيفها في الهدف الصحيـــح تحية لك أيها الصديق سميـــح القاسم الذي كان لنـــا شرف توقيعك علـــى محضـــر لقائنا مـــع كتابنـــا وشعرائنا المقاومين في فلسطين المحتلة عام ٦٧ وقد كللـــت مسيرتك بأنك أصبحت مؤسسا لاتحاد كتاب فلسطين في فلسطين بعد أن كان اتحاد الكتاب العـــرب في «إسرائيـــل» وأضعها بين قوسين لقد كانت الرامة قريتك العظيمة هي من ضم جثمانك الطاهر وإليه حج كل الذين أحبوك سواء بالخطى أو بالبصيرة.. تحية لك فـــي قريتك أيها الفارســـ الثائر.. وتحية إلى هـــذا الخلود المتجلي فـــي قصيدة المقاومة في هذا النصـــ المتفوق «خطـــاب من سوق البطالة».

ربما أفقد - ماشئت - معاشي
ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي
ربما أعمل حجاراً..وعتالاً..وكناس شوارع..
ربما أبحث، في روث المواشي،عن حبوب
ربما أخمد..عريانا..وجائع..
يا عدو الشمس.. لكن.. لن أساوم..
وإلى آخر نبض في عروقي.. سأقاوم
ربما تسلبني آخر شبر من ترابي
ربما تطعم للسجن شبابي
ربما تسطو على ميراث جدي
من أثاث.. وأوان..وخوابي
ربما تحرق أشعاري وكتبي
ربما تطعم لحمي للكلاب
ربما تبقى على قريتنا كابوس رعب

يا عدو الشمس.. لكن.. لن أساوم..
وإلى آخر نبض في عروقي.. سأقاوم
ربما تطفئ في ليلي شعله
ربما أحرم من أمي قُبْله
ربما يشتم شعبي وأبي، طفل، وطفله
ربما تغنم من ناطور أحزاني غفله
ربما زيّف تاريخي جبان، وخرافي مؤلّه
ربما تحرم أطفالي يوم العيد بدله
ربما تخدع أصحابي بوجه مستعار
ربما ترفع من حولي جدارا وجدارا وجدار
ربما تصلب أيامي على رؤيا مذله!
يا عدو الشمس.. لكن.. لن أساوم..
وإلى آخر نبض في عروقي.. سأقاوم!!
يا عدو الشمس
في الميناء زينات، وتلويح بشائر..
وزغاريد وبهجه
وهتافات وضجه
والأناشيد الحماسية وهج في الحناجر
وعلى الأفق شراع..
يتحدى الريح.. واللّجّ.. ويجتاز المخاطر..
إنها عودة يوليسّيز
من بحر الضياع..
عودة الشمس، وإنساني المهاجر
ولعينيها، وعينيه.. يميني.. لن أساوم..
وإلى آخر نبض في عروقي..
سأقاوم..
سأقاوم..
سأقاوم!!..

وعلينا هنا أن نتذكر أنه لايسامح في قصيدته أولئك الذين يغادرون الوطن إلى غير رجعة ربطاً بعملية الكفاح حيث رأى في قصيدته التي حملت عنوان «إليك هناك حيث تموت» أن مغادرة الوطن ليست كالبقاء فيه بما يعني أن البقاء صمود وتضحية وكفاح وأن الاختلاف لايعني هنا أن المغادرة وجهة نظر قابلة للقبول بقدر مايعني أن المغادرة هي إنكار للقيم النبيلة التي يمثلها مليون عربي فلسطيني مازالوا يتمثلون النص «هنا على صدوركم باقون» وهم هم الذين لايكتفون بمجرد هذا البقاء وإنما يتحركون لإعادة الأمور إلى قواعدها الصحيحة أي التأكيد على أنهم هم أهل البلاد وأصحابها والمنتصرون في معاركها منذ أن كانت هذه المعارك.

وإذ يرحل سميح القاسم يخلف لنا وصية لا من كلمتين ولا من سطرين وإنما هي مكونة من مسيرة إبداعية وثقافية حاضرة في غيابه كما في حضوره ومتجذرة في روحه كما في روح شعبه وأمته سميح القاسم الذي أوصى بأن يدفن جثمانه على أعلى تلة في قرية الرامة فعل ذلك لأن هذه التلة تشرف على كل فلسطين حيث كان الشاعر إن في طفولته أو في شبابه أو في كهولته يرقى إليها لكي يشرب فلسطين ويتنفسها ويتمثلها في كيانه الإبداعي والإنساني.

«ماكبث: الطموح الأعمى والضمير المتمرد!»

❊
إبراهيم محمود الصغير



يعتبر الكاتب المسرحي الإنكليزي وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) من أشهر كتاب المسرح العالميين، والأكثر معرفة وتداولاً في عالم المثقفين والفنانين. ومسرحياته ما تزال تمثل على خشبات المسارح في كل أنحاء العالم. ذلك أنه، خاصة في مآسيه، ينظر إلى العالم من منظار إنساني، وليس من منظار إنكليزي أو أوروبي، فقد نزل بعقله وعواطفه إلى الشارع، وخالط الناس على جميع طبقاتهم ومستوياتهم، ودرس أحوالهم الشخصية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية.

واطلع على مشاكلهم ومشاعرهم وأفكارهم

❊ أديب وناقد من فلسطين.

الحقيقيـــة كما في الواقع تماماً، دون زيف أو تظاهر أو تمويه. فكتب نتيجة ذلك عن مشاعر الناس كالحب والكره والغيرة والحسد والحقد والطمــوح والتردد وسرعـــة الغضب والتهور والطمع والجشع والإسراف في الحب والزهو والاستبـــداد، وغيرها مـــن المشاعر والنوازع البشرية الحقيقية الكامنة في خبايا النفوس، والتـــي يشترك فيهـــا كل الناس على اختلاف أجناسهم وطبائعهـــم وعاداتهم ولغاتهم وغير ذلك في كل الأمكنة في العالم.

وقد خالــف شكسبير المأســـاة اليونانية القديمة التي تقـــول أن الآلهة هي التي تقود الإنسان إلى مصيره المحتوم، وأنها التي تتحكم بمجرى حياته وأفعاله، وتحكم عليه بما تريد، كمـــا نرى ذلك في مسرحيـــة «أوديب الملك» لسوفوكليس، فقال شكسبير: إن المأساة ناتجة عن نقطة ضعف كائنة في الإنسان، هي التي تؤدي بصاحبها إلى نهايته المأساوية، فعطيل قضـــت عليه غيرتـــه، وهاملـــت قضى عليه تـــردده، وماكبث قضى عليه طموحه الأعمى، والملك لير قضى عليه تهوره وسرعة غضبه، وهكذا مع بقية شخصياته المأساوية الأخرى. والجميل في شخصياته المأساوية أنها لاقت إعجابـــاً شديداً من جميـــع المشاهدين، بكل مـــا فيها من نقاط ضعف، في كل الأمكنة في العالم، لأنه ما من إنسان إلا ويعاني من نقطة ضعـــف بارزة فيـــه. لذا رأى النـــاس، في كل مكان، أنفسهم مجسدين في هذه الشخصيات ويعانون مثلها تمامـــاً. والأجمل من ذلك، في هـــذه الشخصيـــات المأساويـــة، أن شكسبير يجعـــل المشاهديـــن يتعاطفون معهـــا بشدة، رغم جرائمها وأعمالهـــا البشعة أو الوحشية أحيانـــاً، ذلك بأنه يوفر لها المبررات المقنعة لأعمالهـــا، لأنه ما من إنســـان يختار طواعية نهايته المأساوية، إلا أن يكون مجبراً على ذلك، إما لعدم قدرتـــه السيطرة على نقطة ضعفه، لأنه إنسان ضعيـــف عاجز ككل الناس حوله، أو لوجود مغريـــات ومشجعات حوله تؤدي به إلى الهلاك، أو لظروف خارجية قاهرة تؤدي كذلك إلى دمـــاره وهلاكه والناس، وإن كانوا، في الواقع، يتعاطفون مع شخصيات شكسبير المأساوية، إلا أنهم يرضون، في النهاية بإنزال العقوبـــة عليها، لأنه لا بـــد للإنسان أن يدفع ثمناً لمـــا تقترفه يداه من الجرائـــم والآثام، مهما كانـــت المبررات، وهذا يعطيهم الشعور بالارتياح وإرضاء الضمير.

وفي مسرحية ماكبث، التي نحن بصددها، والتي هـــي أقصر مآسيه مـــن حيث الطول، يقـــدم لنـــا شكسبير مثـــلاً رائعاً عـــن سلطة الضمير الحي في كل نفس، وكيف أن الغرائز الدنيئة تحاول الاحتيال على الضمير لإفساده وتخريبه، فهي تعمل كالمخدر يمكن أن تسكت الضمير وتشله فترة من الوقت، حتى إذا ما تم اقتراف الخطيئة استيقظ الضمير وعاتب، ثم اشتد الصراع بينه وبين هذه الغرائز الخبيثة، وهذا مـــا يحدث تماماً مع ماكبث، الذي رغم

كل جرائمه، ظل لديه الضمير قوياً ونشيطاً ومنبهاً، بل ويدخل في صراع شديد وشرس مع طموحاته وأطماعه، منذ أن تفتحت إلى أن كانت نهايته المأساوية، وهذا شيء لا نلمسه صراحة عند شكسبير، وإنما نجده كائناً في ثنايا هذه المأساة، والتي يمكن أن نقول أنها مأساة الضمير الحي الذي يتعرض للاغتيال من قبل صاحبه بشكل متعمد. فماكبث عانى من صراعين مريرين: صراع خارجي مع أولئك الذين يريدون حرمانه من الملك، وصراع داخلي مع ضميره الذي ظل يؤرقه حتى اللحظة الأخيرة. وقليل جداً من تعرض لهذه النقطة الحساسة، وأعطى الحكم العادل والمنصف بحق ماكبث. حتى شكسبير نفسه، عرض لنا القصة كما هي ثم ترك الحكم النهائي للمشاهدين.

ونحن نرى أن الصراع الحقيقي، يبدأ من بداية المسرحية، أي من اللحظة التي يعود فيها ماكبث مع رفيقه وقريبه بانكو، بعد معركة كبيرة انتصرا فيها على أعداء البلاد، ويلتقيان بثلاث ساحرات، في برية شاسعة مهجورة، تحيي الساحرة الأولى ماكبث بسيد غلاميس وتحييه الثانية بسيد كودور، أما الثالثة فتحييه بأنه سيكون ملك البلاد في المستقبل. كما تتنبأ الساحرات لبانكو بأنه سيكون أباً لسلسة من الملوك. وسرعان ما أثرت هذه النبوءات بماكبث ولامست طموحاته فهتف يقول مستفهماً:

«أبيني أيتها النواطق بغير إفصاح عما في ضمير المقادير، وزيديني بياناً. أعلم أنني بموت أبي (سينل) قد أصبحت سيد (غلاميس) ولكن كيف أستطيع أن أكون سيد (كودور)، في حين أن صاحب هذا المنصب ما زال في إقبال من دهره؟ أما أن أصير ملكاً فذلك أبعد احتمالاً! .... أبيني إذاً من أين استنزلت تلك الأقوال المستغربة؟ إني لأتقدم إليك أن تجيبيني!».

وتختفي الساحرات دون جواب. وعندما يصل الفارسان إلى الملك دنكان، يهنئهما على النصر على الأعداء، ثم يمنح ماكبث لقب سيد (كودور)، بعد أن نزع هذا اللقب من صاحبه لخيانة اقترفها، فتحقق لماكبث أول النبوءة. وأخذت أمنية الاستيلاء على العرش تخامر قلبه، وولدت الصراع في داخله، حيث أفصح عن ذلك بقوله:

«نبوءتان تحققتا فكانتا فاتحتين سارتين لمأساة جعلت خاتمتهما أريكة الملك. فما بالي تخالجني أمنية يقف لهولها شعر رأسي، ويخفق من أجلها قلبي خفوقاً يقلق الضلوع. وإن فكري الذي لم تزل نية القتل فيه خيالاً رقيقاً ليشل مني عرش النهي، ويزعزع في نفسي مملكة القوى، حتى ليفل العزيمة، ويغلب الآمال على النشاط للأعمال، فإذا أنا والحاضر عدم، والمستقبل وحده هو الوجود».

لقد أصبح ماكبث الآن كالطفل الذي وجد قطعة نقد في الشارع، ثم بعد قليل يجد قطعة أخرى، ثم تلوح له الثالثة فتأخذه حالة من هيجان الطمع والجشع بحيث يأخذ في ذرع الشارع جيئة وذهاباً علّه يجد المزيد من قطع النقود. وهكذا ماكبث، فهو في حالة تلهُّف للحصول على الملك، بعد أن تحققت له النبوءة الأولى والثانية، وتعلم زوجة ماكبث بأمر النبوءة، فإذا هي أشد طموحاً وشوقاً للعرش منه، وتأخذه من جانبه الضعيف لتقوي فيه الطمع وتدفعه إلى الفتك بضيفه وابن عمه، ليستولي على العرش مكانه، فتوسوس له قائلة:

«تعال لأفرغ في أذنيك الحماسة والشجاعة، تعال لأزيل ببأس لساني ضعف نفسك، وأبدد الوساوس الدنيئة التي تعوق يدك عن غصب الإكليل الذهبي، الذي تريد المقادير إرادة ظاهرة أن تضعه على جبهتك».

ولكن ماكبث يتردد، ويؤنبه ضميره ويحذره من مغبة هذا العمل الغادر والجبان، فيقول محاولاً ردع نوازعه الإجرامية:

«لو كانت ضربة القاتل لا تعقب أمراً في هذه الحياة الأولى، لما أُغليت قيمة الحياة الأخرى. ولكن إزهاق الروح إنما هو من الجرائم التي يعاقب عليها في الدنيا، فمن سفك دم غيره عرض دمه للسفك، ومن دس سماً في كأس قضى العدل عليه لا مرد له بأن يعيد الكأس إلى شفتيه، والرجل ههنا، يعصمني منه عاصمان، قرباه لي، وتبعيتي له، ثم هو ضيفي وله علي أن أقفل بابي في وجه من يبغيه بسوء، فكيف بي وأنا أطعنه بخنجري؟».

ويدور صراع مرير في داخل ماكبث بين نوازعه الشريرة وضميره الحي، ويجعله هذا الصراع في حالة قلق واضطراب وانهيار، حتى بات يتخيل أشياء وأشياء، وتساوره الوساوس مساورة أفضت به إلى مثل هذيان المحموم، فبدى يتوهم أنه يرى خنجراً معلقاً في الهواء، فيأخذ في مخاطبته ومناجاته، وهذا المشهد يعتبر من أشهر المشاهد المسرحية عند شكسبير، والذي يقول فيه ماكبث:

«هل هذا خنجر يلوح لي، ومقبضه متجه نحو يدي؟ أئلني منك ما تنضم عليه الأنامل. تفر، ولكني ما أنفك أراك. ألا يقع عليك اللمس كما يقع عليك البصر؟ أم لست غير نصل مخيَّل من وضع فكر ذاهل مخبَّل؟ تمشي أمامي لتهديني سبيلي وتتمثل بين يدي أشبه بالخنجر الذي كنت عازماً على الطعن به. لعيناي بانفرادهما خير من جميع حواسي الأخر، أو شد ماهما مخدوعتان. إنك لنصب مقلتي لم تبرح. وإني لأتبين فيك على الشفرة والمقبض قطرات دم لم تكن عليها منذ حين لا وجود لشيء من كل هذا. ولكن نية القتل هي التي تغشي نظري بآية من سحرها.

في هذه الساعة تهدأ الطبيعة هدوء الموت في شطر من شطري هذه الكرة ويخدع النيام

بأحلام سيئة تخامرهــم في مضاجعهم. في هذه الساعــة ينهض الاغتيال عاري الأشاجع ضامر التجاليد، سامعاً عواء الذئب، والذئب حارسه الذي يعين له بصوته الميقات ويعطيه الشعــار، فيزحــف منساباً صامــت الخطى زحف الســلاب، ويسطو علــى فريسته. أنت أيتها الأرض الوطيدة، لا تسمعي وقع قدمي، واجهلــي الطريــق التي تسلكانــه، مخافة أن تدلك أحجارك على المكان الذي أذهب إليه بقعقعة ينفر منها السكوت المرهوب الذي هو أصلح شيء لمثل هذه الساعة».

ولكن طمــوح ماكبث الأعمــى، وأطماعه القاتلــة، ووسوســات زوجتــه الشريرة دفعته أخيــراً ليقتل دنــكان غيلة وغــدراً في ليلة ظلماء عاصفة، وفــي وصف تلك الليلة يقول أحدهم:

«الليلة كانت عصيبة. وقد قلبت العاصفة مواقد الغرف التي بتنا فيها. ويقال أنه سمعت في الجو صيحات ألم وصرخات موت، وجلبة مخيفة، اختلطــت فيها الأصــوات، وأنذرت بكــوارث هائلة، وحــوادث شديــدة ملتبسة، ومستقبل حافل بالفــوادح. فما انقطع نعيب البوم طــول الليل. وزعم بعضهــم أن الأرض أخذت بهزة حمى فزلزلت».

وكان وصف ليلة القتل أشبه ما يكون تماماً بما يجري ويحدث في أعماق ماكبث من قلق واضطراب وألم وعذاب.

ويتم اتهــام الحارسين الشخصيين للملك بقتله، ويفر ابنا الملك خوفاً على حياتيهما من ماكبث. وبذلك يستتب الأمر لماكبث ويستولي على الملك، لأنه أقرب ما يكون للملك القتيل بعد فرار ابنيه.

ولكــن أنى لمن كان طموحــه الأعمى قد تجاوز الحــد، وتلطخــت يداه بالدمــاء، أن يستريــح أو يجد للراحة سبيلاً، أو يجد للنوم طعماً، وهو يقول في ذلك خائفاً مضطرباً:

«خيل إلــي أن صارخاً كان يصرخ بي: لن تذوق المنــام. إن ماكبث قتــل الرقاد ... لن تنام يا قاتل الرقاد، غلاميس، كودور، ماكبث لن تنام!».

كان ماكبث يحاول جاهداً أن يزيح كابوس جريمته من أمام عينيــه، ولكنه كان كالغريق فــي الرمال كلما حــاول أن يخرج منها ازداد غرقــاً، وكما يقــال الجريمة تتبــع الجريمة، فإن ماكبث مــا أن استتب له الأمر بعد مقتل دنكان، حتى أخــذت أطماعه توسوس له مرة أخــرى بقتل ابن عمــه الآخر بانكــو، الذي تنبأت له الساحــرات بأنه سيكون أباً لسلسلة من الملوك. فنوى الفتك به وبابنه في مكيدة خبيثــة، فيخلو بذلك باله مــن أمرهما، وهو يبرر لنفسه الأمر قائلاً فيما يشبه الندم:

«سينتقل الصولجان غصباً من يدي، وليس لي ولد من صلبي، فلأجل أبناء بانكو وأعقابه أكون قــد دنست نفسي، ولأجلهم قتلت دنكان الرحيــم، ولأجلهــم مزجت بسُــمِّ الحقد راح راحتي؟!»

ثــم أمر وغديــن فاتكين مــن أتباعه بأن

يكمنـا لبانكو وابنه فـي الطريق الذي يأتيان منه ويقتلانهمـا. وينجح الوغدان بقتل بانكو ولكن ابنه يهرب. وعلـم ماكبث بذلك فازداد ذعره وخوفه وأصبح أكثر اضطراباً وارتياعاً. وأخذ يقول لنفسه في هلوسة:

«ليست العبرة فـي أن تكون ملكاً، بل في أن تكـون آمنـاً، جرحنا الثعبان ولـم نقتله، فهو سيشفى ويستعيـد قواه، وسنبقى عرضة لنكزاته .....».

وهنـا يأخذ ضميره في التمرد والانقلاب عليـه، موقعاً عليه العقـاب الشديد، بعد أن لامـه وأنّبه طويلاً بلا طائل. فيتخيل ماكبث، من شدة الخيال الذي حلق به، أن بانكو يجلس بجانب كرسيِّه، فيصيح تلك الصيحة النكراء، والتـي عدها أهـل البيان من أبلـغ مواقف التمثيـل. ويعتقد بعضهم أن شبح بانكو الذي رآه ماكبث فـي الوليمة الملكية إنما هو شيء اختلقه ضميره المذنب، وأن كلامه وهلوساته كانت مصداقاً للقـول: «كاد المريب أن يقول خذونـي». فها هو يوجه كلامـه للشبح الذي يعتقده أنه بانكو، قائلاً:

«ليس لـك أن تزعم أنني أنـا الذي فعل هـذه الفعلة، كل ما تجرؤ عليـه أجرؤ عليه، ادن منـي وكن دباً هائـلاً، أو تمساحاً غائلاً، أو نمـراً وثاباً، بل تشكل بأي شكل آخر، وبالغ فـي الروع، لا تضطرب قدمـاي لرؤيتك، بل انبعث حياً وادعني إلي القتال في قفر. فلئن اتقيتك وتجنبتك، فلا تعتدَّ بي بعد ذلك بأكثر مما يعتـد بألعوبة الطفلة الصغيرة، وراءً أيها الشبح الرائع! وراءً أيها الطيف المخيَّل!».

وبدأ ماكبث، بعد حادثة الوليمة الملكية، ينهار ويصبح عرضة لصراعات متأججة في داخله، وأخـذت تنتابه التخيلات والهلوسات، بيـن حين وآخر، تحت ثقـل ضميره المعذب وطموحه الـذي لا ينتهي، ولكي يتخلص مما فيه، يذهب مضطرباً إلى الساحرات، اللواتي يخبرنه بأن يتقـي ماكدف، وأنه أيضاً ما من رجل ولدته امـرأة يستطيع إيـذاءه، وأنه لن يهـزم أبداً حتـى تزحف غابـة (بيرنام) إلى قصره المنيع.

وتشجعـه هـذه النبـوءات الجديدة على المضي قدماً في طغيانـه وتجبُّرِه، ويستعيد ثقته بنفسـه ويقرر القضاء علـى خصومه، وخاصة ماكـدف، الذي حذرتـه الساحرات منه، ولم يعد يعبأ بالدماء التي يريقها أمامه، فقد قرر أنه سيكون أمراً أسهل أن يبقى على القتل والإجرام، علـى أن يتراجع إلى الوراء، وفي ذلك يقول:

«لقد تماديت فـي غمر الدماء المهراقة، حتى لو أردت النكوص على أعقابي، لكانت مشقـة العودة إلى الشاطئ الذي انطلقت منه كمشقـة السير إلى الشاطئ الثاني، تجول في رأسي أمان سيناط تحقيقها بيدي، فلأمضينها وشيـكاً قبل عرضها على الـرأي، لا مندوحة من قتل ماكدف وإعـداد العدة لإرهاب ملك

إنكلترا منعاً له من تسيير جيش إلينا كما يزعمون تحت قيادة نورثمبرلن وسوارد، لإمداد العصاة، وغصب الصولجان منا».

ولكي ينتقم ماكبث من ماكدف، يتجرد من كل مشاعره وأحاسيسه الإنسانية ويرتكب مجزرة بحق كل امرئ في قصر ماكدف، بما في ذلك زوجته وأطفاله، ويرمي نفسه إلى العيش بالاعتماد على الحوافز والنزوات، وكأنه يريد أن يطمس ضميره، الذي ظل يعذبه باستمرار عامداً متعمداً، وفي ذلك يقول، وهو يصر على أعماله البشعة:

«أيها الدهر إنك لتحول دون ما كنت أنويه من عظائم الفعال. والإرادة إن لم تقترن بالمضاء لم تكن إلا فكرة هشة، إني منذ هذه الساعة لمعقب بعزمي على ما يوحيه حزمي. فأي خاطر صدر عن قلبي صدر من يدي، سأفاجئ قصر ماكدف مستولياً على ولايته، وسأعمل السيف في رقاب امرأته وأبنائه وكل منكود ينتمي إلى عترته. وعيد ليس بالقول الطائش، لكنه عزيمة من فورها نافذة».

وبعد إعلانه هذا التعهد لنفسه، يقع ماكبث في فوضى وغرابة أطوار قوية، وتظهر عليه علامات تشنجية متقطعة، وانفجارات انفعالية، وفي هذه الأثناء تصبح زوجة ماكبث مختلة عقلياً، بالذنب الناشئ عن الجرائم التي اقترفتها، والتي دفعت زوجها لارتكابها أو شجعته عليها، وكأنها كانت صورة مماثلة لماكبث المثقل بذنوبه وأوزاره أيضاً. وفي مشهد مشهور تمشي في نومها، وتحاول غسل يديها من بقع دموية متخيلة على يديها وهي تقول في هذيان واضطراب:

«أفلا تفارقني هذه اللطخة الدامية؟ زولي أيتها اللطخة القبيحة! الظلام دامس في جهنم، عار عليك يا زوجي وشنار. هل البطل المجرب يداخله الخوف؟ ماذا يهمنا أن يعلم الناس ما يعلمون حين نصبح من القدرة والسلطان بحيث لا نناقش الحساب؟».

وتموت زوجة ماكبث، ولا يعرف سبب مفسر لموتها، وإن كان يفترض عامة أنها انتحرت. ولم يهتم ماكبث لموتها لأنه كان مشغولاً في أمر الدفاع عن ملكه ورد الغزاة القادمين للنيل منه، لقد أصبح في شبه حالة انهيار. فكل شيء من حوله ينهار ويتصدع، بل إنه أخذ في السقوط في ظلمة أخلاقية كلية، وأخذ يتخلى تماماً عن كل منظور تفاؤلي، وأكثر من هذا فإن عظمته القديمة قد انحطت وتقهقرت، وأصبح كلامه عدمياً كقوله:

«هكذا تنصرم الأيام من حيث لا نشعر بها، متوالية إلى آخر هجاء من أهجية الكتاب الذي يحرر فيه الدهر أحداثه وسيره. كل ليلة تنقضي تمهد لبعض الأناس الضعاف طريق القبر. انطفئ أيها النور المستعار هنيهة. ما الحياة؟ إن هي إلا ظل عابر. إن هي إلا الساعة التي يقضيها الممثل على مسرحه متخبطاً

تعباً، ثم يتوارى ولن يرى، إن هي إلا أقصوصة يقصها أبله بصيحة عظيمة وكلمات ضخمة، على حين أنها خالية من كل معنى».

في هذه الأثناء يتقدم جيش مالكولم، ابن الملك المقتول، ويرافقه ماكدف وحلفاؤه الإنكليز. ويبدو الجيش كما لو أن غابة (بيرنام) تتحرك باتجاه قصر ماكبث، حيث أن أفراد الجيش يقطعون الجذوع والأغصان في الغابة ويتحركون بها كتمويه.

وتحصل المعركة بين الجيشين، وتدور الدائرة على جيش ماكبث، ويلتقي ماكبث وماكدف وجهاً لوجه في مبارزة فاصلة، ويتباهى ماكبث بأنه ما من داع يدعوه للخوف من ماكدف، لأنه لا يمكن له أن يقتل على يد رجل ولدته امرأة. ويعلن ماكدف أنه ولد بعملية قيصرية قبل أن تضعه والدته بشكل طبيعي. وهو من ثم لم تلده امرأة. ويتحقق ماكبث أخيراً، من أن الساحرات قد خدعنه، وأنهن كن يوارينه ويراوغنه، وأنه قد أضاع حياته هباءً، وخسر كل شيء مقابل لا شيء. وتنتهي المسرحية بمقتل ماكبث على يد ماكدف، وبذلك تتحقق آخر نبوءات الساحرات.

لقد كان ماكبث، كما يقول بعض النقاد، في طموحه الأعمى، أشبه ما يكون بالفارس الذي أراد أن يقفز على ظهر حصانه، فكانت قفزته من القوة بحيث سقط على الجانب الآخر من الحصان فدقت عنقه. وإنه من المؤسف أن تنحط حياة رجل عاقل، وقائد شجاع، ونبيل عريق، إلى أدنى الذلة والمهانة، بعد أن ظن أنه بارتكاب الجريمة يبلغ أوج السيادة والسعادة. ولو أنه رجع إلى نصيحة وتحذير الضمير لما أصبح سبة في الأساطير، ويعد في التاريخ من بين كبار القادة وخيار السادة. والعجيب أنه اختار أن يغتال ضميره بيده، ذلك الضمير الذي ظل طوال المسرحية يصرخ به مؤنباً ومحذراً له من الوقوع في درك الجريمة وارتكاب الآثام، إلا أن الطموح الأعمى، ووسوسات الزوجة الجشعة، وخداع الساحرات، عجل بنهايته الأليمة. ومع ذلك يمكن لمتابع المسرحية بانتباه أن يلاحظ أن ضمير ماكبث الحي ظل يصارع ويصارع، وأنه ظل ينبض ببصيص من الحياة حتى آخر لحظة.

المراجع والمصادر

١- ماكبث، وليم شكسبير، ترجمة خليل مطران، دار نظير عبود، بيروت، ١٩٩٩م، ط١.
٢- ماكبث والإرادة الماورائية اللاأخلاقية، غالب سمعان، الناشر: المؤلف، دمشق ٢٠٠٨م، ط١.
٣- تاريخ الأدب الإنكليزي، جون بيرغس ويلسون، لونغمان، لندن، ١٩٧٠م.

الرواية الإسبانية المعاصرة

تأليف: نيبيس ليتوريو (*)
ترجمة: جعفر محمد العلوني (**)



يسأل النقاد دائماً، وبشكل متكرر، السؤال الآتي: هل حدث في عام ١٩٧٥م تغيّر جوهري في الرواية الإسبانية؟ وهل حدث انقطاع بين رواية اليوم ورواية الأمس؟ يجيب الباحثون بمواقف متناقضة، فبعضهم يجد أنه بعد موت فرانكو، لم يحدث أي شيء يذكر، فالأعمال العظيمة التي قال عنها بعض الكتاب إنها مخبّأة في الدروج كي لا تصطدم بالرقابة، لم تكن موجودة، ودُور النشر الكبيرة، مع الطرح المتكرر للكتّاب الروائيين الشباب، كانت تدافع عن الفكرة النقيضة.

(*) Nieves leturio: دكتوراه في الأدب الإسباني ونظرية الأدب من جامعة إسبانيا الوطنية. لها العديد من المؤلفات أهمها (أدباء العصر الحديث)..

(**) كاتب ومترجم.

إلا أنَّ الوضع العام، وكما يحدث دائماً، كان أكثر غموضاً وانتشاراً. فعلى أية حال، لا يسعنا الحديث عن انقطاع مع التقليد، وإنما يمكننا التحدُّث عن بعض النتائج الإيجابية التي ظهرت بعد عام ١٩٧٥م كالتّحرر والانفتاح.

في الواقع عرفت الرواية في تلك المرحلة تطوراً كبيراً استمر حتى يومنا هذا. إلا أنَّ حيوية هذا النوع من الأدب، لم تسمح بتأسيس خطوط عريضة محددة، وإنما أظهرت لنا بانوراما تعدّدية من النزعات والكتّاب.

أبدت الرواية في هذه المرحلة، وبعد أن هضمت محاولات التجديد السابقة دون الانقطاع عنها بشكل كامل، اهتمامها بالتاريخ ذاته وبعظمته. فالنزعات التي تأصلت والتي قويت مع مرور الزمن، كما سنرى، هي نفسها تلك التي ظهرت في الرواية الأوروبية: الواقعية المتجددة، والرواية التاريخية، والبوليسية، والميتافيزيقية الخيالية، والسيرة الذاتية، والذكريات، والواقعية السوداء. لقد خرجت كل هذه النزعات من ريشة عدد كبير من الكتّاب، الذين لم يطوروا شكلاً خاصاً دون غيره، وإنّما مزجوا بينها واستخدموا أكثر من طريقة في الكتابة.

العودة إلى الرواية - تنوع التيارات والنزعات:

يزعم بعض النقاد أنَّ عام ١٩٧٥م هو الخط الفاصل بين مرحلتي ما بعد الحرب والمرحلة المعاصرة، على الرغم من أن كثيرين لاحظوا وجود تغييرات جذرية- على الصعيد الاقتصادي والسياسي والفني والثقافي- حدثت منذ منتصف القرن الماضي، كما أشرنا في مقدمتنا لمرحلة ما بعد الحرب.

سرعان ما أبدت الرواية ردة فعل ضد الالتزام الاجتماعي والتجريبية، كما رأينا أيضاً في الشعر، الأمر الذي جعل الرواية ترتبط بظاهرة ما بعد الحداثة. هذه الحركة الفكرية والجمالية الأوروبية- الأميركية، والتي أشرنا إليها أيضاً في البحث السابق، تعتمد على انعدام الثقة بالنصوص المتعالية، وعلى الابتذال، وإزالة الميتافيزيقي وعلى رفض ساخر، واستهزائي، وريبي، وغير أخلاقي إزاء القيم، واللغة، والنظم الأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية القديمة، وقد طرحت نموذجاً ثقافياً مختلفاً، وكنتيجة لذلك، تم صياغة بعض القوانين الأدبية من جديد.

تكرر الحديث مع بداية مرحلة الانتقال السياسي عن وصول الرواية الجديدة. وقامت العديد من دور النشر بالرهان على

الكتّاب الشباب الذين؛ على الرغم من أن أدبهم لم يقدّم الخصائص المشتركة ذاتها، إلا أنهم أخرجوا الرواية من سباتها، وأيقظوا اهتمام النقاد والجمهور.

خلال هذه السنوات، وُجد في الوقت ذاته أربعة أجيال من الكتّاب: روائيو فترة ما بعد الحرب، مثل ثيلا Cela وديليبيس Delibes وتورينتي بايستير Torrente Ballester وهم من أبرز ممثليه؛ لدينا أيضاً جيل مذهب الواقعية، مثل خوان غويتيسولو Juan Goytisolo، وخوان مارسيه Juan Marsé، وكارمن مارتين غايته Carmen Martín Gaite، وخيسوس فيرناندز سانتوس Jesús Fernández Santos، وغيرهم؛ وجيل من الكتّاب ممن ابتعدوا عن مذهب الواقعية وعلى رأسهم خوان بينيت Juan Benet؛ أما الجيل الرابع فهم الروائيون الجدد، من بينهم فيليكس دي أثوا Félix de Azúa، ولويس ماتيو دييث Luis Mateo Díez، وخوسيه ماريا غيلبينثو José María Guelbenzu، وإدواردو ميندوثا Eduardo Mendoza، وخوسيه ماريا ميرينو José María Merino، وخوان خوسيه مياس Juan José Millás، ولوردس أورتيث Lourdes Oritz، وألبارو بومبو Álvaro Pombo، وسوليداد بويرتولاس Soledad Puértolas، وخابيير توميو Javier Tomeo، وإيستير توسكيتس Esther Tusquets، ومانويل باثكيث مونتالبان Manuel Vázquez Montalbán، كما يمكننا أن نضيف إليهم كتاباً شباباً لاحقين لهم، مثل بالوما دياث-ماس Paloma Díaz-Mas، وأنطونيو مونيوث مولينا Antonio Muñoz Molina، وألمودينا غرانديس Almudena Grandes، وخابيير ماریاس Javier Marías، وإغناثيو مارتينيث دي بيسون Ignacio Martínez de Pisón، وخابيير ثيركاس Javier Cercas، ولويسا كاسترو Luisa Castro، وبيلين غوبيغي Belén Gopegui، وإيساك روسا Isaac Rosa، والعديد غيرهم.

قدَّم جيل الواقعية أفكاراً مجدّدة: كالكاتبة كارمن مارتين غايتي في رواية (سلسلات Retahílas) عام ١٩٧٤م، و«الغرفة الخلفية El cuarto de atrás» عام ١٩٧٨م، فقد نقلت شخصياتها من العالم الجمعي وأقحمتهم في العالم الشخصي المعقد، والعالم الحميمي، وقد كان ذلك أحد توجهات الرواية الحديثة. اختار بعض الكتّاب الواقعيين الآخرين، ممن لم يتركوا الالتزام بشكل كامل، كتابة الرواية التي تقصُّ السيرة الذاتية أو كتابة المذكرات، مثل خوان غويتيسولو Juan Goytisolo في (منطقة محظورة Coto vedado) عام ١٩٨٥م، وروايته «في ملوك

الطوائف «En los reino de Taifas» عام ١٩٨٦م، ولدينا أيضاً الكاتب ميغيل ديليبيس Miguel Delibes في «يوميات رجل متقاعد Diario de un jubilado» عام ١٩٩٥م. أدّت هذه الروايات إلى ازدهار هذا النوع من الأدب. هناك كتاب آخرون مثل خيسوس فيرنانديث سانتوس Jesús Fernández Santos، الذي مال نحو الرواية التاريخية في روايته «تلك التي لا تحمل اسماً La que no tiene nombre» عام ١٩٧٧م، وروايته «ما وراء الأسوار Extramuros» عام ١٩٧٨م، وهي نزعة ستنتج أعمالاً جوهرية في السنوات القليلة المقبلة.

استعادت الرواية التي كُتبت، اعتباراً من مرحلة الانتقال السياسي، لذة السرد الروائي، الأمر الذي جعلها تكتسب شعبية كبيرة. لقد أدى إنشاء العديد من الجوائز الأدبية، ووضع إستراتيجيات نشر جديدة، وكمية الروايات المنشورة، وغياب النقد البنّاء والمتطلب، إلى التشتت في تقييم نوعية هذه الروايات، حتى إنّ العديد من الروايات الرديئة التي تفتقد المضمون والمعنى صُنِّفت ضمن الروايات الجديرة بالاهتمام. في المقابل، هُمِّشت الروايات المجدّدة لعدم وجود قناة نشر، أو بسبب عدم مواكبتها لسياسات سوق النشر.

أكد النقد خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة تمتُّع الكتّاب بالفردانية، وتعددية النزعات، بحيث كان ذلك إحدى الخصائص التي تميزت بها روايتنا. كما ازدادت الموضوعات التاريخية، والعاطفية، والمثيرة، والسير الذاتية، وما وراء الأدبية، والبوليسية، أو تلك الناقدة. كما كثرت الروايات الحميمية، والساخرة، والفكاهية، وراحت هذه الروايات تفتح الطريق أمام سلوك شكّيّ كان بعيداً تماماً عن أي إيمان راسخ. وقد حلّت مكان الشخصيات العظيمة، أبطال التيارات الأدبية السابقة، شخصيات تجسّد الإنسان البائس غير الواثق، دون هدف، الذي يبحث دائماً عن هويته. أما بالنسبة لأسلوب تأليف الرواية فهو مساري، على الرغم من وجود بعض الاستثناءات، وعموماً يُفضّل اختيار الأماكن المدنيّة مع أن التنوّع فيها كبير. فيما يتعلق باللغة، يمكن ملاحظة قلق شكلي، يكشف عن مدى جاهزية الكتّاب الأدبيّة.

١- الواقعية المتجدّدة - أبرز خصائصها وأعلامها:

لقد أتاحت ردة الفعل، التي حصلت مع مرحلة الانتقال السياسي، إزاء المذهب التجريبي المعقّد، المجال أمام واقعية جديدة استعادت لذة السرد القصصي. فقد قدّم كتّابٌ مثل خوان خوسيه مياس Juan José Millás، وخوسيه ماريا ميرينو José María Merino، وإدواردو ميندوثا

Eduardo Mendoza، ولويس ماتيو دييث Luis Mateo Díez، وخوسيه ماريا غيلبينثو José María Guelbenzu، وألبارو بومبو Álvaro Pombo، ولويس لانديرو Luis Landero، وأنطونيو مونيوث مولينا Antonio Muñoz Molina، والكثير غيرهم، روايات واقعية، تظهر ارتباك الإنسان الحديث المجبر على الكشف والتجريب وتحليل الواقع والبحث عن معنى جديد بعد فقدانه الإيمان والثقة، في القصص العظيمة، التي كانت تكفل له الأصالة، وتفسّر العالم وفقاً لمشروع مستقبلي.

وطدت الحركة الواقعية ركائزها في الوقت الذي كانت تمرُّ به سنوات الثمانينيات. كذلك تدعَّمت أشكال جديدة في الشعر والرواية للتقرب من الواقع، وقد اعتبرت هذه الأشكال على أنها في غاية الأهمية، حاصدةً بذلك، منجزات جماليّة بارزة. لقد استعادت أعمال هذه المرحلة عشقها القصصي، لأن هدفها سرد النوادر والأحداث؛ فتشعُّب الأحداث، وتداخل القصص، والشّخصيات الخاصة، واستعادة عنصر المكان، والخط المساري للقصة، وحل العقد في الرواية وصولاً إلى نهاية معبّرة، تلكم كانت بعض الخصائص التي تلخص هذه النزعة الأدبية.

لقد أعاد روائيو هذا التيار، في الوقت نفسه، استخدام الوسائل التقنية التقليدية لهذا النوع الأدبي، كذلك أعادوا صياغة منجزات التيار التجريبي، فأظهرت رواياتهم إتقاناً لغوياً ملحوظاً وقوياً، لا يخلو من التراكيب المباشرة واللغة العامية. أما الواقع الذي يُمثل، فكان واقعاً مدنياً، على الرغم من وجود أمثلة من الواقع الريفي والقروي. لقد أظهرت الكثير من هذه الروايات، التي كانت وريثة التجريبية الشكليّة لسنوات الستينيات، في بنيتها، كمّاً كبيراً من الألعاب، والتّناص Intertextuales، كالأقوال المستشهد بها، والمراجع، والاعتماد على نصوص الآخرين، وعلى التقنيات غير الأدبية، وعلى المحاكاة الساخرة لتوضيح بعض الرموز والقيم، وعلى الدعابة بهدف التخفيف من حدة بعض المواقف التراجيدية.

لقد كان مفاجئاً الرجوع إلى الوثائقية التي تفصّل الوسط الاجتماعي والمهني، حيث يتطور الحدث. فالبحث عن بعض مظاهر الواقع الخاصّة التي يجهلها القارئ المتوسط، كاللغات الخاصة Idiolectos بعالم المجرمين، كما هو الحال في رواية «كوميديا خفيفة Una comedia ligera ١٩٩٦» للكاتب إدواردو ميندوثا Eduardo Mendoza؛ وحياة البرجوازية المدمرة، في كثير من روايات ألبارو بومبو Álvaro Pombo، وخصوصاً «السماء المستوية El cielo raso» عام ٢٠٠١م، والعالم الآخر للعلاقات الجنسية في «قلب شديد

البياض Corazón tan blanco» عام ١٩٩٢م لخافيير ماریاس Javier Marías، والموسيقا في الطليعية الأوروبية في «عازف البيانو El pianista» ١٩٨٥ لباثكيث مونتالبان Vasquez Montalbán، وعالم المال المجنون الذي تقدمه رواية «الحرفة السحرية El mágico aprendiz» عام ١٩٩٩م، للكاتب لانديرو Luis Landero.

إن هذه الروايات لا تقيّم ولا تحكم على التصرفات، والشخصيات التي تعبِّر عنها هي، في كثير من الأحيان، شخصيات مهمّشة - إدواردو ميندوثا Eduardo Mendoza، ولانديرو Landero، وخوان خوسيه مياس Juan José Millás- هم أشخاص تائهون وفي صراع، أما غيلبينثو Guelbenzu، وبومبو Pombo، ولويس ماتيو دييس Luis Mateo Díez، فهم يواجهون واقعاً معاكساً. من غزارة هذا التيار نذكر أيضاً أمثلة على روايات جيدة مثل: «ملف الغريقEl expediente del náufrago» عام ١٩٩٢، و«طريق الضياع Camino de perdición» للويس ماتيو ديس Luis Mateo Díez، «ألعاب العمر المتأخر Juegos de edad tardía» عام ١٩٨٩م، للويس لانديرو Luis Landero، و«الفارس البولندي El jinete polaco» عام ١٩٩١م، لمونيوث مولينا Muñoz Molina و«مالينا هو اسم تانغو Malena es un nombre de tango ١٩٩٤» لألمودينا غرانديز Almudena Grandes.

٢- الرواية البوليسية الجديدة:

غزت حقبة السبعينيات موجة كبيرة من ترجمات روايات التحقيق، والروايات البوليسية وروايات الجرائم، وكنتيجة لذلك، فقد تمَّ التعرُّف على أبرز الكتّاب الكلاسيكيين لهذا التفرع من الروايات، مثل Dashiell Hammet، وRaymond Chandler، وRos Mc Donald، الأمر الذي سيساهم في خلق وانتشار تيار روائي جديد، لا يملك تراثاً في إسبانيا. أما عن الأساسيات الأصلية لهذا الفرع من الأدب- سرد قصة جريمة قتل مجهول مرتكبها والذي سيتم، من خلال عملية بحث وتحليل المحقق عموماً، اكتشاف المذنب- فلن ينتجها مجدداً جميع الكتَّاب الإسبان الذين سيكتبون هذا النوع.

استطاعت الرواية البوليسية، خلال سنوات قليلة، التأقلم مع الواقع الإسباني، وستمتاز بخاصية التسلية الصرفة، ذلك لأنها ربطت بين المرح والشاهديّ، فكانت معقلاً للالتزام الأخلاقي والاجتماعي عندما كانت الرواية قد اعتادت على

إلغائه. إضافة إلى ذلك، فقد استخدمت لغة أكثر ترفُّعاً من تلك التي تستخدم عادة في هذا النوع.

مع منتصف السبعينيات، برز بوضوح كتّاب هذا التيار ورسمت معالم اتجاهين. من جهة كان هناك الرَّائدان مانويل باثكيث مونتالبان Manuel Vazquéz Montalbán، وإدواردو ميندوثا Eduardo Mendoza، اللذان تلاعبا بقواعد وقوانين هذا النوع من الرواية، فخالفا هذه القوانين، وانتهكاها وسخرا منها من خلال المحاكاة. ومن جهة أخرى، فهناك الكتَّاب الذين ظلوا أوفياء لقواعدها ولقوانين هذا النوع الأدبي مثل أندرو مارتين Andreu Martín، وخوان مدريد Juan Madrid وغيرهما.

لقد اتصل الكثير من الكتَّاب بشكل كليٍّ أو جزئيٍّ بهذه النزعة، فأدخلوا أحداث الجريمة على بعض رواياتهم مثل خوان خوسيه مياس Juan José Millás في روايته «الحرف الميت Letra muerta» عام ١٩٨٤م، ومونيوث مولينا Muñoz Molina في روايته «أمير الظل Beltenebros» عام ١٩٨٩م و«البدر Plenilunio» عام ١٩٩٧م والكاتب غيلبينثو Guelbenzu في «لا تطاردوا القاتل No acosen al asesino» عام ٢٠٠١م.

- سلسلة المحقق كاربالو للكاتب مانويل باثكيث مونتالبان كإبداع خاص لتفرع أدبي:

يعتبر مانويل باثكيث مونتالبان Manuel Vazquéz Montalbán كاتباً متنوعاً ذا موقف سيادي في الرواية البوليسية الإسبانية، منذ خلقه شخصية المحقق كاربالو في عمله «الوشم Tatuaje» عام ١٩٧٤م، إذ بدأ مسيرته الأدبية نهاية الستينيات في خطوة أولية تجريبية ضدَّ الواقعية، متأثرة بالحركة السريالية وبعض التقنيات الطليعية.

تعتبر سلسلة روايات المحقق كاربالو مشبعة بالدلائل عن الوضع السياسي، والاجتماعي، والأدبي لإسبانيا الحالية. فوفقاً لما يقول الكاتب نفسه، إن الرواية البوليسية ليست هدفاً بحد ذاته، وإنما هي نقطة البداية من أجل سرد رواية التغيرات الاجتماعية، وتبدلات الوعي. ويضيف أن العناصر الأساسية في روايته البوليسية هي ثلاثة: انتهاك المحرم، وطريقته في التقرب إلى الواقع، والعلاقة بين دافع الجريمة وبين العوامل الاجتماعية التي تسببها.

يقدم باثكيث مونتالبان للقارئ، من خلال سلسلة الروايات هذه، مجموعة من التغيرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الإسباني بعد موت فرانكو. فرواياته عبارة

عن خليط بين حبكة الجريمة، الحدث، والمكيدة، وبعض العناصر الخاصة بهذا النوع، إضافة إلى عناصر أخرى لا تنتمي لهذا النوع كتحليل الوضع السياسي والاجتماعي والتعبير عن الرأي الثقافي والأدبي، واللجوء إلى الوجدانية، وإقحام جرعة لا بأس بها من الدعابة والسخرية والمحاكاة الأدبية. أما شخصيّة المحقق كاربالو فهو شخص حاد الذكاء، ذو مظهر أنيق، شديد الملاحظة، ويتمتع بحس الفكاهة، وهو من يقود خيط الأحداث. يتخذ كاربالو موقف الريبة، وكثيراً ما تكون آلية عمله في التحليل النفساني أكثر صعوبة من تحقيقه في الجريمة، لأن القضايا التي يُكلف بها لا يحلها دائماً. إلى جانب قصص الجريمة، يمكننا إضافة عناصر التناص كثيرة التنوع، كاللغات الخاصة بالمجموعات الاجتماعية شديدة الاختلاف، والأغنيات العاطفيّة التي تُسمع من خلال المذياع، وإدخال نظريات السينما البوليسية، كما هو الحال في رواية «بحار الجنوب Los mares del Sur ١٩٧٩»، وعالم كرة القدم الغامض، ومضاربة الأراضي من أجل القرية الأولومبية في مدينة برشلونة ١٩٩٢م كما هو الحال في رواية «اغتيال لاعب الوسط المهاجم عند الغروب El delantero centro fue asesinado al atardecer ١٩٨٨»؛ وسيطرة وسائل الإعلام في «اغتيال في برادو ديل الري Asesinato en Prado del Rey ١٩٨٧م» وسلطة دُور النشر، ودور النقاد في «الجائزة El premio ١٩٩٦م»، لقد كان نقداً دائم الحدة، ومزيجاً خلّص هذا النوع من أصله السوقيّ وجعله نبيلاً.

أما عن محاولة تجنُّب الدروس التعليمية، فقد نجحت من خلال استخدامات الكاتب السرد الروائي وتطبيقاته الذكية: كالدعابة الخفيفة، والسخرية، ومهارات تطبيق آليات المحاكاة الساخرة، والإبداعات اللغوية، وبعض المواهب الريبيّة التي يمكن ملاحظتها.

بالنسبة لروايات باثكيث مونتالبان غير البوليسية، فهي أيضاً موروثة عن الواقعية، بمعنى أنها تعطي شهادات عن أزمنة محددة، كما هو الحال في رواية «عازف البيانو El pianista» عام ١٩٨٥م، التي تعيد تاريخ مدينة برشلونة خلال السنوات الخمسين الأخيرة- ورواية «شباب أتثابارا السعداء Los alegres muchachos de Atzavara ١٩٨٧م»، التي تتحدث عن سنوات الانتقال الديمقراطي.

- إدواردو ميندوثا Eduardo Mendoza وروايته «الحقيقة في قضية أمر سابولتا La verdad sobre Savolta».

في عام ١٩٧٥ ومع رواية «الحقيقة في قضية أمر سابولتا La verdad

sobre Savolta» للكاتب إدواردو ميندوثا Eduardo Mendoza، تأكّد انطلاق مسار في استثمار بعض الأنماط الأدبية الأكثر شعبية مثل دوريات الصحف، ويوميات الأحداث، والرواية البوليسية، والرواية الرومانسية. فالعذوبة الغريبة لحبكاتها، والدوافع التاريخية، ومعالجة الحبكة، تلكم أشياء لفتت انتباه النقاد، وجعلت الكاتب يحظى باستحسان القراء.

فالحبكة كمحور الرواية، والاعتناء بالشخصيات- التي غالباً ما تكون مفاجئة، واستخدام آلية الإثارة، والفعل، والمؤامرة الدائمة، وكثرة الحوادث المؤسفة، وحدوث الفعل في زمن ومكان محددين - برشلونة منذ عام ١٩١٧م حتى عام ١٩١٩م في فترة هيجان اجتماعي- حيث جرت فيها أيضاً العديد من قصص الجرائم والألغاز، والوصف الواقعي الوثائقي لأماكن المجرمين والمهمّشين، واتهام السلطة السياسية والاقتصادية، ووجود نبرة محاكاة ساخرة، كل ذلك سيحدد وسيرسم أعمال الكتّاب الذين سيستمرون ويتوسعون، في رواياتهم القادمة، من اختياراتهم في هذا النوع البوليسي الفرعي.

من خلال روايات «لغز السرداب المسحور El misterio de la cripta embrujada» عام ١٩٧٩م، و«متاهة الزيتون El laberinto de las aceitunas» ١٩٨٢، و«مدينة العجائب La ciudad de los prodigios» عام ١٩٨٦، سيتابع ميندوثا وسيوسع وجهة نظره المرحة، الخيالية، والهادئة التي بدأها في عام ١٩٧٥، وسيعمل على الذهاب إلى أقصى حدٍّ في استخدام المحاكاة والسخرية والمغالاة.

٣- النزعة التاريخية. إعادة خلق الماضي:

إنَّ ازدهار الرواية التاريخية في أوائل عقد الثمانينيات يندمج ضمن التيار العام الذي ظهر في أوروبة منتصف الستينيات، والذي يندرج بدوره ضمن توطيد هذه الرواية، التي تهدف إلى التسلية والامتاع. من أهم الأمثلة على هذا التيار «أنا كلاوديو Yo Claudio» للكاتب روبرت غرابيس Robert Graves، و«ذكريات أدريانو Memorias de Adriano»، لمارغريت يورثينار Marguerite Yourcenar و«Juliano el Apóstata» للكاتب غروي بيدال Gore Vidal و«اسم الزهرة El nombre de la Rosa» لأومبيرتو إيكو Umberto Eco.

إن إعادة التأمل في التاريخ، وهو ما قامت به الرواية الإسبانية، يجمع بين التفنُّن والسلاسة في السرد، وبين الوثائقية الدقيقة، كما يمزج بين الخيال والوثائقية؛ فبذلك تتضمن هذه الرواية معلومات

موضوعيــة غزيرة -كالأسمــاء، والتواريخ، والشخصيات التاريخية، ورسائل وشهادات مكتوبــة- كل ذلك لأنَّ النص يقــدِّم نفسه بدقة وموضوعيّة مستند وثائقي.

نستطيع أن نميِّز فــي روايتنا التاريخية بيــن تياريــن: الأوَّل، قريب مــن مستويات هذا النــوع الأدبي، حيــث لا يهتم بالقالب ويحافــظ علــى إمكانيّة أن يكــون صادقاً وحقيقيّاً؛ أما الثانــي، فيعتمد على الإبداع والمحاكاة الساخــرة للزمن الماضي بهدف التسليــة، وهو يسأل وينقّــي ويؤسس واقعاً جديــداً مختلفاً عــن الحقيقــة الرسمية. لقد رفض باثكيــث مونتالبان Vázquez Montalbán فــي روايتيــه «غاليند يــث Galíndez» عــام ١٩٩٠م و«سيــرة حيــاة الجنرال فرانكــو Autobiografía del General Franco ١٩٩٢م»، الحقيقــة التاريخيــة، وكذلك فعلت لوردســ أورتيث Lourdes Ortiz في «أورراكا Urraca»، وأنطونيو غالا في «المخطوط القرمزي El manuscrito carmesí ١٩٩٠م». أمــا تورِّينتي بابيستير Torrente Ballester، فقــد أعاد خلق شخصيــات تاريخية. ففي روايته «جزيرة أزهــار المكّحلة المقطوعة La isla de los jacintos cortados ١٩٨١م» يتأمل في اللغو التاريخي الذي يقول بعدم وجود نابليــون. كذلك تخيّل غوستابو مارتيــن غارثــو Gustavo Martín Garzo في «لغة الينابيــع El lenguaje de las fuentes ١٩٩٣»، السيــدة مريــم العذراء بيدٍ واحدة فقط.

المرجع التاريخي لهذه الروايات موجود فــي حقــب تاريخية عــدّة منــذ العصور الوسطى حتى الحــرب الأهلية وديكتاتورية فرانكو. هنــاك أدباء اهتموا، بشكلٍ خاص، بالموضوعات التاريخية مثل بالوما دياث ماس Paloma Díaz-Mas، وبيــلار بيدراثــا Pilar Pedraza، وأرتورو بيريث ريبيرتي Arturo Pérez- Reverte، ومانويــل باثكيث مونتالبــان Manuel Vázquez Montalbán والكثير غيرهم ممن تتطرق، بشكلٍ عرضي، إلى الموضوعات التاريخية، وجعل منها أساساً لروايات أخرى مثل خوليو ياماثاريس Julio Llamazares في «قمر الذئاب Luna de lobos ١٩٨٥م»، حيث تــروي قصة بعضــ المحاربيــن «الماكيز Maquis» منــذ نهاية الحرب الأهلية حتى عام ١٩٤٦م أو «جنود سالامينا Soldados de Salamina ٢٠٠١م» للكاتــب خافيير ثيركاســ، الذي يروي قصــة إعدام رافايل سانتشيــث ماثاســ القائــد الأيديولوجي المؤسس لحزب الكتائب Falange.

٤- نزعــة أسطرة الروايــة. التعبيــر الظاهري في الإبداع الروائي:

تقــوم الرواية الأسطورية على أساس أن الرواية هي فن مصنــوع يبنيه الكاتب أمام أعين القرَّاء علــى أنَّ هدفها المرجعي هو

النص ذاته. يمكننا القول إن أسطرة الرواية، هي أعمال خيالية تكتب نثراً وبطابع سردي يكشف المظاهر الشكلية للنص ويثير الانتباه بسبب ميزتها كعمل خيالي، مظهرةً الإستراتيجيات التي يستخدمها الكاتب أثناء عملية إبداعه لها.

إن هذا التيار الموروث عن التجريبية خلال الستينيات، ليس أنه لم يختف خلال السنوات الثلاثين الأخيرة فحسب، بل لا يزال يتمتع باستخدام واسع من قبل الكتّاب الذين يعتمدون عليه، كما يستخدم بسبب نوعية الأعمال التي تنسب إليه.

خفت التقنيات المستخدمة في الروايات الأسطورية المعاصرة، وتبنّت مخططات روائية أكثر تقليدية. ففي كثير من الأحيان، ولكي يستطيع الكتّاب في هذه الروايات إنشاء حوار حول التأليف الأدبي، كان على الشخصية الروائية أن تكون كاتباً أو محرراً أو صحفياً أو باحث أدب، وأن تضفي على الحوار طابعاً ثقافياً، بحيث يشتمل على إشارات إلى مراجع نصوص أخرى. في كثير من الأحيان تكون الشخصية كاتباً جديداً كما هو الحال في رواية «فوضى اسمك El desorden de tu nombre ١٩٨٧م» للكاتب خوان خوسيه مياس Juan José Millás، أو كاتباً فاشلاً كما في رواية «جرائم غير مهمة Delitos insignifcantes» ١٩٨٦م للكاتب ألبارو بومبو Álvaro Pombo.

هناك طريقة أخرى شائعة جداً في أسطرة الرواية يدعوها النقاد برواية الرواية أو رواية حول كاتب يكتب رواية. أبرز الأمثلة على ذلك هي «رواية أندريس تشوث La novela de Andrés Choz ١٩٧٦م» لخوسيه ماريا ميرينو José María Merino. حيث بطل الرواية - أندريس تشوث- الراغب في الانتهاء من كتابة رواية بدأ فيها منذ وقت بعيد، يتأمل في اللغة المناسبة، وفي التقنيات التي ينبغي استخدامها في الكتابة للوصول إلى رواية حقيقية، كما يظهر الصعوبات التي تواجهه في كتابة هذه الرواية التي يكتبها ضمن رواية أخرى؛ وفي الوقت ذاته نراه يعيش قصة حب. لدينا أمثلة عدّة حول هذا الاستخدام الخيالي في روايات مثل «تاريخ الكره Crónica de desamor» عام ١٩٧٩ لروسا مونتيرو Rosa Montero و«Antofagasta» عام ١٩٨٧م لإغناثيو مارتينيث ده بيسون Ignacio Martínez de Pisón و«العودة إلى المنزل olver a Casa » ١٩٩٠م لخوان خوسيه مياس.

٥- الواقعية السوداء وتيارات أخرى معاصرة:

ليس لجيل الروائيين الأخير ممن ولدوا حوالى عام ١٩٦٥م صفات متشابهة، على الرغم من أنهم ينقسمون في اتجاهين: الأول، أكمل بشكل أو بآخر، مسار التيار

السابق، ولكن، إرادياً، بنبرةٍ أخف، وأكثر حميمية، مهتماً بذلك بالعلاقات بين أقلية من الأشخاص يمكننا من خلالهم فهم وتقبُّل الواقع، من بين هؤلاء الروائيين نذكر لويسا كاسترو Luisa Castro، وبيلين غوبيغي Belén Gopegui، وخابيير ثيركاسJavier Cercas، وماركو خيرالت تورّينتي Marco Giralt Torrente، وإلوي تيزونEloy Tizón، وإيساك روسا Isaac Rosa. أما الاتجاه الآخر فيسميه النقاد، كما في الشعر، الواقعية السوداء.

لا يعتبر هذان الاتجاهان الكتابة نوعاً مقدَّساً وأولوية بدئية، وإنما هي خيار من بين خيارات عدة موجودة داخل مخزون متنوع من الاتجاهات الجماليّة والقيميّة. تعتمد روايات هذا النوع على السرد ذي الاتجاه الواحد المتأثر بالصور والأصوات التي تصل بشكل مباشر إلى القارئ، وليس بالتأمل والتفكير في النص المكتوب. يؤكد هذا التيار المُحدَّد بصراع الأجيال، والتفكك، وإعادة تعريف مفهوم العائلة، والمتعة المتعبة المتركزة على الجنس دون الشغف، والمخدرات، والكحول، والسرعة، ثقافةً تعتبر حتى الآن نوعاً دون مستوى الأدب -الفيديو والتلفاز والموسيقا والسينما- كما يظهر الإعجاب بالمُثل والثقافة الأميركية الشمالية. أما عن أهم صفات هذا التيار فهي تقسيم القصة على أساس المشهد، وقلة الاهتمام بالشكل الخارجي، وترتيب الجمل العشوائية، واللغة المثقلة بالمصطلحات العامية، والعنصر الشفهي المهم، والظهور المتكرر للحوار- في جمل غير منتهية أو كلمات مستقلة- والحوارات غير المهمة، السخيفة والفارغة. أما أهم كتَّاب هذا التيار فهم راي لوريغا Ray Loriga، وخوسيه أنخيل مانياس José Ángel Mañas، وروجيه وولفRoger Wolfe، وبيدرو مايستره Pedro Maestre، وفرانثيسكو كاسابيا Francisco Casavella وغيرهم.

خاتمة

أدى موت فرانكو إلى الانفتاح على وجهات نظر جديدة للرواية، حيث تخلَّت عن التزامها الاجتماعي وعن التجريبية، وتشبَّهت بتيار فترة ما بعد الحداثة. وقد أدى ذلك إلى جعلها تبتعد عمّا هو هام من خلال العبث. فكسرت بذلك المعايير الاجتماعية والأخلاقية والسياسية المعروفة والمعتادة القائمة.

وُجد خلال هذه المرحلة أربعة أجيال من الكتَّاب، بحيث اتفق جميعهم على أن الرواية ينبغي أن تستيقظ من سباتها، وأن تسترجع خاصية السرد الروائي وأن تحظى بشعبية كبيرة.

اشتهر خلال هــذه المرحلة العديد من التيــارات والكتّــاب. كما بـرزت الروايات التاريخيــة والإثــارة والرومانسية والسيرة الذاتية، والبوليسية والما وراء أدبية. كثرت كذلــك الروايــات الحميميــة ذات النبــرة المسليــة والساخرة والشكيّــة، أما بالنسبة للغــة، فنلاحــظ وجــود قلــق إزاء البنية الخارجية.

انتشرت بعض هــذه التيارات وتوطدت كما هــو الحال بالنسبة للواقعية المتجددة. أمــا النزعــة البوليسية، التـي تناسبت مع الواقــع الإسبانــي، فقد كانــت هي كذلك إحدى النزعات السائدة. لقد أضاف باثكيث مونتالبــان Vázquez Montalbán إلى السجلات الخاصة لهذا النوع الأدبي الثانوي الأخبار اللاذعة عــن التغيرات الاجتماعية في الواقــع الإسباني المعاصر، أما إدواردو ميندوثــا Eduardo Mendoza، فقــد شـــدّد على المظهــر المسلّــي، والخيالي، والمغالي.

أمّا التيار التاريخي، الذي كان عبارة عن مزيج بيــن الخيال والوثائقية، فقد تألق هو كذلك وانتشر. بدورها كشفت نزعة «أسطرة الرواية» المظاهر الخارجية للنص، وكانت بذلك تياراً حاضراً بكثافة.

رواية اليــوم هي كما مرَّ معنا، إنها أكثر من أي وقت مضى بمثابة تسلية وفعلٍ ممتع بعدما كانت مصـــدراً رئيسياً للقلق والإثارة والبحث كما عُرف عنها في أوقات أخرى.

الأميرة التي هزّت عرش فرنسا

*
إبراهيم سلوم



قبل الانتهاء من الحروب الصليبية التي قام بها مسيحيو الغرب في القرون الوسطى للاستيلاء على الأراضي المقدسة، والتي دامت قرابة قرنين من الزمن (١٠٩٦-١٢٩١م) بعد أن قُسِّمت إلى ثماني حملات عسكرية، ثم انتهت بانتصار المماليك وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد المشرق- اعتلى الملك الفرنسي فيليب الرابع (١٢٦٨-١٣١٤م) عرش فرنسا منذ أن بلغ سن السابعة عشرة من العمر وحتى يوم مماته في العام ١٣١٤م، وهي فترة تناهز الـ٤٦ عاماً

* مترجم وباحث سوري

قضاها في تعزيز سلطة البلاط الملكي والعمل على امتداد رقعته إلى المناطق الشرقية التي تمكن من إخضاعها إلى التاج الفرنسي بعد أن كانت متمردةً عليه. لقد عُرف عنه بأنَّه كان عمرانياً ويعمل وفق خطة تنظيمية تسمح بتكييف سكن المدن مع حاجات مواطنيه. وكان من أبرز هذه النشاطات العمرانية إقدامه على فتح قنوات مائية تربط بين مدن وبلدات الداخل الفرنسي توخياً لربط المدن الفرنسية ببعضها بعضاً ومن ثم تسهيل عملية التبادل التجاري فيما بينها. كما اشتهر بأنه أول ملك فرنسي بذل كل ما في وسعه لكي يكون ملكاً مطلق الصلاحية في سلطته من دون أن يقاسمه إياها أحد ضارباً عرض الحائط كل الأعراف والتقاليد التي كان معمولاً بها في زمنه، كتلك التي كانت تجيز للفاتيكان وحبره الأعظم التدخل في شؤون الممالك الأوروبية. ومن أجل هذا الغرض بعث بمندوبٍ عنه وهو (غليوم دو نوغاريه) إلى الفاتيكان حيث التقى البابا بونيفاس الثامن وبلّغه الإرادة الملكية الفرنسية بالاستقلال عن الكرسي الرسولي هذا. ويجمع المؤرخون على أن هذا اللقاء كان عاصفاً جدّاً حيث حصلت فيه مشادة كلامية بين الجانبين، الأمر الذي دفع بالبابا المذكور إلى أن يصدر حكماً يقضي بحرمان الملك فيليب الرابع من حاضنة الكنسية. وعلى أثر ذلك دعا الملك فيليب الرابع إلى عقد اجتماع طارئ يحضره مندوبون عن رجال الإقطاع والإكليروس في كاتدرائية (نوتردام) بباريس للبحث في هذا الصك البابوي الذي أصدره البابا بحقه.

وقد خلص الاجتماع إلى هذه النتيجة وهي أنه يحق للملك ما لا يحق لغيره، فهو الوحيد المخول بقضايا رعيته، ولا يحق لأحد في الدنيا مهما كانت صفته الدينية أو المدنية التدخل في شؤون مملكته. ومنذ ذلك الحين أخذت هذه النخبة من الإقطاعيين والإكليروس والأرستقراطيين تسمية «المستشارين القانونيين» الذين كان الملك يستند إلى أحكامهم ويعمل بموجبها، والتي كان من جرائها إلغاء رهبنة «الفرسان الهيكليين» ومطاردة أتباعهم، لا بل ومصادرة أملاكهم بعد أن تبين للملك بأنَّ هؤلاء الرهبان الجنود قد أصبحوا أثرياء حرب بعد عودتهم من فلسطين نتيجة متاجرتهم بالأواني المقدسة التي كانوا قد جلبوها معهم من الشرق. حتى إنَّه لم يتوانَ عن إصدار أمر ملكي يقضي بحرق رئيسهم حياً وهو جاك دومولیه.

وفي السياق نفسه وصفه بعض المؤرخين بأنَّه كان أوَّل ملك في أوروبة يدعو إلى فصل الكنيسة عن الأمور الدنيوية، وهو إجراء لم يتجرأ أحد من قبله على اتخاذه نظراً لما فيه من خطورة وتداعيات قد تنعكس سلباً

على شخص الملك وتفضي إلى نزع العرش منه.

ولربما كان هذا الإجراء دافعاً قوياً لظهور حركة الإصلاح الديني البروتستانتية التي قادها الراهب الألماني (مارتن لوثر) في مطلع القرن السادس عشر للتنديد بصكوك الغفران وسلطة البابا وتبتل الكهنة وإكرام القديسين. هذا وتجمع المصادر التاريخية على أن هذا النزاع بين الملك فيليب الرابع والفاتيكان استمر لبضع سنوات إلى أن تم انتخاب بابا جديد من أصل فرنسي يدعى كليمانت الخامس (١٣٠٥م) حيث تمت المصالحة وبدأت الأمور تسير على ما يرام بين التاج الفرنسي وحاضرة الفاتيكان.

كذلك عُرف عن الملك فيليب بأنه كان شاهداً لا بل ومساهماً في عملية الإجلاء الكبير لليهود من أوروبة في العام ١٣٠٦م. ويعود مرد هذه العملية بشكل أساسي إلى أنه في عشية الإعلان عن بدء الحروب الصليبية في منطقة المشرق العربي كان اليهود يشكلون إمبراطورية مالية في كل من فرنسا وإنكلترا. وهذا ما دفع بملوك أوروبة المتحمسين جداً لمواصلة الحرب الصليبية بهدف الحفاظ على قبر المسيح إلى أن يطلبوا من أثرياء اليهود تمويل هذه الحرب على شكل تقديم القروض إلى الملوك والأمراء والنبلاء المسؤولين عن سيرها. وبالفعل تمت الموافقة بين الطرفين على ذلك ولكن بفوائد مالية مرتفعة. وعندما فشلت الحروب الصليبية وعاد المقاتلون بوفاض خالٍ بدأ هؤلاء الأثرياء من اليهود يطالبون التاج الفرنسي والبريطاني والألماني بالقروض التي تمَّ دفعها على أساس أنها ديون يجب ردها إلى أصحابها الشرعيين، الأمر الذي أثار غضب ملوك أوروبة فصبوا جام نقمتهم على اليهود وحرضوا شعوبهم ضدهم لا لشيء سوى عدم التمكن من دفع الديون المترتبة عليهم، في حين اعتبرها اليهود وكأنها نوع من الاضطهاد الديني المستمر من قبل الكنيسة حيالهم وضمن هذه الخطة. كان الملك الإنكليزي إدوار الأوَّل هو أول من اتخذ المبادرة في طردهم وإجلائهم عن إنكلترا، ثم تبعه الملك الفرنسي فيليب الرابع ومن بعده كل ملوك دول أوروبة بلا استثناء ودامت عقوداً طويلة.

في العام ١٢٨٨ تزوج الملك فيليب الرابع من الأميرة (جان دونافار). وبعد زواج دام ١٧ عاماً رُزق الزوجان بأربعة أولاد هم على التوالي: إيزابيلا البنت البكر، ثم لويس وفيليب وشارل. بعد ذلك بحين أصيبت الملكة جان بمرض عضال أودى بحياتها في العام ١٣٠٥م بعد أن عاشت زهاء ٣٥ عاماً.

وعلى إثر هذه الحادثة المفجعة آثر الملك الأرمل أن يعيش متوحداً وألا يرتبط

بأية امرأة من بعدهـا ويقضي حياة زاهدة في كل شيء وبعيدة عن كل ترف أو إفراط.

وبعد مضي عام على وفاة الملكة تقدم ملك إنكلترا إدوار الثاني (١٣٠٦م) بطلبٍ إلى الملك فيليب الرابع، وفيه يطلب يد ابنته إيزابيلا البالغة من العمر ١٧ سنة لكي تكون زوجةً له. فكان للملك الإنكليزي ما أراد حيث تم الزواج بكل أصوله ومراسيمه الملكية.

وبعد الانتهاء من مراسم الزواج غادرت إيزابيلا فرنسا لتعيش في كنف زوجها بإنكلترا. وبحلول نهاية العام ١٣٠٧م، رأى الملك فيليب الرابع بأنَّ ابنه لويس (١٢٨٩-١٣١٦م) قد أصبح في الثامنة عشرة من العمر وهو على عتبة الزواج فطلب منه بأن يقترن (بمرغريت دو بورغونيا) ابنة دوق بورغونيا، هذه الدوقية التي كانت قد تأسست في القرن السادس الميلادي، وكان من أشهر أمرائها (رودولف الثاني) في القرن التاسع الميلادي، الذي استطاع أن يرسي قواعد متينة لإقامة علاقة حسن جوار مع التاج الفرنسي وخاصة مع ملك فرنسا شارك لوغرو. وبحلول العام ١٤٧٧م تلاشت هذه الدوقية بفضل انضمامها بشكل نهائي إلى التاج الفرنسي، وكان ذلك في عهد الملك لويس الحادي عشر. واليوم تشكل مقاطعة بورغونيا إحدى مقاطعات فرنسا البالغ عددها ٩٧٤ مقاطعة في الداخل الفرنسي وفيما وراء البحار، وعاصمتها مدينة ديجون.

ومن المعلوم أن الأميرة مرغريت كانت تتحلى بجمال آخاذ يبهر الأنظار ويستحوذ بسرعة على قلوب الرجال. لقد كانت تبدو أكبر من عمرها الزمني بكثير نظراً لبنيتها الجسدية القوية وملامحها التي تدل على أنها فتاة ناضجة جسدياً وعقلياً، الأمر الذي حباها شخصية قوية وجرأة على أن تفعل كل ما تقول وتحقق كل ما تطمح إليه.

إنها ابنة روبير الثاني دوق بورغونيا وأنييس دو فرانس حفيدة الملك الفرنسي لويس التاسع، هذا الأخير الذي قاد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة فوصل إلى دمياط بمصر عام ١٢٤٩م، وحارب المماليك إلى أن تم أسره في معركة «المنصورة» على يد الملكة الملوكية «شجرة الدر» التي أطلقت سراحه مقابل فدية كبيرة من المال دفعها التاج الفرنسي إنقاذاً لحياة ملكها الأسير الذي توفي وهو في طريقه إلى تونس بعد إصابته بمرض الملاريا، وكان ذلك في العام ١٢٧٠م. ثم نُقِل جثمانه إلى فرنسا بكل هيبة ووقار لتقوم الكنيسة الكاثوليكية بتطويبه قديساً في مطلع القرن العشرين (١٩٢٠م). فلِمَ لا تكون الأميرة مرغريت مزّهوةً بنفسها أمام كل هذه الاعتبارات العائلية التي كانت تعي قيمتها جداً وتدرك مدى أبعادها الاجتماعية؟

واستعداداً لإقامة حفل الزواج دعا الملك فيليب صهره الملك الإنكليزي إدوار الثاني وابنته إيزابيلا لحضور هذه المناسبة التي سيرعاها بنفسه. وفي اليوم المحدد لعقد القران حضر الملك إدوار وزوجته وكانا بمثابة الشاهدين على هذا الزواج الذي تكلل بسهرة حافلة بالأغاني والرقص وتقديم الهدايا للعروسين.

وكان من بين الهدايا التي وُزعت عليهما والتي لفتت أنظار الحضور بشدة تلك التي قدمتها إيزابيلا إلى مرغريت، وهي عبارة عن زنار لونه أحمر مرصع بالذهب من كل حوافه، ويحتوي في منتصفه على جعبة لحفظ النقود. لقد سمح هذا الزواج للأميرة مرغريت من ولي العهد لويس الذي تم في أيلول من العام ١٣٠٧م في أن تنال لقب ملكة فرنسا المستقبلية. ولما كان لدى الملك فيليب الرابع ولدان آخران هما: فيليب وشارل، فقد أحب أن يتزوج فيليب من الأميرة آن «ابنة عم مرغريت»، في العام (١٣٠٨م)، وأن يتزوج شارل من بلانش شقيقة آن في مطلع العام (١٣٠٩م)، وكان للملك ما أراد إذ تزوج الولدان بناءً على رغبة والدهما وحققا له أمنيته. وعلى هذا النحو أصبح البلاط الفرنسي على علاقة مصاهرة قوية مع دوقية بورغونيا تشبه إلى حد ما علاقات التحالف والصداقة التي تتم في عصرنا الراهن بين الدول. ومنذ ذلك الحين بدأ القصر الملكي ينعم بوجود ثلاث أميرات يرتبطن ببعضهن بعضاً بعلاقة متينة جداً نتيجة أواصر القربى التي تجمع بينهن، ويضفين عليه بحضورهن نوعاً من البهجة والحبور، وينعمن بعيش رقيق الحواشي لا يخلو من الترف والإسراف، وهو أمر لم يكن البعض في حاشية الملك ينظر إليه بعين الرضا نظراً لما فيه من إسراف وتبذير للمال العام، مما أفسح المجال أمام بعض المغرضين إلى أن يخلقوا المزيد من الإشاعات التي من شأنها الإساءة إلى سمعتهن وتكميد صورتهن عند الملك.

وبعد مرور أكثر من عام على زواج مرغريت وبالتحديد في مطلع العام ١٣٠٩م دنت ساعة المخاض فأنجبت مرغريت ابنة دعتها جانيت. كان سرور الملك فيليب بهذا المولود الجديد عظيماً جداً لدرجة أنه طلب إقامة حفل عشاء ساهر يتم تحت رعايته شخصياً احتفاءً بالمولود الجديد، شريطة أن يحضره صهره الملك الإنكليزي إدوار الثاني وابنته إيزابيلا. وعندما استعادت الأميرة مرغريت عافيتها ونشاطها بدأ العمل على تنظيم هذا الحفل في قاعة الاحتفالات بالقصر الملكي. وفي مساء اليوم المحدد قدم كل المدعوين وعلى رأسهم صهره وزوجته حيث عمّ جو من الفرح والسرور في أرجاء القصر كافة. لقد كان هذا الحفل بالفعل عالماً من العروض الافتتاحية

للأزيـــاء وكل أشكال الجمـــال لدى العنصر النسائي من حيث تسريحة الشعر وتصفيفه بشــكلٍ يضفي زينة وجمــالاً وكأنه تاج على رؤوسهن، أو مــن حيث استعراض الفساتين الجديدة التي كانــت تُفتح من الخلف حتى أسفل الظهر. كما كان الحفل صاخباً نتيجة مــا تخلله من عروض فــي الرقص والغناء والفروسية عند الرجال.

كان الملك فيليب الرابع يراقب كل ذلك بعيــن لا تدعو إلى الرضــا والارتياح نتيجة لطبعه الهادئ ونمــط حياته الجديد الذي اختاره بعد وفاة زوجته الملكة، والذي جعله بعيداً عــن مباهج الدنيــا وأفراحها، لكنه حــاول دومــاً أن يظهر بمظهــر المتسامح حيال هــذا الجيــل الصاعد مــن الشباب والشابــات الفرنسييــن، الــذي يحب حياة الصخب وتذوق ملــذات الدنيا والعبث بكل مــا هو مألــوف، وهذا ما جعلــه يستوعب على الفور كل طاقات هذا الجيل وتطلعاته اللامحــدودة. لكن نظره تركز بشكل خاص على كنته الأميرة مرغريت التي كانت تمشي وتتمايــل وهــي تستعرض قوامهــا السامق وقدها الممشوق وكأنها في حالة من النشوة العارمــة التي جعلتها تفقــد توازنها، الأمر الذي أثار سخطه وحفيظة معظم المقربين منــه وخاصة عندما بدأت مرغريت ترقص مع الجميع وتفرط في مجاملتهم بلا تكلف أو رسميات.

وكانــت المفاجأة مذهلــة عندما جاء دور الفرســان للقيام ببعضــ العروض في الفروسية والمبــارزة بالسيف. وخلال أداء هذه العروض لاحظــت الملكة إيزابيلا بأن قائد الفرســان المسمــى «غوتييه» يرتدي زنــاراً أحمر اللون مرصعاً بالذهب ويحتوي في وسطه علــى جعبة خاصة لوضع النقود فيهــا. إنــه الزنــار نفسه الــذي كانت قد أهدتــه منذ أكثر من عــام إلى زوجة أخيها مرغريت في يوم زفافها. وهنا بدأ الوسواس الخناس يوغر في صدرها ويجعلها تتساءل عن كيفيــة وصول هــذا الزنــار إلى قائد الفرنسان غوتييه! ما من شك أن هذا الأمر له دلالة خاصة به. وعلى الفور طار صوابها لاعتقادها بــأنَّ امرأة أخيهــا لويس ليست سوى امرأة عاهرة لا تأبه لأي محظور وتقيم علاقــة غيــر شرعية مع هــذا الفارس قد تكون أقرب إلــى جريمة الزنا التي يحرّمها القانون الملكــي. لذا يجب بذل كل الجهود من أجل استنزالها من عليائها وطردها من القصر لأنها لم تعد جديرة بأن تصبح ملكة فرنســا مستقبلاً. وما أن حــل صباح الغد حتــى دقّ ناقوس الخطر بالنسبة لمرغريت وذلــك حين ذهبت إيزابيلا إلى أبيها الملك لتقصــ عليه ما كان من أمرهــا وما يراود ذهنهــا من شكوك حول زوجة أخيها لويس. وخلال هــذا اللقاء توسلت إليه أن يفعل كل مــا في وسعه حتى تنجلي الحقيقة، وتعرف

كيف وصل الزنار إلى قائد الفرسان. ثم اقترحت عليه أن يكلف قاضياً معروفاً بنزاهته ومهارته لكي يجري تحقيقاً في هذه القضية التي بدأت تقضّ مضاجعها. وقف الملك مشدوهاً حيال ما تناهى إلى سمعه، فأطرق رأسه باتجاه الأرض من دون أن ينطق بكلمة واحدة. إنه على حيرة من أمره بعد أن تلقى هذه الضربة الموجعة، فهو لا يعرف ماذا سيفعل، لأنَّه إذا تخلى عن متابعة هذه القضية وترك الأمور تجري على أعنتها فسيكون قد أغضب ابنته. أمَّا إذا أعارها كل اهتمامه وعمل بما تريده ابنته ثم تنكشف الحقيقة التي قد تدين مرغريت بتهمة الزنا مع قائد الفرسان فسيكون لهذه القضية تداعيات خطيرة لا تخلو من المساس بسمعة البلاط الملكي وشرفه. وبعد تردد طويل انتفض في مكانه ليقول لها: «اسمعي، يا ابنتي إيزابيلا، لا يوجد أي غطاء على أحد في مملكتي، وسأقوم، كما تريدين، بتعيين القاضي لوسيان ليتولى التحقيق في هذه القضية لأن هول ما حصل يستدعي حقاً تشكيل لجنة تحقيق. وبناءً على ذلك كوني مطمئنة وهادئة البال فما من خفي إلا وسيظهر». وفي أوَّل جلسة تحقيق استدعى القاضي مرغريت، ثم بدأ باستجوابها متخذاً من الزنار الأحمر القرينة الأولى التي يجب الكشف عن ملابساتها، فجاء ردّ مرغريت على النحو التالي: «بعد زواجي من الأمير لويس ببضعة أشهر بدأت أضيق ذرعاً بحياة القصر الذي وجدته مكاناً لا تخفق الأرواح فيه وخاصة الجناح الذي كان قد خصص لنا، نحن الزوجان. لقد كان لويس يغيب عني في معظم ساعات النهار ليبقى قريباً من والده الملك حتى ينهل منه الخبرة والمعرفة في إدارة شؤون البلاد تمهيداً لاعتلائه العرش بعد وفاة والده الملك الذي كان يعاني من اضطرابات في حالته الصحية. لقد كنت أحب التجول في حديقة القصر التي كانت تعج بكل أنواع الشجر والورود والزهور على مختلف أنواعها والتي كانت تنتهي من جهة الغرب ببرج عالٍ يطل مباشرةً على نهر السين. وفي هذا البرج كنت بالفعل أستمتع جدّاً بالجلوس طلباً للراحة والاستجمام والاستمتاع بمنظر القوارب التي كانت تطفو على سطح النهر، أو بالنظر الطويل إلى الضفة الأخرى حيث كنت أشاهد من هذا المكان المشرف الباريسيين وهم يذهبون إلى أماكن عملهم، ثم أعود مساءً إلى مقصورتي في القصر للقاء زوجي والبقاء إلى جانبه طوال الليل.

ولقد شاءت المصادفة أن أمر بالقرب من مقر قائد الفرسان «غوتييه» وأنا متجهة نحو البرج، الذي غالباً ما كان يرافقني إلى المدخل بعد أن يقوم بتأدية التحية لي بكل انحناء وخشوع. ونظراً لتكرار مشاهدتي له فقد بدأت العلاقة بيننا من خلال توجيه

التحية والسلام أولاً ثم بالابتسامة وأخيراً بالكلام إلى أن دعوته يوماً إلى زيارتي في البرج. كانت هذه الزيارة بمثابة الفتيل الذي أشعل نار الحب بيننا. ومع مرور الأيام وتكرار مشاهدتي له عبرت له يوماً عن مشاعري الدفينة حياله. وبدوره صرّح لي بأنه يقاسمني المشاعر نفسها ويحترق شوقاً لرؤياي، وغالباً ما كان يكرر ذلك على مسامعي ونحن نتبادل فيها كأس الحب والغرام. وفي أحد الأيام دُعيت لحضور حفلة استعراض لأعمال الفروسية في القصر وأثناءها لاحظت بأنَّ الزي الرسمي الذي كان يرتديه غوتييه يغلب عليه اللون الأحمر فقررت أن أقدم له الزنار ليصبح في أحلى شكل وليكون أكثر روعةً وجمالاً خلال أدائه لهذا العمل الذي لا يخلو من الإقدام والشجاعة، علماً بأني لا أحب أن أقيد خصري بأي رباط وخاصة بعد أن أحسستُ بأني حامل، فآثرت أن تكون عضلات بطني في حالة استرخاء دائمة. واستمر الوضع على ما هو عليه لمدة أشهر قليلة إلى حين زواج ابنتي عمي «آن» و«بلانش» من أشقاء زوجي لويس وشارل وبشكلٍ متتابع ووجودهما لجانبي. وعلى إثر ذلك تغير نمط حياتي نوعاً ما، فقد كان لوجودهما بجانبي أثر كبير في ملء الفراغ الذي كنت أعاني منه بعد مفارقتي الأهل والأخدان. كما أنه ساهم في فتور علاقتي

مع غوتييه لأنني غالباً ما كنت ألعب وألهو معهما في حديقة القصر ونحن نتبادل معاً الكلمات الحلوة ونطارد الفراشات أو عندما نصعد معاً إلى البرج شبه سكارى. وعلى الرغم من ذلك كله كنت من حين لآخر أستدعي غوتييه كلما شعرت بالحاجة إليه ليأتي إلى البرج وأطارحه الغرام. والحال نفسه بالنسبة لجان وبلانش اللتان أحبتا كثيراً قضاء الوقت في هذا المكان الملائم لملاقاة الشباب الفرنسي من المجتمع المخملي. وخوفاً من أن ينكشف أمرنا ونقع في فضيحة لا يُحمد عقباها قررنا نحن الثلاثة، بأن نبحث عن خطة تسمح لنا في أن نمحي أي أثر لعلاقتنا الغرامية مع عشاقنا وذلك من خلال التخلص نهائياً من العشيق. ولقد اقتضت خطتنا الجهنمية أن نضع العشيق في كيس من القنب بعد أن نكون قد ارتوينا منه جنسياً ثم نقوم برميه من أعلى البرج باتجاه النهر توخياً لطمس معالم الجريمة. نحن نعرف جيداً بأنه لا يمكن لأي من هؤلاء العشاق أن يمتلك الجرأة في أن يقاومنا لقناعته المسبقة بأنَّه سيكون هو الخاسر وسيدفع ثمن عناده غالياً جداً. وإمعاناً منها في الاستهتار برأي الناس فيها بدأت مرغريت تبرّر سلوكها الشائن أمام القاضي مدعيةً «بأن الحب بين الزوجين غالباً ما يحتاج إلى صيانة وتجديد مع مرور الأيام. ولما لم يكن لويس يرغب

في ذلك فقد ساهم سلوكه في اتساع الفجوة بيننا. وهذا الفراغ فتح الباب أمام انبعاث عواطف جديدة تجاه شخص آخر متمثل بقائد الفرسان (غوتييه) الذي كان النشاط ملؤه والإقدام رائده». ثم أردفت تقول: «لست أدري أكانت تلك مجرد نزوة عابرة أم قصة حب جميلة؟ إلا أن ما هو أكيد هو أنني تغيرت حقاً بعد أن استطعت أن أتحرر من المحظورات والمعوقات التي كانت الحياة في البلاط الملكي تفرضها عليّ».

وعلى إثر ذلك أمسك القاضي بأول الخيط فطلب على الفور إجراء تحقيق مع الأميرتين جان وبلانش للتأكد من صحة أقوال مرغريت. وفي أوّل جلسة معهما اعترفتا بأنَّ ما ورد في كلام مرغريت لا يجافي الحقيقة أبداً، وبأنهما كانتا شريكتين لها في الذنب ضمن «برج نيل». والحال نفسه بالنسبة لغوتييه الذي حاول أن ينكر في بداية الأمر إقامة أي علاقة مع الأميرة مرغريت لكنه لم يستطع الصمود طويلاً أمام أسئلة القاضي التي كانت تؤكد تورطه في علاقة مشينة معها. وعلى الفور اعترف بأن إحدى الأميرات المدعوة مرغريت استطاعت إغواءه وجعلته يسقط في حبائلها أسيراً لا حول له ولا قوة. ثم روى للقاضي كيف قدمت له مرغريت الزنار في إحدى اللقاءات الحميمة معها في (برج نيل) بعد أن صرحت بأنها تحبه ولا تكنّ لزوجها لويس ولي العهد أي شعور بالحب والإخلاص.

رفع القاضي محضراً يتضمن إفادة كل من مرغريت وابنتي عمها آن وبلانش اللتين دخلتا في الحبكة التي نسجتها مرغريت إضافةً إلى إفادة غوتييه إلى الملك فيليب. وما إن اطلع الملك عليه بحضور القاضي حتى جُنّ جنونه بعد أن ثبت له بأن كناته الثلاث لسن سوى عاهرات ومنحلات أخلاقياً بحيث لا يتمتعن بأي ذرة من الشرف والكرامة وبأن ما قمن به يعبر عن حالة هستيرية، فأعطى أمراً على الفور بأن يُلقى القبض على مرغريت ويُجزّ شعرها على الصفر وتوضع في زنزانة مظلمة تحت الأرض محملاً إياها مسؤولية كل ما حصل مع جان وبلانش اللتين سقطتا في الرذيلة بتحريض منها بعد أن غررت بهما، فهي التي أدخلتهما في هذه التجربة المريرة وأسقطتهما في حبائلها الشريرة، بحسب رأيه. أما بالنسبة لغوتييه فقد أمر الملك بأن يخضع لشتى أنواع التعذيب. وأمام جمهور غاضب قام الأطباء بخَصّيه. ثم جاء الفرسان وقاموا بربطه وهو مجرد من ثيابه بسرج حصان جموح بدأ يجره على الأرض. ولما لم يمت فقد قام الجلاد بقطع رأسه بعد شنقه على عمود نُصب لهذه الغاية في الساحة المركزية لبلدة «بوانتواز» القريبة من العاصمة باريس. أمَّا بالنسبة

لكل من جان وبلانش فقد أمر الملك بأن تقضيا حياتهما تحت الإقامة الجبرية إلى حين صدور مرسوم ملكي يقضي بالصفح عنهما.

ومنذ ذلك الحين عاش التاج الفرنسي قضية لا أخلاقية أطلق عليها تسمية «برج نيل». ففي هذا البرج الذي كان قد شُيّد على الضفة اليسرى لنهر السين الذي يخترق باريس من أجل تأمين الحماية للمدينة من جهة الجنوب، والذي أخذ شكلاً دائرياً بارتفاع قدره ١٢٥م كانت الأميرات الثلاث يسرحن ويمرحن ويتخذن منه مكاناً آمناً لارتكاب الموبقات والفحشاء حيث كن يطارحن عشاقهن الغرام فيه. وبعد أن يفرغن من العشيق يوضعنه في كيس ثم يرمين به من أعلى البرج باتجاه النهر لكي يموت غرقاً بهدف طمس كل معالم الجريمة التي كن يقمن بها عن قصد وسابق تصميم. ولقد شاءت الصدف أن ينجو أحد العشاق من هذا الموت المحتم وهو السيد (بوريدان) الأستاذ في جامعة السوربون. فعندما تم إلقاؤه من أعلى البرج باتجاه النهر سقط لحسن حظه على قارب يحمل أكياساً من القش اليابس الذي يستخدم عادةً كعلف للحيوانات، وهذا ما خفف من حدة الصدمة وجعله يبقى على قيد الحياة بفضل صاحب القارب الذي تعرّف عليه مباشرةً لكونه أحد طلابه، والذي حمله سليماً معافى إلى أهله بعد أن قدّم له كل الإسعافات الأولية الضرورية في تضميد جروحه والخدوش التي أُصيب بها في وجهه ورأسه خلال عملية اصطدامه بالقارب.

وبعد ذلك ببضعة أعوام وبالتحديد في العام ١٣١٤م أُصيب الملك فيليب الرابع بوعكة صحية قاسية فأحس بأنَّ الحياة انقلبت عليه بأوزارها. ولما شعر بدنو أجله أوصى بألا يُسمح لكنته مرغريت في أن تشارك في موكب جنازته. وبعد مرور بضعة أسابيع معدودة توفي الملك فيليب الرابع، ونودي بابنه لويس ملكاً على فرنسا تحت اسم لويس العاشر. وفي هذه الأثناء تهللت مرغريت إلى زوجها الملك الجديد متضرعةً إليه لكي يصفح عنها وتتفرغ بالتالي إلى تربية ابنتها جانيت إلا أنه سرعان ما رفض الرد على طلبها لأنه لم يعد بمقدوره غض النظر عن جرائهما، فقرر إبقاءها حبيسة زنزانتها متهماً إياها بالخيانة العظمى. وكانت صدمتها عنيفة عندما جاءها يوماً ليعلمها بأنه قرر التخلي عنها نهائياً وسوف يتزوج من الأميرة المجرية «كليمانس» كإجراءٍ انتقامي منها. وعندما علمت مرغريت بأن الزفاف قد تم فعلاً اغتمت لسماعها هذا النبأ فتحطمت كل قواها الجسدية والمعنوية وماتت كمداً وهي في سن الخامسة والعشرين من العمر. لكنّ هناك مؤرخون أعطوا لحادثة الوفاة

روايـات أخرى وهي أن الملـك لويس جاء بالفعل إلى زيارتها في زنزانتها الواقعة في الطابـق الأرضي ثم قام بخنقهـا بوساطة وسـادة وضعهـا على فمها إلـى أن فاضت روحهـا. وهناك مؤرخون كتبـوا بأنَّ الملك لويـس عثر على زوجتـه مرغريت ميتةً في زنزانتهـا بعد إصابتها بنوبـة حمى شديدة أدت إلى حدوث انفجار في دماغها.

لم يدم حكم الملك لويس سوى عام واحد حيـث أصيب بمرض عضـال أودى بحياته نتيجة المعاناة التي اكتوى منها تاركاً زوجته الجديدة كليمانس حاملاً والعرش الفرنسي مـن دون وريـث شرعي، وجوقـة الفرسان مـن دون قائد. وعندمـا اجتمعت الحاشية الملكية لتعيين ملـك جديد وقع اختيارهم على ابنته جانيـت كوصية على العرش إلى أن تبلـغ السن القانوني. وفـي هذه الأثناء سـرت شائعة قوية تقـول إنَّ جانيت ليست الابنـة الشرعية للملك لويـس بل هي ابنة زنا من رجل آخر. وعلى الفور رفض العرش الفرنسي أن تعتليه امرأة مشكوك في نسبها وحسبها فنـودي على الفـور بأخيه فيليب ليصبـح ملكاً علـى فرنسـا. وبالفعل عُين فيليب ملكاً تحـت اسم فيليب الخامس في العام ١٣١٦م واستمـر في الحكم مدة ست سنـوات، أي حتى عـام ١٣٢٢م حيث وافته المنية بشكل مبكر. وخلال وجوده في العرش أصدر مـا يسمى بشريعـة الإفرنج «قانون ساليـك»، الذي سنّه علـى خلفية فضيحة امرأة أخيه مرغريت، وبموجبه تُمنع النساء في فرنسـا من تملّـك الأرض بالميراث والصعود إلـى العرش الملكي. ولقد استمر العمل بهذا القانون إلـى أن اندلعت الثورة الفرنسية في العـام ١٧٨٩م، حيث مسحت كل مخلفـات العهد الملكـي البائد وأقرت بحقوق المرأة فـي الميراث، كما جاء ذلك في القانون المدني الذي نشر بنوده نابليون بونابرت في العام ١٨٠٥م. وبعد وفاة الملك فيليـب اجتمع مجلس الأعيـان في القصر الملكـي واتخذوا قراراً بتعيين الولد الثالث المتبقي للملـك فيليب الرابـع وهو شارل الذي أخذ اسم شارل الرابع ليكون ملكاً على فرنسا ليـدوم حكمه ستة أعوام فقط حيث توفـي بعدهـا (١٣٢٢-١٣٢٨) على غرار أخيه فيليب.

وبموت الملك شـارل الرابع لم يبقَ من السلالـة الملكيـة أي مولود ذكـر يستحق اعتـلاء العرش الفرنسـي. مما دفع بالابنة إيزابيـلا (١٢٩٢-١٣٥٨م) زوجـة الملـك إدوارد الثاني الذي اغتيل قبل ذلك بعام من وفاة شارل الرابع نتيجـة تآمرها عليه إلى أن تطالب بحقها فـي العرش الفرنسي من خلال ابنهـا إدوارد مقابل أن تصبح وصية على العرش البريطانـي. تجاه هذه الإرادة الإنكليزية اندلعت الحرب في العام ١٣٣٧م بين فرنسا وإنكلترا بعـد مطالبة بريطانيا

بالعرش الفرنسي واستمرت قرابة ١٠٠ عام إلى أن انتهت في معركة جينكورت وبفرض معاهدة (تروا) في العام ١٤٢٠م التي وقعها عن فرنسا الملك شارك السادس وعن بريطانيا هنري الخامس. وبموجب هذه المعاهدة يتزوج هنري الخامس الإنكليزي من ابنة شارل السادس الفرنسي المدعوة كاترين، ويكون ولدهما هو ملك فرنسا المستقبلي بعد أن يأخذ اسم شارل السابع. ولقد أباحت كاترين عند ولادة ابنها شارل بأنه ليس من ضلع أبيه مما أثار فضيحة أخرى جعلت البلاط الفرنسي يدخل في عنق الزجاجة من جديد. إلا أن الأمور سرعان ما أخذت منحى جديداً البطلة الفرنسية جان دارك التي كانت شاهداً وهي في سن الثالثة عشر من العمر على اجتياح الإنكليز لبلدتها (دومريمي) الفرنسية حيث حرقوا الكنيسة ودور العبادة فيها. وأثناءها سمعت جان دارك أصوات بعض القديسين تناديها من السماء لتبلغها بأنها أصبحت مكلفة بمهمة التوجه إلى مدينة أورليان الفرنسية لتخليصها من الحصار الإنكليزي المفروض عليها، وإجراء لقاء مع الملك شارل السابع. وعند وصولها إلى أورليان استقبلها الملك وقالت له إنها أصبحت أداة لتنفيذ إرادة الله، فارتدت ملابس الرجال ثم أحيلت أمام لجنة دينية للتأكد من تقواها في مدينة «بواتييه» الشهيرة حيث كانت قد دارت معركة كبيرة في القرن الثامن الميلادي بين العرب والإفرنج انهزم العرب على إثرها، وسُميت بمعركة «بلاط الشهداء» نظراً لكثرة عدد القتلى الذين راحوا ضحاياها. ثم زودها الملك شارل السابع بـ٨٠٠٠ مقاتل مسلحين تسليحاً جيداً هاجمت بهم مدينة أورليان فحررتها من الحصار الإنكليزي الذي كان قد دام قرابة ٩٠ يوماً، ثم ذهبت إلى مدينة ريمس وتوّجت في كنيستها التي تتمتع بقيمة دينية رمزية شارل السابع ملكاً على فرنسا، وهو المكان الذي توّج فيه كلوفيس في العام ٤٩٦ ملكاً على الإفرنج. وبعد ذلك اشتبكت جان دارك مع الإنكليز في أكثر من معركة وهزمتهم فيها. وما إن فرغت من تعيين شارل السابع ملكاً على فرنسا حتى أعلنت بأن مهمتها قد انتهت، لكنها أصرت على تحرير مدينة باريس ولكنها فشلت فتراجعت إلى مدينة (كومبيين) حيث أسرها البورغوند الفرنسيون عملاء الإنكليز في يوم ٢٣ أيار ١٤٣٠م وسلموها لهم مقابل ١٠ آلاف قطعة ذهبية. وعلى إثر ذلك شكل الإنكليز محكمة فأدانتها بأنها عميلة للشيطان وتفعل من وساوسه فأعدموها حرقاً في مدينة روان الفرنسية.

وفي مطلع القـرن العشرين أثارت قضيتها انتباه الكنيسـة الكاثوليكية التي عملت في العـام ١٩٢٠م أي بعـد مـرور قرابة ٥٠٠ عام على تطويبهـا قديسةً. ومع ذلك بقيت الحـرب مستمرة بين إنكلتـرا وفرنسا على العرش الفرنسي، حتى انتهت بطرد الإنكليز مـن فرنسا بشكل نهائي فـي العام ١٤٥٣م الذي شهد أيضاً سقوط القسطنطينية على يـد محمد الفاتح بعـد أن دامت قرابة مئة عـام وعُرفت تاريخياً تحـت هذه التسمية: «حرب المئة عام».

والجديـر بالذكر، أن قضيـة برج نيل، أصبحـت مثار جـدل ونقاش لـدى علماء التاريخ فـي فرنسا حتى إنّهـا تحولت إلى أسطورة يتداولها الناس في أحاديثهم العامة والخاصـة. وهنـاك الكثير مـن المؤلفات والمقـالات والكتب التي صـدرت بشأنها، ومن أهمها كتاب بعنوان: «برج نيل» للكاتب الفرنسي الشهير ألكسندر دوما الذي تحوّل فـي أعوام الستينيات من القرن الفائت إلى مسلسل تلفزيوني لاقى رواجـاً واسعاً لدى الجمهور الفرنسي.

المراجع

١- موسوعة «لاروس الكبرى» الفرنسية، طبعة عام ٢٠٠٣م.
٢- كتاب بعنوان: «تاريخ فرنسا».
٣- كتاب «برج نيل». للكاتب الفرنسي ألكسندر دوما.

لغة الجســـد من منظور علميّ

د. بدر الدين أحمد عامود ❁



ترجع نشأة اهتمام الإنسان بأفعاله الإرادية وغير الإرادية إلى الأطوار المبكرة لتشكل وعيه، حيث كان يراقب نتائج تلك الأفعال ويسعى لمواءمتها مع موضوعات النشاط المنتج الذي يمارسه مع الآخرين، وجعلها أكثر توافقاً مع أفعالهم بهدف إنجاز المهمات الحياتيّة وتلبية الحاجات الجماعيّة والفرديّة.

❁ باحث وأكاديمي في علم النفس.

لقد كان هذا النشاط الجماعي المشترك ولا يزال الشـرط الضروريّ لظهور وارتقاء مظاهر الثقافة كافة من علوم وفنون وآداب وأدوات عمل وتواصـل ووسائل تجمع وفي مقدمتها اللغة. وتبعاً لذلك أمكن للحاجات الثقافيّة - الروحيّـة أن تظهر لدى البشر، وأن تتطور بتطور تلـك المظاهر الثقافيّة، وتقـدم ذلـك النشـاط. كما فتـح الباب، في الوقت ذاته، أمام ارتقـاء وسائل إشباع الحاجات الطبيعيّة وأدواته ممّا أكسب هذا الجانب العضويّ من شخصية الإنسان طابعاً إنسانيّاً، وأخضع نشوء سماتها وتبلورها إلى قوانيـن اجتماعيّة - ثقافيّة نـأت بها شيئاً فشيئاً عن حالتها البهيميّة الأولى إلى درجة غـدت مختلفـةً اختلافاً نوعيّـاً عن جميع أشكال السّلوك الحيوانيّ ومستوياته.

وهكذا فالعلاقة بين النشاط الجماعيّ التعاونـيّ المنتـج والمبـدع مـن جانب، والحاجات الاجتماعيّة - الثقافيّة والروحيّة من جانب ثانٍ، والثقافة بأشكالها ومضامينها وأدواتها ووسائلها من جانب ثالث كانت منذ أن بـدأ الإنسان بتحضيـر الأدوات الأولى لتكـون امتداداً ليديه بصـورة خاصة حتّى العصـر الحالـي الذي صـار يستخدم فيه التقنيـات الحديثة كإضافات لقواه الذّهنيّة والجسّديّـة وستظل مابقـي البشر علاقة جدليّة يعد كل طرف من أطرافها سبباً في تطور الطرفين الآخرين. وهذا ما يدفع بنا إلى التشديد على وجوب معرفة مقدار تلك العلاقـة الارتباطيّة بينـه وبين كل مكونات الطـرف الذي ينتمي إليه من جهة، ومقدار علاقتـه الارتباطيّـة بغيـره مـن مكونات الطرفيـن الآخرين إذا أردنـا الوقوف على حقيقته كمعطى مركب ذي أبعاد اجتماعيّة وثقافيّة وتاريخيّة من جهة ثانية.

إنّ دراسـة ظاهـرة مـا دراسـة علميّة تستدعـي معرفة دقيقة بالشروط التي آلت إلى ظهورها وساعدت فـي تطورها، وتتبُّع آثارهـا جميعاً ضمن علاقتهـا الارتباطيّة والتكامليّـة بعضها ببعض في تعيين ماهيّة تلك الظاهرة.

ولعلّ مـا راكمته البشريّـة من معارف تتصـل بتاريخها واجتماعهـا وأنفسها في مجـرى مغامراتهـا الوجوديّـة منذ حوالى عشرة آلاف سنة لم يكن بطبيعة الحال نتاج الالتـزام بمتطلبات هـذه المقاربة وتمسك الباحثيـن والمفكرين بخطوات هذا المنهج وبتسلسل أدواره. ومـع التأكيد على أهمية تلك المعارف ودورها في تقدم المجتمعات البشريّـة والكشـف عـن مجاهـل النفس البشريّة، فـإنّ مراجعة مـا أمكن الوصول إليه منها في المراحـل اللاحقة من مسار تلك الحركة، ولا سيّما عصور مابعد الكتابة والتدوين يبرز الثغرات ومواقع الضعف فيه، كمـا يظهر تبايناً يرقى فـي بعض الأحيان إلى درجـة التناقـض بيـن آراء الباحثين

والمفكرين بسبب قصور مناهج البحث وتخلف أدواته.

إنّنا، بإشارتنا هذه، لا نهدف إلى التقليل من قدرات هؤلاء المفكرين والباحثين أيّاً كان زمانهم وموطنهم، أو الاستهانة بقيمة إسهاماتهم في تقدم المعرفة الإنسانيّة، بقدر مانسعى إلى التّعرف على الأخطاء والسلبيات التي شابت نشاطهم المعرفيّ والعمل على تجاوزها في الدراسات الحاليّة والمستقبليّة. وهذا، في اعتقادنا، هو ماحكم على الدوام ممارسة اللاحقين في تعاملهم مع التراث الفكريّ والعلميّ الذي ورثوه عن السابقين. فمنطلق الجميع في الماضي والحاضر يتمثل في الاعتبارات العلميّة والخلقيّة؛ إذ إن من غير الإنصاف والموضوعيّة، في العرف السائد، تقويم النتاج المعرفيّ للمفكر أو الباحث المعاصر والنتاج المعرفيّ للمفكر أو الباحث في الماضي البعيد، بل والقريب أيضاً باستعمال المقاييس والمعايير العلميّة الحديثة.

وليس بنا حاجة للعودة إلى التراث الثقافيّ لنكشف عن سلبيات ونقائص مايحتويه من نظريات اجتماعيّة ونفسيّة لأنّ ذلك يبعد العمل عن غايته أكثر مما يقربه منها ويطيل سبيل القارئ لإدراكها دونما طائل. وبصرف النظر عن تلك السلبيات والنقائص فإنّ من حقّ أصحاب تلك النظريات علينا وواجبنا نحوهم الاعتراف بأهميّة إبداعاتهم الفكريّة واعتبار كل منها لبنة لها موقعها الذي تستحق في هذا الصرح الإنسانيّ الشامخ.

وتدلل القراءة المتأنيّة للتراث الفلسفيّ حتّى ظهور علم النفس كعلم قائم بذاته على تطور الأفكار السيكولوجيّة من هذا التراث عبر الحضارات المختلفة والأزمنة المتعاقبة، وفضل السابق منها على اللاحق. ولقد كانت هذه الأفكار إلى جانب إنجازات العلماء والأطباء في علوم الأحياء والفيزيولوجيا وعلم الأعصاب وتصورات المربين وآرائهم بمثابة المقدمات التي اعتمد عليها مؤسسو العلم الجديد ورواده.

ومانودّ قوله هنا هو أنّ غياب النظرة إلى وحدة التراث الفكري والعلميّ دفع بالكثيرين إلى ربط ظهور العلم (أو غيره) بشخصية علميّة وتاريخ محدد تقترن به في الغالب باكورة أعماله (٤٩،٦). وما إغفال الجهود العقليّة واليدويّة التي مهدت السبيل عبر عقود، بل وقرون من الزمن لاستغلال هذا العلم إلّا بسبب الافتقار إلى المنهج التكويني - النشوئي الذي أتينا على أهم مقتضياته، وسيادة المنهج الوصفيّ - الإمبريقيّ الذي يتناول الصفات الخارجيّة من موضوع البحث دون صفاته الداخليّة الجوهريّة وارتباطه بعوامل تكونها وتطورها.

ودارس علم النفس يعرف جيداً ماعاناه هذا العلم من أزمات وماواجهه من مشكلات منذ الإعلان عن ولادته حتّى الآن بسبب

الخلفيات الفكريّة المتباينة التي انطلق منها أعلامــه وممثلوه، والتي حالــت دون تحديد إشكالياته بصورة موضوعية وموحدة، وقادت إلى ظهور عشــرات المدارس والتيارات بعد أقل من نصف قرن على استقلاله (١٥٧،٦).

وقد يكون التصــوّر الذي حمله البعض (السلوكيــون، الانعكاسيون) حــول الإنسان ككيان عضــويّ تتولى أجهزتــه وأعضاؤه، كما هو شأن الكائنــات الحيّة الأُخرى حتّى البدائيّــة منها، القيام بالحــركات رداً على مثيرات العالم الخارجيّ بهدف التكيّف مع هذا العالم المثال الأهم على تجاهل تاريخ التطور النفسيّ والثقافــيّ للجنس البشريّ والفــرد أيضاً. فهذا التصور دفع بأصحابه إلــى نفي كلّ ماله صلــة بالوعي وظاهراته من إدراك وتصــور وتخيل وتفكير ومشاعر واعتبارها من موروثات العهود البالية التي آن لنا أن نتخلص منهــا والاهتمام بدراسة مايصــدر عــن الإنســان أو (الحيوان) من استجابــات قابلة للقياس بوساطة الحس أو الأجهــزة الخاصة. وتحــت تأثير نظريات النشوء والارتقــاء، وخاصة الداروينيّة وجد مؤسسو هذه المدرسة وأتباعها أن السلوك الإنسانــيّ ليس سوى حاصل جمع المهارات والعــادات المكتسبــة عــن طريــق تعزيز الاستجابات الصحيحــة من بين عديد من الاستجابات العشوائيّــة. ويعني ذلك أن ما يتكون لــدى الإنسان على صعيــد السلوك يخضع لقانون الاصطفــاء الطبيعي القائم علــى المحاولة والخطأ اللذين يخضع لهما الارتقاء العضويّ للكائنات الحيّة (٢٢٣،٦).

ومن هذا المنظور يعــرّف الإدراك بأنّه التغييرات التي تطرأ على المحللات الحسّيّة لدى استقبالها المثيرات الخارجيّة والكلام هو الحركات التــي تقوم بها أجهزة النطق. والتفكير ليس سوى كلام مستدخل. وهكذا فــإن هؤلاء العلمــاء ومن سار فــي ركابهم لم يعنهــم تحوّل المثيــرات الخارجيّة ذات الطبيعة الفيزيائيّة والكيميائيّة بفعل نشاط المحللات الحسيّة إلى عملية فيزيولوجيّة عصبيّة ومنها إلى واقعــة نفسيّة. ووضعوا استجابات جميع الأحياء في مستوى واحد، ولــم يجــدوا إلّا فروقاً درجيّــة بين البقرة والفيــل (٣٥٢،١٢). ذلــك لأن الــكلام - بتجلياتــه ومستوياته المختلفة - ليس سوى مثيــرات اجتماعيّــة لا تختلــف كثيراً عن المثيرات الطبيعيّة.

والحقّ أنّ إغفالهم البعد الدلالي للكلمة ووظيفتهــا المعرفيّة المتمثلــة في التجريد والتعميم إلى جانب وظيفة التجمع والاتصال وتبــادل الآراء والمشاعــر والانفعالات حال دون رؤيتهــم دور النشاط الكلاميّ في تطور الوظائف النّفسيّة المختلفة (الانتباه الإرادي، التّذكر المنطقيّ، التفكير المجرد).

وفــي ظلّ هذا الواقع العلمي المأزوم يقوم ذوو النزعــات الذّاتيّة ممن يسعون إلى الشهرة

والنفوذ بإلحاق فـروع ودراسات بميادين علم النفس دون نسيان التأكيد على جدّة موضوعاتها وأهميتهـا في حياة الفـرد، وتقديمها بأشكال ممتعة وجذابـة تستجيب لرغبـة القارئ في تقديـم نفسه بالصورة التـي يكون فيها محور اهتمام الآخرين ومثار إعجابهم.

ومن أبرز تلك الدراسات ما تناول منها لغة الجسـد ليس بوصفها مادةً جديدةً فحسب، بـل ولأنّ الاطلاع علـى مفرداتها ومعانيها ومعرفـة قواعدها والإلمام بها هو المكافئ للكشـف عن سر النجاح الـذي لطالما كان التّعرف على مكنوناته حلـم الإنسان الذي سعى جاهداً من أجل تحقيقه.

وعلى الرّغم من أن الاهتمام بلغة الجسد كموضوع مستقل حدث ثقافيّ طارئ نسبيّاً لا تتعدى الحـدود الزمنيّة لبداياته نصف قرن مـن الزّمن، فإنّ عـدد الأعمال التي صدرت بهـذا العنوان والنـدوات والملتقيـات التي عقـدت تحته خلال هذه الفتـرة كبير جداً. ومـع تصاعد وتيـرة نشـاط المعنيين بهذا الشأن السّلوكيّ كانت دائرة المهتمين به تزداد اتساعـاً بصورة محسوسة، فصار له مريدون وأشياع في أنحاء مختلفة من العالم.

ولعـلّ أوّل مـا يسترعي انتبـاه القارئ المتابـع لـدى اطلاعـه علـى ماترجم من تلك الأعمـال إلى العربية ومـا وضع منها أصـلا بها هو تكرار كثيـر منها للمعلومات والموضوعات والأمثلة ذاتها. بينما يضطلع بعضهـا بمهمـة عرض تلـك الموضوعات والمعلومات والأمثلة بصورة مختصرة. وما يمكن أن يقف عليه أيضاً هو حرص كثير من المؤلفين على تقديم رسوم وصور توضيحيّة لحركات مختلف أجـزاء الجسد وأعضائه. وهـذه الرسـوم والصـور ،وإن اختلفـت أشكالها وشخصياتهـا، فإنّها تهدف جميعاً إلـى عرض تلك الحـركات دون تغيير يذكر (٢؛٣؛٧؛٨؛١٠). وكأنّ هـذه الأعمـال تكرر ذاتها في حلل مختلفة، فيعيد الأخير منها ما تضمّنـه الأول مع تنامي الرغبة في تقديمه بصـورة أكثـر تشويقاً وجاذبيّـة باستخدام التقنيات الجديدة في الكتابة والطباعة.

ويحـاول باحثـون فـي هـذا الميدان الإحاطة بالحـركات التي تصدر عن الناس في العديد من المجتمعـات البشريّة. فقد أحصى روجر أكستيل ٧٠،٠٠٠ إشارة وحركة جسديّة مختلفة في أنحاء متفرقة من العالم وقـام بتصنيفها وتوزيعها على زمر أو فئات حسب العضو الذي يقوم بها ومن ثمّ عرض مدلولاتها في البيئات الثقافيّة المختلفة[١].

ولا يخلو عمل يتناول لغة الجسد من تقسيم للحركات والإشارات التي يتولى كل عضو من الجسـد القيام بها. ولذا فإنّنا نراه يستعرض حركات الرأس واليدين والرجلين والتغيرات التي تطرأ على الإشارات التي تطلقها العينان والفـم والوجه والجبين والحركات التي يقوم بهـا الساعدان واليـدان والأصابع والساقان

في أوضاعها المختلفة وما تعكسه كلّ حركة أو إشارة من حالة نفسيّة.

وفي حالات عديدة يخصص فصل كامل لاستعراض حزمة الحركات والإشارات التي تصــدر عن كلّ جــزء من أجــزاء الجسد. ولايفوت المؤلفون لفت انتباه القراء إلى كلّ حركة أو إشــارة ودلالتها النفسيّة والتشديد على الأهميّة الاستثنائيّة للغوص في أعماق النفس البشريّة والكشف عن النوايا المضمرة فــي لاشعور المرء أو في عقله الباطن تجاه الآخــر والتي أكدّ مؤســس التحليل النفسيّ على وجودها حين قال: «تنطوي الحياة على قسط وفير من الرمزيّــة... فمن له عينان ليرى وأذنان ليسمــع يتبيّن أن بني الإنسان لا يستطيعــون أن يكتموا سراً. فمن تصمت شفتاه يثرثر بأطــراف أنامله. فهو يشي ما بنفسه بكلّ مسام جسمه»(٩،٩١).

وما يهــدف إليــه هؤلاء مــن خطابهم هذا ليــس تمثل القــارئ مهــارات اللياقة الاجتماعيــة وتعلمهــا لتكــون سبيلهم إلى إحراز نجاحات حياتيــة، وإنّما وضعه أمام الحــركات والإشارات التي تصدر عن جسد الإنسان في المواقف الاجتماعيّة المختلفة، والتــي تعكس مافي داخلــه دون تدخُّل من جانــب إرادته. وكأنّها وقائــع ثابتة وحقائق علميّة لا مندوحة مــن الاعتراف بوجودها كمظاهر نفسيّة لــدى جميع الناس بصرف النظر عن ثقافاتهم وعصورهم ومجتمعاتهم وأجناسهم وأعمارهم... إلخ.

وبالعــودة إلــى اللباقــة الاجتماعيّــة والكياسة في التعامل والتواصل مع الآخرين ومهاراتهما بما فيهــا الحركيّة (الأتيكيت)، فإنّ من المعروف أن هناك مؤسسات خاصة تتولى تنشئــة أبناء الطبقــة الأرستقراطيّة والأمــراء وأبنــاء الملــوك وإكسابهــم تلك المهــارات. وأنّ لهــذه المؤسســات تاريخاً مديــداً كانت تواكب علــى امتداده ما يطرأ على القيــم الخلقيّــة وآداب المعاشرة من تغيــرات. ومع أن الهدف مــن وجودها في مختلف الأزمنــة والأمكنة بقــي دون تغير إلّا أن تلــك المهارات ومــا تشتمل عليه من أدوات كلاميّــة أو حركيّــة كانــت متباينة دومــاً تباين الأمكنة والأزمنة. ويكمن سبب ذلك التبايــن في الفروق البيّنة بين ثقافات الأقــوام والأمم وتغيرها داخل القوم والأمة من عصر لآخر.

ومن المنطقي أن تكون هذه الفروق أكثر وضوحاً عندما يتعلق الأمر بلغة الجسد عند الناس بوجه عام. فــي لغة الجسد موضوع لعملهم وإشارات إلى التفاوت الثقافيّ. بينما بقيــت العوامل الأخرى التــي تؤثر في ظلّ اختلافهم الحضاريّ والاجتماعيّ والجنسيّ والعمــريّ. ومــا يدعو للأسف هــو أن قلةً فقــط ممّن اتخذوا في وجود هذه الظاهرة بالنسبة للجميع خارج دائرة البحث.

ومــع إشارة هــذه القلــة إلــى العامل الثقافــيّ، فإنّ أيّاً مــن ممثليها لم يشر إلى بعــده التاريخيّ. فقد خصص آلان وباربارا

بييز فصلاً من كتابهما «المرجع الأكيد في لغة الجسد» للحديث عـن تجليات الفروق الثقافيّـة في فهـم الحـركات والإشارات. فاستخدام أصابـع اليد للعدّ، مثلاً، يختلف من مجتمع إلى آخـر. إنّه يبدأ عند العرب بالخنصـر بينمـا يبـدأ عنـد الأوروبيين بالإبهـام. وفي حين يعبّر رفـع السبابة مع ضـم الأصابع الأخـرى عنـد المسلم عن الشهادة، تشير هذه الحركة في منطقة حوض المتوسـط وروسيا والبرازيـل إلى فتحة أو ثقب ممّا يعدّ القيام بها إهانة جنسيّة، وتدلّ في فرنسا وبلجيكا على انعدام القيمة، وفي اليابـان إلى المال ،وفي بريطانيا وأستراليا ونيوزلينـدا ومالطـا يعنـي رفـع السبابة والوسطى مع ضم الأصابع الأخرى شتيمة، وفي الولايـات المتحـدّة الأميركية اثنين، بينمـا تعدّ في ألمانيا والدول العربيّة إشارة نصر، وفـي فرنسا تتخذ كإشـارة للسلام. وهـي ذاتها كانت تعني في روما القديمة أن يوليوس قيصر يأمر بإحضار خمسة أقداح من الجعة... إلخ (١٠٦،٣-١١٠،).

وبعد عرض خمس عشرة حركة لأصابع اليـد وما تعنيـه كل واحدة منهـا في عدد البلدان خلـص المؤلفان إلـى أنّ الأفضل لمن يحصل على درجـة متدنيّة في معرفة ماترمز إليه هـذه الحركات بالنسبة لسكان تلك البلدان أن لايسعى للحصول على جواز سفـر، بـل وأن لايسمح له بمغـادرة منزله بسبب بساطـة فهمه للعالـم والتي تحمله على الاعتقاد بـأنّ التوقيت والطقس نفسه يسـودان العالم. إنّه أمريكـيّ على الأرجح (١١١،٣).

ومـرّة أخـرى يغيـب البعـد التاريخيّ في تفسير المؤلِّفيـن لاختلاف فهم الناس لمدلولات حـركات أصابـع اليد باختلاف بيئاتهم الثقافيّة. ويتبدّى هذا الغياب بشكلٍ جليّ في ثقة المؤلِّفين في قدرة الصورة التي يعرضها التلفزيون الأميركي على تقريب فهم الأجيال الصاعدة في شتّى أنحاء المعمورة لتلـك الحركات،، بل ومحـو الفروق في ما تدلُّ عليه وترمز إليه (١١٢،٣).

ومـن المنطقـيّ أن تكـون هـذه الثقة بدور المجتمع وبوسائـل ثقافيّة ممثَّلةً هنا في التلفزيـون الأميركي في تعميم النموذج الخاصـ بأميـركا الشماليّة للغـة الجسد وتحوله إلى نموذج عام للأجيال القادمة في مختلف البلدان مثار الاستغراب والاحتجاج على تجاهـل هذا الدّور فـي تطور سلوك الإنسان عبر التاريخ.

وقد يكـون الاستغراب أقوى والاحتجاج أشّدّ في حال تغييـب هذا الدور تماماً عن المشهـد عندمـا يرسم المؤلفـان حركات اليدين (باطن اليـد إلى الأعلى أو الأسفل، ضمّ راحة اليدّ، وضع إحدى اليدين أو كلتيهما على الصـدر..) والرجلين (تباعد الساقين أو تقاربهما في وضعية الجلوس أو الوقوف، وضـع إحدى الرجليـن على الأخـرى...)

والعينيــن والوجه والفــم وغيرها. وتطرح هــذه الحالة سؤالاً عمّــا إذا كان ممكناً أن تختلــف معاني إشارات وحركات أصابع من مكان إلى آخر باختلاف ثقافة المجموعات البشريّــة بينما تحمل الحركات التي تصدر عن بقية أجــزاء الجسد أو بعضها المعاني والرموز نفسها لدى البشر أيّاً كان المجتمع الذي ينتمون إليه.

وللإجابــة على هــذا الســؤال تحسن العــودة بلغة الجسد إلى المصــادر الأوليّة لنشأتهــا، والتعرّف، من ثــمّ، على التغيرات التي لحقت بها في سياق ماعرفه المجتمع والفرد عبــر العصور من تطــور في البناء الثقافــيّ والوظائــف النّفسيّــة. فمن شأن هذه العــودة أن تضع الباحــث أمام مشهد الجماعة البشريّة في عصور ماقبل التاريخ وهي تعيش حيــاة بهيميّة تعبّر في مواقفها وسعيها الدائــم لتلبية حاجاتهــا الطبيعيّة بأصوات مقترنة بحــركات وإشاراتٍ شبيهة بما تصدره الحيوانات العليا (القردة، مثلاً) خلال تفاعلها مع المحيط الخارجيّ. وثمّة أمثلة كثيرة تحفل بهــا المراجع المختصّة وتدّلل على هــذا التشابه بين سلوك إنسان جــاوه أو إنســان بكين وسلــوك الحيوانات العليا وظهور الاختلاف بينهما في مراحل لاحقة من تاريخ ارتقاء الإنسان.

وقد تجلّــى هذا الاختــلاف على نحو لافت فــي الحالة التي عــرف الإنسان من خلالها الإنسان بالإنســان العاقل homo sapience حيــث مكنتــه التغيرات الهامة التي طــرأت علــى عضويتــه وسلوكه من الشــروع بمغامراته الأولى لإخضاع مظاهر الطبيعة لمشيئتــه وتكييفها وفقاً لحاجاته. فكانت هذه النزعة شاهداً على المخاضات الأولى لولادة وعيه.

ولعلّ الأصوات المفهومة التي تدلّ على شيء ما مع حركات يقوم بها الجسد أو جزء منه وتحضير الأدوات بما تعكسه من أفعال غائيّــة وإراديّة هي من أكثــر تجليات هذه المخاضات أهميّة.

ومن المناســب أن نشير هنا إلى الفارق بيــن اللغة والكلام والتشديــد على ضرورة استخدام كلّ من المفهومين في السياق الذي يتناسب ومدلولاتــه. ففي الوقت الذي نرى فيه أن اللغــة هي «منظومة إشارات كلاميّة تتوســط مستويات وأشكال علاقاتنا بالعالم الخارجيّ» ننظر إلى الــكلام بوصفه «فعل استعمال الفرد لتلك الإشارات» (١٨،٥).

واللغــة ظاهرة اجتماعيّــة توجد خارج الفــرد ومع حيازته لها تتحــول إلى ظاهرة نفسيّــة داخليّة، أيّ إلى نشاط كلامي يجعل النشاطات النفسيّة الأُخرى، بإسهامه فيها، أكثــر اتساعاً وعمقاً وتعقيــداً. ولا يقتصر هذا النوع مــن النشاط علــى الاستجابات الكلاميّة وحدهــا، بل ويشمل، زيادة عليها، استجابــات صوتيّة لاوجــود لها في معاجم

اللغـة وحركات وإشارات تتولـى القيام بها أعضاء شتى من الجسد.

ليس فـي نيتنا استبعـاد أو نفي وجود استجابـات مشتركـة بيـن أفـراد الجنس البشريّ حتّـى الآن. ولا أحد يملك الحجة لإغفالها أو تجاهلها. فهذه الاستجابات التي نقصدها هي مايراه كلّ منّا من تغيّرات تطرأ على عضويّة الناس في الحالات الانفعاليّة كالخوف والغضب والحماية والرضا والتودد وغيرها ممّا وصفه تشارلز داروين بأنّه بقايا سلوكيّة ورثناها عن الإنسان القديم حين كان يهرب من المخاطر ويواجه التهديد ويدافع عن الصغـار ويتقرب من الجنـس الآخر. ومازالـت تشكل جـزءاً مـن ردود أفعالنا الغريزيّة في مواجهة العالم الخارجيّ.

وعلى الرّغم من الطبيعة الغريزيّة لهذه الاستجابات فإنّها شهدت عبر آلاف السنين تغيرات هامـة بفعل التنشئـة الاجتماعيّة والخلقيّة على قاعدة المعايير التي تفرزها ثقافـة المجتمع. ولقد باتـت القدرة على ضبطهـا والتّحكـم بها أحـد مؤشرات قوة الشخصيّة وارتفاع مستوى الذكاء العاطفيّ وسمو الأخلاق. وأصبحنا الآن نتحدث عن فروق في هذا الشأن بين بني البشر، ونخلع على من خفّـت لديه حدّة هذه الاستجابات صفات من وحي الحضارة والمدنيّة.

ومن هذا المنظور يبدو لنا أنّ الكلام عن فطريّة أيّ مـن الاستجابات الجسديّة التي ترمـز إلى أمر ما ولو من باب الاحتمال هو كلام ينأى بصاحبـه عن الحقيقة. فالطفل يولد ببعضـ الاستجابـات أو المنعكسات غير الشرطيّة (الفطريّة) كالمنعكس الفمّي، والمنعكسـ التوجهيّ، ومنعكس بابينسكي.. إلـخ التي تمكنه مـن الرّدّ علـى المثيرات الخارجيّة. ومـن الخطأ الاعتقـاد بأنّ أيّ حركـة أو استجابة أخرى يقـوم بها الطفل من مثل رفع الرأس إلى الأعلى للدلالة على النّفـي أو الرفض ،هي حركة فطريّة. وإلّا لما كان الجزائريـون والبلغار مثلاً يقومون بهذه الحركة للتعبير عن الموافقة، ولمّا كان بعض شعوب المشرق العربيّ وبعض شعوب أوروبا إن لم نقل جميعهم يقوم بتحريك الرأس يميناً ويساراً أكثر من مرة بدل تحريكه إلى الأعلـى أو رديفاً له للدلالة على الرفض أو النفيّ والتأكيد عليه (١٠،١٣٣ –١٣٤).

ومن الثابت علمياً أنّ النّمو اللغويّ عند الطفل لا يقتصر على اكتساب مفردات لغته الأم وقواعدها، بل ويشمل أيضاً استعمالها في المواقـف الحياتيّـة المختلفة، وكيفية التعبير بوساطتهـا عن انفعالاته حيالها مع اقترانها بالحركات الجسديّة المناسبة. فهو، بعبارات أخرى، يتمثل النشاط الكلاميّ بكلّ مركباته وعناصره فـي مجرى علاقاته مع الآخرين، والكبار منهم على وجه الخصوص. إنّه يُلاحـظ في وقتٍ مبكرٍ مـن حياته أن الراشديـن (الأم، الأب) يستعملـون الكلمة

ذاتها بصورة متعددة ليعبّروا عن حالاتهم النّفسيّة، ويقومون، في الوقت نفسه، بحركات تعكس تلك الحالات (٣٩٧،١١). فالكلمة، كفعل كلاميّ، تكتسب أبعاداً تجعلها أقدر على أداء دورها في التعبير والتأثير، وتمدّ الإنسان بإمكانيّة تكييف غلافها الماديّ (الصوتيّ) بما يتناسب ونوع انفعاله ومستوى حدّته واتجاهه. ونسوق، للمثال، كلمة «صحيح» فلهذه الكلمة وقع واحد في نفس من يقرأها في كتاب أو معجم عبر دلالتها على الحكم بصحة قول أو فعل ما. ولكنّها تكتسب - زيادة على هذا - معنى التشجيع والإثابة حينما يوجهها إنسان إلى آخر مرفقاً إيّاها بإيماءة خفيفة من الرأس وابتسامة وديعة تبعث على الطمأنينة وحركة من اليدّ في الهواء. وقد تعكس حالة الدّهشة أو الاستنكار لدى ارتفاع وتيرة الصوت من حرف إلى آخر مع اتساع حدقة العين وتقطيب الجبين. وعلى هذا النحو كذلك يتمثل الطفل الجمل ويتعلّم كيفيّة تحميلها بمختلف الشّحنات الانفعاليّة عن طريق تغيير نبرة الصوت وحدّته لدى النطق بكلماتها ونقل التشديد المرّة تلو الأخرى من كلمة إلى أخرى بمقتضى الهدف.

ومن الجليّ أنّ الإشارة إلى الأهميّة العلميّة والقيمة العمليّة اللتين يحملهما الأخذ بالطريقة التحليليّة - التركيبيّة تهدف، فيما تهدف، إلى الرّدّ على الطريقة التحليليّة - التجزيئيّة التي يسلكها العديد من الباحثين في معالجة الموضوعات التي تتناولها بحوثهم، وتحملهم إلى تصور مكوناتها كوقائع منقطعة الصّلة بعضها عن بعض، ولايربطها بالمحيط الاجتماعيّ أيّ رابط.

فكلّ مكوّن من مكونات النشاط الكلاميّ هو، في رأيهم، مجموعة من الحركات والإشارات التي تعبّر بمجملها عن نزعات لاشعوريّة أو رغبات تستقر في العقل الباطن لايعرف كنهها وآليات عملها معرفة دقيقةً إلّا الراسخون في العلم والقادرون على قراءة لغة الجسد وحلّ رموزها بوصفها البوابة التي تؤدي إلى الكشف عن تلك النزعات والرغبات المخبأة في أغوار النفس البشريّة. وكأنّهم، بادعاءاتهم هذه، يستغلون معاناة الإنسان بسبب شعوره بالعجز عن تلبية رغبته الجامحة في معرفة ذاته كما يستغل المنجمون والمشعوذون توقه الشّديد لمعرفة ما يضمره له المستقبل.

لقد وجد ألبرت مهرابيان، وهو رائد في قراءة لغة الجسد، أنّ نسب ما يستخدمه الناس من وسائل الاتصال تتوزع على النحو التالي: ٧٪ كلام محكيّ، و٣٨٪ نبرة صوت، و٥٥٪ حركات الجسد (لغة الجسد) (١٣:٨:٣) ومن المنطقيّ أن يستوضح القارئ عن المقصود بنبرة الصوت، وعمّا إذا كان بالإمكان تصور هذه النبرة بمعزل عن الكلمة. فالأقرب إلى الواقع هو أن تكون النبرة هي ذلك الغلاف الخارجيّ الذي يغلف الإنسان به الكلمة ليعكس حالته النفسيّة، كما أن بوسعه الاحتجاج على تجزئة هذه المركبات وهو الذي خبر تضافرها وأدرك حضورها معاً

لتقديم مشهد نفسيّ كامل.

وعلى الرّغم مـن أن مهرابيان ما انفكّ يردد على امتداد أكثـر من أربعة عقود أنّه لم يقصد قـطّ أن تؤخذ معطياته على أنّها حقيقـة لاشكّ فيها، وأنّها لا تنطبق إلّا على حالات يتحـدّث المرء فيها عـن رغبته أو كراهيته، فإنّنا لا نكاد نعثر على عمل يتناول موضوع لغة الجسد تخلـو صفحاته الأولى مـن تلك المعطيـات. فالمؤلفـات مازالت تعرضها وتبني عليهـا كحقيقة مطلقة دون مراعاة لمعاناة صاحبها من مشاعر الاستياء التي اعترف بأنّه يحسّ بها في كلّ مرّة يسمع فيها بتطبيق نظريته على التواصل(١٣).

وكان من الأجدر بهؤلاء الباحثين تطوير تلك المعطيات وتوسيع قاعدتها باستخدام الملاحظـة الموضوعيّة علـى عينات تمثل ثقافـات مختلفـة وشرائـح متنوعـة من المجتمع الواحد. وعلى أساس ماهو متوافر من معطيات في هذا الميدان يمكن افتراض أن الدراسة المقترحـة ستظهر تباين نسب مشاركة مكونـات نشاط الكلام من مجتمع إلى آخر، ومن شريحة اجتماعيّة إلى شريحة أُخرى، ومن نمط للشخصيّة إلى نمط آخر ضمن الشريحة الاجتماعيّة الواحدة نتيجة تفـاوت البيئات الثقافيّـة بين المجتمعات، وبيـن الأريـاف والمـدن، ووجـود أنماط متباينة من النشاط العصبيّ، واختلاف في المستويات التعليميّة.. إلخ.

وسـوف تبيّن الملاحظـة الدقيقة على الأرجـح تـآزر الحسّ والحركـة والنطق لحظـة الفعل الكلاميّ فـي سياق التواصل الاجتماعيّ، ممّا يسوّغ نفي وجود أيّة نزوات أو رغبات يزعم هؤلاء أنّنا نجهل آليات تشكلها واستقرارها في اللاوعي. ومن شأنها أيضاً التدليل على خطأ الاعتقاد بوجود مايسمى بلغة الجسد بمعـزل عن الكلمات والنبرات التي تحملها في شتّـى مواقف الحياة، بما فيها ضروب الفن التي تعتمد عليها بصورة أساسيّة. فما يجهد الفنان من أجل تصويره وتقديمـه للآخر من خلال عروض الرقص الإيمائيّ والتمثيل الصامـت إنّما يعبّر عن أفـكار ومشاعر كان لعلاقتهـا الجدّليّة مع نشاط الكلام أثر واضح ومتنام في تطّور كلّ منهما عبر تاريخ الوعيّ الإنسانيّ.

المراجع

1- Axtell Roger E. Gestures Dos and taboos of body Language around the world. 3d ed. Baricerpen , 1993م.

٢ - بورغ جيمس، لغة الجسد - كيف عرف ما يُقال فعلاً، ط١، مكتبة جرير، الرياض، ٢٠١٢م.

٣ - بييز آلان وباربارا، المرجع الأكيد في لغة الجسد، ط١، مكتبة جرير، الرياض، ٢٠٠٨م.

٤ - بييـز آلان، لغـة الجسد - كيف نقرأ أفكار الآخرين من خلال إيماءاتهم، ترجمة سمير شيخاني، ط١، دار العربية للعلوم، بيروت، ١٩٩٧م.

٥ - عامـود بـدر الدين، اللغة والتفكير - مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب في سورية، السنة الثانية والأربعون، العدد ٥٠٧، تموز (يوليو) ٢٠١٣م.

٦ - عامود بدر الدين، علم النفس في القرن العشرين ج١، ط١، اتحاد الكتاب العرب في سورية، دمشق، ٢٠٠١م.
٧ - عزار مهدي أسعد، البيان بلا لسان - دراسة في لغة الجسد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٧م.
٨ - غانم محمد حسن، فن قراءة لغة الجسد، ط١، مكتبة الأنجلو - المصريّة، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٩ - فرويد سيغموند، التحليل النفسيّ للهستيريا (حالة دورا)، ترجمة جورج طرابيشي، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١م.
١٠ - كليتون بيتر، لغة الجسد، ط١، دار الفاروق للاستثمارات الثقافيّة، القاهرة، ٢٠٠٥م.
١١ - ليلينسكايا أ.أ، علم نفس الطفل، ترجمة بدر الدين عامود وعلي منصور، ط ١، وزارة الثقافة السوريّة، دمشق ١٩٨٠م.
١٢ - ليونتف أ.ن، مشكلات تطور النفس، ط٤، منشورات جامعة موسكو، موسكو، ١٩٨١م - بالروسيّة.
١٣ - http://www.hindawi.org/safahat/٨٢٦٨٣٦٢٩/ لغة الجسد بين الحقيقة والخرافة، كارولين وليامز، ترجمة أحمد شكل، ٢٠١٤م.

الوحدة النفسية والمشكلات التي يعانيها الإنسان

د. معمر نواف الهوارنة ❁



يعد الشعور بالوحدة النفسية أحد أهم المشكلات النفسية المهمة في حياة الإنسان اليوم، والتي نجمت عن التغيرات السريعة والتقدم العلمي والتكنولوجي في مجالات الحياة كافة، فأصبحت حياة الإنسان معقدة يسودها الضيق والصراع والتوتر النفسي،إلا أن الشعور بالوحدة النفسية يمثل نقطة البداية لكثير من المشكلات التي يعانيها الإنسان، يتصدرها الشعور الذاتي بعدم السعادة والتشاؤم والعجز مما يؤدي بالإنسان إلى اضطرابات نفسية عديدة.

❁ أستاذ في قسم علم النفس - كلية التربية - جامعة دمشق.

مفهوم وتعريف الوحدة النفسية:

لقد اختلف العلماء والباحثون في مجال علم النفس والصحة النفسية وعلم الاجتماع والفلسفة في تعريفهم لمفهوم الوحدة النفسية، وذلك لأسباب عدّة يأتي في مقدمتها أنه يعد مفهوماً حديثاً نسبياً في تناول الدراسات النفسية له، حيث بدأ الاهتمام الفعلي بدراسة هذا المفهوم في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، كما أن وجود أشكال مختلفة للوحدة النفسية والتي أرجع إلى اختلاف أسبابها، هذا إضافة إلى طبيعة العلاقات بين مفهوم الوحدة النفسية وبعض المفاهيم المرتبطة بها كالاكتئاب والاغتراب والعزلة الاجتماعية وغيرها. كل هذا دفع الباحثين الذين تناولوا مفهوم الوحدة النفسية بالدراسة إلى الاختلاف فيما بينهم في تحديد هذا المفهوم.

ويمكن تعريف الوحدة النفسية بأنها خبرة ذاتية يشعر بها الفرد بأنه بعيد عن الآخرين، بعداً نفسياً، وليس بعداً بمعناه الفيزيولوجي، مما يؤدي إلى شعوره بالألم والحزن والضيق النفسي، ويصاحب ذلك مجموعة من الأعراض السيكوسوماتية والتي تشير إلى افتقاده للحب والدفء في العلاقات، إضافة إلى عجزه عن إقامة علاقات اجتماعية جيدة مع الآخرين نتيجة شعوره الدائم بعدم تقبلهم له، مما يؤثر سلباً على تكيفه النفسي.

إنَّ الشعور بالوحدة النفسية يشير إلى المدى الذي يرى فيه الفرد نفسه بعيداً عن الآخرين ومرفوضاً من قبل الأطراف التي يعتبرها مهمة في بيئته. كما يرى «استروبه وآخرون» أن الوحدة النفسية هي شعور بالعجز في المحافظة على استمرار التفاعل الاجتماعي كواحدة من رغبات الفرد، وينشأ عن العزلة الاجتماعية، والعزلة الانفعالية. بينما عرّفها «بارون وبورنه» بأنها تعبير عن انفعال غير سار وحالة معرفية تنتج عن وعي الفرد بعدم قدرته على تحقيق علاقات ودية وحميمة، وأما «بيرلمان، ١٩٧٩م» فقد رأى أن الوحدة النفسية تنشأ من التناقض بين المتحقق والمرغوب من العلاقات الاجتماعية.

إنَّ الشعور بالوحدة النفسية هو وعي الفرد وإدراكه لذاته بأنه غير قادر على إقامة تواصل اجتماعي مع الآخرين نتيجة تقطُّع تلك الروابط الاجتماعية التي تربطه بهم وجداناً ومشاركة وقد ينتج عن مدى إحساس الفرد بالقصور أو العجز في إقامة علاقات مشبعة ومرضية مع الآخرين على نحو يضمن له المشاعر التي يرغب فيها ويتطلع إليها أو عندما يرى الفرد أن ما كان يألفه ويتوقعه من حيث عمق علاقاته مع الآخرين قد أصبح غير متاح له سواء حدث بسبب التصدع الذي يطرأ في علاقاته بالآخرين أو بسبب عدم اكتمال نضج هذه العلاقات؟

عوامل الوحدة النفسية:

يجمع أغلب الباحثين على أن الوحدة النفسية قد تنتج عن عوامل عدّة، نذكر أربعة منها:

• حجم شبكة العلاقات الاجتماعية التي يكوّنها الفرد من مجموعة أفراد لديهم اهتمامات مشتركة ورغبة في تحمل المسؤولية الاجتماعية.

• عدد الأفراد داخل التكوين الاجتماعي الذين يشعرون بالقرب من بعضهم البعض.

• مقدار تمثيل كل فرد داخل التكوين الاجتماعي ومدى اتصال الأفراد بعضهم ببعض.

• كمية السلوكيات الداعمة التي يقدمها التكوين الاجتماعي للفرد من اهتمامات ومشاركات وسلوكيات اجتماعية.

ويذكر بعض الباحثين عدداً من العوامل للشعور بالوحدة النفسية وهي:

• الإثارة وتعني فقدان الفرد للنشاط واستنفاد طاقاته ونفوره من الآخرين.

• العزلة الداخلية النفسية وتعني شعور الفرد بأنه غير محبوب، وليس له قيمة.

• انخفاض الروح المعنوية وتتضح من خلال شعور الفرد بالكآبة والإحباط.

وترى الباحثة أن الوحدة النفسية ناجمة عن عوامل ذاتية وموضوعية فالعوامل الذاتية تكمن في سمات الشخصية كالانطواء والخجل، وأما العوامل الموضوعية فتتعلق بسمات العصر الراهن وما يترتب عليه من تعقيدات في أساليب الحياة بمجالاتها المختلفة والتطور العلمي الرهيب.

أشكال الوحدة النفسية:

قدم «ويس» تعريفاً للوحدة النفسية بأنها استجابة طبيعية من قبل الفرد تجاه موقف محدد، وليس كشكل من أشكال الضعف، وبناءً على ذلك فقد ميز «ويس» بين نوعين من الوحدة:

١- **الوحدة العاطفية:** وتنتج عن نقص أو قصور في روابط الألفة أو المودة مع الأشخاص الآخرين والذين لهم أهمية خاصة في حياة الفرد، وتقوده إلى الشعور بالحزن والخوف وعدم الارتياح والفراغ والقلق والعزلة.

٢- **الوحدة الاجتماعية:** وتنتج عن نقص في شبكة العلاقات الاجتماعية للفرد والتي لا تحقق له الرضا، و تقوده إلى فقدان الثقة بالنفس مع الشعور باللاهدف والملل أو الضجر واليأس والهامشية ولا تختلف الوحدة النفسية العاطفية عن الوحدة النفسية الاجتماعية ظاهرياً فقط، بل تختلف في أسلوب معالجة كل منهما، فالفرد الذي يعاني من الوحدة العاطفية يحتاج إلى تكوين علاقات حميمة دافئة من شأنها منحه الشعور بالاتصال والاندماج مع الآخرين، بينما الفرد الذي يعاني من الوحدة النفسية الاجتماعية يحتاج إلى الدخول في علاقات جماعية تمنحه الإحساس بالتكامل الاجتماعي.

أمَّــا «يونغ» فقد قســم الوحدة النفسية إلى ثلاثة أنواع كما يلي:

• **الوحدة النفسية العابرة:** وهي التي تتضمن فترات من الوحدة على الرغم من أن حياة الفرد الاجتماعية تتسم بالتوافق والمواءمة.

• **الوحـدة النفسية التحوّلية:** وفي هذا النوع يتمتع الفرد بعلاقات اجتماعية جيدة في الماضــي القريب، ولكنه يشعر بالوحدة حديثــاً نتيجة لبعض الظــروف المستجدة كالطلاق أو وفــاة شخص عزيز، وبعد فترة قصيرة من المعاناة فإن الفرد يتقبل بطريقة نمطية تلك الظروف ويشفى من الوحدة.

• **الوحـدة النفسيــة المزمنــة:** وفي هذا النوع من الوحــدة لا يشعر الفرد بالرضا عن علاقاتــه الاجتماعية، حيــث تستمر الوحدة هنا لفترات زمنية طويلة قد تصل إلى سنوات عدة ، ولذلك فهي الأهم ويجب معالجتها.

ومن جهة أخــرى يميز كل من «شميدت وسيرمات» بين نوعين من الوحدة وهما :

النوع الأول: الوحدة النفسية في علاقتها بالوالدين وتزداد الوحدة المتعلقة بالوالدين في مرحلة الطفولــة المتوسطة إلى مرحلة الطفولة المتأخرة، حيث يصبح الطفل هنا تدريجياً أكثر تفكراً وتأمــلاً، ويبدأ بإيجاد أسباب واعية ومتعمدة للبقاء وحيداً.

النــوع الثانــي: الوحــدة النفسيــة في علاقتها بالرفاق وتنخفض الوحدة المتعلقة بالأصدقاء فــي مرحلة الطفولــة المبكرة وصاعداً، وبشكل عام يملك الطفل في هذه المرحلة موقفاً سلبياً من بقائه وحيداً.

وأخيراً: لقد تعددت آراء الباحثين واختلفت في تحديد أشكال أو أنــواع الوحدة النفسية، إلا أن هذه الأنــواع والتقسيمات للوحدة تتفق فيما بينها، على اعتبار الوحدة النفسية بمثابة اضطــراب أو خلل يصيــب الشخصية نتيجة نقص في علاقات الفرد سواء أكانت عاطفية أم اجتماعية، مما يؤدي إلى معاناته للكثير من الأعراض النفسية، والتــي تشير في مجملها إلى فقدانــه الشعور بالأمن النفسي، وهذا ما يؤكد أهمية مشكلة الشعور بالوحدة ويستوجب أخذها بعين الاعتبار.

أبعاد الوحدة النفسية:

تعددت آراء ونظــرة الباحثين إلى أبعاد ومظاهر الشعور بالوحــدة، إلا أنهم اتفقوا فيمــا بينهم على مجموعة من الأبعاد والتي تتمثل فيما يلي:

١- شعـور الفـرد بالضجـر والضيـق والحزن:

يشعر الفــرد الوحيد نفسيــاً بالضجر والضيــق والحــزن نتيجة افتقــاده الحنان والمودة من قبل الآخرين. حيث يؤكد العديد من الباحثين ومنهم «بوهلر وبيك ومور» على أن الوحدة النفسية غالباً ما تكون مصحوبة بالقلق والحزن والاكتئــاب. كما يؤكد أيضاً كل من «جيرسون وبيرلمان» على أن الوحدة النفسية هي خبرة غير محببة تسبب الحزن

والكـرب، ويصاحبها إحساس شديد بعذاب نفسي ناتج عن اضطراب في علاقات الفرد مع المحيطين به.

فالوحـدة النفسية ترتبـط بالعديد من المشاعر السلبيـة كالضجر والحزن نتيجة شعور الفرد بأنه مرفوض من قبل الآخرين، وبأنهم يبتعدون عنه، فلا يوجد أحد يحبه، وهـذا بالتالي يدفعه إلـى الشعور بالضيق النفسي والتوتـر، ويكون شعوره هذا واحداً من المؤشرات المهمـة على معاناته لخبرة الوحدة النفسية.

٢- شعور الفرد بوجود فجوة نفسية بينه وبين الآخرين:

إنَّ مـن أحد أبعاد الوحـدة النفسية هو شعـور الفرد بوجـود فجوة نفسيـة تباعد بينه وبيـن أشخاص الوسـط المحيط به، يصاحبهـا افتقـاد الفرد لإنسـان يستطيع أن يثـق به. حيث أكـدت دراسة «جونز» أن الفرد الوحيد نفسيـاً لا يحب الآخرين ولا يثق بهم، مما يدفعـه إلى عدم مصارحتهم بأفكاره ومشاعـره، فيشعر عندئذ بالوحدة النفسية، وهذا بالتالـي يدفعه إلى الشعور باليأس والتشاؤم، إضافة إلى التمركز حول الذات فيـزداد اضطرابه السلوكي وبالتالي يعجـز عن إقامـة العلاقـات الاجتماعية، مما يـؤدي إلى انطوائه على نفسه، وشعوره بوجود فجوة نفسية تفصله عن الآخرين.

إنَّ الوحـدة النفسية هي حالة وجدانية يكون فيهـا الفرد واعياً بأنه منفصل نفسياً عن الآخرين مع إحساسه بحاجته الشديدة إليهـم. هـذا ويسلم العديد مـن الباحثين ومنهم «سوليفان» أن جذور الوحدة النفسية ترجع إلى الطفولة. حيث يتمثل شعور الطفل بالوحدة النفسية من خـلال شعوره بوجود فجـوة نفسيـة تباعد بينه وبيـن الآخرين، والتـي تتجلى في شعوره بعدم الانسجام مع من حوله وبإهمال الآخرين له.

٣- معاناة الفرد لمجموعة من الأعراض العصابية:

يعاني الفرد الوحيد نفسياً من مجموعة من الأعراضـ العصابية كالإحساس بالملل والإجهـاد النفسـي، وانعـدام القدرة على تركيـز الانتبـاه والاستغـراق فـي أحلام اليقظة. وبالعودة إلى نتائج الدراسات التي أجريت في مجال الوحدة النفسية، نرى أن هنـاك ارتباطاً كبيراً بيـن الوحدة النفسية وبين معاناة الفـرد الوحيد نفسياً لعدد من الأعراض العصابية.

حيث تؤكد نتائـج دراسة كل من «راسل وبيرلمان وغيرسون وسبينر» على أن الوحدة النفسيـة ارتبطت مـع العواطـف السالبة كالشعـور بالملل والقلـق والتعاسة. وهناك اقتـراح بين الباحثين علـى وجود صلة بين العصـاب والوحـدة النفسيـة حيث وصف «أيزنـك» الشخص العصابـي بأنه شخص قلق ومهموم، وعاطفي للغاية، يتفاعل بشكل

قوي مع كل أنواع المثيرات، وإذا كان لا بد من وصف الشخص العصابي بكلمة واحدة، فمن الممكن أن نقول عنه «قلق» ميزته الأساسية هو انشغاله الدائم بالأشياء التي قد تسير على نحو خاطئ، وهذه الأوصاف للعصاب مشابهة تماماً للأوصاف التي نسبها «ويس» للأشخاص الذين يعانون من الوحدة النفسية العاطفية.

أمَّا «كارين هورني» فترى أن العصاب يرتبط بالوحدة النفسية لأسباب عدّة وهي: إن القلق والاندفاع العصبي اللذين يميزان الشخص العصابي يجعلانه غير محبوب من قبل الآخرين، وهذا ما يدفعه إلى أن يحمي نفسه من هموم العلاقات الشخصية عن طريق الانسحاب، فالعصابي الذي يدرك نفسه على أنه غير محبوب ويخاف من نبذ الآخرين له يرفض علاقات الصداقة والعلاقات الحميمة بهدف حماية نفسه من أن يرفض هو من قبل الآخرين، وتشير كل هذه الأسباب إلى أنَّ علاقة العصاب بالوحدة النفسية يتوسطها متغيرات الشبكة الاجتماعية، فالعصابي إذاً: هو شخص وحيد نفسياً لأنَّ لديه عجزاً في العلاقات الاجتماعية.

٤- افتقاد الفرد للمهارات الاجتماعية:

يشعر الفرد الوحيد نفسياً بافتقاد المهارات الاجتماعية اللازمة لانخراطه في علاقات مشبعة أو مثمرة مع الآخرين. وهذا ما أكدته العديد من الدراسات والبحوث النفسية كدراسة «فرنش، أندرسون، راسل، جونز» حيث أعلن الأشخاص ذوي الشعور بالوحدة عن افتقادهم للمهارات الاجتماعية، حيث كانوا أكثر شعوراً بالخجل، سلبيين، منغلقين على ذواتهم، كما أنهم أقل دقة في التواصل غير اللفظي مع الآخرين، ولا يرتبطون معهم بعلاقة حميمة.

ويشعر الفرد الوحيد نفسياً بأنه بعيد عن الآخرين، وأنهم لا يقبلون عليه، ولا يشبعون له حاجاته الاجتماعية، حيث يفشل في اجتذابهم نحوه إذ تكون العلاقات الاجتماعية المتبادلة بينه وبينهم شبه منهارة.

أمَّا «كارين هورني» فترى أن الوحدة النفسية تنشأ حينما يخفق الفرد في محاولاته للحصول على الدفء والعلاقات المشبعة مع الآخرين، ومن ثم فإنه يعزل نفسه عنهم، ويرفض أن يربط نفسه معهم، ويرى أصحاب نظرية التعلق أن الإهمال الذي يلقاه الفرد في طفولته المبكرة من والديه وقسوتهما عليه لا يساعده في إقامة علاقة آمنة بينه وبينهم، ويؤدي ذلك إلى غياب التفاعل والدينامكية، وعدم شعوره بالأمن، وهو ما يقوده فيما بعد إلى المشكلات المتصلة بالعلاقات الاجتماعية، مما يؤدي إلى سلبيته وانسحابه، وبالتالي الشعور بالوحدة النفسية.

النظريات المفسرة للوحدة النفسية:

تعــددت وتفرعت وجهــات نظر العلماء فــي تفسير الشعور بالوحــدة النفسية تبعاً للنظريــات التي تبناهــا كل منهم ومن أهم النظريات المفسرة للوحدة النفسية هي:

النظرية السيكوديناميكية:

يــرى «سوليفــان» أنَّ الشعــور بالوحدة النفسيــة يرجع فــي الأساس إلــى مرحلة الطفولــة الأولــى، إذ تظهــر الحاجة لدى الطفل للاتصال بالآخرين في مرحلة ما قبل المدرسة. ويتفق «أريكسون مع سوليفان» إذ يــرى أن أساس الشخصيــة المتكاملة يعود إلــى الطفولة المبكــرة إلا أنــه أضاف أن الفشل فــي حل أزمة الألفــة مقابل العزلة في مرحلة (٢٠-٢٤) مــن العمر يؤدي إلى انهماك الذات وتجنبها للعلاقات.

فيمــا تشير «بولكــي» أن العلاقات غير الحميمــة بين الآباء والأطفال تجعل الطفل أكثر حساسية لقلق الانفصال وهو ما يشكل جزءاً أساسياً في الشعور بالوحدة النفسية.

على الرغم من عدم تحدث «فرويد» عن الوحــدة النفسية، وجــد أن «زيلبورج» وهو أحد الباحثين في الاتجاه الدينامي النفسي فرق بين الشعور بالوحدة المؤقتة والوحدة النفسية المزمنة، إذ يرى أن الشعور بالوحدة النفسيــة المؤقت هو حالــة عقلية عابرة، أمــا الشعور بالوحــدة النفسية المزمنة هو استجابة لفقدان الحب أو لشعور الفرد بأنه غير مرغوب به.

على الرغم من أهمية النظرية التحليلية في تفسير الوحدة النفسية إلا أنها لم تعطِ أهمية كبيرة للجانب المعرفي والاجتماعي وركزت على الخبــرات السابقة في مراحل الطفولــة المبكرة التي تؤثــر على الناحية النفسيــة والانفعالية وتزيد مــن المشاعر السلبية لدى الفرد .

النظرية الظاهرية لروجرز:

تحــدث «روجرز» في نظريتــه «العلاج المتمركز حول العميل» عن الوحدة النفسية حيث ذكر أن ضغــوط المجتمع على الفرد تجعله يتصرف بطرق محدودة ومتفق عليها اجتماعيــاً، وهذا يؤدي بدوره إلى التناقض بين حقيقة ذاته الداخلية والذات الواضحة للآخرين. ومــن هنا فإن مجــرد أداء هذا الفرد لأدوار المجتمع المطلوبة دون اهتمام بطريقــة أدائها بدقــة، ينشأ عنــه الشعور بالفــراغ، وتحــدث الوحدة كمــا عبر عنها «روجرز» عندما تفشــل دفاعات الفرد في الاتصال بالذات الداخليــة، كما أن اعتقاد الفرد بأن ذاته الحقيقية غير محبوبة يجعله منغلقاً في وحدته، لأن الخوف من الرفض يقوده إلى الإصرار علــى الظهور بالمظهر الاجتماعي الكاذب، وذلك لاستمرار الشعور بالفراغ. فالوحدة النفسية هي تمثيل للتوافق السيئ، وسببها يقع داخل الفرد متمثلاً في التناقض الظاهري لمفهوم الفرد عن ذاته. وعلى أساس ذلك افترض «مور» أن الوحدة

النفسيــة تنشأ عن التناقض بين ذات الفرد الحقيقية وذاته المثالية.

النظرية المعرفية:

تؤكد النظرية المعرفيــة على المعرفة كوسيــط بين نقصــ القــدرة الاجتماعية وخبــرة الشعــور بالوحدة النفسيـــة، ينظر الباحثون في مجـــال النظرية المعرفية إلى الوحدة النفسيـــة باعتبارها خبرة شخصية ذاتيــة ولذلــك فهـــي لا ترتبــط ارتباطـــاً مباشراً بالعوامل الموقفية، حيث يؤكد هذا المنهج على أهميـــة الإدراكات والتفسيرات الشخصية لشبكة العلاقات الاجتماعية.

ويفترضــ أصحـــاب الاتجـــاه المعرفي أن الوحـــدة النفسية تحدث عندمـــا يدرك الفرد وجـــود تناقض بين العلاقـــات التي يرغب بها وبيـــن علاقاتـــه الفعلية القائمـــة. وبشكل عام فـــإن أصحـــاب النظريـــة المعرفية يـــرون أن سبب الوحـــدة النفسية يكمن في كل من الفرد والموقف معـــاً، حيث يركزون علـــى العمليات المعرفيـــة للوحدة النفسيـــة، وذلك فيما يتعلق بإدراك الفـــرد وتقييم علاقاتـــه الاجتماعية، بحيـــث تصبح الوحـــدة النفسيـــة نتيجة شعور الفرد بعدم إشباع علاقاته الاجتماعية، وإدراكه للتناقض بين العلاقات الاجتماعية التي يرغبها وبين علاقاته الاجتماعية الفعلية.

نظرية السمات:

ترى هـــذه النظرية بأن الفـــرد معرَّضٌ للشعور بالوحدة النفسية بسبب الطريقة التي يستجيب بها للمواقف الخاصة بالعلاقات، كما تقترح هذه النظرية أن سمات الشخصية أو متغيرات الفروق الفردية ترتبط بالشعور بالوحدة النفسية.

النظرية الاجتماعية:

تركـــز هـــذه النظريـــة علـــى التنشئـــة الاجتماعيـــة للفـــرد، كما تـــرى أن الوحدة النفسيةهينتاجتأثيراتالبيئةالكلية. افترض «بومـــان» أن هنـــاك ثلاث قـــوى اجتماعية مؤدية للوحدة النفسية وهي: «ضعف علاقة الفـــرد بالأسرة، وزيادة الحراك في الأسرة، وزيادة الحراك الاجتماعي».

بينما يـــرى «سلاتر» أن الوحدة النفسية سلوك شـــاذ، كما أنها سلوك عـــادي أيضاً نتيجة للتقـــدم التكنولوجي المعاصر. حيث ربط في تحليله للوحدة بدراسة الشخصية الأميركية، فالكل لديه الرغبة في المشاركة والارتبـــاط بالآخريـــن والاعتمـــاد عليهم، لكن هذه الحاجـــات والرغبات أحبطت في المجتمع الأميركي بسبب الالتزام بالفردية. وبكلمـــة أخـــرى فـــإن أصحـــاب النظرية الاجتماعيـــة ينظرون إلى أسبـــاب الوحدة النفسية من منظور تاريخي وآخر معاصر.

وجهة النظر التفاعلية:

يعد «ويس» رائد الاتجاه التفاعلي، حيث أكد أن الشعور بالوحدة النفسية ليس وظيفة العوامل الشخصية أو العوامل الموقفية كلاً على حدة، بـــل هي نتاج التأثيـــر التفاعلي

لتلك العوامل معاً، كما أكد أن الوحدة تنشأ عندما تكون تفاعلات الفرد الاجتماعية غير كافية، أي إنه يعتبر أن كل العوامل الداخلية والخارجية «الموقفية» أسباب للوحدة النفسية وإن كان يعطي أهمية أكبر للعوامل الموقفية.

وقد افترض «ويس» وجود نوعين من الوحدة النفسية:

١- **الوحدة النفسية العاطفية**: وتنتج عن افتقار الفرد لعلاقة حميمة مع شخص آخر.

٢- **الوحدة النفسية الاجتماعية**: وتنتج عن افتقار الفرد لشبكة علاقات اجتماعية يكون فيها جزءاً من مجموعة أصدقاء يشاركونه الاهتمامات والنشاطات.

وهكذا نرى أن وجهة النظر التفاعلية عند «ويس» حاولت الجمع بين كل من الاتجاه السيكوديناميي والاتجاهين الظاهري والاجتماعي، حيث أرجعت أسباب الوحدة إلى تفاعل العوامل الشخصية والاجتماعية معاً، فالوحدة النفسية إذاً هي نتاج تفاعل العوامل الشخصية للفرد مع تأثيرات البيئة المحيطة به.

أسباب الوحدة النفسية:

اختلف العلماء والباحثون في تحديدهم لأسباب الوحدة النفسية، وذلك تبعاً لاختلاف المنطلقات النظرية لكل منهم، وفيما يلي عرض لأهم آراء علماء النفس والباحثين في مجال الوحدة النفسية لتحديد أسبابها:

ترى مدرسة التحليل النفسي: إن الشعور بالوحدة النفسية يمثل حالة من الكبت للخبرات المحبطة في اللاشعور والتي اكتسبت خلال مرحلة الطفولة المبكرة، وإن الفرد يلجأ إلى العزلة في حالة فشله في الحصول على الدفء والعلاقات الحميمة مع الآخرين وإحباط حاجته للانتماء. حيث رأى «سوليفان» أن خبرة الوحدة النفسية تنتج من الفشل في إشباع الحاجة الأساسية للألفة الإنسانية.

أمَّا «ويس» فقد جمع أسباب الوحدة النفسية في مجموعتين هما:

١- **البيئة الاجتماعية**: حيث تؤكد دراسة كل من «بوتالز ولامب» على تأثير البيئة الاجتماعية في الشعور بالوحدة النفسية، وذلك من خلال تأثيرات الرعاية الوالدية على حالة الفرد الاجتماعية، فقد تبين أن أسلوب الرعاية الوالدية والقائم على الحميمية يزود الطفل بقاعدة أمن يستطيع أن ينطلق منها لاكتشاف العالم المحيط به.

٢- **سمات الشخصية**: ويتفق هذا مع ما أشار إليه «بيرلمان» في أن الفرد الذي يعاني من الوحدة النفسية يتسم بخصائص شخصية عدّة منها الانطوائية والخجل وعدم المبادرة للقيام بالأنشطة الاجتماعية.

وقد بين العديد من الباحثين أن حرمان الطفل من الاحتكاك والتواصل الأبوي يؤدي إلى المعاناة والشعور بالوحدة، كما أن الحماية الزائدة والأمومة المفرطة تؤديان إلى عزل الطفل عن الآخرين وتعرضه لمشاعر الوحدة كفرد يجب أن ينخرط اجتماعياً، فضلاً عن أن معاناة الآباء من الوحدة النفسية توفر أرضاً خصبة لتفاقم هذا الشعور بالوحدة النفسية.

نتائج الشعور بالوحدة النفسية:

هناك اتفاق بين علماء النفس والصحة النفسية على أن خبرة الشعور بالوحدة النفسية تكون مصحوبة دائماً بالألم والمعاناة، وكثيراً ما تعوق الإنسان في أن يحيا حياة طبيعية وسعيدة، لأنها تعصف بحياته وتهدد صحته النفسية والجسمية.

وقد أكدت أغلب البحوث والدراسات الأجنبية على أن الوحدة النفسية ترتبط بالاكتئاب والقلق والعداء، كما تؤدي إلى الكثير من الأمراض الجسدية وزيادة المشكلات الصحية، إضافة إلى أنها تقود الفرد إلى الانتحار والذي يسبقه شعور بالاكتئاب وبعض الاضطرابات الانفعالية.

يؤكد «هاوس وروبينز» على أن الوحدة النفسية تعد عاملاً خطيراً يؤدي إلى المرض والموت. بينما يرى «سوليفان» أن الوحدة النفسية أكثر خطورة من القلق، وأنها خبرة مربكة للتفكير، والاضطراب النفسي ما هو إلا نتيجة من نتائج الإحساس بها.

فالشعور بالوحدة النفسية يمثل إحدى المشكلات التي تعبر عن الأسى الناتج عن عدم الرضا عن العلاقات الاجتماعية غير المشبعة، والفرد الذي ترتفع لديه درجة الشعور بالوحدة النفسية أكثر إظهاراً للأعراض الاكتئابية والاضطرابات النفسية، حيث يتسم بالتقييم السلبي لذاته والشعور بالعجز وعدم القيمة وتوقع الفشل وفقدان الأمل والقابلية للاستثارة.

بعض أساليب مواجهة الوحدة النفسية:

بعد عرض نظريات وأسباب الوحدة النفسية لا بد من الإشارة إلى سبل مواجهة الشعور بالوحدة النفسية وفقاً لما يراه بعض الباحثين في هذا المجال:

أولاً: نموذج «كوليمان وآخرون» ويتضمن هذا النموذج أربع خطوات لمواجهة الشعور بالوحدة النفسية وهي:

١- يتأكد الفرد من ضرورة مواجهته للشعور بالوحدة النفسية.

٢- يستخدم الفرد خبراته المؤلمة للتعرف على ذاته بطريقة أفضل.

٣- يحاول الفرد التكيف مع شعوره بالوحدة النفسية كي يتقبل ذاته بطريقة أفضل.

٤- يعمل الفرد على تدعيم علاقاته

بالآخرين والتعاون معهم لاكتساب المهارات الاجتماعية الضرورية لخفض شعوره بالوحدة النفسية.

ثانياً: نموذج «سوليفان» ويتضمن أربع خطوات هي:

١- استخدام المناقشات الجماعية لتحقيق الألفة والصداقة.

٢- محاولة إيجاد الصديق المناسب لامتصاص انفعالات الفرد الناجمة عن شعوره بالوحدة.

٣- التدريب على الحب والثقة المتبادلة بين أفراد الجماعة لتحقيق التفاعل الإيجابي.

٤- أن يقوم أفراد الجماعة بإعداد أعمال يدوية وإهدائها إلى دار الأيتام أو المسنين وذلك لتحقيق الذات والشعور بأهميتها وتدعيم العلاقات الاجتماعية.

المراجع

١- التكلاوي، أحمد (١٩٨٩م)، الاغتراب في المجتمع المصري، دار الثقافة العربية،القاهرة.

٢- جعفر، فاكهة (٢٠٠٦م)، الخجل وعلاقته بتقدير الذات والوحدة النفسية،رسالة ماجستير،جامعة دمشق، كلية التربية.

٣- شريت، أشرف محمد (٢٠٠٢م)، الصحة النفسية بين النظرية والتطبيق، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة.

٤- العاسمي،رياض(٢٠٠١م)،الاغتراب النفسي لدى الشباب،مجلة الرواد - مجلة شهرية جامعة تصدر عن جامعة دمشق،عالم الكتب.

٥- علي، لينا عز الدين (٢٠٠٦م)، رتب الهوية الاجتماعية والأيديولوجية وعلاقتها بالاغتراب النفسي، جامعة دمشق.

٦- زهران، حامد عبد السلام (١٩٩٧م)، دراسات في الصحة النفسية والعلاج النفسي، عالم الكتب،القاهرة.

٧- فتح الله، وجهان عاطف (٢٠٠٦م)، فعالية برنامج لخفض الشعور بالوحدة النفسية، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، القاهرة.

العلاقة القانونية بين الزوجين وأولادهم القُصَّر

د. مها عبد الرحمن وقاف ❁



إنَّ العلاقـة القانونية بين الزوجين هي نتاج عقـد هو عقد الزواج. هذا الأخير هو كأي عقد آخر يترتب عليه حقوق وتنشأ عنه واجبات. هذا يعني أن للمـرأة حقوقاً وواجبـات تجاه الزوج، وكذلـك لهـذا الأخير حقـوق وواجبـات تجاه المرأة، غير أن عقد الزواج هو خاص في ماهيته

❁ باحثة وأستاذة في جامعة تشرين - كلية الحقوق.

لما يترتب عليه من آثـار بالغة الأهمية، تنعكس بالدرجة الأولى علـى المجتمع والأسرة ومن ثم على الطفل، حيث إن الأسرة تمثل بنية المجتمع وثقافته، وتعكس صـورة التطور، وعليها يتوقف مصير الطفل الذي هو نواة لهذا المجتمع.

إنَّ الأسـرة في المجتمعـات النامية تتحمل القيم الثقافية والدينية، العادات والتقاليد التي تعد غالبـاً مقدسة، لذلك فـإن عملية تغييرها تواجه صعوبة خاصة، وهكذا يصبح كل ما يخص الأسرة من المسلمات، وتصبح تلك الأخيرة التي هي مزيج من العادات والأخلاق تصبح جزءاً من القانون.

وأخيـراً، يمثل الزواج فـي مجتمعاتنا عماد الأسـرة، حيث إن الأسرة لا تستطيع أن تقوم من دون عقد قران شرعي. لذا قام المشرع بتنظيمه حسب القيـم الاجتماعية السائدة، فطبع الزواج فـي إثر ذلك بالطابع الأبـوي على غير ما تتجه إليـه العلاقة بين الرجـل والمرأة فـي قوانين الأحوال الشخصية في كثير من البلدان، ذلك أن عقد الزواج هو من نوع خاص، أي ما يترتب على الزوج من حقوق وواجبـات تجاه الزوجة، يجب أن يقابلـه حقوق وواجبات تجـاه الزوج من قبل الزوجة، ذلك أقرب إلى المنطق إذا ما نظرنا إلى الزوجيـن كطرفين تعاقدا على العيش المشترك بإرادتهما المنفردة.

إلا أننـا نلاحـظ تمايزاً في هـذه الحقوق والواجبات التي تحكم طرفـي العقد، ذلك أنها ليست ذاتها لكل منهما. فعلى الزوج في القانون أن يقدم المهر للزوجة، ويتحمل عبء الإنفاق على الأسرة مهما كان وضعه المادي وبغض النظر عن الوضـع المادي للزوجة. مقابـل ذلك يطلب من المرأة أن تكون مطيعة ومخلصة لزوجها، حافظة لأسراره ملبية لرغباته، وفي الوقت نفسه تتحمل المـرأة عبء تربيـة الأطفـال وتنشئتهم، بينما يجعل القانون من الزوج الولي والوصي والسيد، والأغـرب من ذلـك أن يستبعد القانـون المرأة من الولايـة حتى بعد وفاة الزوج على الرغم من تطابق درجة القرابة التي تربط كلاً من الزوجين بأطفالهمـا. وهكـذا تفرض القوالـب الجاهزة لشكل الأسرة وترسم الأدوار بداخلها فيهيأ الذكر لـدور السيـد، وتهيأ الأنثى لـدور الأم والزوجة وربة المنزل، مما يصبغها بطابع القدسية ويغيب الحـوار بين الزوجين بحيث إن أي طرح مخالف يعد جريمةً. وعندما تختزل الأدوار بهذا الشكل، فـإن القانون يستبعد مبدأ أساسياً وهو المساواة بين الزوجين في حرية التصرف والذي كان من المفترض أن يحكـم علاقتهما، فنجد تبايناً في الالتـزام بالمبادئ الأساسيـة التي تنظم علاقة الزواج والمنصوص عليها في القانون كما سنرى لاحقاً.

لقد أردنا من خلال هذا البحث أن نشير أولاً: إلى جمـود في التشريع من جانب تطور العلاقة القانونيـة بين الزوجيـن في سوريـة، تحديداً «العلاقـة القانونيـة بين الزوجيـن وأطفالهما» بالقيـاس إلى تطور المجتمـع الراهن من جهة، وبالقيـاس إلـى تطـور القوانيـن فـي البلدان

المجاورة من جهة أخرى و نذكر بالتحديد تونس والمملكة المغربية.

ثانياً: طرح نوع من الجدل لمعرفة الأسباب التي تسِم التشريع السوري بالبطء والقصور مقارنة بالدول المذكورة، ولطرح التساؤل حول جدوى استمرار قاعدة موروثة من عهد ما قبل الإسلام، كخطوة أولى آملين أن يلحقها التغيير كخطوة ثانية.

- الزوج، سيد الأسرة في القانون

تتجه معظم التشريعات في الوقت الحالي لإعلان مبدأ الإدارة المشتركة في منزل الزوجية وتقاسم المسؤوليات وتحمل الأعباء التي يفرضها الوضع الجديد من قبل كل من الزوجين، نذكر مثلاً المغرب العربي الذي أعلن مبدأ المساواة بين الزوجين منذ عام ٢٠٠٤م ووضع الأسرة تحت إشراف الزوجين معاً[١]. نذكر كذلك تونس التي تسجل في مجال حقوق العائلة موقفاً لا نظير له في الأقطار العربية.

لقد كانت هيمنة الزوج وتسلطه على أفراد الأسرة جميعهم من زوجة وأولاد مقابل تحمله الأعباء والمسؤوليات جميعها مرحلة مرت بها معظم المجتمعات. لقد سادت هذه الفكرة في القديم (وهي مستقاة من القانون الروماني) معتمدة على فكرتين مغرقتين في الخطأ هما عدم قدرة المرأة على تحمل المسؤولية وضعفها من ناحية، وتفوق الرجل على المرأة من ناحية أخرى (وهي المستقاة من القانون الألماني)[٢].

وما زال بعضهم يعتقد أن الأدوار مقسمة بين الزوجين وأن الإدارة في المنزل يجب أن تكون لأحد الزوجين أي للزوج على أساس عدم قدرة المرأة على القيام بها، وهي نظرية تدعم طبعاً مبدأ تفوق الرجل.

وفي الحقيقة إن القانون السوري، يعفي المرأة من المشاركة في تحمل أعباء المنزل المادية مهما كانت ثروتها، فكل مساهمة أو إنفاق من قبلها يعد بمثابة دين على الزوج وبالنتيجة فإن الزوجة لا تملك ميزات الزوج نفسها ولا يحق لها تحمل جزء من الإدارة المشتركة، مما يبعدها من نظام الولاية الشرعية لأطفالها.

ذلك أن المرأة تخضع لسيطرة العقلية الأبوية والبنية الهرمية الذكورية، فيحدد لها القانون قائمة من الالتزامات:

- صيانة نفسها وإحصانها.
- طاعة الزوج.
- إرضاع أولادها عند الاستطاعة.
- الإشراف على البيت وتنظيم شؤونه.
- إكرام والدي الزوج وأقاربه بالمعروف.

في الواقع إن هذه الواجبات تحدد الوضعية القانونية للمرأة المتزوجة، ومن الملاحظ أنها وحيدة الجانب، أي ليست مفروضة بشكل مقابل على كل من الزوجين.

لقد تبنى قانون الأحوال الشخصية نظام الأسرة المتدرجة، فوضع الزوج في مرتبة السيد وفرض على الزوجة واجب الطاعة وعليه فقد نصت المادة ٢١٢ أ.ح.ش. «من الحقوق على المرأة لزوجها أن تكون مطيعة له فيما يأمرها به

من حقوق الزوجية..»[٣]. فما كان لهذا النص من أمــر إلا أن يغذي فوقية الزوج على زوجته، فلقد نظر القانون إلى الزوج كحام ومدير للأسرة، هذا الدور الذي منح للزوج هو مقابل طاعة المرأة أو كأن المرأة تبقــى قاصراً على الرغم من بلوغها ســن الرشد، وهــي بحاجة إلى حمايــة ورقابة «ولاية الزوج علــى المرأة ولايــة تأديبية...»[٤]. فإذا ما ناصر بعضهم هذه النظرية فإن مردّ ذلك إلى الميزات الكثيرة التي ميّز القانون بها الزوج، بينما اختــزل دور المرأة إلى الشــكل التقليدي المعهود.

إنَّ هــذا الشكل التقليدي للعائلة كان مرحلة مــرت بهــا معظــم المجتمعــات ذات القوانين الأحدث في الوقــت الراهن[٥]. وخير مثال على بلد عربي استطــاع أن يحدّث قانونه هو تونس، فقــد ألغى التشريــع التونسي منــذ عام ١٩٩٣ المــادة التي تنص علــى وجوب طاعــة المرأة لزوجهــا واستبدلها بنص حضاري «يتوجب على الزوجين الاحترام المتبادل»[٦] وقد ذكرنا سابقاً المملكة المغربية التي عدلت قانونها عام ٢٠٠٤ فأصبــح للزوجين سلطة مشتركة وعليهما واجب الاحترام المتبادل.

بينمــا ما زال تفوق الــزوج على الزوجة هو الطابع الطاغــي على التشريــع السوري، حيث يعده القانون المعيل الوحيد للأسرة فعليه تقديم المــأكل والمسكــن والملبــس والمعالجة، على الرغــم من أن هذا لم يعد ليطابق واقع الأمر إذ إن الزوجــة تعمل وتساهــم فعلياً وتشارك الزوج في المسؤوليات. فــإذا كان هذا لا يوافق أصول الفقه، فإنه مع ذلك أمر واقع لا نستطيع تجاهله، وأما الزوجة التــي لا تعمل خارج المنزل فيجب حسبان ما تقوم به داخل المنزل مساهمة حقيقية إلا إذا كان الشارع مازال يعد عملها المنزلي من ضمن واجباتها.

ومــن المفارقــة أن يعترف القانــون للمرأة بالولايــة الكاملة على أموالهــا الخاصة وبحرية التصــرف بهــا وإدارتهــا وقبض غلتهــا وحتى بإمكانها توكيل غيــر زوجها في الإدارة[٧]، بينما يرفض لها مثل هذا الأمر على مستوى أسرتها.

فنحن نلاحظ مثلاً أن الاستقلال الاقتصادي للزوجــة قد أدى هو ذاته إلــى ازدواجية الأدوار التي تقــوم بها المــرأة نفسها، حيــث أصبحت تعمل خــارج المنــزل مما أعطاهــا الاستقلال الاقتصادي عن الأســرة إلا أنها مازالت تتحمل عــبء الواجبات المنزلية نفسها التي كانت تقوم بها طبقاً للمعايير القديمــة التي احتفظت بها، ذلك أن الرجل رفضــن أن تتغير علاقته بالمرأة فتصبح نداً له في مشاركتها في شؤون مجتمعها أو في شــؤون الأسرة، فيبقــى كل من الزوجين محافظاً على دوره.

إذن: حمّــل المشرع الســوري الزوج بمفرده المسؤولية المالية للمصالــح المشتركة للعائلة، ممــا أعطى الــزوج دوراً مميــزاً، وجعله يتمتع بحقوق خاصة وذات مدى، ثم أبعد المرأة من دور المشــارك الحقيقي والفعال للزوج، وكأنه إعلان ضمنــي بعدم أهليــة المرأة لهذا الــدور، هكذا

يعود للــزوج مسؤولية اتخاذ القــرارات النهائية التي تخص الأسرة، إنَّ هذه القاعدة تعود لعهود قديمة جداً حيث عاشت المرأة معتمدة اعتماداً كلياً على الرجــل، وفي ظروف اجتماعية ودينية مشجعة على ذلك، ومبرزة بقــوة الطابع الأبوي في العائلة.

لقد عــدَّ القانون الــزوج المعَّيــل للأسرة، وجعله يتحمل أعباء لا مبرر لها، ويتمتع بسلطات مطلقــة قد تتجــاوز أهمية ما يبذلــه في واقع الأمــر. مما يجعل من الضرورة إعادة النظر في تقسيم المسؤوليــات وتوزيع المهام على مستوى الأسرة، هــذا يعني إدخــال مفاهيم جديدة في هذا المجــال كالتعاون و التعاضد بين الزوجين، بحيث يصبح عمل كل منهما مكملاً لعمل الآخر، وبحيــث يتم الانتقــال من سلطــة القمع أحادي الجانــب إلى سلطة التربية في إطار من الشورى بين الأب والأم.

ومن المؤكد أن هذا يثير القلق في المجتمعات التقليديــة، إذا ما سحــب القانون حماية الرجل للمــرأة وجعلها مسوؤلة أسوة به عن أسرتها، وإن مطالبــة الزوجة بتقديم نفقات أسوة بزوجها قد يلقى معارضة قوية خصوصــاً في مجتمع أبوي كمجتمعنــا. لكنه واقع، وإن عــدم ذكر ذلك في القانون فيه غبن أكثر منه فائدة للطرفين معاً.

العلاقــة القانونيــة بيــن الزوجيــن وأطفالهما

بحسب قانون الأحوال الشخصية فإن الولاية على القاصر هي حق لــلأب أو للجد، فأين هي الأم إذن؟ في الواقع الأم لا يمكنها حسب القانون الإسلامــي أن تصبــح وليّة شرعيــة لأطفالها، وباعتبــار أن قانون الأحــوال الشخصية مستمد من القانون الإسلامي، فالأم مستبعدة من قاعدة الولاية.

١-الأب ولي قانوني للقاصر

إنَّ الغايــة مــن تنظيم الولايــة هي مصلحة الطفل وحمايته هي الهــدف من تنظيم العلاقة القانونيــة بين الأبوين، مما يجعلنــا نتساءل إذا ما كان التعــاون وتوزيع المسؤوليات بين الأبوين ضرورة حقيقية علــى الصعيد المادي، المعنوي والعاطفي؟

فلقــد رأينا في الفقــرة السابقــة كيف أن الــزوج هو السيد، ويتمتع بسلطة أحادية الجانب فــي علاقته مــع زوجتــه، وسوف نــرى هنا أن سلطة الأب هي استمــرار لسلطة الزوج صاحب القــرار الوحيد، فنكــون تقريباً أمــام المعادلة ذاتهــا «يدخل في الولاية النفسية سلطة التأديب والتطبيب والتعليم والتوجيه إلى حرفة اكتسابية والموافقــة على التزويــج وسائر أمــور العناية بشخص القاصر»[٨]. فتربيــة الأبناء هي مقابل طاعتهــم، وتغيب الأم تماماً في القانون عن تلك المهام، فتلقى علــى عاتق الأب بمفرده باعتباره الولــي الشرعي للأبناء، وفــي حال غيابه يتولى الجد ولايــة القاصــر حسبما جاء فــي المادة ١٧٠ق.أ.ح.ش.«لــلأب ثم للجــد العصبي ولاية علــى نفس القاصر و ماله وهما ملتزمان بالقيام بهــا». إنَّ التقصيــر فــي هذا الواجــب يوجب

العقوبة المنصوص عليها في قانون العقوبات المادة (٤٨٧) غير أن نصها جاء يخص الأب والأم «إن الأب والأم اللذين يتركان في حالة احتياج ولدهما الشرعي أو غير الشرعي أو ولداً تبنياه، سواء رفضا تنفيذ موجب الإعالة الذي يقع على عاتقهما أم أهملا الوسائل التي تمكنهما من قضائه يعاقبان بالحبس مع «التشغيل» ثلاثة أشهر على الأكثر و بغرامة لا تتجاوز المئة ليرة». ذلك أن هذه المادة مستمدة من القانون الفرنسي[٩]، حيث إن هذا الأخير يجعل السلطة الأبوية تمارس من قبل الزوجين بالتعاون المشترك في إطار العائلة، وفي حال وفاة أحدهما، يتعهد الولاية الزوج الباقي على قيد الحياة (سواء كان الأب أو الأم) وهو شرط لتكون الولاية شرعية حسب القانون الفرنسي وهو أمر أقرب إلى المنطق إذ لا شيء يسوغ استبعاد الأم التي تصلها بالمحضون صلات القرابة نفسها التي تصله بالأب.

لا يوجد فرق في القانون السوري بين السلطة الأبوية والولاية، حيث تبدأ هذه الأخيرة منذ ولادة الطفل وتستمر حتى سن الرشد[١٠]. وهي تشمل الولاية على نفس القاصر والولاية على ماله، ففي حال وفاة ولي النفس، يدعو المشرع في المادة (١٧٠) فقرة ٢ أ.ح.ش، عدداً كبيراً من الأشخاص ليرثوا الأب في هذه المهمة من الجد إلى الأقارب بحسب الترتيب المبين في المادة ٢١ أ.ح.ش. ولاية على نفس القاصر دون ماله[١١].

هذا يعني أن الأقارب العصبات باستطاعتهم تولي الولاية على القاصر في حال وفاة الأب والجد، بينما تستبعد الأم او بالأحرى لا ذكر لوجود الأم على الإطلاق، فهل أراد الشارع اختزال دور الأم على الإنجاب فقط ولأي مسوغ؟ فإذا كان استبعاد الأم عن الولاية في حال حياة الأب أمراً يمكن تقبله فإنه من غير المنطقي استبعادها في حال وفاة الأب لأي سبب كان، ومن الجدير بالذكر أن هذه القاعدة هي إرث من عهد ما قبل الإسلام، عرفت عند عرب الجاهلية واستمر العمل بها بعد مجيء الإسلام[١٢].

وبحسبانه صاحب الولاية الشرعية على نفس القاصر، فالأب له الولاية أيضاً على مال الطفل، هذا الحق هو للأب وللجد بشكل حصري حسب نص المادة أ.ح.ش. (١٧٢): «للأب والجد العصبي عند عدمه دون غيرهما ولاية على مال القاصر حفظاً وتصرفاً واستثماراً».

ويعطي المشرع تبعاً لذلك الحق للأب وللجد، عند فقدان الأب، بتفويض سلطته الولائية على مال القاصر، فيستطيع الأب أثناء حياته تسمية وصيٍّ على مال القاصر أو الحمل ويستطيع في جميع الأحوال الرجوع عن هذه التسمية[١٣]. نلاحظ أولاً: إن الأم للمرة الثانية مستبعدة من الولاية على مال القاصر، مثلما هي مستبعدة من الولاية على نفسه إلا إذا سميت كوصيّة من قبل الأب أثناء حياته. ثانياً: وضع المشرع الجد في مرتبة الأب قبل الأم.

نحن نعتقد أن هذه القوانين قد بنيت على

اعتقادات مفادها: إن المــرأة ضعيفة وعاطفية وقليلة الخبرة والحيلة، فهل عاطفة المرأة تدينها وتبرر استبعادهــا؟ إن الطبيعة العاطفية للمرأة هــي فخر لها، وضرورة خلقهــا الله فيها لتوازن الصغير نفسياً، أما عن ضعفها وقلة خبرتها فإن وجدت فهي نتيجة التضييق عليها من قبل الرجل وتقييــد حريتها ومحاولة تهميشها. وأخيراً، فإن عاطفــة الأم تجاه الصغير، تعطيها صبراً وجلداً علــى تربية أطفالها وتقوي قدرتها على تنشئتهم بشكل سليم.

لقد زاد في ترسيخ هذه المعتقدات، استمرار الرجل لزمن طويل في تحمل مسؤوليات الأسرة المادية بمفرده، حيــث يتحمل الأب عبأ الإنفاق على الصغير منذ الولادة وحتى بلوغه سن الثامنة عشرة[١٤].

إن ولايــة الأب على الصغيــر تعني أن يقوم بتمثيله في جميع التصرفات القانونية لحسابه، ويتمتــع الأب بصلاحيــة التصــرف القانونــي لمصلحــة القاصر من دون اللجــوء في كل مرة إلــى إذن القاضي، بينما يقتصر دور المرأة على الإنجــاب ورعاية الأولاد والزوج كل بما يحتاجه، إن الأم لا يمكــن أن تكون وليّة حتــى إذا انتفى كل ولــيّ عصب في الأســرة: «الولاية تنتقل إلى الحاكــم دون غيره في حال عــدم وجود الأب أو الجد أو العصبة»[١٥].

لــلأب وللجد صلاحيات واسعــة على نفس الصغيــر ومالــه، لا يحدّها سوى نصــ المادة (١٧٢) «لــلأب وللجد العصبــي عند عدمه دون غيرهمــا ولاية على مال القاصر حفظاً وتصرفاً واستثمــاراً. لا ينــزع مال القاصــر من يد الأب والجــد العصبــي ما لــم تثبت خيانتــه أو سوء تصرفاتــه فيه، وليــس لأحدهما التبــرع بمال القاصــر أو بمنافعه أصلاً ولا بيع عقاره أو رهنه إلا بــإذن القاضي وبعــد تحقق المســوِّغ». ولا تخضع ولايتهمــا لرقابة من القانون ولا تنزع إلا إذا خيف على مصلحة القاصر ومن قبل القاضي بناء على طلب صاحب المصلحة، ولا ندري كيف يمكــن للقاضــي أن يعلم بســوء تصرفات الولي طالما أنــه لم يضعه تحت نظام رقابي، ومن هو صاحــب المصلحة؟ وهنا تبــدو أهمية دور الأم كعنصــر فعال وحافظ لحقــوق الصغير لا غنى عنه، وخلال فترة الزواج أو بعد انحلاله فإن الأم يمكنها الاشتراك مع الأب في الولاية، لأن الولاية المشتركــة فيها نوع من الرقابة من أحد الأبوين للآخر لما فيه مصلحة القاصر، وكذلك تستطيع الأم فــي غياب الأب أن تأخــذ مكانه في تدبير شؤون الصغير بمــا أن مصلحة هذا الأخير هي المبدأ الذي تقوم عليه الولاية، وأخيراً فإننا نرى مــن الغبن بمكان بالنسبة لــلأم أن يعد المشرعُ الجدَ أو الأقــاربَ العصبات كأولياء للقاصر في حال وجــود الأم التي تربطها بــه أقوى صلات القرابة، وهي نفسها العلاقة الرابطة مع الأب.

إنَّ استبعاد الأم من الولاية يحرمها من حقها في تزويج أولادهــا وبالتحديد الفتاة، وذلك لأن هذه الأخيــرة تحتاج لإذن وليّها في الزواج مهما بلغــت من العمــر، فتضطر الأم إلــى استجلابه

لإمكان إبرام عقد الزواج، والغريب في الموضوع أن ولـــي الفتاة قد يكون أخاها الأصغر منها سناً والأقـــل منها علماً، فيبقى هـــو ولياً، وتبقى الأم غريبـــة عن العقد[١٦]، وفـــي زواج القاصر يطلب طبعاً موافقة الولي بدلاً من موافقة الوالدين، إن استبعاد الأم من الولايـــة يجعلها مضطرة أيضاً لجلـــب الإذن من الأولياء في حـــال غياب الأب لتستطيع اصطحاب صغارها خارج الدولة، حتى لو كانت ذاهبة لزيارة زوجها المقيم في الخارج، وفي هـــذا انتقاص من أهلية المـــرأة القانونية، هذا الأمـــر يسبب معاناة حقيقيـــة للزوجة عند وفـــاة زوجهـــا، فهي لـــم تكن مستقلـــة في حياة زوجهـــا ولن تكون بعد وفاتـــه بحكم الولاية على أولادهـــا من قبـــل أهل الزوج، وممـــا يثير القلق أن القانون قد كلـــف الأرملة بالنفقة الواردة في المادة (١٤٧) الفقرة الأولى والثانية أ.ح.ش.«إذا كان الولي غيـــر الأب فللقاضي وضع الولد ذكراً أو أنثى عند الأصلح من الأم أو الولي أو من يقوم مقامهمـــا..»،٢- «وفي حال ضـــم الولد إلى الأم أو مـــن تقوم مقامها تلزم بالنفقة ما دامت قادرة على ذلك».

فإذا كانت الأرملة غيـــر مليئة، هددت بنزع صغارها منهـــا، ليتسلمهم الجـــد أو الولي على أساس أن مصلحـــة الصغير تقتضي ذلك، وبناءً عليه فنحـــن نرى أن في ذلك إجحافاً في حقوق الصغـــار من ناحية، ففـــي الوقت الذي فقد فيه هـــؤلاء الأب، يأتي القانون ليحرمهـــم من الأم، فيصبحـــوا أيتـــام الأب والأم، ومـــن ناحية ثانية يبدو لنا الأمر غريباً بعيداً عن المنطق، ذلك أن الشارع لم يكن قد كلف المرأة سابقاً بأي نوع من أنواع المسؤولية الماديـــة، وهي الحال الوحيدة التي يطلب فيها من الزوجة تحمل عبء النفقة، فـــإن هذه المادة تهدد بشكل قـــوي الأم الفقيرة من قبل الجد المقتدر مادياً والذي يطالب بضم الصغير إليه، فإذا كانت غير قادرة، توجب برأينا تخصيص نفقة للصغير، وليس نزعه من حضانة الأم كمـــا هو الحال في تونـــس، حيث تخصص نفقة للصغير مع بقائه في حضانة الأم[١٧].

٢-الأم وصية احتمالية للقاصر

في القانـــون التونسي، تتحمـــل الزوجة إلى جانب الـــزوج المسؤوليات العائليـــة، وفي حال وفاتـــه تستمر وحدها في القيـــام بهذا الواجب. فـــإذا كانت الأم مستبعدة فـــي التشريع السوري من الولاية على النفس فلها أن تكون وصية على المـــال دون النفســـ، مستفيدة مـــن نص المادة (١٧٦) فقرة (١) «يجوز للأب وللجد عند فقدان الأب أن يقيـــم وصياً مختاراً لولـــده القاصر أو الحمل، وله أن يرجع عن إيصائه».

أولاً: هنـــا مـــن الضـــروري أن يقـــوم الأب بتعييـــن الأم قبل وفاته لتستطيـــع الاستفادة من نص المادة المذكورة، حيث سمحت هذه الأخيرة لأي شخـــص يحـــدده الأب أو الولـــي بعد وفاة الأب بتسلم الوصايـــة، ولم يذكر الأم على سبيل التحديد، وكان من باب أولى تسميتها برأينا، لما فيه من مصلحة القاصر.

ثانيـــاً: تسمية الأم كوصيـــة لا تسري آثارها

القانونيــة إلا بعد وفــاة الأب وبعد عرضها على المحكمــة المختصّــة لتثبيتهــا[١٨]. بينما تتمتع الزوجة التونسية منذ عام ١٩٨١، بالولاية الكاملة علــى الصغير بمجرد وفــاة الأب، ومن سلبيات هذه التسمية أن الأب أو الجد يستطيع أحدهما العودة عن وصيته في أي لحظة قبل الوفاة.

ثالثــاً: لقد عد المشــرع أن الأب والجد هو صاحب الحــق المطلق في الولايــة، وجعل الأم غريبة عنها، فإذا ما توفي الأب دون تعيين وصي شرعــي لأولاده القُصَّر وهي الحالة الغالبة، فإن هذه الحال تدفع بــالأم إلى اللجوء إلى القاضي ملتمسة منه تعيينها كوصية مع ما يترتب على كل ذلك من منازعات مع أولياء الصغير ومن صعوبة في الإجراءات فــإذا كان الجد على قيد الحياة فقــدت الأم كل حــق في التعييــن لأن الجد هو الولي والوصي بعد الأب.

رابعــاً: تعيين الأم وصية لا يعطيها الحق في المخاصمــة لمصلحة القاصــر، في حال وجود الجد «لا حاجة لتنصيب وصي ليدافع عن حقوق القاصر مع وجود الولي على النفس والمال»[١٩]، «لا خصومة للوصي علــى القاصر، طالما أن له جداً صاحب ولاية على نفسه وماله»[٢٠].

خامســاً: تعيين الأم وصيــة سواء عن طريق الولي أم القاضي، لا يخولها مطلقاً الصلاحيات نفسهــا التي كان يتمتع بها الأب قبل وفاته، فقد فرضــ القانون نوعاً من الرقابــة الشديدة على تصرفات الوصي من خلال المواد: (١٨٤-١٨٥-١٨٦) المنصوصــ عليهــا فــي ق.أ.ح.ش. ففي المادة ١٨٤ألزم القانــون الوصي «أن يودع باسم القاصــر في خزانة الدولة أو في مصرف توافق عليــه المحكمــة كل ما يحصّله مــن نقوده، وما ترى المحكمة لزوماً لإيداعه من الأسناد والحلي وغيرها خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ تسلمه إياهــا ولا يُسحب منها شــيء إلا بإذن القاضي» كذلك ألزم الوصي فــي المادة (١٨٥) «أن يقدم حساباً سنوياً مؤيــداً بالمستندات وفقاً للأحكام المقــررة في هذا القانــون» إن في هذه الرقابة من الأهمية لمصلحة القاصر، غير أننا نستغرب أن تعامل الأم دائماً كبقية الأوصياء المحتملين، وألا يعامــل الأب أو الجد بالطريقة نفسها؟ فلا يتوجــب على الجــد مثلاً تقديــم حساب سنوي مؤيد بالمستندات، فهــل تشكل الأم خطراً على القاصر؟

لقد حرم المشرع الأم من حق يخصها بحكم الطبيعة، وبحكم العلاقة التي تربطها بالصغير، فإن في إعطاء الولي بعد وفاة الأب حقوقاً على حســاب الأم، يطعــن في الحــق الطبيعي لهذه الأخيرة، و في أهليتها القانونية.

ومــن المفارقــة أن الزوجة تتمتــع بالأهلية الكاملــة للتصرف بأموالهــا الخاصة ومواردها ومرتباتهــا، بينمــا تحجــب عنهــا الكثيــر من التصرفــات الخاصة المتعلقة بشــؤون أولادها القُصَّــر. ففي المــادة (١٥٦) أ.ح.شــ.«إذا كان الأب عاجزاً عن النفقــة غير عاجز عن الكسب يكلف بنفقة الولد من تجب عليه عند عدم وجود الأب». والمكلفــون بالنفقة عند عدم وجود الأب

هم الأقــارب بترتيــب الإرث[٢١]. من الغريب ألا يذكر القانون الأم ممــن تجب عليهم النفقة في حــال كانت مليئة بل علــى العكس، لقد جاء في قرار لمحكمة النقض: «لا تلزم الزوجة بمساعدة زوجهــا بالإنفــاق على ولــده»[٢٢]. فــي القانون الإيرانــي مثلاً تأتي الأم مباشــرة بعد الأب في واجب الإنفاق على القاصر، حيث يعد هذا الأخير واجباً على الزوجيــن[٢٣]. كذلك نصــن القانون في تونســ[٢٤] وفي المغرب[٢٥] علــى المسؤولية المشتركة للزوجين، فالمرأة التي تعمل يجب أن تساهم بالإنفاق إلى جانب الرجل.

فــإذا كان القانــون السوري قــد أهمل ذكر الزوجة مــن بيــن الأشخاص الملزميــن بنفقة الصغيــر، ولم يطلب منها أي مساهمة في تحمل المسؤوليــات الماليــة عند وجــود الأب، فمن المفارقــة أن يلزمهــا بنفقة القاصــر عند عدم وجود الأب تحــت طائلة فقدانها الحق بحضانة الصغيــر. إنَّ إلــزام الزوجة بالإنفــاق هو أمر منطقــي إذا كانــت موسرة، وهــو واجب عليها، ولكــن يجب عدم ربطه بوجــود الأب، بحيث ألا تفقــد الحضانة في حال العســر، كما رأينا في المادة السابقة رقم (١٧٤) من ق. أح.ش.

لقد عامل القانون الأم كحاضنة فقط، بينما وضــع الجد والأقارب العصبــات بحسب ترتيب الإرث كأوليــاء مباشريــن على نفســ القاصر، وأخضعها لنظام التسميــة فيما يتعلق بالوصاية كسائر الأوصياء.

نرجو مــن الشــارع، إعادة تنظيــم السلطة الولائية على القاصــر، وتوزيع المسؤولية بشكل متساوٍ بين الوالدين، وتضييق تدخل الأولياء على الحالة التي يتوفى فيها الزوجان معاً.

الهوامش

١- فاتنة ساران، مجلة المرأة العربية، المدونة: قانون العائلة، رقم ٩٥، تشرين ثاني، ٢٠٠٣م.
٢- حسان عبد الحميد، مفهوم العائلة في الفكر الإسلامي، هرماتان، ٢٠٠٦م، ص٢١٥.
٣- مادة ٢١٢، أديب استانبولي، كتاب الأحكام الشرعية، مرجع سابق، ص١٦٤.
٤- المادة السابقة.
٥- نذكر على سبيل المثال انكلترا وفرنسا.
٦- جلال جاستولي، النساء التونسيات وعودة إلى الحجاب، جريدة لومند، ٦ تشرين الأول ٢٠٠٦م.
٧- تنصــ المادة ٢٠٦ق.أ.ش. «ولاية الزوج علــى المرأة ولاية تأديبية فلا ولاية له على أموالها الخاصة بل لها التصرف في جميعها بلا إذنه ورضاه ومن دون أن يكون له وجه في معارضتها معتمداً على ولايته ...».
٨- المادة ١٧٠ق.أ.ح.ش.
٩- حســب التشريــع الفرنسي، لا يفقد الأبوين السلطــة الشرعية إلا في حال سحب هذه السلطــة منهما قانونياً لسبب منصوصــ عليه في القانون. وفي حــال وفاة الزوجين معاً، تفتح هنا باب الولاية ويأتــي شخص ثالث معين من قبل قاضــي الامــور العائلية وتكون له مهام محددة من قبل القاضي الــذي سماه أو عينه، أي أن سلطاته تكون محددة في القانون.
١٠- قاعدة ١٣١٦، قرار ٢٢٢، الغرفة الشرعية، محكمة النقض، مجموعة الأحكام القضائية، المكتب الفني.
١١- المحامي الأستاذ نجاة قصاب حسن، قانون الأحوال الشخصية، ١٩٨٥م، ص١٦١.

١٢–حسين صافي، حماية عديمي الأهلية، دراسة مقارنة بين القانون الإسلامي التقليدي والتشريعات الحديثة في البلدان الإسلامية، باريس، ١٩٦٥م، ص١٣١.

١٣–مادة ١٧٦، أ.ح.ش، فقرة ١.

١٤–انظر المادة ١٦٣، فقرة ٤، أ.ح.ش.

١٥–نقض سوري، الغرفة الشرعية، أساس ٤١٣، قرار ٤٠٨، تاريخ ١٩٦٤م، سجلات محكمة النقض.

١٦–انظر نجاة قصاب حسن، مرجع سابق، ص٧١.

١٧–حاج علي مهند، نفقة الصغير لأبوين منفصلين، مجلة جزائرية للعلوم القانونية، الاقتصادية والسياسية، رقم ٤، ١٩٦٨، ص١١٦٦.

١٨–مادة ١٧٦، فقرة ٢ أ.ح.ش.

١٩–نقض سوري، الغرفة الشرعية، أساس ٢٣٨، قرار ١٩٩، تاريخ ١٩٨١م، قاعدة ٣١٦، ص٥٨٢.

٢٠–نقض سوري، الغرفة الشرعية، أساس ٢٨١، قرار ٣٤٨، تاريخ ١٩٦٨م، قاعدة ١٣٣٣، مجموعة القواعد القانونية لقضايا الأحوال الشخصية– المكتب الفني.

٢١–نجاة قصاب حسن، مرجع سابق، ص١٤٥.

٢٢–نقض سوري، الغرفة الشرعية، أساس ٢٤٥، قرار ١١٦، تاريخ ١٩٥٧م، قاعدة ١٢٩٤، مجموعة القواعد القانونية– المكتب الفني.

٢٣–فلح زادا شاركوتي، الوضع القانوني للمرأة المسلمة في إيران، ١٩٨٤م، ص٣٠٧.

٢٤–جلال جاستولي، مرجع سابق.

٢٥–المدونة المغربية لعام ٢٠٠٤م.

المراجع

١– أديب إستانبولي، كتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان لقدري باشا، ط١، ١٩٨٥م.

٢– اديب إستانبولي، المرشد في قانون الأحوال الشخصية، ج١، ط١، ١٩٨٥م.

٣– غادة مراد، المرأة السورية والقانون، مجموعة التشريعات السورية لحقوق المرأة وواجباتها.

٤– نجاة قصاب حسن، قانون الأحوال الشخصية، ١٩٨٥م.

٥– ياسين الدركزلي واديب إستانبولي، مجموعة القرارات الجزائية لمحكمة النقض، ط٢ج١، ١٩٤٩–١٩٩٠م.

٦– عبد الرحمن الصابوني، شرح قانون الأحوال الشخصية السوري، ج١، ط٦، ١٩٩٢م.

٧– مصطفى السباعي: شرح قانون الأحوال الشخصية، ١٩٥٨م.

٨– المدونة المغربية لعام ٢٠٠٤م.

١٠ – جلال جاستولي، النساء التونسيات وعودة إلى الحجاب، جريدة لوموند، ٦ تشرين الأول ٢٠٠٦م.

١١ – حاج علي مهند، نفقة الصغير لأبوين منفصلين، مجلة جزائرية للعلوم القانونية، الاقتصادية والسياسية، ١٩٦٨م.

١٢ – حسين صافي، حماية عديمي الأهلية، دراسة مقارنة بين القانون الإسلامي التقليدي والتشريعات الحديثة في البلدان الإسلامية، باريس، ١٩٦٥م.

١٣ – حسان عبد الحميد، مفهوم العائلة في الفكر الإسلامي، هرماتان، ٢٠٠٦م، ص ٢١٥م.

١٤ – سهير لطفي، المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

١٥ – فاقة ساران، مجلة المرأة العربية، المدونة: قانون العائلة، رقم ٩٥، تشرين ثاني، ٢٠٠٣م.

١٦ – شكري قرداحي، التسريات الغربية في مجال متحفظ: قانون الأحوال الشخصية للمسلمين، لاميير، باريس، ١٩٣٨م.

١٧ – موساروں، تلقي القانون في الشرق الأوسط للقانون الفرنسي، مجلة دولية للقانون المقارن، ١٩٦٨م.

١٨ – فلح زادا شاركوتي، الوضع القانوني للمرأة المسلمة في إيران، ١٩٨٤م.

مرض باركنسون.. مرض المشاهير

د. أسامة محسن منصور ❁

إنَّ تطور المعرفة حول مرض باركنسون (إصابة عصبية متدرجة) قديم، وقد قدمت مصادر قديمة جدًّا أعراضاً مشابهة لمرض باركنسون ففي القرن السابع أشار بابيرس المصري (Papyrsegyption) إلى خروج سائل من فم ملك كبير في السن، ولم تكن حينها ظاهرة مفسرة، وكما أن الكتاب المقدس يحتوي أيضاً على إشارات عديدة ومقاطع تتحدث عن الرجفان غير المفسر، كما تصف مخطوطة طبية عثر عليها من القرن العاشر قبل الميلاد مرضاً يترافق مع الرجفان ويماشيه، كما يترافق مع انخفاض في الحركات كرجفان الشفاه (خروج اللعاب) إضافة إلى أعراض أخرى لهذا المرض الذي بات يدعى- فيما بعد -مرض باركنسون .

من جهة أخرى فإنَّ هذا المرض قد عولج بمستحضرات نباتية من عائلة موكونا (mucuna) التي تحتوي على نباتات غنية بمركب دوبا (L-dopa)، غالباً وصف المرض بأعراض تتضمن الرجفان في وقت الراحة، وأيضاً في وقت الحركة، وقد صوحب بنوع من الشلل وهذا ما يتطابق مع مرض باركنسون حالياً، وبعد ذلك لم نجد

❁ باحث ومدرس في جامعتي الأندلس للعلوم الطبية وتشرين.

شيئاً مكتوباً عن هـذا المرض حتى القرن السابـع عشر الميلادي «الذي يسمى عصر العلم التجريبي»، حيث شرح عدد لابأس به من العلماء أعراضاً مختلفة من المرض قبل معرفته بشكل كامل.

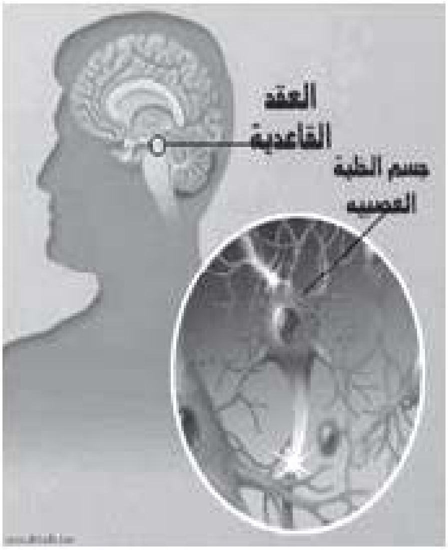
فوصف العالـم فرانسيسكاس سيلفيس FranciscasSylvius الرجفـان أثنـاء الراحـة وأنواعـاً أخـرى مـن الرجفـان، بينمـا وصف جوهانس بابتيسـت ساكار Johannes Baptiste Sagar وكوبيس Coubius اضطراب المشي المميز لمرض باركنسون، وأمَّا الجراح جون هانتر John Hunter فقد أعطى وصفاً للمرض، وبعد ذلـك وتحديداً في عـام ١٨١٧م قام العالم جيمس باركنسـون James Parkinson بوصف المرض بشـكل كامل للمرة الأولى، وأطلـق عليه اسـم الشلـل الرعاشي، ومن الاسم نستطيع أن نـرى أن المرض يصنف كصعوبات فـي الحركة بداية، وعلى الرغم من أنه توجد هناك تغيرات معرفية وعقلية، تتراوح مابين إعاقة بسيطة في مجال واحد وما بين الخرف الشديد، إلا أنها لا تبدأ إلا في المراحل المتقدمة من المرض، ويوجد حول العالم حوالى ثلاثـة وسبعين شخصاً مـن المشاهيـر المصابيـن، أو الذين قد أصيبـوا بهذا المرض، ومن أبرزهم: **أدولف هتلـر، محمـد علـي كلاي، رونالـد ريغـان، البابـا يوحنـا الثاني، ماو تسـي تونغ**، لذلك فقـد أطلق على هذا المرض اسم آخر وهو «مرض المشاهير».

يعـرف باركنسـون بأنـه مرضـ ينتج عن المـوت البطيء والمتـدرج للأعصاب الدماغيـة، وكمـا أن المنطقـة الدماغية المصابـة بالمرض تمارسـ دوراً مهماً في السيطـرة علـى حركاتنا، فـإنَّ الأشخاص المصابيـن يقومـون بحـركات قاسيـة (متصلبة)، ارتعاشيـه وغير مسيطر عليها، مثال : إن حمـل كأس إلـى الشفتين بدقة ومرونة يصبح حركـة صعبة، أمَّا في يومنا هـذا فتغدو العلاجـات المتوافـرة تسمح بالتقليل من الأعراض وإبطاء تطور المرض بشكل فعال، وتسمـح بتمكيننا من التعايش مع هذا المرض لسنوات عدّة.

إنَّ الاضطرابـات المرتبطـة بمرضـ باركنسـون تظهـر غالباً بين سـن خمسين إلـى سبعين سنـة، وإن متوسط عمر ظهور المرض في كندا وفرنسا على سبيل المثال سبـع وخمسون سنة «٥٧ سنـة» وفي بداية المرضـ، يمكـن أن تختلـط الأعراض مع الشيخوخـة العاديـة للشخصـ، ولكن مع تقدم المرض وتدرجه فإنَّ تشخيصه يصبح مؤكـداً، ويعتقد أنَّه من اللحظة الأولى التي تظهر فيها الأعراض الأولى تكون قد خربت خلايا هذه المنطقـة التي تنتج الدوبامين،

حيث تسمح هذه الرسالة الكيميائية بالسيطرة على الحركة، وتؤثر أيضاً على الشعور بالسعادة والرغبة، وإن موت هذه الخلايا في المادة السوداء يؤدي إلى نقص في مادة الدوبامين الضرورية للسيطرة على الحركة من خلال التوازن الحساس بين كميات الدوبامين والاستيل كولين، فإذا انقطع هذا التوازن أو حدث أي خلل فإن ذلك يؤدي إلى ارتعاشات أو قساوة، أو عدم القدرة على تناسق الحركات، وبالمقابل فإن أية زيادة في الدوبامين ستؤدي إلى أعراض ترتبط بمرض الشيزوفرينيا.

ونقول إنّه حين تظهر هذه الأعراض فإنّ عمر المرض يكون وسطياً ما بين خمس إلى عشر سنوات من التطور، وعلى الصعيد العالمي فإننا نجد أن المرض يشخص عند حوالي ٣٠٠٠٠٠ شخص سنوياً، ويبدو أن نسبة حدوثه عند البيض أعلى من نسبة حدوثه عند السود، أو اللاتينيين أو الآسيويين، وأقل نسبة عند الأثيوبيين، ففي كندا مثلاً حوالي ١٠٠٠٠٠ شخص مصاب بالمرض، وإن عدد الحالات يزداد مع العمر، ويقدر أنه بعمر خمس وستين سنة، فإنّ شخصاً واحداً من بين مئة شخص من هذه الفئة العمرية يصاب، وبعمر السبعين تصبح النسبة اثنين من أصل مئة.



الأسباب

ما يزال سبب الخسارة المتدرجة في الخلايا العصبية غير معروف في معظم الحالات، ويعتقد العلماء أن مجموعة من العوامل الوراثية والبيئية تتدخل من دون أن يكون هناك إمكانية لتحديدها بشكل واضح، وحسب الإجماع الحالي فإنّ العوامل البيئية تلعب دوراً أكثر أهمية من العوامل الوراثية، وتصبح مسيطرة إذا ظهر المرض قبل سن الخمسين سنة، ونذكر هنا بعض الأمثلة على العوامل البيئية المسببة وأهمها:

- التعرض المبكر والطويل للملوثات الكيميائية أو مبيدات الحشرات والأعشاب.
- مركب MPTP (1-methyl-4- phenyl - 1,2,3,6-tetrahydro pyridine)

وهو مخدر ملوث الهيروئين، ويمكن أن يسبب بشكل مفاجئ شكلاً خطيراً وغير قابل للعودة من باركنسون، ويمارس هذا المخدر تأثيره بشكل مشابه للمبيدات، كما يتم التسمم بأحادي أكسيد الكربون أو المنغنيز.

الأعراض الأكثر شيوعاً

إنَّ الأعراض المرتبطة بالحركة تظهر غالباً بشكل غير متناظر، أي إنَّها تصيب طرفاً من الجسم ثم تصيب الطرفين بعد سنوات لاحقة، وإنَّ سبعين بالمئة من الحالات تظهر فيها الأعراض مبتدئة من ارتعاشات منتظمة وغير مسيطر عليها لإحدى اليدين، ومن ثم إلى الرأس والساقين، وتظهر هذه الارتعاشات بشكل خاص في فترة الراحة أو في فترة الشدة النفسية، وبالمقابل فإنَّ ٢٥٪ من المرضى لا يظهر عليهم أي أعراض ارتعاشية، إنما تظهر عليهم صلابة الأعضاء



«أي حركات بطيئة، تصلبات وتشنجات صعبة التحديد» ومع تقدم المرض فإنَّه يؤدي إلى صعوبة القيام بالمهام اليومية مثل تزرير الثياب وربط الحذاء، قبض النقود، المشي، الوقوف أو الخروج من السيارة.



أمَّا حركة المشي عند مريض باركنسون يكون بخطوات صغيرة مع جر الأرجل أو من دون رمي الأذرع، وتظهر عليه كذلك أعراض فقدان حاسة الشم واضطراب النوم، وكذلك الإمساك، وهذه يمكن أن تظهر مبكراً، أمَّا فقدان التوازن فيحدث بشكل متأخر مع تطور المرض.

وهناك أعراض أخرى تختلف من حالة لأخرى، مثل التوتر والقلق النفسي، ومثل صعوبة البلع مع زيادة في اللعاب غير المسيطر عليه، أو الكتابة بخط صغير

بسبب فقدان البراعة، وكذلك غياب التأثير الوجهي، مع انخفاض أو غياب حركة الجفون، وكذلك وجود قشرة في الرأس وجلد زيتي في الوجه وسلس بولي، كذلك نلاحظ ارتباكاً وفقداناً للذاكرة واضطرابات عقلية أخرى مهمة، تظهر متأخرة مع تطور المرض، ونشاهد أيضاً صعوبة في تغيير وضعه، مثل صعوبة النزول من سريره أو كرسيه، ويصبح من المستحيل أن يمشي في بعض الحالات.



الأشخاص المعرضون للإصابة بالمرض

يصيب هذا المرض غالباً الأشخاص عامة بدءاً من سن الخامسة والخمسين سنة، وإن الرجال أكثر عرضة للمرض من النساء، لأسباب ما تزال مجهولة، وإن الشخص الذي يكون أحد الأبوين مصاباً بالمرض فهو أكثر عرضة من غيره للإصابة ومن عوامل الخطورة: الاكتئاب فهو سبب غير مثبت إلى الآن من قبل العلماء، ولا يوجد أية وسيلة طبية تساعد على رفع مستوى توقع حدوث مرض باركنسون.



ويمكن أن نذكر هنا ما توصلت إليه بعض الدراسات العلمية:

- إن الرجال الذين يستهلكون مشروبات تحتوي على الكافيين (القهوة، الشاي، الكولا) بشكل غير مبالغ به (لغاية أربعة أكواب يومياً) يمكن أن يستفيدوا من التأثير الواقي من مرض باركنسون، وذلك حسب دراسات أجريت على أعداد كبيرة من الشريحة العمرية نفسها[٢،٣،٤]، وبالمقابل فإنّ التأثير الواقي عند النساء لم يستطع العلماء إثباته بشكل واضح، كما أظهرت دراسة دامت لمدة ثمانية عشر عاماً أن المرض ينقص عند مستهلكي القهوة الذين لا يأخذون هرمونات بديلة خلال فترة سن

اليأس، وبالمقابل فإن استعمال الهرمونات وأخذ الكافيين يزيدان الخطورة.

- ومن جهة أخرى، فإنّ المدخنين يكونون أقل عرضة للمرض[٣٨،٨٢] بسبب تحريض النيكوتين لتحرر الدوبامين.

- عملياً لاتوجد معالجة تشفي من المرض، ولكن من الممكن التقليل من الأعراض باستعمال الأدوية وبإتباع بعض العادات الصحية والصحيحة المرتبطة بالحياة، وعلى الرغم من القلق والإحباط اللذين يسببهما المرض فإنّ الحياة النشيطة والفعالة يمكن أن تسمح للمريض بالعيش أفضل.

طريقة العيش

من المهم جداً أن يبقى المريض نشيطاً، ويمارس النشاطات الفيزيائية التي تؤدي إلى زيادة الحركة، فالتوازن والتناسق الجسديان يساعدان على إبعاد الاكتئاب والإحباط عنه، وإنّ الطبيب يمكن أن يفرض برنامجاً من النشاطات الخاصة الجسدية (كالمشي، السباحة والبستنة) والتي لها فائدة جسدية مهمة للمريض، ومن جهة أخرى، فإنّ الأشخاص المعرضين للإصابة بالمرض هم أكثر عرضة لهشاشة العظام، لذلك ينصحون بممارسة تمارين بدنية لدعم الهيكل العظمي (كحمل الأوزان، المشي، الركض، القفز في المكان..)، كما يجب إضافة إلى ماسبق تناول جرعة منتظمة من التعرض للشمس لمواجهة نقص محتمل من فيتامين (د) الذي يلعب دوراً مهماً في صحة العظام.



كما يجب أن يكون هناك فترة استرخاء لممارسة بعض تمارين اليوغا والتاي تشي، أو مساجات عند المعالج الفيزيائي، وذلك لخفض كل من الشدة النفسية والاكتئاب، لأنهما يزيدان من الارتعاشات، ويجب تجنب السقوط على الأرض لأنّ الأعراض تزداد مع تطور المرض.

التغذية

من أجل الحصول على أفضل تأثير لمركب الليفودوبا، فإنّ الأطباء يطالبون بنظام غذائي، حيث إنّ استهلاك البروتينات بوجبة العشاء يقدم عاملاً مفضلاً للاستفادة من المعالجة، وإنّ الريجيم النباتي يقدم بشكل طبيعي توازن

«غلوسيدات مع البروتينات» الضرورية للاستفادة من المعالجة، كذلك استهلاك الفواكه والخضراوات والحبوب الكاملة، كل ذلك يقدم مضادات أكسدة طبيعية واقية من الخسارة الناتجة عن المؤكسدات،وكذلك هي مصدر جيد للألياف، التي تلعب دوراً مليناً للأمعاء.

كما يجب إنقاص استهلاك الدسم المشبعة (اللحوم الحمراء، مشتقات الحليب، زيت النخيل، زيت جوز الهند).(١٣)

وفي مراحل المرض المتقدمة، يصبح المضغ صعباً، لذلك فإنَّه من المهم التهام لقيمات صغيرة لتسهيل بلع بعض الأغذية قبل استهلاكها، ويطالب الأطباء مرضاهم أن يشربوا ليتراً من الماء يومياً وأن يأكلوا مايكفي من الألياف لعدم حدوث الإمساك.

الدعم الاجتماعي

إنَّ الطبيب النفسي والمساعد الاجتماعي يمكن أن يكون كل منهما ضرورياً لدعم الاستشفاء من هذه الأنواع من الأمراض المزمنة. ويبدو مرض باركنسون بشكل خاص صعب المتابعة لأنه يصيب كيمياء الدماغ، لذلك فهو مصدر قلق.

المعالجة الدوائية

إن اللحظة المناسبة لبدء العلاج تعتمد على عوامل عدّة أهمها: (العمر، أسلوب العيش، درجة خطورة الأعراض،...) وتحدد من قبل الطبيب، وإن هدف الأدوية الموصوفة هو خفض الأعراض الناتجة عن المرض، ولكنها لاتوقف تطوره، ويجب إعادة تقييم الحالة كل فترة.



وتفيد الأبحاث أن مركب الليفودوبا(L-dopa، Levodopa) هو طليعة الدوبامين، الذي يتحول في الدماغ إلى دوبامين، ويوصف مع مركب كاربي دوبا(Carbidopa) أو benserazide من أجل زيادة التأثير أو لخفض التأثيرات الجانبية (الغثيان، الإقياء، الدوخة عند الاستيقاظ)، وهذا المركب فعَّال بشكل خاص، يعمل على تخفيف صعوبة الحركات، والارتعاشات وصلابة الأعضاء، ويصبح هذا الدواء أقل فعالية بعد ٥-٦ سنوات لذلك لايوصف إلا في حالات الأعراض الواضحة للمرض.

إنَّ مشابهــات الدوبامين الدوائية (مثل البروموكريتين، البروكابيد، البراميبيكول، الروبينيــرول) يمكــن أن توصــف بمجرد تشخيصــ المرضــ، وتكــون مترافقة مع الليفودوبــا عندما يكون المرض في مرحلة متقدمة، وهـــذه الأدوية لها تأثيرات جانبية مشابهة لليفودوبا.

أمَّـــا المركبــات المثبطــة للمونوأمينو أوكسيــداز (IMAO-B)، مثل سيليجيلين selegiline والراساجيلين (rasagiline) فيمكــن أن توصف من بداية المرض، وهي تخفف مــن تخــرب الدوباميــن الطبيعي والمشكل اعتباراً مــن الليفودوبا، كما تمنع تشكل الجــذور الحمراء والسموم العصبية، وذلك لحماية الخلايا السليمة، هذا التأثير الواقي ليســ مثبتاً بشكل نهائي، وإنَّما هذه المجموعة مــن الأدوية لها تأثيرات جانبية مثــل الارتعاش والارتبــاك. ولها تداخلات دوائية مع أدوية أخرى.

وتساعد المركبات المضادة الكولينيرجية مثــل بنزوتروبان، التري هيكز يفينيديل في إنقاصــ الارتعاشات عنــد بعض المرضى، حيث تحقق التوازن بين الدوبامين والاستيل كولين في الدفــاع، وتوصف عادة للمرضى الشباب، حيــث يكون الارتعاش هو العارض الأساسي المسيطر.

كما يوجد مجموعة مثبطات الكاتيكول أو ميتيل ترانسفيراز (COMT) التي تطيل تأثير المعالجة بـ كاربيدوبا-ليفودوبا حيث تثبط الأنزيم الذي يخربهما.

هناك أيضاً بعض المركبات المستعملة مثــل مركــب تولكابــون Tolcapone الذي يوصــف فقط للأشخاصــ الذين لا يستجيبــون للأدويــة الأخرى،لأنه يمكن أن يسبب أذىً للكبــد، ويعد مركب الأمانتادين (amantadine) دواءً مضــاداً فيروسياً يستعمل لمعالجة الأنفلونــزا، أظهر فعالية عند مرضــى باركنســون، حيــث يستعمل في بدايــة المرض، ولكن آليــة تأثيره غير معروفة، ويعطى مع الليفودوبا.

الجراحة

وتجرى في حال عدم استجابة المريض لعقار الليفودوبا، وتتم بــزرع (أقطاب) في مناطق معينة من الدماغ (التالاموث- وتحت التالاموث)، وذلك لإرسال إشارات الكترونية تؤدي إلــى خفض الحركات غيــر الإرادية والارتعاشــات، ولكنهــا لاتحســن الصلابة العضليــة، ولاتصحــح خســارة الحركات الإرادية إضافة إلــى أنها تزيد خطر الآثار الجانبية.



المعالجة الفيزيائية والنطقية

إنَّ المعالجــة الفيزيائيــة والجسديــة والتدريب على المشي والتوازن الجسمي هي معالجة مهمة إضافية،و كذلك يعد التدريب النطقــي مهماً فــي معالجــة اضطرابات التعبير اللغوي.

الوقاية

إنَّ استهــلاك الأغذيــة الغنية بفيتامين E يمكن أن يقي مــن مرض باركنسون، وقد قام الباحثون بدراسات عدّة لتبيان أهميته، ففــي دراسة على ٧٦٨٩٠ امــرأة (الأعمار بين ثلاثين وخمس وخمسين سنة) و٤٧٣٣١ رجلاً (الأعمار بين أربعين وخمس وسبعين سنــة) وعلــى فترة امتــدت لأربعــة عشر عاماً، توصــل العلماء إلى نتيجة مفادها أن المحتوى من الفيتامينات مضادات الأكسدة الآتية من الأغذيــة والحاوية على فيتامين E بنسبة مهمة (الجــوز، الحبوب، الخضار ذات الأوراق الخضــراء) تقــي من الإصابة بالمرض، فكان المرضى الذين يتناولون هذه الأنواع من الأغذية أقل عرضة للمرض.

كمــا وجــد أن المعالجــة بالموسيقى أيضــاً يمكن أن تزيد مــن التناسق الحركي عند مرضى باركنســون [٩و١١]، حيث لوحظ تحسن في سرعة الحركة، المسافة والإيقاع للخطــوة، [٩] وأيضاً علــى الحركة البطيئة بشكل عام ودقتها[١٠]، ونوعية الكلام وجودة الحياة.

ولكــن معظــم الدراســات أجريت على عينــات صغيرة لذلك فهــي تفتقد لأسلوب الدراسة الحقيقية «دقة البحث التجريبي»، ويجــب أن تدعم هــذه الدراســات بأخرى أكثــر أهميــة وأدق علمياً لإثبــات النتائج، وإنَّ استعمال الطــب الشعبي أيضاً (الوخز بالإبــر) والمستعمل منذ زمــن بعيد، يمكن أن يؤدي إلــى تجديد الأعصاب المصابة[٦] ففــي دراسة نشرت عــام ٢٠٠٠حول تسعة وعشرين مريضاً مصابــاً وجد أنه يخفض أعراض المرض، كمــا أن الوخــز بالإبر يحسن النوم[٧].

الجديد في المعالجة

حالياً هنــاك معالجات مختلفة مبتكرة، مثــل زرع الخلايــا المنتجــة للدوباميــن الجنينيــة والمعالجة الوراثية، والتي درست

ولكنها ماتـــزال في طـــور التجريب ولغاية تاريخـــه لم تمارســـن بشكل رسمـــي، فالعلم فـــي حركة دائمة ومستمرة من أجل تحسين شروط الحياة الإنسانية.

المراجع

1- Ross GW, Abbott RD, et al. Association of coffee and caffeine intake with the risk of parkinson. JAMA. 2000 May 249-2674:(20)283;31-.

2- Ascherio A, Zhang SM, et al. Prospective study of caffeine consumption and risk of Parkinson's disease in men and women. Ann Neurol. 2001 Jul;50(1):5663-.

3- Paganini-Hill A. Risk factors for Parkinson>s disease: the leisure world cohort study .Neuroepidemiology. 2001 May;20(2):11824-.

4- Hernan MA, Takkouche B, et al. A meta-analysis of coffee drinking, cigarette smoking, and the risk of Parkinson's disease. Ann Neurol. 2002 Sep;52(3):27684-.

5- Mayo Foundation for Medical Education and Research (Ed). Diseases & Conditions - Parkinson's disease,MayoClinic.com. [Consulté le 4 mai 2010]. www.mayoclinic.com.

6- Liang XB, Liu XY, et al. Long-term high-frequency electro-acupuncture stimulation prevents neuronal degeneration and up-regulates BDNF mRNA in the substantianigra and ventral tegmental area following medial forebrain bundle axotomy. Brain Res Mol. 2002 Dec 16;108(1-9-51:(2.

7- Shulman LM, Wen X, et al. Acupuncture therapy for the symptoms of Parkinson's disease. MovDisord. 2002 Jul;17(4):799802-.

8- Quik M, Kulak JM. Nicotine and nicotinic receptors; relevance to Parkinson>s disease. Neurotoxicology. 2002 Oct;23(494-581:(5-. Review.

9- Thaut MH, McIntosh GC, et al. Rhythmic auditory stimulation in gait training for Parkinson's disease patients. MovDisord. 1996;11(2):193200-.

10- Pacchetti C, Mancini F, et al. Active music therapy in Parkinson's disease: an integrative method for motor and emotional rehabilitation. Psychosom Med. 2000;62(3):38693-.

11- Bernatzky G, Bernatzky P, et al. Stimulating music increases motor coordination in patients afflicted with Morbus Parkinson. NeurosciLett. 2004;361(18-4:(3-..

12- Tan LC, Koh WP, et al. Differential effects of black versus green tea on risk of Parkinson's disease in the Singapore Chinese Health Study. Am J Epidemiol. 2008 Mar 1;167(5):55360-..

13- Betarbet R, Sherer TB, et al. Chronic systemic pesticide exposure reproduces features of Parkinson's disease. Nat Neurosci. 2000 Dec;3(12):13016-..

فرضية «إلَهة الانتقام»

❁
د. جهاد ملحم



تعـود فرضيـة «المنتقمـة» أو «إلَهـة الانتقام» إلى عام ١٩٨٣م، حين عهد لويس ألفاريز إلى تلميـذه السابق ريتشارد مولر بإعداد بحثٍ علمـيٍّ يكشف فيه حقيقة أنَّ الأرضـ تعرضت لحـوادث اصطدام دورية نجم عنها انقراض النباتـات والحيوانات،

❁ باحث في العلوم والفلسفة وأستاذ في جامعة تشرين.

وقبل ذلك التاريخ بوقت قصير، قدّم كل من ألفاريز وابنه والتر فرضية مفادها أن الديناصورات هي ضحايا اصطدام كوكب الأرض، قبل ٦٥ مليون سنة، بمذنب حجمه يعادل جبل إيفرست. في البداية كانت هذه الفرضية مدعاة للسخرية، بيد أنَّها غدت تدريجياً مقبولة على نطاق واسع. وبقيام موللر بدور "محامي الشيطان" عن ألفاريز، فقد تخيّل أن للشمس نجماً شقيقاً يقترب منها كل ٢٦ مليون سنة؛ وافترض أيضاً أن هذا النجم، في كل دورة له، يخترق سحابة أورت Oort Cloud، وهي منطقة تولد وتدور فيها المذنبات، وتبعد عنا مسافة تقع بين ٤ و١٠ تريليون ميل. وربما تكون بعض هذه الكرات الجليدية (المذنبات)، التي يوجد منها بلايين هناك، قُذفت بعيداً عن السحابة واندفعت بعنف نحو الأرض.

فمن هو لويس ألفاريز Luis Alvarez؟

هو عالم فيزياء ومخترع أميركي. درس الفيزياء في جامعة (شيكاغو(وقام بتدريس الفيزياء في جامعة (كاليفورنيا) في بركلي بعد ذلك. حصل على جائزة نوبل في هذا الحقل العلمي عام ١٩٦٨م لاكتشافه عدداً كبيراً من حالات الرنين، وقد مكّنه من الاكتشاف تطويره لتقنية استعمال غرفة فقاعات الهيدروجين وتحليل البيانات.

وبفضل بحثه وتقنيته الجديدة، استطاع العلماء تسجيل ودراسة الجسيمات قصيرة العمر التي تُخلَق في مسرعات الجسيمات. وفي ١٩٨٧م، منحته وزارة الطاقة الأميركية جائزة إنريكو فرمي.

قبل ذلك، وتحديداً في ١٩٦٥م، اقترح ألفاريز تصوير الأهرامات المصرية بالأشعة السينية بحثاً عن غرف غير معروفة. ونظراً لأن الأشعة الكونية متواجدة بشكل طبيعي، اقتضت خطته العبقرية وضع "حجيرات شرر" spark chambers، التي كانت أجهزة القياس المعتمدة في فيزياء جسيمات الطاقة العالية لذلك الوقت، تحت الهرم الثاني (خفرع) في غرفة معروفة. وبقياس معدل العد للأشعة الكونية في مختلف الاتجاهات، فإنَّ الكشّاف سوف يكشف عن أي غرف جديدة في المنشأ الصخري التراكمي في حال وجودها.

جمّع ألفاريز فريقاً عالمياً من الفيزيائيين وعلماء الآثار من الولايات المتحدة ومصر، وتمَّ بناء جهاز التسجيل وأجروا التجربة، على الرغم من أنَّها تعطلت بسبب حرب حزيران العدوانية التي شنتها إسرائيل عام ١٩٦٧م على الدول العربية المجاورة. وأعاد التجربة بعد انتهاء الحرب، وتواصل الجهد، مسجلاً ومحللاً الأشعة الكونية المخترقة للهرم حتى ١٩٦٩م، حين كتب ورقة بحثية في الجمعية الفيزيائية الأميركية أنَّه لم

يعثر على أي غرف أو تجاويف في ١٩٪ من جسم الهرم الذي تمَّ مسحه.

ومن هو ريتشارد موللر Richard Muller؟

ريتشارد موللر (المولود عام ١٩٤٢م) فيزيائي تجريبي يمارس أبحاثه في كليّات جامعة كاليفورنيا، بركلي، وفي مختبر لورانس بركلي. وكأستاذه لويس ألفاريز، تتوزع اهتمامات موللر على ميادين متعددة، بدءاً من فيزياء الجسيمات الأولية وانتهاء بعلمي الجيولوجيا والفلك. ومع أن بحوثه في دراسته العليا كانت في موضوع فيزياء الجسيمات الأولية، فإنَّ إنجازاته تمتد من ابتكار تقنية محسنة لتحديد تاريخ الكربون، وصولاً إلى تصميم تجربته لقياس إشعاع الخلفية الكوني المتبقي من «الانفجار الأعظم» Big Bang الذي حدث قبل نحو ١٥ بليون سنة. وقد أهّل هذان الإنجازان موللر للحصول على زمالة "ماك آرثر" عام ١٩٨٢م، وذلك بعد سنة واحدة من بدء منح ما يُسمى "جوائز العباقرة". وكان حصوله على هذه الزمالة نقطة تحوّل في مجرى حياته. فقد شعر بعدها بالحرية لفعل ما سماه "أشياء مُخَبّلة". وهو يقول في هذا السياق: "تماماً، مثلما يحمل (جيمس بوند) رخصة للقتل، فإن لديّ رخصة للانحراف عن الطريق العادي الذي يسلكه العلماء".

وفي كتابه (إلهة الانتقام نيميسيس: Nemesis) الصادر عام ١٩٨٨م، يعرض موللر لفرضية تبدو غريبة تتعلق بنشوء الحياة وتطورها على الأرض. فهي تفسر الانقراض الجماعي لأنواع حية على الأرض، والذي سبّبه اقتراب نجم قاتم (غير مرئي) من الشمس بشكل دوري. أطلق موللر على هذا النجم اسم نيميسيس، نسبة إلى إلهة العدالة والانتقام في الأساطير اليونانية التي تدرأ عن البشر حماقاتهم. وبأسلوب رفيع المستوى من الناحيتين العلمية والأدبية، يقصّ علينا ريتشارد موللر ظروف وملابسات ولادة الفرضية.

دخل ألفاريز مكتبي متجهماً وغاضباً كما لو أنه يستعد للخصام. بادرني قائلاً: اسمع ريتش، (ريتش تصغير كلمة ريتشارد)، تلقيت للتو رسالة مجنونة من العالمين روب Raup وسيبكوسكي Sepkoski يدّعيان فيها أن هنالك كوارث ضخمة تحدث بشكل دوري على الأرض، كل ٢٦ مليون سنة. حقاً إنَّها لدعوى مضحكة. كان العالمان المذكوران قد نشرا عام ١٩٨١م بحثاً حللا فيه سجلات العديد من العائلات الإحفورية البحرية وأشارا إلى أن انقراض الديناصورات ليست حادثة معزولة، بل هي واحدة من سلسلة انقراضات تحدث دورياً كل ٢٦ مليون سنة.

مع أن روب وسيبوسكي عالمان بارزان

مــن علمــاء الإحاثــة، تبدو لــي دعواهما سخيفة ومنافية للعقل. فإما أن تكون كذلك، أو أنها ثورة جديــدة، والثورة الجديدة التي حصلت منذ عهد قريــب كانت كافية. قبل أربــع سنــوات، وتحديداً في عــام١٩٧٩م، اكتشف ألفاريز السبب الذي أدى إلى مقتل الديناصــورات. فقد أوضح عمله المشترك مع ابنه والتــر Walter عالم الجيولوجيا، ومع كل من فرانك إيسيرو Frank Asaro وهيلين ميشيــل Helen Michel عالمي الكيميــاء النوويــة، أن الانقراضــ حصل قبل٦٥ مليون سنة نتيجة لاصطدام كويكب مع الأرض. لــم يُعر كثير من علماء الإحاثة في حينه الاهتمام اللازم لهذا العمل، حتى إن أحدهــم أشــار إلــى أنَّ ألفاريز شخص أحمــق وغريب الأطوار بغض النظر من أنه يحمــل جائزة نوبل فــي الفيزياء. لكن على ما يبدو أن هــذه الحماقات هي التي كانت توحي له بالجديد من الأفكار.

تابــع ألفاريز حديثه قائــلاً: لقد كتبت لهمــا جوابــاً أوضح فيــه أخطاءهما، فهل تتكــرم بمراجعة هذا الجــواب قبل إرساله بالبريد الجوي؟

جــاء طَلَب ألفاريــز بمنتهــى التواضع والأدب، لكنني أدركت ما يجول في خاطره. إنه يتوقــع مني الكثير. يريدنــي أن أدرس "البحــث المجنون" بشكل متــأنٍ، وأن أفهم تفاصيله الدقيقة، ومن ثمّ أكرر الأمر نفسه مــع رسالتــه الجوابية. يريــد أن يكون كل حساب من حساباته خالياً من العيوب.

ومع أن عملاً كهــذا سيكون بالنسبة لي مضيعــة للوقت ومدعاة للملــل، إلا أنني لا أستطيــع رفض رغبته. لقــد اعتمد كل منا في الماضي على الآخــر لإنجاز هذا النوع من العمــل. تعلمنا كيف نتبادل الثقة خلال مسيرتنا المشتركة. عــلاوة على ذلك، كان بيننا مــن الاحترام المتبادل مــا يكفي ألا نبدو مجانين بالنسبــة لبعضنا بعضاً، كما لا نرغب أن نبدو كذلــك أمام الرأي العام. لذلك قبلت على مضض هذه المهمة الشاقة والعسيرة.

بدأت نظرية ألفاريــز ببطء تلقى قبولاً في دنيــا العلــوم. كان علماء الفلــك أكثر قبــولاً لها، لأنهم كانوا يعلمــون من الصور الفوتوغرافيــة التــي التقطتهــا الأقمــار الصناعية أنّ الكويكبات الكبيرة والمذنبات التي تطوف في الفضاء تدور على مدارات يمكــن أن تتقاطــع مع مســار الأرض، كما كانوا يعلمون أيضــاً أنَّ هذه الاصطدامات المسببة للكوارث حدثت تكراراً في الماضي السحيق. لكــن القسم الأعظــم من علماء الإحاثة بدوا وكأنهم يعارضون هذه النظرية نظــراً لأنها تحطم نماذجهــم القياسية في النشــوء والارتقاء. ومع ذلــك شعر ألفاريز بالاعتزاز لأن بعض علماء الإحاثة البارزين من أمثــال ستيفن غولــد Stephen Jay

Gould، ديل رسل Dale Russell، ديفيد روب David Raupe ، وجون سيبكوسكي J. John Sepkoski أيدوا نظريته.

بدأت مهمتي بقراءة بحث روب وسيبكوسكي، وقد جمعا فيه كمية ضخمة من المعطيات المتعلقة بانقراض عائلات في المحيطات، أكبر بكثير مما تمَّ جمعه من قبل في هذا المجال. إنَّ الأمر الذي أربكني هو أنه كان لزاماً عليّ أن أصرف النظر عن نتائج بعض الخبراء، خصوصاً تلك النتائج المبنية على مثل هذه الدراسات المليئة بالتفاصيل. فقد بيّن تحليل هذه المعطيات أن هنالك وجود فترات مكثفة لانقراضات تحصل كل٢٦ مليون سنة.

لم يكن مدهشاً وجود هذه الانقراضات في كثير من الأحوال، بل المدهش هو دورية حدوثها. فقد أشار عمل ألفاريز إلى أن اثنين على الأقل من هذه الانقراضات قد حدثتا من جراء اصطدام كويكبين مع الأرض، حيث أن التصادم الأوَّل قد حصل في نهاية العصر الحجري، أي قبل٦٥ مليون سنة وأدى إلى مقتل الديناصورات، في حين أن التصادم الثاني حصل في نهاية العصر الوسيط، أي قبل٣٥ إلى٣٩ مليون سنة من الآن وأدى إلى مقتل الثدييات البرية. (لا يمكن تحديد الزمن بدقة نظراً لصعوبة تحديد عمر الصخور).

الفيزياء الفلكية هي مجال اختصاصي وأنا على يقين من سموّ معرفتي بها؛ أكسبني عملي ضمن هذا المجال وظيفة أستاذ في بركلي إضافة إلى ثلاث جوائز وطنية ذات قيمة عالية. غير أن هذا الموضوع بالذات جعلني تائهاً كمن يتوسل المعرفة. الأمر الذي لا يمكنني تصديقه هو أن كويكباً يصدم الأرض كل ٢٦ مليون سنة في هذا الفضاء الرحيب الذي لا تعدو الأرض أن تكون فيه هدفاً صغيراً جدّاً. فعلى سبيل المثال، من أجل كويكب يسير في فلك الشمس لن يزيد احتمال اصطدامه مع الأرض عن واحد بالبليون. علاوة على ذلك، تتوزع هذه التصادمات الحاصلة في الفضاء بشكل عشوائي من دون جدول زمني محدد. ما الذي يجعلها تتم وفق برنامج دوري؟ ربما وجد إرهابي كوني في مكان ما قد حدد الأرض كهدف له مستخدماً بندقية كويكبية (بندقية تطلق كويكباً). نتائج مضحكة يتطلب تفسيرها نظريات مضحكة.

أسرعت إلى خاتمة ورقة البحث، بلهفة من يريد حل لغز الرواية، لأرى كيف يشرح روب وسيبكوسكي موضوع الدورية. خاب أملي عندما وجدت أنه ليس لديهما نظرية، بل كل ما في الأمر وجود حقائق فقط. يوجد لدى الفيزيائيين قول ساخر مفاده: «إذا كان شيء ما يحدث بالمصادفة، فيجب أن يكون ممكناً». لقد فُقِدَ الكثير من الاكتشافات لأن أصحابها أهملوا المعطيات التي لا تتلاءم

مع نموذج مرسّخ في تفكيرهم، وأنا لا أريد أن أقع في تلك المصيدة. لذلك وجدت من الأفضل مراجعة المعطيات، ومن ثم الحكم عليها من دون اعتبار سابق للنظرية. على المخطط، رسمت معدل الانقراض المتغير خلال ٢٥٠ مليون سنة الأخيرة. جاءت الذرا الكبيرة متباعدة عن بعضها بمقدار ٢٥ مليون سنة.

عدت ثانية إلى الرسالة لأكتشف فيها أن ألفاريز يعتقد بوجود عدة أخطاء في الطريقة التي حلّل بها روب وسيبكوسكي معطياتهما. فقد جادل بأن العديد من الذرا الواضحة يجب أن تستبعد من التحليل بسبب انخفاض اليقين الإحصائي فيها. علاوة على ذلك، يجب استبعاد الانقراضين الحاصلين في العصرين الحجري والوسيط من العينة الدورية، لأنهما يعودان إلى اصطدامات كويكبية، وبذلك يكون حدوثهما مع الزمن عشوائياً وليس دورياً. بدا هذا واضحاً بالنسبة لي وللألفاريز أيضاً. إذ أنه بإزاحة هذين الانقراضين، يصبح ما تبقى من الذرا مفصولة بعضها عن بعض بشكل واسع ويصبح الدليل على وجود الدورية معدوماً.

كانت مقاربة ألفاريز في استبعاد الدورية مقنعة، لكن هل كانت صحيحة؟ أصبحت مهمتي في الدفاع عن نتائج روب وسيبكوسكي كمهمة محامي الشيطان. عدت ثانية إلى بحثهما وأعدت النظر مرة أخرى في المخطط. قلت لنفسي: لن أكون شاكّاً إلى هذا الحد. أعدت رسم هذه المعطيات من جديد، مستبدلاً اصطلاحات الفيزيائيين بتلك التي تعود إلى علماء الإحاثة. أعطيت لكل انقراض ارتياباً في عمره وفي كثافته، فبدا المخطط الجديد أكثر تعبيراً مما توقعت، لقد كان نسخة معدلة تقريباً عن المخطط السابق.

وضعت الأسهم عند الذرا التي تفصل الواحدة عن الأخرى فترات زمنية متساوية مقدارها ٢٦ مليون سنة. لقد أشارت ثمانية من هذه الأسهم إلى ذرا الانقراض بشكل صحيح؛ لم يخطئ سوى سهمين اثنين فقط. بدا مؤكداً أن الذرا مفصولة بالتساوي عن بعضها بعضاً.

من المحتمل أن يكون روب وسيبكوسكي على صواب. أدركت وجوب إعادة فحص رسالة ألفاريز، ورؤية ما إذا كانت خاطئة. لقد أصبحت المهمة أكثر هزلية مما توقعت.

في قراءتي الثانية لورقة ألفاريز، اكتشفت وجود التباس فيما يخص استبعاد انقراضي العصرين الحجري والوسيط. كيف لنا أن نعلم أن الكويكبات لا تصدم الأرض دورياً؟ هذا ما سألته لنفسي. من الممكن أن إخفاقنا في الوصول إلى نظرية يعني تماماً هو أننا لسنا حاذقين ما يكفي.

إنَّ عدم قدرتنا على إثبات وجود شيء ما ليس برهاناً على أن هذا الشيء ليس موجوداً بالفعل. صممت على تأجيل المحاكمة.

بعد دقائق قليلة وقف ألفاريز بجانبي ليرى فيما إذا كنت قد انتهيت من قراءة رسالته، وأخبرته أنني وجدت خطأً في المنطق الذي استخدمه. إذ ليس محقاً أن يستبعد انقراضي العصرين الحجري والوسيط. لقد كان موقفي كالمحامي الذي يهتم ببراءة موكله، لكنه في قرارة نفسه غير مقتنع اقتناعاً كلياً بهذه البراءة.

أجاب ألفاريز بقوة على ما قلته، على شاكلة المحامي المذكور: إن المحافظة على هذين الانقراضين في التحليل يعتبر أمراً مخادعاً. لقد أفقدني هجومه المباغت توازني. ثم تابع قائلاً: ليس مسموحاً للعالم أن يهمل شيئاً معيناً، يعلم تماماً أنه حقيقة، وكلانا يعلم أن هذه الحوادث تعود إلى اصطدام كويكبات مع الأرض.

أُدرك جيداً أن ألفاريز لا يستسلم لأي هجوم مهما كان نوعه. قلت له: إنّ طريقتي في التفكير ليست اعتباطية. إذ من الملائم أحياناً أن نتجاهل بعض «المعرفة المسبقة» عند اختبار صحة فرضية ما، لكنك هنا ترتكب خطأً فادحاً بافتراضك أن انقراضي العصرين الحجري والوسيط ليسا جزءاً من نموذج دوري أكبر. ربما لو كنا حاذقين بما فيه الكفاية في إيجاد التفسير الصحيح، سنرى أن الاصطدامات التي تحصل بين الكويكبات والأرض يمكن أن تكون دورية.

كرر ألفاريز مناقشاته السابقة، مؤكداً أكثر من السابق على مقولة «تفكير اعتباطي». كان لسان حاله يقول: لماذا لا يفهمني ريتش؟ أيُعقل أن يكون مغفّلاً إلى هذا الحد؟ لكنني أعدت له حججي السابقة وأصبح كل منا يتحدث وهو على قناعة تامة أنه على صواب، بحيث بدت نقاط الالتقاء مستحيلة. ولأن المسألة لم تكن سياسية أو عقائدية أو وجهة نظر، بل كانت مسألة تحليل معطيات، وهو شيء يجب على كل الفيزيائيين أن يتوافقوا عليه. يجب بكل تأكيد على ألفاريز وأنا أن نكون قادرين على الاتفاق، بعد عقدين تقريباً من عملنا المشترك.

أعدت المحاولة قائلاً: افترض أنه استطعنا أن نوجد طريقة ما تجعل كويكباً يصدم الأرض كل٢٦ مليون سنة. عندئذ ألن تعترف بأنك كنت على خطأ، وهذا يسري على جميع المعطيات التي استخدمتها؟

ردّ ألفاريز: «ما هو النموذج الذي تقترحه؟» اعتقدتُ أنه بهذا الرد يتملّص من الجواب. كان هناك ارتجاف في صوته، وأخذ الغضب يعلو محياه وتابع بحزم قائلاً: اسمع ريتش: « لقد عملت في تحليل المعطيات زمناً طويلاً، وأغلب الناس تعتبرني خبيراً متمكناً. أنت لا يمكنك أن تستخدم مقاربة اعتباطية وتهمل شيئاً معيناً تعرفه».

كان ألفاريز كمن يتمسك بحق شرعي

له! هل يجوز للعلماء أن يفعلوا ذلك؟ قلت لنفسي: هدِّئ من روعك يا ريتشارد، ولا تظهر له مدى انزعاجك.

«مسألة البرهان تقع عليك»، أكملت، بصوت من يصطنع الهدوء. «ليس مطلوباً مني المجيء بنموذج كهذا». ما لم يكن بإمكانك أن توضح عدم إمكانية وجود مثل هذا النموذج، يصبح منطقك في الحوار خاطئاً.

كيف يمكن للكويكبات أن تصدم الأرض دورياً؟ ما هو النموذج الذي تقترحه؟ إنها الأسئلة نفسها التي رددها ألفاريز للمرة الثانية على التوالي. لقد أعادني الشعور بالإحباط إلى نقطة حرجة. لماذا لا يستطيع ألفاريز أن يفهم ما أقوله؟ لقد كان بطلاً علمياً بالنسبة لي، أيعقل أن يكون غبياً إلى هذا الحد؟

اللعنة على الشيطان! فكّرت بعمق. إذا كان في جعبتي المزيد، فسأربح الجدال وفق الشروط التي وضعها ألفاريز بنفسه. لقد أصبح لزاماً عليَّ الآن اختراع النموذج المطلوب. في هذا الوقت أخذت غدتي الكظرية تفرز الأدرينالين بإسراف. وبعد لحظات من التفكير، قلت: «افترض أن هناك نجماً يدور حول الشمس. سيقترب من الأرض كل ٢٦ مليون سنة ويصنع شيئاً ما، لست متأكدا ماذا يصنع، لكنني على يقين أنه سيجعل الكويكبات تصدم الأرض. من الممكن أن يجلب النجم معه هذه الكويكبات.

لقد أصابتني الدهشة من استغراق ألفاريز العميق في التفكير. بدا لي أنه يأخذ النموذج الجديد على محمل الجد وراح يتفحصه ذهنيّاً ليرى إذا كان هناك خطأ ما فيه. بدأ غضبه يتلاشى رويداً رويداً.

وأخيراً خاطبني ألفاريز قائلاً: ريتش، لقد أدهشتني. كنت متأكداً من أنك ستخترع نموذجاً يجلب معه صخوراً أو غباراً من خارج المجموعة الشمسية، وحينها كنت سأفاجئك بحقيقة أراهن أنك لا تعرفها، وهي أن طبقة الإيريديوم المرافقة لاختفاء الديناصورات أتت من داخل نظامنا الشمسي وليست من خارجه. لكنك لم تفعل ذلك. لقد وجد العلماء فعلاً أن نسبة الرينيوم-١٨٧ إلى الرينيوم-١٨٥ في الطبقة الطينية هي النسبة نفسها الموجودة داخل القشرة الأرضية، وهذه هي الحقيقة التي راهنت على عدم معرفتك بها. وبما أن نجمك المرافق يفترض أنه تكوّن وقت ولادة الشمس، فيجب أن يحتوي على النسبة نفسها من النظائر الموجودة في الشمس. بذلك فإنَّ الحجّة التي احتطتُ بها لم تعد صالحة الآن. جميل. أكمل يا ريتش.

تسمّر ألفاريز في مكانه. كان يحاول التفكير بالخطوة التي تلي خطوتي القادمة، كما يفعل لاعب شطرنج بارع. لقد خمّن

ماذا سيكون ردي القادم وما هو جوابه- لكنني قمت بحركة مختلفة. بدا ألفاريز في غاية السعادة لأن تلميذه السابق يمكن أن يثير إعجابه ودهشته. وأخيراً، تكلم قائلاً: «اعتقد أن مدار نجمك سيكون ضخماً. سيتم دفع النجم المرافق بعيداً بفعل جاذبية النجوم الأخرى القريبة منه».

لم أكن أتوقّع من الحجة أن تجعله هادئاً على حين غرة. نحن هنا معاً ثانية لنبحث في الفيزياء، وليس في الأحقية أو في علم المنطق. لم أكن أقصد من نموذجي أن يؤخذ بمثل هذه الجدية، مع أنني شعرت أن فكرتي ستنجح إذا استطاع النموذج المذكور أن يقاوم هجومه عدة دقائق على الأقل.

لقد كان محقاً فعلاً في اتهامه لي بأنني أهملت موضوع اكتشاف الرينيوم. وجد عالم الجيولوجيا والتر - ابن ألفاريز - أن طبقة من الطين (الصلصال) قد ترسبت في المحيط تماماً في الزمن نفسه الذي حصل فيه انقراض الديناصورات. افترض ألفاريز الأب أن هذه الطبقة الطينية قد تشكلت من جراء اصطدام جسم قادم من الفضاء الخارجي (كويكب أو مذنب) مع الأرض. يوجد الرينيوم بأشكال مختلفة- من بينها الرينيوم-١٨٥، الذي يعد مستقراً، والرينيوم-١٨٧، الذي يكون مشعاً ويضمحل بعمر نصف يبلغ ٤٠ مليار سنة. خلال ٤,٥ مليار سنة من تشكل المجموعة الشمسية، ستكون نسبة ما تفكك من الرينيوم - ٨٧ حوالى ٨٪. وفي الواقع، تلك الكمية قد تفككت فعلاً. لو لم يكن الرينيوم الموجود في الطين قد ولد وقت ولادة الأرض (أي في وقت تشكل النظام الشمسي)، فمن غير المرجّح أن تكون النسب متطابقة تقريباً. بكلام آخر، يبدو أن الجسم الصادم القادم من الفضاء الخارجي قد تشكّل في الوقت الذي تشكلت فيه الشمس.

هنا أخذت زمام المبادرة. « دعنا نر فيما إذا كنت محقاً بادعائك إن النجم سيُدفع بعيداً عن الشمس. يمكننا حساب كم يكون قطر المدار. كتبت قوانين الحركة في الجاذبية التي صاغها الفلكي كيبلر على السبورة. يعبر القطر الكبير للمدار الإهليلجي عن دور المدار، وتبلغ قيمته في هذه الحالة ٢٦ مليون سنة، مرفوعة للقوة ٢/٣، ومضروباً بالمقدار ٢. باستخدام حاسوبي الشخصي حصلت سريعاً على الجواب التالي: ١٧٦٠٠٠ واحدة فلكية، وهذا يعني ١٧٦٠٠٠ مرة ضعف المسافة بين الأرض والشمس، أي حوالى ٢,٨ مليون سنة ضوئية. (السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة). هذا يعني وجود النجم المرافق قريباً بما فيه الكفاية من الشمس وواقعاً في قبضتها، بحيث لن تستطيع نجوم أخرى أن تدفع به خارج

مجالها. أومأ ألفاريز برأسه موافقاً، مما يعني أن الفرضية استمرت صامدة خمس دقائق حتى الآن.

«تبدو هذه الفرضية جيدة بالنسبة لي. سوف لن أبعث رسالتي الجوابية بالبريد الجوي». كان انقلاب ألفاريز مفاجئاً تماماً كما كانت مناقشاته عنيفة. لقد غيّر موقفه بسرعة لم أستطع معها أن أخبره فيما إذا كنت قد ربحت المعركة أم خسرتها. جاء دوري الآن لأقول له كلمة شكر مستحقة، لكنه بادرني بالحديث قائلاً: «دعنا نهتف إلى روب وسيبكوسكي ونخبرهما بأنك قد وجدت النموذج الذي يشرح معطياتهما».

هكذا ولدت فرضية الانتقام، على الرغم من أنه ليس لديّ في حينه أية فكرة إلى أين يقودني هذا الاكتشاف..)

خاتمة

بعد حوالى ثلاثين عاماً من وضع فرضية الانتقام، لم تنجح جميع المحاولات في إيجاد الدليل الذي يثبت صحة الفرضية. وقد أفاد التقرير الصادر عن وكالة الفضاء الأميركية (ناسا) أوائل عام ٢٠١٤م بأنّ جميع عمليات المراقبة التي تمت في الآونة الأخيرة بدّدت ما كان يحكى عن وجود نجم غامض في المجموعة الشمسية أو على أطرافها مسؤول عن الانحرافات والتغيرات في مدارات الكواكب حول الشمس.

أمّا عالم الفضاء في جامعة بنسلفانيا كيفن لوهمان المشرف على أعمال المراقبة في هذه الدراسة التي نشرت في العدد الأخير من مجلة استروفيزيكال جورنال، فيعلق قائلاً: «على الأرجح ألّا يوجد هناك كوكب غازي كبير أو نجم صغير في أقاصي المجموعة الشمسية. إذ لم تسجل بيانات المسح الشامل أي وجود لجرم أكبر من كوكب المشتري، أكبر كواكب المجموعة الشمسية، في دائرة مسح امتدت على ٣٨٨٧ مليار كيلومتر من الشمس.

فهل أخفقت فرضية المنتقمة بعد هذا الصمود الطويل، أم علينا الانتظار لمزيد من السبر المتأني حتى نطلق عليها الحكم الأخير؟ هذه هي طبيعة العلم الذي يأتي كل يوم بجديد، وهذه طبيعة الفرضيات العلمية التي إمّا أن ترتقي إلى مستوى النظريات أو أن تختفي في زوايا النسيان.

الفقر وتقييمه في ظل العولمة

ترجمة وإعداد: د. ماري شهرستان *



الفقر وفق الأمم المتحدة l'Onu[1]

تحاول التحليلات التي يقوم بها برنامج الأمم المتحدة للتنمية منذ بضع سنوات إلى مقاربة الفقر على أنه كارثة عالمية تطال الأفراد وليس بعض البلدان فقط. إن تضخم الفروقات في المداخيل لايعتبر على أنه مؤشر ونذير لعدم التوازن بين الشمال والجنوب فحسب بل على أنه تهديد للاستقرار الاجتماعي والسياسي للمجتمعات بشكل عام.

* مترجمة وباحثة من سورية.

الفروقات في المداخيل وتوزيع الثروات داخل البلدان هي أمور أصبحت تظهر في إحصاءات الأمم المتحدة وكذلك نسبة عدم التوازن (الاختلال) بين الأهداف الاقتصادية والاحتياجات الاجتماعية.[٢]

لقد أعاد البنك الدولي النظر في عدد الأشخاص الذين يعيشون في فقر مدقع في العالم النامي.[٣] ففي دراسة سابقة أعلن فيها عن نجاح سياسة تخفيف الفقر حيث قدِّر فيها أن عدد الفقراء قد تراجع إلى أقل من مليار نسمة. فقد تمَّ اتخاذ تدابير لتحسين القدرة الشرائية في البلدان النامية ما أدى إلى رفع عتبة الفقر الشديد من دولار واحد إلى دولار وربع في اليوم.

النتيجة: في عام ٢٠٠٥م، كان هناك ١،٤ مليار رجل وامرأة يعيشون بمدخول أدنى من هذا الحد المقدَّر، أي ٤٠٠ مليون أكثر مما تمَّ تقديره.

يؤكد الاختصاصيان في علم الاقتصاد «شاوهوا شِن» و«مارتان رافايون»[٤] في دراستهما ضمن البنك الدولي أنَّ هناك ميلاً إلى تراجع الفقر في العالم. فقد كان هناك في عام ٢٠٠٥م، ٥٠٠ مليون فقير أقل من عام ١٩٨١م. وإذا استمر هذا الميل ينبغي أن يتناقص عدد الفقراء في عام ٢٠١٥م إلى الضعف عما كان عليه عام ١٩٩٠م، ويكون بذلك قد حقق أحد أهداف التنمية في تلك الألفية.

لا يمكننا إلّا أن نحييّ الجهد الذي أبداه البنك الدولي في استكمال وإتقان تقييم بهذا التعقيد الكبير الذي هو تقييم الفقر في العالم. غير أننا نذكِّر بالانتقادات التي خضعت لها طرق حساباته. لقد لاحظ «توماس بوكجه»[٥] وهو باحث في جامعة «كولومبيا» في الولايات المتحدة الأميركية، أنه، على سبيل المثال، تحسَب عتبة الفقر انطلاقاً من مؤشرات سعر الاستهلاك في كل بلد. سيكون الفقر الأقصى إذاً قد قدِّر بأقل من الحقيقة. والبنك الدولي يعترف بوجود هذا الجانب المنقوص، فيشير من جهة أُخرى إلى أنَّ تقييمه يرتكز إلى معطيات عام ٢٠٠٥م ولم يأخذ بعين الاعتبار تفجر ارتفاع أسعار المواد الغذائية الذي حصل مؤخراً.

وفق معايرة الفقر - التي جرت في الأمم المتحدة لعام ٢٠١٤م- والمستندة إلى المداخيل.

هناك ١،٢ مليار شخص يعيشون بدخل أقل أو يساوي ١،٢٥ دولاراً يومياً. ودلت التقييمات الأخيرة لمؤشرات الفقر متعدد الأبعاد أن حوالى ١،٥ مليار شخص في ٩١ دولة نامية يعيشون في ظروف فقر واضح بنقص زائد في خدمات الصحة والتربية ومستوى المعيشة. كما أنَّ هناك ما يقارب من ٨٠٠ مليون شخص قد يقعون في الفقر

فــي حال حصول أزمــة اقتصادية، أو أزمة طبيعية أو غيرها.

ووفــق تقريــر الأمم المتحــدة في ٣٠ آذار ٢٠١٤م: إحــدى المفارقــات المخيبة للآمال والمحبطة في العقد الأخير، هي أن أفريقيــا قد سجلت نمــواً غير مسبوق لكن جزءاً كبيــراً من شعوبهــا يعيشون خاملين في الفقر الاقتصادي الشديد، ويعانون من بطالة زاحفة ومن عدم المساواة.

وفي شهر نيسان من عام ٢٠١٤م تصدرت «غينيا – كوناكري» واجهــة الأحداث لمدة ثلاثة أسابيــع. فقد انتشر وبــاء «الإيبولا» في هذا البلــد من منطقة خليــج «غينيا»، بلــد مساحته ٢٥٠٠٠٠ كم مربع ويقطنه ١١ مليون نسمة، وهو مــن أفقر بلدان أفريقيا، وقد مات فيــه حوالى الـ١٠٠ شخص خلال بضعة أيام. والمقلق أكثر في هذا الموضوع أنَّ هــذا الفيروس قــد انتشر وصــولاً إلى العاصمة «كوناكري» حيث قتل ستة أشخاص، واليــوم قبل نهاية عــام ٢٠١٤م قتل قرابة ٣٠٠٠ شخصــ والأرقــام آخــذة بالازدياد بشكل سريع. نسبة المــوت بفيروس إيبولا هــي نسبة عالية جداً – بين ٦٠ و٨٠٪ – ولا يوجــد له أي علاج، ربما يجــري التحضير للقاح ضــده الآن. لقد تمَّ اكتشافه لأول مرة عام ١٩٧٦م فــي شمال «زائيــر» وهو أحد الفيروسات الأكثر فتكاً من باقي الفيروسات التي تم اكتشافها حتى الآن.

يشرح الباحث الأمريكي «دافيد كامن»[٦] فــي النيويورك تايمــز أن هذا الخوف غير مبرّر، وهذا الباحث كان قد نال جوائز عدّة عن أبحاثه ومقالاته في «الأوتسايد»[٧] وفي «الناشيونــال جيوغرافيــك»[٨]. ويقول أولاً إنَّ «الإيبولا» لا ينتقــل إلّا باللمس المباشر مع المريض، فإنــه من السهولة بمكان منع انتشاره بارتداء ألبسة واقية.

كما أنَّ ظهور أزمة «الإيبولا» كانت بسبب ممارســات غذائية محلية جــداً لها علاقة بالفقر الريفي الشديد والزراعة في الغابات والأحــراج وأكل «الخفّاشــ» أو مــا يسمى شعبيــاً بالـ«وطواط»، الذي هو ناقل فيروس «الإيبــولا». الفقر والتنميــة الضعيفة هما السببان اللــذان أدخلا هذه الخفافيش في الممارسات الغذائية.ويكتب قائلاً: «الإيبولا واقــع مفزع لكنه محصور في موضع أو في مركز معيّن. المســاعــدة الطبية والاهتمام والعنايــة ينبغي أن يتــم توجيههم إلى هذه الشعوب الفقيرة في الغابات الأفريقية».

لكــن بحصــول هــذا المــوت السريع، نستطيع أن نفهم بأنَّ الوضع في «غينيا» يقلق البلدان المجاورة: ألا يــؤدي ذلك إلى وباء عــام جماعي كان يخشــى منه منذ عشرين عامــاً بسبب الانتشار السريــع للفيروسات بالنقل الجوي في العولمة الحديثة؟[٩]

ومــن أفريقيا إلــى أوروبة بل إلى وسط باريســ، هاكم هــذا المشهد الــذي كثرت

مشاهدته في الحاضرات الأوروبية ألا وهو رؤية أطفال يجلسون بالقرب من والدتهم أو والدهم ويتسولون معاً. هذا الأسلوب بإثارة الشفقة هو مجال جدل في أوساط المربين. يقول بعضهم إنه لا ينبغي قطع العلاقة بين الوالدين والأطفال بالنسبة إلى المهاجرين الذين هم أصلاً في حالة متدنية وحرجة بينما يقترح بعضهم أولوية حماية الطفولة بالضرورة، لمواجهة استغلال الأحداث بشكل كارثي وظلامي. ومن المؤكد أنَّ الخدمات الاجتماعية (في فرنسا) قادرة على احتضان هؤلاء الأطفال. كما ينبغي حصول تجدد سياسي لاقتراح إجراءات صارمة على المستوى الأوروبي، لمنع تسوّل الأحداث.[١٠]

للفقر درجات وجنسيات ولا يقتصر على التسوّل ولا على أكل الخفافيش، فمن هم الفقراء؟[١١] وكيف نعرّف الفقر؟ لقد نوقش هذا السؤال بشكل موسع من قبل اختصاصيّ علم الاقتصاد كما من قبل الفلاسفة، وهنا أعيد تناوله من قبل الباحثة «رافايل بيزيو»[١٢] التي تقارن بين ثلاثة نماذج من النظريات: «الفقر النقدي»، و«فقر الثروات الأولية» لـ«جون رولز»،[١٣] و«فقر الكفاءات» لـ«آمارتيا سن».[١٤]

وفق النظرية «النقدية» الفقر هو نقص في الموارد قد حدّدت عتبته عند ١،٢٥ دولاراً يومياً. من هذا المنظور تكون العائلات الأشدّ فقراً هي العائلات ذات العدد الكبير طالما أنه ينبغي عليها أن توزِّع المدخول على عدد أفراد العائلة. من جهة أخرى تعتبر مصاريف الصحة مؤشر غنى ودليلاً على أنَّ الأفراد يستطيعون صرف نقود للذهاب إلى الطبيب.

بالنسبة إلى «رولز» (نظرية العدالة، ١٩٧١م)، يعرَّف الفقر على أنّه نقص في «الثروات الأولية» مثل حرية الاجتماع وحرية التعبير... التوصل إلى اختيار نمط الحياة، ومدخول ملائم، أو ما يعرف بالأسس الاجتماعية لاحترام الذات. التعريف «الرولزي» يفصِّل هذه المرة أشخاصاً معينين (النساء، والأشخاص المسنين، والأشخاص ضعيفي الإعداد الثقافي).

«أما أماريتا سن» الهندي الاختصاصي بعلم الاقتصاد ومن خلال نظريته في «الكفاءات» يضع في المقدمة فروقات الاحتياجات بين الأفراد. الفقير هو الإنسان الفرد الذي ليس لديه مقدرة كالآخرين على استخدام ثرواته الأولية أو ثرواته النقدية. انطلاقاً من هذا المفهوم للفقر، نصل إلى نتيجة معاكسة للنظرية النقدية: العائلات الأكثر فقراً هي العائلات ذات العدد القليل لأنها لا تستفيد من شبكة اجتماعية واسعة. إضافة إلى ذلك، بالنسبة إلى «آ. سن»، إنَّ حصة مصاريف الصحة هي دليل فقر وليس دليل غنى؛ الأفراد المرضى أو المعاقون هم

بشكل عام أقل مقدرة على استخدام الثروات الأولية – قيادة سيارة، اختيار مهنة... – وذلك بسبب الإعاقة التي يعانون منها.

مهما كانت هذه المقاربات خصبة، تشير «رافايل. بيزيو»[١٥] إلى الصعوبات المادية الملموسة المرتبطة بالفقر. بالنسبة إلى هذه المستشارة في الـ«OCDE» إنَّ عتبة الفقر المحددة نقدياً لايزال المستقبل ينتظرها[١٦]....

يعتبر الفقر في أساسه عجزاً عن تأمين الاحتياجات الأساسية للإنسان، ولاسيما الغذاء والماء واللباس والسكن، وهي احتياجات لايمكن أن تستمر الحياة بصورة طبيعية من دونها. ومن أهم أسبابه ارتفاع معدلات النمو السكاني، والجفاف وانحباس الأمطار، مما ينعكس سلباً على المواسم الزراعية والثروة الحيوانية. غير أن الفقر يتضمن محتويات أخرى، لاتقل أهمية عن المحتويات السابقة، إذ بين محتوياته هدر الكرامة الإنسانية، والعجز عن المشاركة الفاعلة والناشطة في الحياة العامة بكل جوانبها، الفقر يُمَثل حالة حاضرة في كل الدول النامية. مع وجود تمايزات تجعل تلك البلدان تندرج في ثلاثة مستويات لجهة علاقتها بالفقر: أول هذه المستويات، تمثله البلدان شديدة الفقر، والتي تزيد نسبة الفقراء من سكانها عن نصف السكان، ويعاني أغلب السكان فيها من الفقر، وقسم كبير منهم يعاني من الفقر الشديد، وكلاهما ترافقه ترديات متعددة، ذات تعابير معلنة.

والمستوى الثاني تندرج في تعداده بلدان تصل نسبة الفقر بين سكانها إلى نحو أربعين بالمئة، نصفهم في مستوى الفقر الشديد. ومؤشرات الفقر في هذه البلدان واضحة في دلالاتها المختلفة، والأزمات المرتبطة بالفقر ظاهرة ومعلنة.

ويتضمن المستوى الثالث بلداناً غنية، تعيش فيها فئات فقيرة، وبعضها فئات معدمة، يمكن أن تصل نسبتها من أصل عدد السكان إلى حدود العشرين بالمئة، وثمة مؤشرات واضحة فيها على وجود الفقر فإن الفقر يمكن أن يتضاعف في البلدان النامية خلال العقدين القادمين مع الزيادة الهائلة للسكان مالم تحصل إصلاحات جوهرية في الناحية الاقتصادية في هذه البلدان،تؤدي إلى إحداث طفرات تنموية ذات معدلات نمو عالية.

في البلدان المتطورة تكون نسبة البطالة بشكل عام مرتفعة أكثر من نسبة الفقر، إذ إن الفقر يحارب ويتوقف بالحماية الاجتماعية الفعالة، لذلك ينبغي في هذه البلدان عدم الخلط بين البطالة وبين الفقر[١٧].... لكن في البلدان النامية فإن الوضع معكوس تماماً. لماذا؟ فوفق الباحث«نعمان ماجد» إن عدم وجود الضمان الاجتماعي يجبر

الفقراء على العمل.

ومن جهة أخرى فهم لا يبحثون عن العمل رسمياً لأنهم يعتمدون بشكل خاص على الشبكات العائلية ليجدوا عملاً. إذن، المجموعة المصنفة «فقير - عامل» لا يمكن تجاهلها. وفق تقييمات «ن ماجد» فهي تمثل نسبة لا تقل عن ربع السكان العاملين.[١٨]

إنَّ فشل العديد من مشاريع تطوير الصحة والتربية أدى ببعض الباحثين إلى إعادة طرح مساعدات التنمية التي يقدمها أصحاب رؤوس الأموال العالمية في سبيل محاربة الفقر.[١٩] طالما أنَّ سكان البلاد الفقيرة لا يبدون انشراحاً لتلقي مثل هذه السياسات، فلماذا الإصرار؟ ألا ينبغي علينا بالأحرى أن نخلق الظروف الملائمة كي يتمكن الفقراء من تنكب العمليات بأنفسهم وذلك عن طريق إتاحة القروض الصغيرة أو الديمقراطية المحلية؟

احتوت مقدمة الكتابين «في محاربة الفقر» هذه المسائل حيث أجابت عليها «إيستر دوفلو»[٢٠] بعد أن جمعت كل نتائج التجارب المختلفة مع تجارب غيرها من إختصاصيِّ علم اقتصاد التنمية التي يقومون بها منذ سنوات عدّة في كل أصقاع الأرض. هذه «التجارب ذات الاصطفاء الصدفوي (قد يكون مشكوك بها)» إذ إنها ترتبط بتقييم سياسات مكافحة الفقر باستخدامها طريقة مماثلة للتي تستخدم في الطب لاختبار فعالية دواء ما. هذه الدراسات، بطبيعتها، تضخِّم التفاصيل الإضافية بالضرورة وتبالغ في الاهتمام بالتغيبية في المدارس الريفية الأفريقية أو بالقروض الصغيرة في أحياء الحاضرات الهندية. غير أنَّ هذه التجارب تؤدي إلى إعادة تنشيط مكافحة الفقر لأنها تساهم في تحديد وكشف ضمن أية ظروف وما هي التدابير والأحكام المتاحة وبأية مهارة ودهاء توصلت السلطات العامة أو منظمات المجتمع المدني إلى التقليل من التغيبية وإلى تحسين التعليم أو إلى رفع نسبة التلقيح. لقد برهنت على أن الفقراء يسعون لتحسين مستقبلهم ومستقبل أولادهم عندما يتم تعليمهم بشكل جيد وعندما تؤخذ احتياجاتهم ومصاعبهم الخاصة بعين الاعتبار وبشكل تام وصحيح. فضلاً عن ذلك، إذا أتاحت التجارب المجراة على الأرض فهم الأسباب التي أدت إلى نجاح أحكام القروض الصغيرة فإن السياسات المستقلة تجد حينها حدودها. إنه أمر خيالي التفكير بأن الفقراء، لو توافرت لهم الوسائل، قد يصبحون مقاولين قادرين على تنكب احتياجات الصحة والتربية بأنفسهم.

لا تدعي «إستر دوفللو»[٢١] الاختصاصية في علم الاقتصاد بأنها تملك الوسيلة لاستئصال الفقر نهائياً من العالم وتحترس

من الحلول الكبيرة التي يوصي بها بعض اختصاصيّ علم الاقتصاد. وهي ضد مفهوم الفلسفة الوضعية المعتمدة على العلم والوقائع، فهي تعتقد أنّ اختصاصي الاقتصاد هو شبيه بحِرفي ماهر ذي تجربة وبإمكانه أن يقدم خبرته. وهي منذ سنين عدّة تعمل على تقييم برامج محاربة الفقر سواء في موضوع سياسات إنشاء المدارس أو منح القروض الصغيرة.

قبل بناء النظريات الكبيرة ينبغي بتواضع أكثر تقييم ما تمَّ عمله لمعرفة ما هو الأمر الناجع. لكن ما العمل مع عوامل كثيرة وصعبة؟ «دوفللو» تدافع عن طريقة التقييم الاتفاقي - الاحتمالي الملهمة من التجربة الطبية. فبالنسبة إليها إن الاختبارات الواقعية على صعيد بسيط هي الوسيلة المثلى لاختبار النظرية. فتقول: «يستحسن البدء بنماذج وتقييمات على مستوى الاقتصاد الإفرادي واستخدامها كقطع الميكانو لبناء نماذج كبيرة». اقتصاد التنمية قد شهد بكل تأكيد مساراً جديداً..

من يدير آلية الفقر؟[٢٢]

العولمة لم تفِ بوعودها، فبينما أنماط الحياة والمعارف والتقنيات تنتشر على مستوى الكرة الأرضية، نجد أن الغالبية العظمى من البشرية بعيدة عن المشاركة في صناعة مستقبل إنساني مشترك وعادل.

إنّه أمر مغر تفسير العولمة على أنها استمرار لغربنة[٢٣] العالم بوسائل أخرى. فسواء ركزنا على السيطرة الاقتصادية أو الثقافية، فإنَّ الغرب الذي تقوده الولايات المتحدة في الوقت الراهن يبدو أنه يستكمل العمل الذي بدأه منذ ٥٠٠ عام في استعمار العالم. هذه القراءة هي المدخل لتفسير رفض العولمة. تصطدم الهيمنة الثقافية بيقظة الحضارات الكبيرة التي استُعبِدَت في الأمس. والهيمنة الاقتصادية تؤجِّج من جديد القوى المناهضة للرأسمالية. حروب دينية جديدة أو صراع جديد بين الطبقات العالمية، تستأنف العولمة ارتباطها من جديد مع معارك قديمة.

تعطي العولمة صورة لتقارب جديد بين الأمم، الذي هو في الحقيقة أمر وهمي. التنمية مثلما حللها «آمارتيا سن»[٢٤] هي أن تعطي الأشخاص والمجتمعات الوسائل لبناء حياة مستقبلية تليق بانتظارهم. فيما مسألة العولمة هي أنها إلى هذا اليوم زادت من انتظار الشعوب أكثر من زيادة مقدرتهم على الفعل.

المهمة التي تقع على عاتق البلدان الفقيرة لتصبح بدورها مراكز مزدهرة، تظل مهمة كبيرة، وبالنسبة إلى بعضهم محبِطة. لن يؤخذ أبداً على محمل الجد مستوى هذا الإحصاء الأساسي: نصف سكان الكرة الأرضية يعيش بأقل من «٢ يورو» في اليوم. يلزمهم انطلاقاً من هذه القاعدة الهشة، بناء

الطرقات وتربية شعوبهم، وتعلم التقنيات المتطورة باستمرار. ينقصهم كل شيء يتيح لهم أن يصبحوا لاعبين تماماً في العولمة. فمن أجل الدخول إلى الإنترنت ينبغي أولاً إقامة خطوط للهاتف. ولكتابة وصفة دوائية نحن بحاجة إلى أطباء. بالنسبة إلى الغالبية العظمى من سكان العالم الفقراء، تبقى العولمة فكرة غير سهلة البلوغ.

تُفعَّل ثروات بلد ما بسلسلة من المؤثرات تسند بعضها بعضاً وترتفع تحت سواعد العمل الإنساني. الرافعة الأولى هي التربية والخبرة المهنية. الإنسان الذي يقرأ ويكتب يملك قدرات أكثر من إنسان أمّي.

الرافعة الثانية هي التي توفرها الآلات. المهندس تكون إمكانياته حسبما يمتلك حاسوباً أو لا يمتلك.

الآلات تشكل بذاتها رافعة ثالثة عجيبة: ما تسمى بـ«الفعالية الشاملة» التي تتضمن التقدم التقني والفعالية التنظيمية للمشاريع. هذه الأبعاد الثلاثية المضاعفة توضّح النمو الاقتصادي الحديث وتوضّح فقر البلدان الفقيرة.

البلدان الفقيرة تفعّل الروافع والمؤثرات نفسيهما كما في البلدان الغنية إنما المأساة تكمن في أنّ كلاً منهم زائح أو حائد قليلاً بالنسبة إلى ما يلزم. وفق حساباتنا، لديهم إعاقة بمقدار ٣٥٪ في كل من هذه الأبعاد الثلاثة. عندما يقوم عامل في بلد غني بتفعيل رافعة نسبتها ١٠٠ فإنّ نظيره في بلد فقير لديه وسيلة لا تمثل سوى ٦٥٪. التربية والرأسمال والفعالية الكلية كل منها أخفض بالثلث تقريباً. وحيث يكون التفاعل بين المؤثرات الثلاثة مضاعفاً فإن العامل (الشغيل) في بلد فقير لن يحصل إلا على مردود ٦٥٪ X ٦٥٪ومرة أخرى X ٦٥٪ ما يؤدي نهائياً إلى ٢٧٪ من المستوى الحاصل في البلدان الغنية: نجد النسبة حوالى ١ إلى ٤ بين مدخول الأغنياء والفقراء. تظهر هذه النتائج بشكل مذهل في البلدان المصنفة في أدنى مستوى للقائمة. ففي أفريقيا على سبيل المثال، كل من المكونات الثلاثة للغنى تساوي حوالى ٥٠٪ من مستوى الأغنياء الأكثرهم غنى. بعد مضاعفة هذه المكونات الثلاثة، لا تبدو إنتاجية العامل الأفريقي أنها تزيد على ١٢٪ من إنتاجية العامل الفرنسي. البلد الفقير لن يستطيع التأمل في التوصل إلى مستوى البلدان الغنية بمجرد الاكتفاء بتنشيط وتسريع إيقاع العمل، هذا إذا استطاع ذلك... انخفاض سعر العمل لا يتوصل إلا بصعوبة إلى التعويض عن إعاقة شاملة لمجتمع فقير: بنى تحتية ضعيفة (طاقة غالية الثمن)، سعر المواد الأولية أكثر ارتفاعاً (الأمر الذي هو أولاً ثالثة الأثافي)، سعر رأس المال أكثر ارتفاعاً بسبب الفقر العام...

تراكم الإعاقات ما يجعل أمر الخروج

من الفقر اليوم في غاية الصعوبة. فالتربية والاستثمار، وشــراء التقنيات الأجنبية هي أمــور ليست كافية بحد ذاتهــا إن لم تفعّل مــع الروافــع الأخــرى في الوقــت نفسه. الرأسماليــة[٢٥] بحد ذاتهــا غير قادرة على إنتــاج المبدأ الــذي تحتاجه كــي تزدهر. والعديد مــن الباحثين يرون أنها وقف على الغرب.المفارقة المركزية في عصرنا هذا هي علــى الرغم مــن أن فكــرة المواطنة العالميــة غير قابلة للتطبيــق تتقدم بشكل ملفت قبــل حصول مساواة فــي مستويات التنمية والتطور.

إنَّ البلدان الغنية تسبب مشكلة وجودية للأمــم الأخــرى بمجرد وجودهــا أو لأنها تستثمر وتستغــل اقتصادياً أو تفسد ثقافياً الشعــوب الأخرى. ولــو أنها تخلــق اليوم لمجموع الكرة الأرضيــة التقنيات المفيدة جدّاً فإن هــذا المجموع يدفع ثمن اختباره وفــي الوقــت نفسه يدفــع ثمــن تجسيد الطغيان. كل شيء يحصل كما لو أنها تحظّر اكتشاف الآخرين المحتملين. وجود الهاتف أو التلفــاز يجعل من المستحيل التفكير بما قــد يحصــل لعالم لا يوجد فيــه مثل هذه الاكتشافات.

ليست التقنيات مجــرد أدوات بسيطة. يشرح عالــم الإحاثــة[٢٦] «أنــدري لوروا-غوران»[٢٧] أنه بفضل استعمال الإنسان العاقل للأدوات توصّل إلى الارتقاء بطريقة شاملة وتراكمية أكثر من انتقال مباشر للأفكار من جيل إلــى جيل.بالنسبة إلى بلدان الجنوب، وفي بعضــ الأحيان بالنسبة إلــى البلدان الأوروبية مقابل الولايات المتحدة، أن ينتزع عنها حق الاختراع لمعارف جديدة وتقنيات جديــدة، يعــادل إخراجها مــن «التاريخ». فالإنســان لا يكون سعيــداً لأنه يتناول هذه الخضار أو غيرهــا. الدروب التي تؤدي به إلى بناء ذوقه والآلية التي تقوده إلى اختيار شيءما أكثر من غيره هي شأن رئيسي أكثر من الخيار نفســه. البلدان الفقيرة تريد أن يكون لديهــا مواصلة المجاري[٢٨] وأن يكون لديها أدوية، لكــن هذا المطلب لا يتناقض مع غيره ألا وهــو المشاركــة أيضاً بكتابة التاريــخ العالمي بحيث لا يكــون مختصراً على تقليد البلاد الأكثر تقدماً.

لأنَّ الجنســ البشــري متعــذر قسمته، فكل شعــب يتساءل وينشد نحو الاكتشافات التقنية أو الأخلاقية التي ينجزها الآخرون لذلــك لن يكون العالم «عــادلاً» أبداً طالما أن الشعــوب لا تملك القناعــة بأنها تساهم جميعها في صناعة مصير بشري مشترك.

هل هناك خوف مــن الفقر في البلدان المتقدمة تسببه العولمة؟ يطرح الأوروبيون على أنفسهم السؤال التالي: هل هناك توجّه لعولمة الفقر؟هل تسبب العولمة[٢٩] تخفيضاً لمستويات الحياة بدءاً من أسفل السلم؟ هل هي آلة لإفقار الناس؟ هــذه المسألة تؤرق

الـــرأي العام في البلـــدان المتقدمة. يتخذ محاربو العولمة والمدافعون عنها المعادلة نفسها في أغلب الأحيـــان: في عالم تنتقل فيه رؤوس الأموال والثروات بشكل حر فإنَّ مستويات الأجور والحماية الاجتماعية في البلدان المتقدمة لم تعد محتملة ولا صامدة مقابل الظروف المعمول بها عند منافسيها. لا يصـــبّ الجدل في نهاية المطاف إلا على خيار المتغيّرة المتعلقة بالنموذج: فبالنسبة إلى بعضهم، مستـــوى المعيشة في الشمال ينبغي أن يتم الحفاظ عليه بأي ثمن، وينبغي إعـــادة إدخال المعوقات فـــي وجه التبادل الحر؛ أمّـــا بالنسبة إلى بعضهم الآخر، فإنَّ العولمة هي شـــأن يسير باتجاه واحد أي لا ينعكـــس، وعلى موظفي الشمـــال أن يعقلوا وأن يرضوا بالعمل أكثر وبأجر أقل!!..

هذه الحجـــج مهما كانـــت مستقطَبَة، فهـــي تستند إلـــى التمييـــز نفســـه للقوى الفاعلـــة في العولمـــة: إنَّ قانـــون القُلُّز[٣٠] في المنافســـة العالمية سيدفـــع حتماً إلى التقـــاء أو تقـــارب الأمـــوال أو اقتصاديات العالم. وسيؤدي بالضرورة بمستوى الأجور والحقـــوق الاجتماعيـــة إلـــى التناسق إلى الأدنى، وسيـــؤدي بالشركات إلى تبنّي طرق الإدارة نفسها وطـــرق التنظيم كما سيؤدي بالمجتمعات إلى إصـــلاح مؤسساتها بعمق كـــي تتكيّف مع العولمة، لأنَّ فكرة تقارب أو تلاقي الاقتصاديـــات والمجتمعات لا تسير بنفسها[٣١] وحتى إنها تثير جدالات عنيفة.

لقد قامت «ســـوزان بيرجِه» مع فريقها بزيارة ٥٠٠ منشأة تجارية معرضة للمنافسة العالمية مثل المعلوماتية والنسيج وصناعة السيارات[٣٢] وذلك خلال مدة خمسة أعوام، حيـــث استطاعوا أن يلحظـــوا إلى أي مدى انقلبـــت ظروف الإنتـــاج رأســـاً على عقب بسبب «التعديل» الذي أدى إلى تجزئة آليات الصناعـــة إلى متتاليات مستقلـــة يُمكن أن توزَّع في جهات الأرض الأربع. مع أنه يوجد طـــرق عـــدّة للاستجابة إلى هـــذا المعطى الجديد.

إنَّ تنـــوّع أشكال التنظيـــم يوضح الإرث الفريـــد لكل شركة، أي ذاك التراكم المديد للقرارات التدبيرية والمهارة وتجارب العمل التي تضغط على شركة ما وفي الوقت نفسه تتيح لها أن تتصور حلولاً مبتكرة أصيلة[٣٣]. غير أنَّ هـــذه الكثرة أو هذا التعداد يخضع للاختبار دورياً بالمنافســـة الفاعلة في كل قطاع. وهي في الوقت نفسه مهددة بآليات الرأسمالية المموِّلـــة. إنَّ تحليل الرأسمالية الوطنية يشيـــر إلى أي مـــدى يمكن لإدارة المنشآت الكبيـــرة أن تخضع لنظم حسابية بعيدة جدّاً عن الضرورات الصناعية وحتى عـــن الأعراض التـــي تلم دوريـــاً بالأسواق الماليـــة[٣٤]. هناك مجموعة مـــن الأعمال بدأت تبرِز منطق التقليـــد الذي انتشر في الفـــرق الصناعية منذ أن كان عليهم إرضاء

المنفذيـن الماليين أنفسهم الخاضعين لتصرفات مقلِّدة.[٣٥] «الشركة الفعّالة هي شركة غير محصورة: عندما ينتشر مثل هذا الرأي في قلب مجتمع المستثمرين، يمكن أن يفرض نفسه على الشركات التي يمتلكونها، مهما كانت فرادة نماذجها».

بالطبع الجدل لا يتوقف عند هذا الحد. وكما يشير «أوليفييه بوبا - أولغا»، هناك أيضاً تنوع كبير في طرق تمويل المشاريع: الرأسمالية الإرثية ليست سوى أحد نماذج «إدارة» الشركات.[٣٦] الموضوع بمجمله يكمن في معرفة إن كانت مدعوة لتصبح سائدة أم لا....

أمّا في موضوع العولمة في بلدان الجنوب أي بلدان العالم الثالث فللأستاذ «جوزيف ستيجليتس»[٣٧] الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد عام ٢٠٠١م رأي: «وإن ساعدت العولمة بعض الدول - بازدياد الثروات والخدمات المنتَجة - غير أنها في قلب هذه البلدان لم تساعد غالبية الناس. ربما أنّ العولمة آخذة بخلق بلدان غنية ذات شعوب فقيرة». وكان هذا الاختصاصي في علم الاقتصاد قد كتب منذ سنوات عدة انتقاداً لتوجهات المؤسسات الدولية المعنية بالتجارة والاقتصاد من دون أن ينسى البنك الدولي. فقد كتب «ستيجليتس» في بهذا الصدد: هذه التوجهات يسّرت مصالح البلاد الصناعية الكبيرة وشركاتها متعددة الجنسيات أكثر مما ساعدت بلدان الجنوب. الصين والهند فقط دولتان استطاعتا الانفلات من لعبة العولمة هذه حيث لم تقبلا أبداً «إجماع واشنطن» الذي هو «كوكتيل» من الليبيرالية والخصخصة والصرامة النقدية وحيث قبوله يشترط مساعدة البلدان النامية.

لكن هل ينحاز «ستيجليتس» مع ذلك إلى فريق العولمة البديلة؟ بالمعنى الدقيق للكلمة: نعم: يدافع عالِم الاقتصاد هذا عن عولمة أخرى، تعيد توازن الأدوار في العمل العام وفي السوق. العديد من الذين ينضمون إلى العولمة البديلة قد يشحب وجههم عندما يقرؤون كتابه الأخير بعنوان غريب مبتكر: «عالم آخر»، أمّا في النسخة الفرنسية فهو «تفعيل العولمة». بالنسبة إليه، اتفاقات التبادل الحر ليس فيها ضرر جوهري: وإن هم فاقموا من فقر البلدان النامية، هذا لأنهم كانوا ظالمين، حموا المزارعين والصناعات الحساسة في البلاد المتقدمة وفي الوقت نفسه منعوا بلاد الجنوب من القيام بالمثل. التجارة الحرة: نعم، لكن بشرط أن تكون عادلة.

هذا الموقف غير مقبول بالنسبة إلى جميع الذين ينادون بـ«فك العولمة» أي ترقية الاقتصاد المحلي، وقبل كل شيء توفير الاكتفاء الذاتي الغذائي للشعوب، بحفظ البيئة والتنوع البيولوجي.

الهوامش

١- تقرير نشر في مجلة العلوم الإنسانية، العدد١٠٣ شهر آذار، عام ٢٠٠٠م.

٢- «تيريــان» و«داليــر»، «الشمــال – والجنوب: رؤية لعالم في حالــة تغيير طارئ»، المجلة الدوليــة الإستراتيجية، شتاء ١٩٩٩- ٢٠٠٠م.

J.-P. Thérien et S. Dallaire, «Nord-Sud : une vision du monde en mutation», La Revue internationale et stratégique, hiver 19992000-.

٣- مــا هــو عدد الفقراء في العالم على وجه التقريب؟ كزافييه دو لا فيغا، العلوم الإنسانية، العدد١٩٨ تشرين الثاني عام ٢٠٠٨م.

Xavier de la VegaPlus ou moins de pauvres dans le - ٢٠٠٨ novembre - ١٩٨ °Mensuel N ?monde

٤- «شاوهوا شن» و«مارتان رافايون» «العالم النامي هو أفقر مما نعتقد، لكنه ليس أقل نجاحاً في محاربة الفقر»

Shaohua Chen et Martin Ravallion, «The developing world is poorer than we thought, but no less successful in the fight against poverty», The World Bank development research group, WP4703, août2008. Sanjay G. Reddy, Thomas W. Pogge, «How not to count the poor», Columbia University, octobre2005. www.columbia.edu/~sr793/count.pdf

5- Thomas Pogge

٦- «دافيد كامن» صحيفة النيويورك تايمز

David Quammen - , «Ebola virus: A grim, African reality», The New York Times, 10 avril 2014. Spillover.Animal infections and the next human pandemic, Norton and Co, 2013

7- Outside

8- National Geographic

٩- رينيه – إيريك دارغون في ٢٠١٤/٦/٢٧م René-Éric Dagorn

١٠- «الأطفال المتسولون في القرن الحادي والعشرين» مقالة لـ«فلورا ياسين»- نشرت هذه المقالة في ٢٠١٤/٦/٤م في مجلة العلوم الإنسانية، العدد الشهري ٢٦١ Flora Yacine- Enfants mendiants du XXIe siècle

١١- مــن هم الفقراء؟ Qui sont les pauvres- عن مقالة نشــرت في العدد الشهري ٢٢٩ من مجلة العلوم الإنسانية لشهــري آب – أيلــول عــام ٢٠١١م – للباحثــة سيليــن بيغــو Céline BagaultMensuel N° ٢٢٩ - - août ٢٠١١ septembre

12- Raphaëlle Bisiaux- Qui sont les pauvres?.

13- John Rawls.

14- ’AmartyaSen.

١٥- «رافايلل بيزيو» كيف نعرِّف الفقر؟ مجلة الاقتصاد السياسي «رافايون، وسن، وورلز».

Raphaëlle Bisiaux, «Comment définir la pauvreté Ravallion, Sen ou Rawls?», L’Économie politique, n° 49, janvier 2011.

١٦- الباحثة «كاترين آلبرن» Catherine Halpern.

١٧- مجلة العلوم الإنسانية، عدد١٢٨، حزيران، ٢٠٠٢م.

١٨- «نعمان ماجد» «العمّال الفقراء في البلدان النامية» مجلة العمل الدولية، العدد الثالث، عام ٢٠٠١م.

N. Majid, «Les travailleurs pauvres dans les pays en développement», Revue internationale du travail , vol. CXL, n° 3, 2001.

١٩- محاربة الفقر - الباحث «كزافييه دو لا فيغا» مجلة العلوم الإنسانية، العدد٢١٧ - تموز ٢٠١٠م -

Lutter contre la pauvreté- Xavier de la Vega

20- Esther Duflo

٢١- «إستر دوفلو» المعارف ضد الفقر-مدرِّسة في المعهد التقني الأميركي في ماساشوست.

Esther Duflo- Savoirs contre pauvreté - elle enseigne au prestigieux Massachusetts Institute of Technology (MIT).

٢٢- عولمة أم غربنة؟

Mondialisation ou occidentalisation ?.

دراسة نشرت في مجلة العلوم الإنسانية، العدد الخاص رقم ١٨٠ ، آذار ٢٠٠٧م. «دانييل كوهين» Daniel Cohen أستاذ الاقتصاد في المعهد العالي للاقتصاد في جامعة السوربون - باريس (١)، مدير مركز البحث الاقتصادي وتطبيقاته. كتب كتباً عدّة حول العولمة منها «غنى العالم»، «فقر الامم» إصدار فلاماريون ١٩٩٧م، وكتاب «العولمة وأعداؤها» إصدار غراسّة ٢٠٠٤م. أصدر مؤخراً ثلاثة دروس حول المجتمع «ما بعد الصناعي» إصدار سوي ٢٠٠٦م.

Daniel Cohen:Professeur d'économie à l'École normale supérieure et à l'université Sorbonne–Paris-I. Directeur du Cepremap (Centre pour la recherche économique et ses applications), il a écrit plusieurs livres sur la mondialisation, dont Richesse du monde, pauvreté des nations, Flammarion, 1997 ; et La Mondialisation et ses ennemis, Grasset, 2004. Il a récemment publié Trois leçons sur la société postindustrielle, Seuil, 2006.

٢٣- غربنة: أي جعل العالم غربي السمة والثقافة.

٢٤- «أمارتيا سن».

25- L'esprit du capitalisme

٢٦- علم الإحاثة: علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية أو النباتية.

27- André Leroi-Gourhan

٢٨- طريقة في التقنية تصل مياه المنازل المستعملة مباشرة بالمجارير العامة..

٢٩- هل العولمة هي آلة لخلق الفقر؟

La mondialisation est-elle une machine à appauvrir

دراسة أجراها الباحث الفرنسي «كزافييه دو لا فيغا» Xavier de la Vega
في مجلة العلوم الإنسانية العدد الشهري رقم ١٧٨ - كانون الثاني٢٠٠٧م.

٣٠- قانون القُلز Loi d'airain: نظرية اقتصادية تقول بأنَّ أجر العامل لا يمكن قط أن يتجاوز الحد الحيوي الأدنى.

٣١- انظر «ب. آمابل»، الرأسماليات الخمس. تنوع الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية في العولمة، سوي

.Voir. B. Amable, Les Cinq Capitalismes. Diversité des systèmes économiques et sociaux dans la mondialisation, Seuil, 2005.

٣٢- «س. بيرجه»، «ميد إن موند». الحدود الجديدة للاقتصاد العالمي، إصدار دار نشر:سوي ٢٠٠٦م.

S. Berger, Made in monde. Les nouvelles frontières de l'économie mondiale, Seuil, 2006.

٣٣- انظر «بيرجه وماركوتشيللي» «التصرف، طيف الممكن»، مجلة العلوم الإنسانية، عدد رقم ١٦٥، تشرين الثاني ٢٠٠٥م.

Voir S. Berger, op. cit., et D. Martuccelli, «Agir : le spectre des possibles», Sciences Humaines, n° 165, novembre 2005.

٣٤- انظر «أغلييتا» و«ريبيريو»، إخفاقات الرأسمالية التمويلية، ألبان ميشيل، ٢٠٠٤م، وكزافييه دو لا فيغا، ملف «الأشكال الجديدة للرأسمالية»، العلوم الإنسانية عدد رقم ١٧٦، تشرين الثاني ٢٠٠٦م.

Voir M. Aglietta et A. Rebérioux, Dérives du capitalisme financier, Albin Michel, 2004, et X. de la Vega (coord.), dossier «Les nouvelles formes du capitalisme», Sciences Humaines, n° 176, novembre 2006.

٣٥- انظر «إينيز وديليو»

Voir W.J. Henisz et A. Delios, «Uncertainty, imitation and plant location : Japanese multinational corporations, 19901996-», Administrative Science Quarterly, vol. XLVI, septembre 2001.

٣٦- «بوبا - أولغ لمواقع الجغرافية الجديدة للرأسمالية، الفهم والسيطرة على عدم التموضع، سوي ٢٠٠٦م.

O. Bouba-Olga, Les Nouvelles Géographies du capitalisme. Comprendre et maîtriser les délocalisations, Seuil, 2006.

٣٧- دروس الأستاذ ستيجليتس، «عالم آخر»، و«ضد تعصب السوق»

Les leçons du professeur Stiglitz- J. Stiglitz, Un autre monde. Contre le fanatisme du marché, Fayard, 2006.

عناقيد حلم على دالية النهار

❁
بديع صقور



أحلامك معلقة على شجر النهار
قريباً
ستوغل في أعماق العتمة إلى الأبد.
في حضرة هذا الليل
في حضرة هذا النوم
وهذا الخوف..
تحت دالية الريح
تحضره الأحلام..
يحلم كشتاء:
نجمتان وامرأة من صقيع
نجمتان وجمرٌ للاحتراق
من بين أصابعه
تسللت عشيات مشبعة

❁ أديب وشاعر.

بالحكايا والذكريات عمن
كانوا عشاق هذه الأرض
وظلال دروبها
من كانوا حاضرين في الغياب.

يحلم كربيع:

غافل غابة الأزهار
وزهرةً
زهرةً
جمع غبطتها
منح ما جناه من رحيق
للمسافرين والريح.

يحلم كصيف:

تحت دالية القمر
بيدر وعشاق
في بحر عينيها تشابكت نظراتهما
كغيم هارب..
بمذراته دفع كومة الريح
أزاح لها مكاناً بين يديه
غفت على غصن ساعده
بينما كان يحكي لها:
عن جده وشاربيه المعقوفين
ومنجله العتيق
الذي كان علقه في خيمة الدار
قبيل سفره إلى ديار الموت.

يحلم كخريف:

شتّتتهم الدروب
اشتعل حنيناً لأصواتهم
على معبر الليل
أخرج ما يثبت أنه الرفيق القديم
للحزن والمشردين
وبدل أن يطلقوه كورق أيلول
أوقفوه بتهمة تهريب الخريف.

يحلم كبرّيّة

عريضة كالمدى
على حدودها تفجرت
جداولُ وأشجارٌ..
وأعشاشٌ بنتها الطيور..
فوق تخومها
انفلت حطابون قساة
وعلى حدودها اشتعل غضباً:
. أيها الطيبون
أبعدوا هؤلاء الحطابين القساة
لا تدعوهم يقتربون من مملكة
البراري الوادعة

يحلم كالجبال:

الدروب شائكة إلى القمم
كن حذراً..
تحفز عند صعود القمم
لا تتنشق إلا هواء الأعالي
ولا تكن هياباً
« ومن يتهيب صعود الجبال
يعش أبد الدهر بين الحفر»

يحلم كدرب:
يرتعش كأقحوانة وهو يصغي
إلى همساتهم وبوحهم
عشاق صغار يختبئون
خلف الصخور..
خلف السنابل
خلف الجذوع
وخلف نسمة صغيرة
خوفاً من سهام شمس لاهبة
من وشاة ليل
أو من عصاً مازالت
بين الحقول
تطارد فراشات الحب.
يحلم كقرية:
عين ماء..
ساقية وبساتين
بيوت طين وتخوم
وديان وجبال
رعاة وحصادون وبيادر
عتابا مبللة بلوعة
الفراق والانتظار
صبايا يغتسلن بماء الينابيع
وخلف الأجمات صِبيةٌ
يتلصصون على أجسادهن
التي هي بلون القمح
يحلم كصخرة:
استراح فوقها عشاق
وتعانق عشاق
صعدوا..
نزلوا..
أحدٌ لم يلتفت للوراء
نسوا يوم كانت مزاراً
وتفرقوا كالطيور.
يحلم كضفاف:
تخوم يستريح عليها
بقايا عطرهم
وبقايا حب رسموه
تحت ظلال صفصافة
كانت هنا تشمخ منذ حين.
يحلم كمغيب:
على مغزل يديها
لفّتْ خيوط شمسه الهاربة..
فوق سرير البحر
فرد جناحيه كنورس
وتلحّف بشرشف الليل..
سكن كمحارة في الأعماق.
يحلم كشمس:
لأنها تعبت من الترحال
بين شروق وغروب
دبَّ اليأس في أوصال روحها..
فناست على وهاد بيوتهم
مخلفة كثيراً من الندوب والجروح

على خرائط أعمارهم
غير أنهم ما زالوا ممسكين
بذيل النهارات الآفلة.
يحلم كمطر:
رقص كـ «زوربا» فوق صفيح أيامهم
غسل جراحهم..
يودون ألا يظل قريباً منهم
ذلك العطش..
يحلم كأرض:
بأحضانها تستريح عظامهم
وأحلامهم..
كثير هو الدم..
كثيرٌ هو القهر الذي
خلفوه فوق راحة يدها المشققة.
يحلم كريح:
« إني لأرى رؤوساً قد أينعت
وحان قطافها ».
تدحرجت رأسه فوق الرمال
لو يتحول إلى ريح عاتية
تذرو أشباه الحجاج
وكل من لا يرى رؤوسنا
إلا ثماراً يانعة
يقطفها متى يشاء.
يحلم كغيمة:
سقط فوق حقول السنين
إلى متى هذا الركام من غبار البغضاء
كم تراكمَ من غبار البغضاء
على أقفاص صدروكم!
كيف سيتحول إلى رذاذ ينعش خضرة الحب
في قلوبكم؟!
يحلم كمجرة:
فوق سهوب صدرها الفضي
اندفع كشلال
حمامات بيض واكبت رحيله
إلى مصبات مغيبه الموحش
فوق بساتين صحوها
شردت قطعان الأيائل والنجوم
فوق مياه ثغرها العذب
تتدافع زوارق طفولته البعيدة...
فوق مداها البهي
سُراةُ ليل
ونوق.. وتائهون.
يحلم كنهر:
جرى في بساتين حنينهم
علتْ أصواتهم
عبره سريعاً كطيف
بعض ما خلفوه فوق شاطئ مهجور
من قُبَلٍ وذكريات
يحلم كتيّار:
ولأنهم قتلة وطغاة كالموت
ولأنهم جارحون كالسيف
ولأنهم ثقيلون كالرصاص

ولأنهم حارقون كالنار
يجاهد أن يجرفهم إلى
هاوية التاريخ
ليستقروا هناك كالجرذان،
والنفايات والعطن،
يحلم كمعادلة:
بين أن تكون طريداً ومطارداً
كسرةَ خبز
وحفنة من حياة
يحلم كمحطة:

-١-

أوغلوا في الرحيل
لربما يتأخرون في الوصول
قد لا يؤوب منهم أحد
قد تظلُّ أطيافهم تحوم
فوق ناقوسها الصدئ
وقد يغطي الغبار
ما خلفوه من صورٍ وأناشيد

-٢-

فوق رصيفها مودعون
وهاربون وغرباء..
تحت بهوها العالي
قطارات ومناديل ودموع
حسرات ولصوص..
فوق رصيفها
شدّته إليها
شدّها إليه
سرتْ في كيانها رعشة حزن
موجة إحساس بالفراق غمرتها
كأنهما لن يلتقيا ثانية
ظلا غارقين في عناق طويل
كتمثال في ساحة المدينة.

أنــا تعبــى..

*
مرام دريد النسر

أنا تعبى
وخطوي كان يسبقني
إليكَ وشئتَ أنْ تغرُبَ
أنا تعبى
وكان الصُّبحُ مرهوناً بلدغةِ ذلكَ العقرَبْ..
نظرتَ إليَّ واستغرقتُ في عينيكَ
لم تغضبْ!!
حملتُ الشِّعرَ في صدري
وفي يُمناي قبلتهُ..
وفي يُمناي ضوعُ العطرِ
والأشواقُ لا تنضبْ..

رحلتَ وكنتُ أنتظر
جواباً عزَّ أنْ يُطلبْ..
وكانَ اليومَ موعدُنا
ولا أدري لِمنْ أهربْ؟؟
صَعدتُ لغرفةِ المرضى
لكي أنسى وأستجوبْ
وفكري ظلَّ مشلولاً
برحلةِ ذلكَ الكوكبْ..
قليلُ الشِّعرِ يسحرني
وحُسْنُ القدِّ لا أعجبْ..!!
وكحلُ العينِ أعرفهُ
رأيتكَ ساهماً ترقُبْ..

* شاعرة سورية. ننشر هذه القصيدة من باب التشجيع للإبداعات الشابة.

وتغرقُ في تفاصيلِ
الحبيب وقلَّ أنّ تُعرِبْ
نظرتُ إليك لا أنوي
الرُّجوع..
وغبتُ كي أطربْ
ولم أطربْ..
وظلَّ الحبرُ توَّاقاً
إليكَ وشاءَ أن يكتبْ
فلا تمضِ..
رعيتُ الطَّيفَ في سرِّي
رعيتُ مُسافراً عافَ الهجيرَ
ورامَ أن يشربْ
ألا تشتاق أن تغفو
بصدري حينما تتعبْ؟؟
ألا تشتاقُ أن تُقري
الحبيبة أيُّها الطيِّبْ؟؟
تعال فإنَّني عطشى
إليك..
ومالنا مَهرَبْ..
تعال وضمَّ أحزاني
لصدرك إنني تعبى..
تعال فإنَّني تعبى..

لوحةٌ تبكي

❁

قصة : د.هزوان الوز



استجبتُ للدعـوة كما أفعلُ كلَّ معرض، علـى الرغم من معرفتي بأنّـه، وما يشبهه، ضجيجٌ إعلاميٌّ أكثر من كونه تظاهرة فنّية، ومن دلائل ذلـك أنّ المدعوِّين إليه هم من أهـل البيت كما يُقـال، أي من الزملاء في التربيـة، معلّميـن ومدرّسيـن وإداريين لا صلـة نسبٍ لأيٍّ منهم بالفـنّ عامّة، وبالفنّ التشكيلي خاصة.

اختـرت للمعرض لوحـة واحـدة من تجربتي الأخيرة فـي التجريد، وما إن رأى رئيس فرع نقابة المعلّمين، الجهة المنظمة للمعرض، اللوحـة، حتى جحظـتْ عيناه، وأمطرني بغير سؤال: ما هذه اللوحة أستاذ

❁ قاص وباحث - وزارة التربية.

مـــروان؟! أين اللوحة؟! كيف سيكون وضعها على الجدار؟! بالطول... بالعرض؟! أشرت نحو توقيعي فـــي اللوحة، وقلت: هذا يكفي للإجابة عن سؤالك الثاني خاصة...

غير مسؤول نقابـــي كانَ حاضراً، وشأنَ رئيس الفرع جحظـــت عيناه، وسأل الأسئلة نفسها، ولاسيما: ماذا تعني اللوحة؟

مـــع الجميع حقّ، فالفن التجريدي بعيد عن ثقافتهم البصريـــة والذهنية، واعتادوا مفـــردات بعينها في فنّ الرســـم: شجرة... نهر... فلاح... طبيعـــة...، كما اعتادوا أن يكون لكل شـــيء معنى ومضمون واضح، بل مباشر، وتلك هـــي السمة المميزة لثقافتنا، حيث لا موقعَ لدى الأغلب الأعمّ من الناس للخيـــال والروحانيـــات والتجريـــد العقلي والبصري.

واللوحة تسندُ نفسها وروحها إلى كرسي رثيثٌ لها، وسمعتُهـــا تتوسّلُ إليّ: لا تتركني بينهم، خذني معك، عُد بي إلى المرسم بين أصدقائـــي، بين رائحة الألـــوان، بين الغبار الذي سيفهمني أكثر منهم...

فكرت غير مرة بالاعتذار عن المشاركة، غير أنّ تدخّل بعضـــ أعضاء مجلس الفرع والإطنـــاب فـــي مديحي شخصيـــاً، ومديح أعمالـــي الفنية وبطولاتي الوطنية – الكلام نفسه الـــذي يقولونه للمشاركيـــن جميعاً– وضعني في موقـــف لا أحسد عليه، كما لو أنّ أحـــداً ما سيختطف أحد أولادي، سلمت اللوحة، وتمتمت متوجهاً إليها: أتحمَّل هؤلاء وأمثالهـــم منذ سنين، أرجـــوكِ... تحمَّليهم لأيـــام فقط، وبعدها تعوديـــن إلى الجدران التي عشقتها في مرسمي.

❁ ❁ ❁

أسبوع مرّ ولم أتلق دعوة لحضور افتتاح المعرضـــ، وكنت منشغـــلاً بإنجـــاز لوحة جديدة، إضافة إلى تحضيري لمعرض خاص برسومات الأطفال الذين أعلمهم في المركز التربوي للفنون التشكيليـــة، حدثت نفسي: النقابـــة تنظر إلى الفنان على أنه كومبارس يمكن الاستغناء عنه أحياناً.

أنـــا على ثقـــة بأن اللوحـــات كلها كانت حزينة، لا أحـــد تلمَّس روحهـــا بعينيه، ولا استطاع أن يقرأ قصص عشقه من خلالها، أو يأخـــذ عناويـــن الحـــب الموجـــودة في ألوانها.

أتوقع الأحاديث التي دارت بين الحضور عن أناقـــة وعبقرية المســـؤول الذي افتتح المعرضـــ، وكيف تبـــارك الجميع بالتقرب منـــه، وتبادلوا الابتسامـــات الزائفة مجاناً، وتوزعوا إشارات الإعجـــاب باللوحات، وما من أحـــد منهم يعرف من هو فـــان كوخ أو سيزان أو فاتـــح المدرس أو نذير نبعة، وما مـــن أحد أيضـــاً علق لوحة فنيـــة في بيته أو فكر، مجـــرّد التفكير، باقتناء لوحة ليس

بسبب ارتفاع ثمنها، بل لأنّ وعيه وثقافته وبيئته لا تسمح له بذلك.

❀ ❀ ❀

أسبوع ثانٍ يمضي ولا تصل الدعوة، لم يزعجني الأمر، ما يشغلني انتهاء المعرض فقط، كنت أنتظر عودة اللوحة بفارغ الصبر حتى أسألها عما أصابها، وأعتذر منها عما سببته لها من آلام ...

بعد أيام فوجئت باتصال هاتفي من رئيس فرع نقابة المعلمين، والمفاجأة الأكبر في حديثه عن اللوحة وأهميتها، وإعجاب زوّار المعرض بها، لدرجة ظننت أنه يود ترشيح نفسه من جديد للانتخابات القادمة للنقابة، هو لطيف وديبلوماسي عندما يقترب موعد الانتخابات.

قال: أحد المسؤولين المهمين أحب لوحتك جداً ويريد اقتناءها، وقرر مجلس الفرع أن نقدمها هدية له باسم النقابة، فما المبلغ الذي تريده ثمناً للوحة؟ أنت تعرف... النقابة فقيرة، وأنتم الفنانون لا تحبون المال، تحبون الجمال والروحانيات، ناهيك عن أن لوحتك ستعرض في بيت هذا المسؤول، وسيكون هذا مبعث فخر لك، ونجاحاً للنقابة، أعتقد أن خمسة آلاف ليرة كافية... أليس كذلك؟

كان يتكلم أحياناً بصفة الأمر، وأحياناً أخرى بالرجاء، وما بينهما الاحتيال الذي أعرفه فيه. لم يكن هذا مهماً بالنسبة لي، بل إعجاب ذلك المسؤول بلوحتي، ورغبته في اقتناء عمل فني تجريدي في منزله، لم أصدق كلام رئيس الفرع، قدّرتُ أنّ ما أسمع دعابة ممّا تفعله «الكاميرا الخفية»، غير أنّه أكد لي أن الأمر جدي، وأنه قام بتوقيع أمر الصرف بثمن اللوحة، ويمكنني الحضور إلى مبنى الفرع في أي وقت أشاء لأتسلّم المبلغ.

بدأت الأفكار تمضي بي إلى سعادة مجهولة، مغمورة بالخوف وتنازلات مليئة بالكبرياء...، وفي الوقت نفسه رثيتُ لحال النقابة و المعلمين عندما قال: لا يوجد في صندوق النقابة سوى خمسة آلاف ليرة. وكان السؤال الذي يؤرّقني: كيف لي أن أستولي على هذا المبلغ الأخير في الصندوق، ربما يحتاجه أحد المعلمين ثمناً لدواء...

وعلى الرغم من ثقتي بأنه لم يكن صادقاً، فإنني أقنعت نفسي وثقافتي وروحي بقبول هذا العرض التاريخي. غير أنّ الأسئلة التي لم تكن تكفّ عن الضجيج في رأسي: من هو هذا المسؤول؟! ما هي ثقافته؟! أيّ ذائقة فنية عالية له؟! وكنت أردّد لنفسي: من المؤكد أنه رائع وفهيم، اعذروني... لقد ظلمتكم هذه المرة أيها المسؤولون.

تمنيت على رئيس الفرع أن يجمعني بالمسؤول، فأشكره، اعتذر معللاً ذلك

بانشغالــه، أي المسؤول، قلت: هات اللوحة إذن، فأكتــب خلفهــا بطاقــة حــب وشكر وذكــرى له. اعتذر أيضــاً. سألته: حسناً... مــا اسمه؟! فلم يجبني على الرغم من أنني أتبعتُ سؤالي بالعرض عليه أن أقدّم اللوحة للمسؤول هديــة تعبيراً عن احترامي وحبي له، وخوفاً على أموال صندوق النقابة، ولكي لا أكون ولوحتي سببــاً لفقر المعلمين في وطني !!!

كانت روحي تختال بسعادة وفرح عارمين على الرغم من كلّ شي، فها هي ذي لوحتي تجتاز رحلة جميلة فيها ما يكفي من الحب، وتتمكّن من إقناع مسؤول بامتلائها بالجمال والفن. نحن، الفنانين التشكيليين، كالأطفال، نحتاج مثلهم إلى كلمة حب ولمسة إنسانية، فكيف إن كانــت هاتان، الكلمــة واللمسة، من المسؤوليــن! أما إعجاب زوار المعرض وأحد المسؤولين بلوحتــي فهذا دليل على نجــاح أسلوبي الجديد في الفن التجريدي، وتفاعل الناس معه وتفهُّمه بطريقة أفضل، وهذه فرصة حتى أحل عقدي السايكلوجية مع المسؤولين.

هــذه اللوحة بالذات لها علاقة بظروف معينة عشتهــا، وكانت ممزوجــة بتأثيرات عاطفيــة ونفسيــة واجتماعيــة ووطنيــة، مشكلات حياتي كلها كانت موجودة فيها.

حدثّــتُ نفسي: هــل من المعقــول أن المسؤول قــرأ اللوحة، فعــرف مشكلاتي، وعندما قدّر أنها غير ممكنة الحلول، اختار تعليق اللوحة على أحد جدران منزله.

بعــد ذلــك صــارت حكايــة اللوحــة والمسؤول حكايتــي اليومية مع الأصدقاء، وبدأت أدافع عــن النقابة، وعن المسؤولين لأنهم مظلومون، فالمرحلة السياسية تطلبت منهــم أن يكونوا هكذا، لا يوجد لديهم وقت للثقافة، وهذا ليس ذنبهم.

❁ ❁ ❁

وبعــد أيام زرت فرع نقابــة المعلمين، دخلت مكتب رئيســ الفرع، شكرته على ما قام به مــن عمل إيجابي ومبــادرة إنسانية ووطنيــة لنشــر الفــن التشكيلــي، وزيادة الاهتمام به، وإقناع مسؤول في اقتناء لوحة من الفن التجريــدي، كان في المكتب عدد من الضيــوف الذين لا يجيــدون إلا مديح المسؤولين.

قال رئيس الفرع: هــذا واجبنا النقابي والوطنــي، رفــع المستوى الثقافــي وزيادة الاهتمام بالمعلمين الموهوبين كانت إحدى نقــاط برنامجي الانتخابــي. بالمناسبة... المسؤول الذي أخذ اللوحة علقها على أحد جدران الصالون الكبير في بيته، شاهدناها أمس بأم أعيننا عندما زرته مع مجموعة من الزملاء لتهنئته بعيد الشجرة.

كان الضيوف في المكتب أشبه بجوقة يؤكدون كلامه، ويضيفون:

- اللوحة كانت مناسبة جداً لديكور البيت.

- كان لا يرفع عيونه عن اللوحة.

- شعرت من نظراته أنه يريد لوحة ثانية...

انتابتني الريبة في أيّ ممّا كنتُ أسمع، فقد لاحظت أن رئيس الفرع لم يكن سعيداً عند دخولي مكتبه، وهو معروف عنه أنه محتال من الدرجة الأولى، ويجيد فقط لعبة الانتخابات. وبينما كنت أدقق النظر في الوجوه المنافقة للحضور وقعت عيناي على طرف لوحة وضعت خلف الخزانة الكبيرة بالمكتب، الخزانة مدججة بالمصنفات والأضابير التي تضم ذاتيات المعلمين والمعلمات... أنواع أمراضهم... طلبات قروضهم من مصرف التسليف، همومهم... أحزانهم... أسرارهم... أفراحهم إن وجدت... كلها في الخزانة.

كان طرف اللوحة البارز يشبه لوحتي السعيدة المعلقة في بيت ذاك المسؤول، تتنشق رائحة العطور الفرنسية صباح مساء. توجهت نحو الخزانة وسحبت اللوحة من خلفها، كانت صدمتي كبيرة، شعرت أن اللون الأسود غطى العالم أجمع، ولم يعدْ هناك أي بصيص أمل، ولم يعد للجمال أي مكان، القبح يغطي كل شيء... كل شيء، وانهار ما عشته في الأيام الأخيرة من فرح وجمال بثوانٍ، لوحتي المباركة التي اعتقدت أنها دخلت التاريخ مشروطة من النصف، وفي حالة يرثى لها...

صرخ رئيس الفرع للمستخدم غاضباً: أبو عبدو... ألم أقل لك أكثر من مرة أن تأخذ اللوحة إلى المستودع؟

- لم يوافق أمين المستودع على استلامها، ماذا يفعل بها؟ وفي أي بند يسجلها؟ لا هي مدفأة... ولا كرسي ولا طاولة...

- طلباتي أوامر عسكرية، نفذ ثم اعترض، خذ اللوحة من وجهي.

كان الخلاف بينهما ينحصر في آلية تصريف اللوحة، فتدخلت قائلاً: أنا سوف آخذ اللوحة.

فاعترض رئيس الفرع: أستاذ مروان... هذه اللوحة ثمنها مدفوع من أموال النقابة، ويجب إدخالها للمستودع بقيود نظامية، تريد أن تخرب بيتنا ويُقال إننا حرامية في آخر العمر.

نظرت إلى اللوحة بحزن، شعرت أنها تريد البكاء، ومعاتبتي على غبائي وأنانيتي وعدم فهمي الحياة المتخمة بالمنافقين والأغبياء...

سألتهم: رجاء... أخبروني ماذا حدث؟! كيف تم تخريب اللوحة؟! من فعل هذا؟! هل زوجة المسؤول أم خادمته أم أولاده؟!

- يـا أخـي مـروان... لا أدري مـاذا أقول...

لم يعـد يناديني أستاذ مـروان أو زميل مروان، الآن أصبحت أخاه.

تابـع: نقلنـا لوحات المعرض بسيارة الهونـداي الصغيـرة مع بعض الكراسي، وعند أحد المنعطفات فوجئ السائق بخروج سيارة أخرى فاستخدم المكابح بقوة، ونحمد الله علـى تفادي الصدام، لم تكن هناك أي خسائـر، فقط رجل أحـد الكراسي وتمزق اللوحة، الله يجعلها أكبر المصائب.

سألتـه: كيـف ألفـت قصـة ذاك المسؤول؟!

- يا أخي مروان... لم نخبرك أن اللوحة ممزقة خوفاً على مشاعرك.

طلبت منه إعطائي اللوحة مقابل تأمين لوحة أخرى عوضاً عنها، فوافق على الفور، وقال: هل تعلم أن هذه اللوحة كانت ستسبب لنا مشكلـة لو عرضناهـا بالمعرض؟! ولا سيما من راعي الافتتاح، لم يفهم أحد منها شيئاً، ربما أخذوا لها معنىً سياسيّاً، الحمد لله... حصـل ما حصـل، وتمزقت اللوحة قبل الافتتاح.

❀ ❀ ❀

عـدت إلى البيت بعد أن أخذت اللوحة، اعتذرت منها، وبـدأت أتلمسها بكل أصابع يـدي وبأحاسيسي كلها، فـكل خط رسمته فيها لـي قصة معه. وضعتهـا في المرسم مع صديقاتها، مع من أحبتهم وأحبوها على الجدران الصامتة التي لا تعرف إلا الحب، مع الغبار الذي يحمل ذاكرة الزمن الجميل، وبدأ العتـب والحزن والفـرح بيني وبينها، صدقوني... اللوحة كائـن حي، وتلاميذي فـي المركز التربوي للفنـون التشكيلية هم الوحيدون الذيـن يصدقونني ولا يسخرون مني، بينما زوجتي عندما تسمع حواري مع لوحاتـي تتوجه إلـى الله بدعائها ليحفظ لزوجها عقله.

حدثت نفسي: لا بد من أن أضمد جرح اللوحة.

انشغـل تفكيـري بالطريقـة الأفضل لتضميد جراحها وترميمها من دون تشويهها أو ترك أي أثر أو ندوب.

توجهت إلى اللوحة قائلاً: للمرة الألف... آسف... أنا غبي... نسيت نصيحتك لي بأن لا أحد يستحـق لوحاتي إلا من يعيش بمثل أحاسيسي، غداً سأشتري للنقابة لوحة فنية تجارية من منطقة البرامكة سعرها لا يزيد على ألف ليرة، وسيجدونها أعظم اللوحات، آه منك أيها التخلف الذي أصبح ثقافة لدى بعضهم، وتجد هؤلاء في موقع القرار أحياناً، ويتحكـم بثقافـة الآخرين. مسـؤول أحب لوحتي (ابتسم ساخراً)، أين هذا المسؤول؟! عشت لحظـات سعادة مصنوعة من خيوط

العنكبوت، وأمل في صحراء لا يوجد بها إلا الكذب والخوف والرمال، معكِ حق، سيبقى الفنانون يدفعون فواتير التخلف، وسيظلون القرابين في زمن لا يوجد به إلا الأحزان.

أحضـــرت أدواتي للبـــدء بخياطة جرح اللوحة، فوجئت بهـــا تبكي بدمع المفجوع، وربمـــا لن يصدقني الكثيـــرون، إلا أن ذلك أعادنـــي إلى ما روته لـــي جدتي عن قصة الصخـــرة في مقام الأربعين على سفح جبل قاسيون، الصخرة التـــي شهدت قتل قابيل لأخيه هابيل، ومـــن يومها وهي تبكي حزناً على هابيل من عين انبجست منها ومازال تقطر إلى اليوم. وبعد فترة زرت المقام مع والدي ورأيت دموع الصخرة، كما رأيت بقع الدم...

أحضرت قطعة قماشية، وأخذت أمسح دموع لوحتي، سألتها:

- هل بسبب الجرح لك آلاماً مبرحة؟

- ....

- لن أنام قبل تضميد جرحك.

عاودت اللوحـــة البـــكاء، سألتها ثانية: لماذا تبكين؟!

- ....

- أهنـــاك مـــا تخفينـــه عنـــي؟! لماذا تبكين؟!

تلعثمت: أبكي من الذي شاهدته وسمعته في رحلتي التي قضيتها خارج المرسم.

- لا تخافي لم تكوني وحيدة، ولن تكوني أبداً.

وضممتهـــا إلى صدري، ألقـــت برأسها علـــى كتفي، ولم أكن أدري أكانَ الدمع الذي يترقرق على خـــديّ أهو يسّاقط من عينيها أم عينيّ.

قمر أخضر في سماء غزة

❁
قصة: حسن إبراهيم الناصر

إلى غزة ومنها لفلسطين



لأوّل مـرة تخـرج ميـس الحمامة البيضاء عـن أوامر مجد، فهي ترافقه منذ طفولته، وهي الأقرب إليه من ضمن سرب الحمام الذي يقـوم بتربيته، في برجٍ بناه على مهـل، مع أنَّ لكل حمامة مكانتها عنده، ولكن ميساً ملكة السرب.

❁ كاتب وقاص سوري.

حملها بيــده رفعها عالياً ثم قبلها، قبل أن يغادر ليلتحــق برفاقه الذين سبقوه إلــى الخــط الأوَّل للدفاع عــن تراب غــزة، شعر أنَّه يحتاج لمــن يودعه، لم يستطــع وداع أمــه فهــو وحيدها على شقيقاته الثلاث، بعــد استشهاد والده فــي الانتفاضــة الأولى، همســ: لسنا وحدنا ولــن يمروا هــؤلاء الأوغاد إلا على أجسادنا. حاول أن يخفي دموعه، حيــن قرأ في عينيهــا: إلى أين ذاهب، في عينيك حيــرة تخيفني. مسح على بياضها وهمس.. ربمــا لا أعود، أرجو أن لا تغادري هــذا البرج، مهما طالت مدة غيابــي، كادت أن تنطق.. لا تعود، بعدك لا حياة لي في هذا المكان. خمّن أفكارها، حاول أن يكون صلباً، اسمعي، إذا لم يكتب لي الله العودة أمي ستعتني بكم فهي تعــرف مكانتكم عندي، ألقى نظرة حزينة على وجــه أمه وشقيقاته وانطلق، بعد أن حــزم خصره بشريط مــن الذخيرة والقنابل،وضــع الرشاش على كتفه، ربط حــول رأسه شالاً كتب عليه: (لا إله إلا الله).

ومضى في طريقه منتصب القامة، بقيت الحمامة تراقبه حتى غاب خلف البيوت، صفقــت بجناحيها وهي تنظر للمكان نظرة وداع، كان عليه أن يعلم.. لــن أنتظره، سأرافقه حيث يكون، مجد حياتي، ارتفعت في الفضاء محاولة أن تختفي عن السرب، ولكن مجداً برهافة الشوق شعــر أن ميساً تلاحقه،في تلك اللحظــة أمطرته دبابــة معادية بوابل من طلقــات الرشاش، قفز خلف جدار مدمــر ووضع يده علــى الزناد، عرفته رجلاً لا يهاب الموت، فجأة حلق سرب من الطيران المعــادي، قصف المكان بالصواريــخ والقنابل الحارقة، احتارت أين تختبئ وكيــف ستتركه، حاولت أن تجــد وسيلــة لتتابعــه، اخترقت غيمة من الدخــان الأســود، لاحقتها شظية أصابتهــا في جناحها، ســال الدم على بياضهــا.. فبدت حمامة مــن البياض والدم، ولكنها لــم تستسلم، أخذت تعلو وتنخفض بحثــاً عنه، وقفت فوق كومة من الدمــار وهــي تتمايل مــن الألم، بينما مجد يواصل الزحف وقد أصيب بشظيــة مزقت كتفه،اقترب من الدبابة

المهاجمة، جهز سلاحه للرمي، رأته، فكرت أن تمنعه أو تلتصق به، نظر إليها وابتسم، ولكن الطيران المعادي لم يترك لهما فرصة للحوار، راح يطلق صواريخه في كل الاتجاهات، لا يهتم لإنسان ولا لمسجد.. أو بيت ولا حيوان. انتظر اللحظة المناسبة لينقض على الدبابة، التفت ليراقب الحركة وجدها أمامه، تلاقت نظراتهما وبدأ السؤال ملحاً، تمايلت أمام عينيه ببياضها المخضب بالدم، دار بنظراته على البيوت المهدمة، طالعته وجوه الأطفال المحروقة والمتسائلة.. عن سر الصمت، وأشياء تقلقه، رفع رأسها للأعلى.. شاهد خطيبته بيسان تلوح بيدها من خلال نافذة بيتها،ابتسم لتطمئن، أومأ للحمامة أن تعود، حاول أن يتراجع.. خاف أن تفشل خطته لتدمير الدبابة، زحف إلى الأمام، نظر إلى النافذة ليودع بيسان، كتم صرخة غضب في داخله خوفاً أن ينكشف، يا إلهي: تحول البيت كتلة محترقة، تسرعت دقات قلبه، فكر أن يترك أمر الدبابة ليوم آخر.. ليتأكد من سلامة بيسان وأهلها، تذكر كيف كان يبعث لها الرسائل تحت جناح الحمامة، وهي تسرع إليه كل مساء. قطب حاجبيه.. هناك ما هو أغلى من بيسان والحمامة، واصل الزحف على العشب الطري المبلل بعرق ودماء الرجال الذين سبقوه، الحمامة تترنح متألمة، عليه أن يسكت نيران الدبابة للأبد، سمع صوت المؤذن يعبر الأسلاك الشائكة والبوابات المقفلة والأنفاق التي تقصف من جانبي الحدود، مدن غارقة بالصمت.. حي على الجهاد «الله أكبر». في تلك اللحظة لم يعد يشعر بألمه انبثق مارداً وكلمح البصر اقتحم برج الدبابة. وألقى قنبلته ليفجرها بمن فيها، بصوتٍ قوي: لن تمروا، هذه الأرض لنا بترابها ومائها ورملها وحمامها. ترنح البطل وقد أصابته طلقات في ظهره، حاولت الحمامة أن تنهض، لكنها فشلت، وقبل أن تحلق من جديد أدهشها، وقد رأت سحابة بيضاء تنطلق من فوق جثمان مجد، ثم تعلو وتعلو حتى صارت قمراً أخضر في سماء غزة الملبد بالغيوم السود، ورأت سرباً من الحمام يخترق السواد باتجاهها،

صفقت بجناحيها وهوت فوقه، حلق سرب الحمام فوق المكان، حيث لا شيء إلا دوي الانفجارات، ثم اجتمع حول جثمانيهما على شكل قلب مفتوح، نهضت أمه من بين الركام يا الله لا شيء يتحرك حبست دموعها وهي تفتش عن أولادها، صرخت مجد .. أين أنت يا بني، انتشلت جثث بناتها، تجمع الناس حولها وأخبروها بما حصل رفعت رأسها عالياً لقد فعلها البطل، وراحت تترنم بصوت يشبه هديل الحمام:

«راحوا الغوالي يمه راحوا» نظرت إلى السماء، ابتسمت، تخيلت أن قمراً أخضر يشبه وجه مجد يرتفع في سماء غزة.

ملامح دمشقية في الفنون العربية

د. عفيف بهنسي ❁



دمشق عاصمة الدولة العربية

أصبحت دمشق في عهد الأمويين عاصمة لإمبراطورية واسعة تفوق الإمبراطورية الرومانية إبان مجدها، إذ امتدت من الأندلس إلى حدود الصين، وفي قلب هذه العاصمة قام قصر الخضراء الذي أنشأه معاوية وفيه مجلس الخليفة وكرسي هو عرش مربع الجوانب تستره الوسائد المطرزة الفخمة، وإلى جانبه

❁ باحث موسوعي في التاريخ والآثار.

أنشئ الجامع الأموي الكبير في عهد الوليد ابن عبد الملك، وكان للخليفة في الجامع مجالس يعقد فيها الحكم مع خاصته.

وفي عهد عبد الملك بن مروان توطدت السلطة العربية في الحكم والإدارة بعد أن عُرّبت الدواوين وعُرّب النقد، وابتدئ بإنشاء الأوابد الضخمة، وكان أولها مسجد قبة الصخرة في القدس.

وفي هذا العصر كان الناس في دمشق يتحدثون في مجالسهم عن الأبنية والعمارات التي كانت تزداد انتشاراً، ويمارس إنشاءها معماريون من دمشق، انتقل بعضهم إلى القدس وإلى المدينة المنورة.

النهضة العمرانية

أنشئ جامع دمشق بعد أن أنهى الوليد إنشاء المسجد الأقصى في القدس كما وسّع من أبعاد مسجد الرسول في المدينة المنورة، وكان لعمال دمشق الدور الأول في بناء هذه المنشآت.

تشهد دمشق الأيام الزاهرة في احتفالات الخليفة الوليد بإنشاء المسجد الكبير واستقبال موسى بن النصير وطارق بن زياد فاتحي الأندلس، وخلفهما جموع الأسرى وما يكاد يحصى من الأسلاب والهدايا، وكان على رأس الأسرى أفراد الأسرة القوطية. وكان هذا المشهد الذي نرى صورته في لوحة كبيرة في بانوراما حرب تشرين مشهداً يمثل قمة ازدهار الدولة الأموية.

لقد كانت حيطان الجامع الأموي ومازالت مغطاة بالرخام المجذع على ارتفاع قامتين، ثم هي مغطاة بالفسيفساء الملونة والمذهبة حتى السقف، وتمثل هذه الفسيفساء صور أشجار وكتابات على غاية الحسن والرقة ولطافة الصنعة، كما يقول المقدسي، وقناطر الأروقة كلها مرصعة بالفسيفساء، ولعل المشاهد المتمثلة في هذه الألواح الرائعة كانت تمثل بعض المنشآت القائمة في دمشق، ولكن التأثيرات الكلاسية في تصوير النباتات تبقى واضحة، على أن الفنانين السوريين هم الذين نفذوا هذه الرسوم البديعة بدلالة وجود كثير من أفران صنع أحجار الفسيفساء الملونة في بلاد الشام. وكانت العمارة في العهد قبل الأموي قد درجت على تبليط الأرض بالفسيفساء عدا عن الزخرفات الجدارية.

أضيف إلى الحرم النبوي في المدينة المنبر والمحراب، منذ عهد الرسول، فقد كان النبي يخطب في الجمع إلى جذع في المسجد قائماً، فقال له تميم الداري الصحابي الدمشقي: ألا أعلّ لك منبراً كما رأيت يصنع في الشام، فأرسل إلى أثلة في الغابة فقطعها ثم عمل منها ثلاثة درجات على نحو ما عرف في الشام. ويرجع إلى معاوية كما يقول ابن الفقيه إيجاد أول محراب، ومن المؤكد أن معاوية نفسه كان أول من أدخل المقصورة إلى المسجد.

ويعد المسجد الكبير في دمشق «أول نجاح

معماري فـي الإسلام» كما يقـول سوفاجيه. وهو حلقة هامة تربط تقليد العمارة القديمة الشامية بعمـارة إسلامية جديدة. ويقوم هذا المسجد في مـكان مقدس من مدينة دمشق، حيـث كان معبـد حـدد الآرامي منـذ ثلاثة آلاف سنـة، ثم أنشئ معبد لجوبيتر في العهد الروماني مؤلف من سورين متوازيين يحيطان الهيـكل (الناوس). وفي القـرن الرابع أقام الإمبراطـور تيودوس كنيسـة القديس يوحنا في الناوس المحاط بالسور الداخلي. وعندما فتح المسلمون الشام تقاسموا هذا المعبد مع المسيحيين الشاميين، ثـم اتفقوا على إنشاء مسجد على أرضه ومن أنقاضه مقابل تخصيص المسيحيين لكنيسة مستقلة.

انتشار أسلوب عمارة المسجد

أصبح مسجد دمشق الكبير نموذجاً لأكثر المساجد، كمسجد آمـد (ديار بكر) ومسجد درعا، والمسجد الكبير في مدينة حلب بشكله القديـم الذي كان عليـه أيام الوليـد الأول، إضافة إلى مسجد حران الذي يرجع إلى عهد الخليفـة الأموي مروان الثانـي (٧٤٤-٧٥٠) الذي جعل من حران مقراً له دون دمشق.

وفي المدينة المنورة وسّع الوليد الأول عام (٧٠٨) مسجد الرسول، ولقد قام المعماريون والمزخرفـون الشاميون بهذا العمل الذي كان دون شك موافقاً لطراز المساجد الشامية كما يعتقد سوفاجيه.

انتشار التأثير المعماري الدمشقي في الأندلس

كانـت هندسة المساجد قـد انتقلت إلى الأندلس مع الفاتحين من أهل الشام وغيرهم، وأخذت هذه المساجد كثيراً من الأفكار التي كانت سائدة في جامع دمشق، بل إن المحراب في مساجد المغرب وغيرها من المساجد في الأندلس، بقي متجهاً نحو الجنوب كما هو شأن محاريـب المساجد في الشـام، وذلك تقليداً لنظام هذه المساجد، مع أن القبلة كانت تتجه نحو الجنوب الشرقي في تلك البلاد.

إذا غاب تأثير دمشق الحضاري في العصر العباسي فإن عبد الرحمن الداخل الذي هرب من مطاردة العباسيين متخفياً حتى وصل عام ٧٥٥ إلى (المنكب) علـى الشاطئ الأندلسي، كان قـد نقل دمشق إلـى قرطبة حيث أحدث منها حضـارة الشام عندما أقـام قصر منية الرصافـة المشابه لقصور باديـة الشام التي أنشأهـا جده هشام بن عبد الملك، وإلى هذه المنية نقل الأغراس الشامية كالدراق والرمان وأقام فيهـا نخلة فريـدة كان يناجيها شعراً، مستذكراً أهله في الشام وانقطاعه عنهم.

تبـدّتْ لنـا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي فـي التغرب والنـوى
وطول التنائي عن بنيّ وعـن أهلي
نشـأتِ بـأرضٍ أنـت فيـها غـريبـة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

مسجد قرطبة

ليس مـن شك مـن أن المسجـد الكبير في قرطبـة الذي يشكل النـواة الأولى لنشأة المدينة، هو مـن أبرز الأوابد الإسلامية التي أقامهـا العرب مـن أهل الشـام وغيرهم في الأندلـس، ولعل هذا المسجـد الذي يماهي مسجـد دمشق، كان كنيسـة مثله، ثم استطاع عبد الرحمن الداخـل وقد حصل على تنازل المسيحيين عن كنيستهم، كما فعل الوليد في دمشـق، أن يقيـم منشأته عـام (٧٨٥م) التي اعتبـرت أساساً لتوسعات كثيـرة على امتداد هذا المسجـد، كما أصبحـت أساساً للعمارة الإسلامية الجديدة في الغرب.

ويعـد جامـع قرطبة الأول الـذي أنشئ في عهد عبد الرحمـن الداخل ومئذنته، من أكثر النمـاذج المعمارية المأخوذة من الطراز المعمـاري في دمشق، فهو يضم حسب النسق الشامي حرماً مسبوقاً بصحن، والحرم مؤلف مـن تسعة أجنحة مغطـاة بجملونات ومتجهة نحـو العمق، على خلاف جامـع دمشق الذي اتجهت أجنحته الثلاثة عرضاً، وتستند الأقواس علـى أعمدة مستعـارة من أبنيـة قديمة في المسجدين.

كان جامـع قرطبة بدايـة لتوسعات قام بهـا خلفاء عبد الرحمن من بعده، حتى أصبح اليوم قبلة أنظار المسلمين والعالم

عمارة المآذن

تعـد مئذنة الرملة في عهـد سليمان بن عبد الملـك من أضخـم الأبـراج الشرقية، مشابهـة لصوامع مسجد دمشـق، ولا يعدلها إلا مئذنـة الجيرالد في إشبيليـة. ومن أهم المساجـد التي أقامها الأمويـون خارج بلاد الشام، مسجد القيـروان الذي أنشئ أولاً في عهـد هشام (٧٢٨م)، أما مئذنته فهي صومعة قامت في منتصف القرن الثامن على أنقاض مئذنة قديمة كانت كمـا يبدو مطابقة لأبراج المسجد الكبير في دمشـق، وهذه الصومعة لا تخـرج عن مفهوم الأبـراج السورية إلا في ضخامتها التي تعدل الرملة ومئذنة اشبيلية..

.. واستمر هذا التأثير في مآذن المساجد الأخـرى مثـل مسجـد حسان فـي مراكش ومسجد الزيتونة في تونس، بل إن طراز جميع المآذن التي انتشرت في المغرب العربي كانت مربعة مستمدة من شكل مآذن الجامع الأموي بدمشق

انتشار عمارة البيت الدمشقي

انتقلت عمارة المساكن وعمارتها الداخلية إلى مـدن الأندلس نراها اليـوم واضحة في إشبيلية، وأصبحت كما في دمشق تحفل بالبرك (بحـرة) والفسقيـات (فسقيـة) وبالسلسبيل (المصب). وتقوم البركة في منتصف الصحن واسعة يبلغ قطرهـا ٣-٦ أمتار. أما الفسقية فهـي صغيرة قطرها متر وهـي إما أن تكون مرتفعـة أو منخفضـة وتصنـع مـن الرخام المشقف أو من الفسيفساء الرخامي الهندسي ومكانها ضمن القاعة، والسلسبيل لوح مرمري

أو مزيـن بشقوف رخاميـة مجزعة قائم على الجدار يسيل من أعلاه الماء على صفحة هذا اللوح المحاط بإطار وقاعدة مزخرفين.

كما انتقل المشقف إلى الأندلس والمغرب، وهو زخارف هندسية كل شكل مؤلف من فص حجري مقطوع باليد يضم مع بعضه لكي يشكل حصيـرة رائعة من الفسيفساء الهندسي الذي يسمـى المشقف، وهو إمـا أن يكون بأحجام كبيرة تزيد عـن خمسة سنتيمات أو هو دقيق بحـدود السنتيم الواحد، وترى هذه الزخارف واضحـة في أشكال السلسبيل (المصب) وفي أشكال البرك (الفسقيات) التي تضم عشرات ألوف الفصوص التي تقطـع وترصف باليد. وانتقل المجزع وهـو تنزيل الأحجار والرخام المقطع بأشكال لينة نباتية ملونة على سطوح ملونـة أيضاً ومفرغـة، ويتم هـذا النوع من الزخرفة بمهارة خارقة، وهو يشكل البلاطات الكبرى الواحدة التي أصبحت تغطي القاعات الكبرى في البيت العربي.

وثمة زخرفة خاصة بالنوافذ وهي المسماة «بالمعشق»، ومؤلفة من شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية أو لينة أو تشبيهية، ويغطى كل فراغ بزجاج ملون متناسق مع الألوان الأخرى. وانتقـل هذا الفن إلـى أكثر المـدن العربية وخاصة إلى الجزيرة العربية.

لا تختلـف صناعة الألـواح القاشانية في دمشق عن صناعـة الأواني الخزفية في مادة الصنع والتلوين، ولقد تم العثور على عدد كبير من الأواني الخزفيـة التي تعود صناعتها إلى مشاغـل دمشقية، وهي موجودة في المتاحف والمقتنيـات الخاصة، أما الألـواح الخزفية التي تغطي جدران المساجد والمدارس والتي صنعـت فـي دمشق حصـراً، فإنهـا مازالت موجودة فـي أماكنهـا، ومثالها مـا نراه في جامـع قرطبة. وقليل منها تسرب بسبب زوال المنشآت التي تتزين بهذه الألواح.

ولقـد ساعد علـى الاعتقـاد أنها صنع إزنيـك بسبب القرابة فـي الصيغ المستعملة بين الخـزف الإزنيكي والخـزف الدمشقي. ولكـن الدراسـات الجديدة أكـدت أن دمشق تقدمـت بصناعة هذا النوع مـن الفن، وكان فيها مصانع غزيرة الإنتاج ازدهرت في الفترة بيـن القرن الثانـي عشر والرابـع عشر، أي حتى اجتياح تيمور لنـك لدمشق عام ١٤٠٠م ومصادرته الخزافين الممتازين وإرسالهم إلى سمرقند. ثـم استعادت ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

انتشار السيف الدمشقي

يتحدث الكندي عـن السيوف الدمشقية فيقـول، «عرفت تلـك بجودتها منـذ القدم. وامتازت نصاله بقطعها الجيد، إذا كانت على سقايتها الأصلية.. والسيوف الدمشقية أقطع جميع السيوف المولـدة. وتتراوح أثمانها بين خمسة عشر درهماً إلى عشرين».

ومن أبرز نماذج هـذه السيوف، تلك التي كانـت للخلفاء الأمويين وهـي سيوف متميزة

صنعهـا العمـال الدمشقيون، مـازال بعضها محفوظ فـي متحف طوب كابـي سراي في اسطنبول.

ولقد استمرت صناعة السيوف الدمشقية رائجة معروفة في العهد العباسي تحدث عنها الكندي ووصـف صناعته تحت اسم الجوهر. ولكـن هذا الوصف لم يكن كافياً للتعرف على أسرار الصناعة.

وانتقلـت السيـوف الدمشقيـة وطريقة صناعتـه إلـى الأندلـس، ولقـد عنـي عبد الرحمن الثانـي (٨٢٢-٨٥٢) بتشجيع صناعة السيوف في طليطلة وفي الميريا التي قطنها الدمشقيـون خاصـة، وتحدث عـن سيوفها المقـري، وقال أنه خلال القـرن الثاني عشر فإن الميريا كانت من أشهر المدن في صناعة السيـوف والأسلحة وكذلك الأمر في إشبيلية، فيما عدا قرطبة.

وانتقل السيـف الدمشقي إلى الغرب عن طريـق الصليبيين كلمة Damasc لكي تعني السيف الدمشقي، كما اشتهرت صناعة السيوف الدمشقيـة تحـت اسـم .Damascinage .Damascening

ولقد تعرضت صناعـة السيف الدمشقي منذ عـام ١٤٠٠ إلى الانحطـاط بفعل ثلاثة عوامل هي:

غـزو تيمورلنك وانتقال الصناع السوريين المهـرة إلـى سمرقنـد وعدم وفـرة الفولاذ الصناعي.

سجاد دمشق

في العصـر المملوكي ازدهـرت صناعة السجـاد في مصر وسورية، وقد تحدث بعض الرحالة الأوروبيين عن وجود مشاغل لصناعة السجـاد في العصر المملوكـي، ولقد اشتهر في سوريـة نوع من السجـاد أطلق عليه اسم سجـاد دمشق، انتشر هذا النـوع من السجاد في أوروبا خلال القرن السادس عشر وخاصة فـي البندقية «مرفـأ الشـرق»، إذ تردد اسم سجاد دمشق في سجـلات الأسرات العريقة، أو كانوا يستعملونه كأغطية وستر.كما انتقلت هـذه الصناعة إلى المغـرب تحمل الملامح الدمشقية ذاتها.

وسجاد دمشق مصنوع من خيوط الصوف والسـداة مـن الصـوف أيضاً. وفـي فيينا سجادة واحدة مصنوعـة من خيوط الحرير. وبعض نماذج هذا النـوع من السجاد موجود في متحف المترو بوليتان، وثمة سجادة كبيرة بقياسـ ٦×٩م موجودة فـي متحف فيكتوريا وألبرت في لنـدن. وكانت ولا شك مخصصة لمكان رحب قد يكون مسجداً أو قصراً، وهي بلـون أحمر خمـري وفيها أشـكال هندسية زرقاء مع بعضـ الأشكال المعينية المخططة شطرنجياً. وفـي مركز السجادة جامة كبيرة، وتبدو فـي السجادة إشـارات مميزة. وتعتبر هذه السجادة من أجمـل ما تحويه المتاحف من سجاد دمشق.

البعد الثقافي لتعاملنا مع المستقبل

د. خير الدين عبد الرحمن ❁



عندما اشتد التركيز على أهمية الحاجة إلى إعداد إستراتيجيات وخطط للمستقبل استناداً إلى افتراضات تفرزها وقائع ودلائل ومؤشرات إلى التغييرات الرئيسة المتوقعة والمجالات الحيوية الحاضنة للتحولات المرتقبة، أدى طغيان تأثير المركزية الأوروبية، والغربية عموماً، التي حكمت المهتمين

❁ باحث ومترجم وسفير سابق.

بدراسة المستقبل إلى التعامل وكأنما المستقبل مسألة غربية بحتة، لا مصيراً يخص البشرية جمعاء.

وعندما اتجه بعض هؤلاء إلى توسيع دائرة بحوثهم لتشمل أمماً أخرى بعد موجات الاستقلال التي أعقبت الهيمنة الاستعمارية المباشرة، ظلت أبحاث الأنثروبولوجيا المنطلقة من دراسات عنصرية للأجناس البشرية متأثرة بتلك المركزية الغربية التي اعتبرت الغرب جوهر العالم ومحوره وقائده الفطري الدائم. لكن تطورات عالمنا فرضت تحول تلك الدراسات جزئياً في سبعينيات القرن العشرين لتشمل ثقافات الأمم الأخرى. مع ذلك، ظل المنهج العام للحياة اليومية المستخدم في تلك الدراسات يعتمد التجريبية والإحصاء في أوروبا، بينما اعتمد النماذج المجردة ونظرية اتخاذ القرار وتحليل الأنساق في الولايات المتحدة واليابان، عاكساً تمايز المجتمعات ما بعد الصناعية عن المجتمعات الصناعية، أمَّا في المجتمعات ما قبل الصناعية، أو ما سمي العالم الثالث فاعتمد المنهج العام على الخبرة الدارجة التي يفرزها الذوق العام والتراث والحالة الثقافية السائدة. ورأى دانيال بيل في هذا الصدد أن الاختلاف ناجم أساساً عن تفاوت نظرة كل من فئات المجتمعات الثلاث هذه إلى الزمن، فمرجعية مجتمعات آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية تظل مشدودة إلى ماضيها الذي يشكل مرجعيتها، وإلى ثقافتها المحلية المتوارثة التي تحكم تغيرات سلوكها نحو المستقبل.

أما المجتمعات الصناعية في أوروبا الغربية فتسعى إلى التوافق والتكيف مع النموذج المستقبلي. في حين تركز المجتمعات ما بعد الصناعية على التنبؤ بالمستقبل والتغيير في البناء الاجتماعي وفقاً لنموذج مدروس مسبقاً. وهنا تلعب الفجوة المعرفية الناجمة عن فجوة العقل، صانع المعرفة وصنيعتها، دوراً حيوياً ورئيساً في هذا التفاوت، حيث ضمرت قدرة عقول نخب العالم الثالث عموماً، والعالم العربي خاصة، على إنتاج المعرفة. فالعقل العربي حائر ما بين إرث ماضيه ومطالب حاضر هو آمال مستقبله. إنه عقل ترهل وتشوهت رؤاه وتهرأت عدّته المعرفية، فراح يجتر مقولاته القديمة ويحتمي بها، ويردد أفكار ومقولات غيره ونادراً ما يستوعبها، حتى عندما يقع في أسرها. ضرب ريتشارد فولك، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة ييل الأميركية، مثالاً صارخاً على طغيان التأثر الثقافي / السلوكي هذا عندما استشهد[1] بصورة صارخة اختصرها راجني كوثري أن الهند وجدت، ولا تزال تجد، صعوبة بالغة في التخلص من الكوكا كولا بأكثر من صعوبة تخلصها من النظام الاستعماري البريطاني.

إنَّ مدى تفاعل الدراسة المستقبلية مع

بيئتها الاجتماعية والثقافية، ومع بيئات ثقافية أخرى، في محاولتها تلمّس ما هو مرجح الوقوع من تحولات يحكم دقة هذه الدراسة وفعاليتها. فالإحاطة بمتغيرات أسس وأساليب التفكير والعمل والإنتاج والاستهلاك شرط لنجاعة تلمس المستقبل.

هنا لا يحتاج واقعنا البائس الواضح إلى كثير من التمحيص لإدراك ما أشار إليه مفكرون وكتّابٌ كثر من حاجة ماسة إلى تماسك الثقافة العربية وتعزيز انتمائها وتوحيد مرجعياتها وتصوراتها وتحصين الأجيال الصاعدة بها وتنزيهها عن الاختلافات السياسية بين الأنظمة العربية الحاكمة، وتحصينها تجاه الإجراءات القمعية والانتقامية الناجمة عن هذه الاختلافات. إنَّ الثقافة حافز الوعي بالشراكة التكاملية العربية التي تقاومها مصالح ضيقة لفاسدين ومفسدين وعبيد سلطة، والثقافة أيضاً سبيل التحرر من التناقضات التي تولّدها وتغذّيها مفاهيم وتطبيقات قاصرة لثنائيات القومية والقطرية، (التراث والمعاصرة، التخلف والتقدم، الرعايا والمواطنون..إلخ). الثقافة المطلوبة هي التي تعزز قيم وإرادة الانتماء العربي المشترك، والوجود المشترك، والمصير المشترك، وتنتظم صناعة متكاملة لمستقبل عربي واعد مشترك في إطار احترام وحدة الوطن والأمة وقيم العدالة والمواطنة وحرية الفرد والمجتمع وكرامتهما، وحماية التراث وتنقيته وتجديده وإغنائه، وتعميم حسن استثمار الوقت والمراقبة الذاتية وأداء الواجبات بمستوى الحرص نفسه على الحقوق. والثقافة المطلوبة كذلك هي المؤهلة لتحصين الفرد والمجتمع والأمة في مواجهة جائحة عولمة الإلحاق والإخضاع وفرض التبعية والاستيعاب وتسليع الأخلاق وثقافة الاستهلاك ونشر عبادة المال.

ولئن فشلت مشاريع النهضة العربية المعاصرة التي جاء أكثرها مرتجلاً أو تلفيقياً هجيناً حاول المزاوجة بين نموذج تراثي متشرنق ونموذج استلابي استغرابي، فإن الثقافة العربية المطلوبة هي القادرة على تجديد ينبع من الذات الحضارية العربية، والتفاعل الإيجابي مع العصر دون التحاق مستسلم بالآخر. أي إنها ثقافة تستثمر منجزات الحضارة العالمية الفكرية والتقنية وآخر مستجدات التكنولوجيا، وتؤهل لإبداع وابتكار عربيين يسهمان فيها عبر «إعادة بناء حياتنا الخاصة بمكوناتها المتكاملة ديناً وقيماً وهوية وتاريخاً وحضارة»[٢].

تجدر هنا ملاحظة أنه قد «كان معنى الثقافة عند أجدادنا الحذق والذكاء وسرعة الفهم، أي إنها خصلة عقلية وليست مفهوماً مجرداً بذاته. أما في الغرب فانتقل مفهوم الثقافة culture في القرن السادس عشر من زراعة الأرض إلى معنى مجازي هو تنمية القدرات العقلية بالتدريب والمران، ثم

صارت تدل بعد ذلك على مجموع المعارف المكتسبة التي تمكن من تنمية روح النقد والقدرة على الحكم».[٣] وهنا يتبين بسهولة أن معنى الثقافة عندنا كان يشير إلى ملكات فردية تولد مع صاحبها غالباً، بينما يتضمن معناها في الغرب جهداً يبذله الفرد والمجتمع لاكتساب معارف تدعم جهود التطوير والتقدم.

لقد كانت المساقات الرئيسة للعلوم والمعارف في الثقافة العربية قديماً هي البيان ـ أي الفكر الديني العقلي، والعرفان أي الفكر الإلهامي الباطني، والبرهان أي الفكر الفلسفي العلمي. ولاحظ د. محمد عابد الجابري في هذا السياق أن العلم لم يحدد اللحظات الحاسمة في تطور الفكر العربي الإسلامي، وإنما حددتها السياسة، لأن الإسلام دين ودنيا، وفكره كان حاضراً في الصراع الأيديولوجي، وكانت السياسة تبحث دائماً عن سند ديني يدعم مواقفها، فتحوّل علم الكلام من العقيدة إلى ممارسة سياسية في الدين وفي الفلسفة، بينما ظلت ممارسة العلم العربي التجريبي (الخوارزمي وابن الهيثم وابن النفيس..) على هامش الحركة الثقافية العربية[٤]. هذا وضع صار تجاوزه ومعالجته من الأمور الملحة في التهيئة لمستقبلنا.

لقد تلاحقت محاولات جادة لرسم خارطة معرفية عربية محددة الملامح والسمات أفرزتها مناهج وأدوات تحليل نقدية سليمة متطورة، ما يمكن اعتباره إنجازاً تجديدياً مضيئاً في زحام وضجيج الغث والفاسد والمنحرف والعاثب. لكنها تظل محاولات محدودة، منها لأبي يعرب المرزوقي ومحمد جابر الأنصاري ومحمد عابد الجابري وعبد الإله بلقزيز وأنور عبد الملك وجلال أمين وبرهان غليون وسواهم. انطلق بعض هذه المحاولات من الجدل المتعلق بتعريف الذات العربية وتحديد هويتها، أو العلاقة ما بين الأصالة والتحديث، أو المنهج الفكري الملائم وماهية أدوات التغيير المطلوبة للعبور من النهضة إلى الحداثة. لكن كل هذه المحاولات الجادة لا تغني عن مشروع جمعي متكامل يسهم في توحيد الرؤى، أو تقاربها ،ويستوعب مفاهيم ومستجدات علم اجتماع المعرفة بما يعزز تأثيرها على نحو فاعل عمودياً وأفقياً وعبر الزمن. ويستوعب كذلك الآفاق الرحبة المتعاظمة، الحالية والمرتقبة، لتكنولوجيا المعلومات وتطبيقاتها، هذه التكنولوجيا التي تتميز بكون معلوماتها غير قابلة للاستهلاك أو التحول أو التفتت، فهي تراكمية يتم جمعها واستخدامها بالمشاركة المفتوحة، بحيث يصعب احتكارها. كما أن مدى قيمة هذه المعلومات ذات الدفق الهائل يتوقف على استبعاد عدم التأكد، وتنمية قدرة الإنسان على حسن اختيار ما هو أنسب وأكثر فاعلية من بين البدائل والخيارات.

إضافــة إلــى أن العامل الإنسانــي، ومن ثم العامــل الاجتماعــي، هما محــور استخدام هذه التكنولوجيا وجوهره وهدفه في الوقت نفســه، مما يتوقــف على أتمتة الــذكاء، أي التركيز على العمل الذهني وتعميقه وتأهيله لتحويل المعلومة إلى معرفة من ناحية، وإبداع المعرفة مــن ناحية ثانية من خلال استجلاء المرامــي والأغراض وتطويرهــا، بما يخدم حل المشكلات وتنمية الفرص المتعددة أمام الفرد والمجتمع، والتجديد في صياغة النسق الاجتماعي.

وهنا يبــرز بعد هام يتمثّل فــي التعامل مــع مسألــة المثاقفة التي باتــت في أحيان كثيرة ستــاراً للاختراق الثقافــي. «وبما أن شكل السيطــرة البارز هــو تصميم علمانية كونية، كانت نمطــاً خاصاً لتكوين الدول في الغــرب؛ لذلك تتمظهــر المقاومة على نمط ديني حضــاري إسلامي في الشرق وأفريقيا ومسيحي في أميركا اللاتينية بعدما أفل نجم الشيوعية وقبلها القومية. وبما أن المجتمعات لا تنعدم من عناصر المقاومة التاريخية، فهي تجــد في الثقافي الخاصــ تجديداً لعناصر اللحمة الداخلية الأهلية».

تعتبر الثقافــة بمعنى ما أداة إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعيــة التاريخية التي توفر التماســك الداخلي للقــوى البشرية، وتدمج المحســوس بالبنيــات الذهنيــة الفكريــة والفلسفيــة، لذلك يهدف الاختــراق الغربي إلى ضرب الثقافــة المحلية بوصفها عنصر الوحدة الداخلية المقاوم للتفكيك القائم لهذه المجتمعات النامية. «تصبح الثقافة (عصبية) خاصــة تتيح الممانعــة الحضاريــة وتقوّي عناصر التوليف السياسي التقليدي».(٥)

وبمثل مــا يشــكل الاختــراق الخارجي الهادف إلى الاستيعاب وفرض التبعية تحدياً ثقافيــاً للمجتمــع، فــإن التحــدي الداخلي المتمثل في تغليــب السياسي على الثقافي، بل وإصــرار السياســي على قســر الثقافة والمثقفين على خدمته إلى حد الاستعباد، قد وضــع النخب المثقفة في معظم المجتمعات التي يحكمهــا الاستبداد والقمــع والتخلف أمــام مأزق جدِّيّ، وخاصة لدى إصرار بعض النظــم المتحكمــة فــي تلــك المجتمعات، وأجهزة قمعها خاصة، على تحويل المثقفين إلــى أبواق نفــاق ودعاية رخيصــة، أو حتى إلى مخبرين يحركهــم كره الذات والآخرين، تحت طائلة إرغــام من يرفض هذا الامتهان علــى الانكفــاء أو الجوع أو الهجــرة. يسهم هذا الانحطاط في تسارع الانهيار السياسي والثقافــي والقيمي والأخلاقــي، ويزيد من استشراء الأميــة السافرة والمقنّعة، فيتفاقم الخلــل في المجتمــع. يشتد فــي مثل هذا الوضــع نزوع إلى التفكيــر السلبي، وبالتالي العمــل السلبــي. ذلــك أن التفكيــر السلبي حركة مستمرة لفكــرة سلبية ومشاعر سلبية تعكس تشاؤماً في رؤيــة الأحداث والأشياء،

أو مبالغة في تقييم المواقف والظروف، أو خضوعاً لأوهام ضاغطة ترجّح توقّع الشر والأسوأ، مما يدفع إلى أحاسيس سلبية ينمو معها الشعور بالقلق والشك والحزن والألم والخوف والغضب، وصولاً إلى النقمة أو العزلة والانكفاء، مما يعزز عدم الثقة بالنفس واختلال التوافق مع الذات وتوازنها، فتكثر الشكوى والتذمر، ويجنح إلى الانتقام الأعمى والعدوان تعويضاً عن الفشل وتفاقم شعور العجز أو عدم الرضى، مع ازدواجية نقيضي الاعتماد الشديد على الغير أو التبعية له من ناحية، وتحميل آخرين مسؤولية الفشل والعجز والقصور والتقصير من ناحية أخرى. لابد أن يؤسس مثل هذا الخلل آخر الأمر لحراك جمعي يستهدف التغيير والتصويب.

إنَّ ملامح الغد باتت تتضح أكثر مع تلاحق إرهاصات التغيير عالمياً وعربياً، بحيث من المتوقع أن تحدد القرارات الاجتماعية المستقبل بمشاركة ملايين الناس، لا باحتكارها من قبل مجموعة محدودة من أفراد ظاهرين ومستترين، من حكام وسياسيين وأصحاب ثروات كبرى وشركات ضخمة ومسؤولي أجهزة أمنية وإداريين ومستشارين وأصحاب نفوذ. بكلمة أخرى سوف تتعاظم قوة الفرد، ومن ثم المجتمع بأسره، ومشاركتهما في الشأن العام، وخاصة فيما أطلق عليه اسم العالم الثالث.

كما ينتظر أن يكون الفرد مختلفاً، بحيث يحمل الإنسان في داخله شخصيتين متداخلتين، أولاهما بيولوجية طبيعية، والثانية رقمية ذات قدرة هائلة متنامية على الحفظ والتذكر والتنظيم، وبالتالي سوف يحمل إنسان الغد القريب المتكامل هذا قدرات استثنائية غير مسبوقة، تتيح له إنجاز مهام ضخمة بسهولة، كما أكد الكاتب الاقتصادي والسياسي الأميركي ديفيد ميرسر David Mercer في رابع فصول كتابه (ثورات المستقبل Future Revolution) متوقعاً، بعد استخلاصه آراء خبراء نحو ألف منظمة ومؤسسة ومركز أبحاث، سقوط الأنظمة الدكتاتورية والتسلطية تباعاً، وتداعي هيمنة رأس المال، ونمو قوة تأثير الفرد وفاعلية دوره المشارك، بما يحقق عدالة أفضل ومساواة أكمل[٦].

لاحظ بعض منتقدي العقل الجمعي العربي المعاصر أن العقلية الحاكمة السائدة في مجتمعات العالم الإسلامي، وخاصة العالم العربي تريد أن تحكم كل شيء وتدير المجتمع وتسوس العقول وتجعلها غير منفذة للتيارات الجارفة للتغيير التكنولوجي، بل مقاومة لروح الابتكار والبحث. تجر هذه النزعة إلى ظلامية جديدة تسد طريق النهوض من خلال كبحها التقدم الثقافي، كما قال الكاتب الإيراني التغريبي داريوش شايجان في كتابه (الفصام الثقافي: المجتمعات الإسلامية في مواجهة الغرب) الذي فازت

طبعتــه الأولى بجائزة جوتيبه لأفضل دراسة أكاديمية لسنــة ١٩٨٩م، بينما رأى د. هشام جعيــط بموضوعية أكبر أن مــا يميز الكائن العربــي الحالي هو ثنائية عميقــة بين بنية المجتمــع والدولــة والاقتصــاد السائر في الدوائر القطرية، وبين شعور ثقافي وسياسي وأيديولوجــي سائــر فــي مستــوى الوعــي العروبي، ويبقى الضمير الثقافي مركزاً على الشخصية العربية الإسلامية(٧).

الهوامش

١- لدى افتتاحه المؤتمر الدولي الثامن للدراسات المستقبلية في كورسيكا، كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٤م.

٢- محمد عابد الجابري، بين ماض مرفوض وحاضر مفروض، الاتحاد، أبوظبي، ٢٤/١٠/٢٠٠٧م، ص٣١.

٣- المصدر السابق.

٤- د. محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٥- د. محمــد الشامي، تنظيــم الأسرة، غربة الثقافة وعقــم الحداثة، العرفان، بيروت، تشريــن الأول / أكتوبر ١٩٩٣م.

٦- عرضــ عدنــان عضمية الكتاب على ست حلقات في صحيفة الاتحاد، أبو ظبي، خلال شباط /فبراير وآذار/ مارس ٢٠٠٢م.

٧- هشــام جعيط، الشخصية العربية الإسلاميــة والمصير العربي، دار الطليعة، بيــروت، ١٩٨٤م، مترجماً عن الفرنسية التي صدر بها سنة ١٩٧٤م.

نديم محمد وأوَّل ديوان...

❋
د. محمد رضوان الداية



بين اقتنائي ديوان (آلام)[1] سنة ١٩٣٥م وبين حُصولي على (الأعمال الشعرية الكاملة) في خمسة أجزاء[2] زمان تطاول فزادَ على خمسة عُقود. ولديوان (آلام) عندي ذكرى لا أنساها.

كان مدرِّسونا في مدرسة عمر بن الخطاب المتوسطة[3] مجموعة من طلبة الجامعة السورية (الاسم الأصلي لجامعة دمشق) من كلِّيات الحقوق، والطب، والعُلوم، والآداب. وكان عندهم من الحماسة للتعليم ومن الثقافة العامة (النسبية) ما أسهم في وصول طلبة الصف التاسع (الثالث

❋ أديب وباحث وناقد وأستاذ جامعي.
العمل الفني: الفنان نشمي صالح.

الإعـــدادي) إلى مستوى حسن أعان أكثرهم على متابعة الدراسة في دمشق، فلم يكن في بلدتنا غير هذه المتوسطة الأهلية.

وكان من أساتذتنـــا مدرّسٌ للغة العربية في الصـــف التاسع: ينظـــم الشعر، وينفتح علـــى الأدب الجديد: شعره ونثـــره، ويوسّع معارفنـــا بالجديـــد الـــذي يتجـــاوزُ المادّة التدريسيّة المقـــرّرة. في ذلك العام اقتنيتُ أوّل كتاب أدبيّ (ليســـ من الكتب المقررة) وهو أيضاً أول ديوان شعر من اقتنائي يوضع فـــي كُتَيِّبة غرفة الضيوف التي كانت حافلة بكتب الوالد (رحمه الله).

مدرّس العربيـــة، الشاعر، المُنفتح على الجديد نصحني في ذلك الوقت بأن أتوجه إلى الثانويّة الأدبيّة (البكالوريا)، وأرشدني إلى عـــدد من الكُتب المفيـــدة لتعميق هذا التوجـــه[٤] وكان في جُملة مـــا أرشدني إليه ديوانٌ كان قد صدر حديثاً، عنوانه: (آلام)، واســـم الشاعر (نديم محمـــد) وكنا جميعاً نسمع بهذا الاســـم لأوّل مرّة. وسيمرّ تعليقٌ على توجيه مدرســـ العربية الشاعر غالب البَـــرازي[٥] فقـــد كان انفتاحه أمـــراً لافتاً، فـــي الوقت الذي تعرّض فيه الشاعر - كما سوف تنقل عنـــه - لهجوم كبير؛ من نوع أو نمط من «الحداثيين»!

قـــرأتُ الدّيـــوان، واهتممتُ بـــه كثيراً. وتناقلته أيدي عدد من زملائي في الصف، فقد كنّا نتبـــادل ما يَشتري أحدنا من كتابٍ أو مجلّـــة، وأَخُصّ من ذلك: مجلة الرسالة، والهلال، واقرأ. ولـــم يلبث أحد زملائنا أن جـــاء يوماً بجريـــدة كانت تصـــدر أسبوعياً تختصـــ بالثقافة اسمهـــا «النّقّاد»، ومازلت أذكر بعض ما ورد في مقالةٍ عرضت ديوان آلام، وانتقدتـــه أيضاً. فقـــد كان في إحدى قصائـــد الدِّيوان (النشيـــد السادس عشر) قوله:[٦]

كلّ شيءٍ في الرّيف يحكي عن الرِّ
يفِ، وعن قلبهِ النّظيفِ الطّهورِ
عيشةٌ هـذه المفاتن ألـوا
حُ صغارٌ من سِفرها المسطورِ
وكأنّي أعيشُها فعَلى أطـ
ـرافِ ثوبي طعمُ الصّباحِ المَطيْرِ
قابعٌ في مَطَلٍّ غارٍ وقد جُنْ
بعيني فُضولُ طفلٍ غَريرِ
فعلى التلّ بقرةٌ تلعب الرّيـ
ـحُ بأعقاب ذيلها المبتورِ
ودروب الغابات أترعها السَّيـ
ـلُ وغصّت بالنوءِ والزّمهرير

وكان في ما اعترض عليه كاتب المقالة النقدية (وقد غاب عنّي اسمه لبعد الزمن)، ما ورد في قوله في البيت الخامس المختار هنا:

فعلى التلّ بقرةٌ تلعب الرّيـ
ـحُ بأعقاب ذيلها المبتورِ

فكيف تلعب الريح بذيلٍ مبتور؟

ولفت نظري في طبعـــة الديوان الأولى

بيـتٌ صَدّر به نديم محمد ديوانه معبّراً عن (صورته) وعن حاله عامّة، وهو قوله:

أيُّها المشفقون لا تلمسوا الجُر
حَ بصدري فتوقظوا كبريائي!

وهذا البيـت من (النشيـد الثاني) من أناشيد الديوان في قصيدة أوّلها[٧]

صُوَّرَ الكونُ من خيالك أشكا
لاً مع الضُّحى والمَساءِ
أنتِ في الشرقِ حين أنظر والغَر
بِ، وفي الماء والثّرى والسّماء
أنتِ في خَطرةِ النَّسيم على الرَّوْ
ضِ وفي العِطر والنّدى والضِّياءِ

وتسترسل الأبيات حتى نصل إلى أواخر القصيدة، وفيها بيت القصيد من جهة، وبيت الدّيوان من جهةٍ أخرى، عند قوله:

أهرمتني الهمومُ... أهرمني البؤ
سُ، وشيءٌ من غَيْرتي الرَّعناءِ
وطواني الرّدى، ولم ألفظ الرُّو
حَ بِبُرْدِ الخمولِ والإعياءِ
أنكرتني عَيْني، فهل أنا إلاّ
شبَحٌ أسودٌ على الغَبْراءِ
أيُّ حلمٍ يموت ملء جُفوني
أيُّ دنيا تنهارُ خَلْفَ ردائي
رَبِّ، عبءُ الهوى ثقيل وكم أحـ
ـمِلُ بعد الهوى من الأعباءِ
أيها المُشفقونَ لا تلمسوا الجُرْ
حَ بصدري فتوقظوا كبريائي!
هذيانٌ تنشقُّ عنهُ جراحي
وتراجيعُ من صغيرِ شقائي
وصراخٌ مُمَزّقٌ من فؤادي
يتلاشى على ذراع الهواءِ
آه! بُعْداً للحسّ والخمرِ ياسا
قي، وصَبْراً حتى يتمَّ انطفائي!

وقد خلت الطّبعة الجديدة للدّيوان من تصديره بهذا البيت المشار إليه. وكان للشاعر غرض من إثباته في صدر الدّيوان: فهو عنوان رئيسي من عناوين: (آلام).

وقد استعصى عليَّ ردّ النسخة القديمة من ديوان (آلام) من زميلنا الذي استعاره فاحْتجته[٨]، فقد كانت للكتاب مكانة خاصّة عندي. وأسفتُ ثانية حين كنتُ في حاجة إليه، وأنا أُدرّس (الأدب الحديث) وأعتني بشعراء سورية، وأكتب عنهم.[٩]

ولمّا صارت المجموعة بين يدي كان أوَّل ما بحثتُ عنه ديوان (آلام) ووجدته في صدر المجلد الثاني، وقد شغل معظم هذا المجلّد.

لم يعنون الشاعر لقصائد آلام بعناوين موضوعية كالذي صنعه في سائر دواوين المجموعة. واكتفى بأن جعل كل قصيدة نشيداً. ثم رقّم تلك الأناشيد بادئاً بالأول منتهياً بالتاسع والسَّبعين (وهل قَدّر أنه – على أمراضه المختلفة – سيصل إلى تلك السنّ ويتجاوزها إلى السادسة والثمانين؟)

وقدّم نديم محمد لديوان (آلام) بمقدمة قصيرة، قالَ فيهــا : للموسيقى قواعد، وإن كانت غير مقيّدةٍ بلحنٍ. وللرسم خطوط وإن كان غير محصور بشكل. ومثل الشعر كمثل الموسيقــى والرسم فهو وإن كان غير مقيد بفكرةٍ أو محصوراً بتغيير، فإن له قاعدتين هما : اللغة والأوزان، وخطوطاً أهمها :

الفكرة: لتكون الوحدة في الموضوع.

العُمق: حتى لا تطفو الفكرة ليتم الجمع والتوفيــق بيــن أولئــك، فتكــون الديباجة والصَّفاء.

وفــي هذا القسطاســ (الميزان) وزنتُ شعري؛ فــإن بخست فنفســي أبخس، وما أبغي... فهذا سويقي ومنه أَجْدَح!»

فهــذه مقدّمة تفصّل نهــج الشاعر في نظمــه للشعر، وتبيّن رؤيته الفنيّة والنقدية، وتفتح طريقــاً واسعاً يتّسع لــه على خُطته وطريقتــه، وللقراء علــى اختلاف نظراتهم إلى الفن عامة، وإلى الشعر خاصّة.

وقد سجــل الشاعر معاناتــه بعد نشر (آلام) مــن طبقــة أو مجموعة لــم يسمّها، ولكنه أشار إليها : أكثرهم كان ناقداً (سلبياً) لمــا نشر فــي الديوان ابتداءً مــن عنوانه. وقــد أثّرت تلك «الهجمــةُ» على ديوان آلام في نفس الشاعــر، وأزعجته، ولكنّه: تجاوز ذلــك أوّلاً، ومضــى في طريقــه ثانياً. ولم يلبث بعــد سنوات قليلــة أن اجتمع له قَدْرٌ صالح من القصائد، في مجموع (أو ديوان) سمّاه (فراشات وعناكب)(١٠)، وصدّره بهذين البيتين مع كلمات قليلة وراءهما.

حــــوّاءُ يــا خــبــز الـحـيـا
ةِ وســــرّ أســـــرار الـبـقـاءِ
لا تـســجـنـي فـــيّ الإلــــ
ــــه ومــزّقـــي عـنـــه فـنـائـي

إلى الذين يؤمنون وتهوى قلوبهمُ الجنّات، فلا يلقون بها إلى النّيران، والذين يشعرون وتحت ألسنتهم الصدق فتشهد أقلامهم بما تذوق أرواحهم»(١١)

وفــي آخر مقدمة (فراشــات وعناكب) سرد قصيدة بعنوان «عودة» يعلن فيها عودته إلى الشعر أو إظهاره ما اجتمع له من الشعر فَرِحاً بنفسه وبشعره، مقدماً جزأه الشعري الجديد إلى القارئ، وعاد إلى ذكر الكبرياء: «كبريائــه» الذي كان صَدّر به ديوانه (آلام) فقال: ملتزماً البحــر الشعري الذي اختاره لديوان (آلام)(١٢)

بشّر الكرم يا دم الوحي في الكَرْ
مِ وبـشّـرْ فـي غـصـنـه الـتُّـفّـاحـا
بشّر الطيـر فـي مباكرها الشُّهْـ
ــلِ وبـشّـرْ فـي حـقـلـه الـفـلّاحـا
بشّر الفجْرَ عاد وردي إلـى الرو
ضِ، ونـبـه عـطـراً ونَـبِّـهْ صُـداحـا
بهجةُ العين أن تـرى كيف أزهـر
تُ عـلـى الـصّـخـرِ نـرجـساً وأقـاحـا
كيف أرسلتُ كبريائي على الحبّ
فـسـالـت رأسـاً وطـالـت جَـنـاحـاً

هو عمري ترفُّ أشواكه حُسْـ
ـناً وتندى صحراؤهُ أفراحاً
فأمانيَّ حاضراتٌ على الكفّ
عَـوادٍ، ما يتّخذنَ وشاحا...
فجراحي دوارسٌ وعلى الآ
ثارِ مَرّت خيلُ الزمان مِراحاً

والقصيدة صوتٌ عالٍ مغـرّدٌ مزغردٌ؛ ووثبةُ نفسٍ لم يزدها عبث القول الذي جرى على (آلام) إلاّ اعتزازا واندياحاً.

وانظـر قوله بعد ما سبق من القصيدة: ولاحـظ البناء الشعـري المتدفق، والنفس العزيـزة الوثابـة، و(الأنـا) الصاخبة التي عرفت مكانَها ومكانتها

سكرَ اللّيلُ من دمي وصحا قلـ
ـبي فأسكرتُ بالغناء الصَّباحا
مثلُ الطيب في القوارير يُمْسـ
ـنَ، ويُرسلنَ عَرْفَهُ الفوّاحا

وردد كلاماً معجباً عن نفره الذين يومئ إليهـم المجد، وبزاته الكهـول وخلط ذلك بكلام آخر عن نفسه فيـه معاني الكبرياء، وفيـه الإشـادة بشخصه، وسائـر أحواله، وشعره، فهو[١٣]

عبقريّ الإباء لا تستبيح الرّ
يحُ بردي إلا استبحتُ الرّياحا
عربياً تراضى بالقوة الشمـ
ـسُ جِماحاً، ولا يراضُ جِماحا

وتتسع الدائرة لتتجاوزه:

نَفَري أين دارهم؟ يومئ المجـ
ـدُ فتهفو له ظُبى ورماحا
وبُزاثي الكهولُ تكبو جباه الرّ
يحِ من حولهم كلالاً طِلاحا

ويفاضل بين نسوره، وبغاث غيره (الطيور الصغار الضعاف) علـى ملمح بسطه عمر أبو ريشه في قصيدة النّسر:

ذكّرتني بهم بغاث حنا الأفـ
ـقُ عليها فعبأته جراحا
حسبت ملعبي جحوراً وأوكا
راً ولم تأتهِ رحاباً فِساحا
فاستطالت بأظفرٍ من هباءٍ
جَرّدتها على النسور سلاحاً!!

وختـم بلمحة فيهـا نفحـةٌ أخرى من عمر:

كرمُ الحَرْبِ غَضَّ طرفك إشفا
قاً عليها وقتلها إصلاحا!

في مقدمة المجلـد الثاني من الأعمال الشعريـة الكاملـة لنديم محمـد[١٤] ١٥٢ إشارة إلى ما قالـه د.طه حسين في ديوان (آلام)، وفيـه أنّه في مؤتمـر الأدباء العرب الذي عُقِدَ في بلودان سنة ١٩٥٦م كان نديم محمد متفـرّداً بشعـره وبإنسانيّته؛ وكانت شهرته قد وصلت إلى مصر، حتى إنّ عميد الأدب العربـي الدكتور طـه حسين، الذي شـارك في أعمال المؤتمـر قال بعد قراءة (آلام):

«الشاعـر نديم محمد، لـو لم يكتب إلاّ

ديوانه (آلام) الــذي أرسله إليَّ، وقرئ على سمعي فأطربني ما سمعــتُ... لو لم يكتب إلا ديوانه فحَــرِيٌّ بالشعر العربي أنْ يضمّه إلى فُحوله الكبــار، فهو في آلامه بلغ العلوّ الشاهــق، ولم ينخفض إلـــى السفح، وهذا يكفـــي الشاعــر ليكــون شاعــراً « وزادت المقدّمة المذكورة:» وعلـــى العموم فالآراء على اختلاف مقاييسها تُجمع على أن ديوان آلام واحدٌ من أرقى ما طلع به الشعر العربي الوجداني في العصر الحديث.

وكلام د.طه حسيــن على اختصاره دالٌّ على قبــول نديم محمد فـــي الشعراء ذوي الشأن في العصر الحديث. ولاحظ انتباهه إلى أنّ الديوان في قصائده التسع والسبعين لم ينزل عن قمته إلى سفح الشعر، ولم تختلّ شاعريته، ولم تختلف خُطاه.

وحين صــدر «آلام» كان في الشام عدد من الشعراء أصحاب الدواوين، وهم يحتلّون مركز الصــدارة لتلك المدة (النصف الأوَّل من القرن العشريــن، وبعضهم تجاوز ذلك صعوداً في النصف الثاني منه). وقد أصدر د.سامي الدهان كتابه (الشعراء الأعلام في سوريـــة) وسمّى كلاً من محمد البزم وخليل مردم وشفيق جبـــري، وبدوي الجبل، وعمر أبو ريشة وخير الدين الزركلي.

وكان هناك شعراء آخرون جدد (بالقياس إلـــى الأسماء المذكورة) فيهـــم نزار قباني، ونديم محمد.

وكانــت حركة الشعــر العربـــي زاخرة بالتيــارات الشعريـــة، وبأعــدادٍ وفيرة من الشعراء: كان هناك من يتابع «الكلاسيكييّن» من شوقي وحافظ، ومن يتابع خليل مطران ثالــث ثلاثة الكبار في مصــر، وكان العقاد ما يزال يحمـــل (وحده تقريباً) راية مدرسة الديوان، وينظم الشعــر ويصدر الدّواوين، وكان للتيّـــار الرومانســـي ظهــورٌ واضـــح (وأكثرهم ممّن سجل اسماً في جماعة أبولّلو من مثل محمـــود حسن إسماعيـــل وصالح جودة ومختار الوكيل...إلخ).

وكانـــت قـــد نبغــت اتجاهـــات جديدة «أَدْلَجَـــت» الفـــن، ومنه الشعـــر، كالتيارات اليساريـــة، والأخـــرى القوميـــة، والثالثـــة الإسلاميّة، وصار لأكثرهـــا صوتٌ وصَدَى، وأسهمـــت علـــى وجــهٍ أو أكثر فـــي تقديم صفحـــات جديدة فـــي الحركتيـــن الأدبيّة والنقدية.

وحيـــن صدر ديـــوان (آلام) كانت حركة ما عُـــرِف بـ(التجديد في الشعر) قد نشرت راياتٍ لها في بغداد وبيروت وتأثّرت عواصم وبلدانٌ أُخـــرى، وقامت أسواقٌ - ولو مؤقته موسمية - لما عُـــرف بـ شعر التفعيلة، وما تلا ذلك مـــن أسماء ومُسَمّيـــات... ودخلت «الأيديولوجيا» دخـــولاً عريضاً حيث تمكن «كُتّاب» و«نقاد» فُصّلوا تفصيلاً وراجت لهم سوق! لقد كَسِـــبَ كلُّ شيء إلا الأدب والفن - في ما أزعم-!..

ويبــدو - والــكلام مُسْتَشَــفٌّ ممّا كتبه نديــم محمــد - أنّ في من هاجــم ديوان (آلام) «كتّاب» أو «نقّاد» ممّن سار على ذلك النهج.

وبعد أن رفض نديم محمد أن يراوح في دائــرة التقليد والتي قد تفــوح منها عفونة الرّكود التفت إلى الجانب الآخر المستجد، وقال(١٥):

«وتلفَــتُّ... لأرى أن الشعــر في سورية خَلَــقٌ أدركه الانحــلال... وإنه لتطغى عليه أمواجٌ من السّياسة والتجارة فيغرق أو يكاد، هذا إلى أنه مقتصــرٌ يتهيَّب حَرَمَ التحليل، عاشــق سطحيّــة تمنعــه من الغوصــ إلى الأغــوار، إلى أعماق اللّجج، أما ظلال الفن وعبقه المتجلّــي في هذه الظــلال فالتيه المخمــور (عفوكم) المنادي مــن صحراء التفرّد والإبــداع، كل أولئك نشوات يمرُّ بها شعر اليــوم مرّ الكرام بحجــة الانعتاق من المحافظــة والركود، والتبّــرؤ من الخيالية والرجعية، وبذريعة الانصراف عن الزخرف التافه، أو اجترار الترف المنعزل، ودعوات هــي الطويلة العريضة فــي العراك لتركيز أعمــدة الواقعيــة وإعلاء صــرح التقدمية ليســ إلا، على أساس الخفــة والتحرر من قواعــد اللغة، وشــروط الــوزن والقافية، وتلزيم الفكر في مجالاتــه آراءً واتجاهات معيّنة، واستخدامه استخداماً جافّاً مجرداً من جماليــات النصوع والرجاحة والعاطفة والذوق بمعنى ألاّ يكون شعراً، وألاّ يجوز أن يكون شعراً بجلاء ومفهوم هذه الكلمة».

وأصرّ نديم محمد على إتباع النهج الذي رسمه لنفسه «ومن هنا مشيتُ إلى المحاولة: ناجحــةً أو كانــت خاسرة، علّنــي أنبّهُ من المنبّهين (مع المنبهين؟؟) إلى اتجاه الأدب اتجاهاً يزيد في قيمتــه...»(١٦) وأشار نديم محمد إلــى شيء ممّا قيل « «مــاذا أقول؟ أثاروهــا عليَّ ضجّةً عندمــا نشرتُها فصاح فــي سمعي أوّلُ الصائحين لا نريدُها آلاماً، ونريدها فرحاً مسرةً...: وعبَس آخر وقال: إنّ هــذه إلا خمــر وسكر، وأشيــاء أُخر..» وردّ نديم محمد علــى المعترضين وناقش المُفَرّطيــن. ويبدو أن الحملــة على «آلام» كانــت بمعايير أُخرى غيــر المعايير الفنية الصّرف التي يستحقها ديوانٌ متميّز.

وأرجع بذاكرتي إلى مدّرس للّغة العربية فــي الصف التاســع ينصح طلابــه بشراء ديوان جديــد، ويقرأ عليهم منه، منبّهاً على مواطن جمالية يستطيع السامع أن يجد لها قاعدة في معارفه وذوقه وتشوّفه إلى الشعر الجيّد؛ أو العالي الجودة.

وكان في النقاد من يُضيف وتراً أخلاقياً إلى أوتاره، ولكــنّ الغالب كان الانفتاح على النصوص الأدبية العالية من مثل شعر الغزل مــن العصر الجاهلــي والأمــوي، والملّون بأطيــاف الغــزل والنسيــب والتشبيب من

العذرييــن والعمرييّن والتقليدين، وأصحاب المجُون.

لقــد كان (آلام) ديوانــاً للشاعــر نفسه خاصّاً بــه: تجد فيه حالــه ورؤاه وتطلّعه، وواقعيّتــه، وقضايــاه الصغيــرة العابــرة والكبيــرة الحاسمة... (نديــم محمد) أحد شعــراء التيــار الوجداني فــي سورية نعم، ولكنه أيضاً ينافس كبار شعراء هذا الاتجاه، وغيّبــه عن الدراسات الأدبية والنقدية على الوجوه التي تليقُ به أمورٌ منها: خُفوتُ صوت الدّعايــة لشعرائنــا، والتفاتنا إلــى شعراء أقطارنــا المختلفة، وعــدم اهتمامنا بآثار أدبائنا عامة، وشعرائنــا خاصّة. إنَّ تلحين عــدد من قصائــد نزار قباني فــي سورية (نجيــب السرّاج) وفي مصــر (محمد عبد الوهاب) أسهم في تسريع التعريف به خارج القطر السوري، وقدم شعره (وهو ما هو في علــوّ الطبقة والتفرّد) إلى طبقات المجتمع العربي على اختلاف ثقافاتهم وأحوالهم.

ونقــرأ مــن النشيــد الستّيــن لنديــم محمد[١٧]

ملأتني عيني حياءً من الغُرْ
بةِ بين اللّصوص والجبناءِ
فشموخي معفرٌ بهوان الـ
عيش فيهم، ومستذلّ إبائي
أنا عطرٌ فوق الوحولِ، ونورٌ
في غياباتِ وحشةٍ وجفاءِ
صنتُ روحي وصنتُ نفسي عن الرّجـ
سِ فكان العذابُ حسن جزائي!
أنا قلبٌ يدوسه الناس بالحقـ
ـدِ وَعرفٌ يضيعُ في صحراءِ!
أنا سيفٌ محطمٌ في قرابِ
وضميرٌ في ذمّةِ اللؤماءِ!
ذبح الفقرُ أحرفي وجلا غيـ
ـمي وشبّ الحريق في أندائي

إلــى أن يقــول، وهــو يعــدّد شجونــه المتوالية:

قلمي عطّرت أناشيده ريـ
ـفي، وأزهــرت نسوره أجوائي
ويــدي أمرعــتْ سحائبها أر
ضي، وأرست على النجوم لوائي...

وقد ترجم الشاعــر لنفسه ترجمة غير طويلــة، كشفــت عن دنيــا غيــر مستقرّة، وأحوال صحية واجتماعية فيها معاناة، ونفس عزيــزة أبية، وشعر وشاعرية كانا العزاء له، وربّمــا أغْنيا عن الشّقــاء، ووطن تغلغل في وجدانه، ودنيا صوَّرها... وأعاد تركيب أمور كثيرة منها على ما يجب أن تكون... أو على ما يُحبُّ أن تكون.

أناشيــد (قصائــد) ديــوان (آلام) جميعاً نُظمت على بحر الخفيف وهذا منهج لا أعرفه لشاعر من الشعــراء قديماً أو حديثاً، إلا نفراً اشتهروا قديماً بالرجز، وهم رُجّاز العرب، وإن كان فيهم مَنْ ينظم على سائر البُحور.

وبحر الخفيف مثاله من الشعر المشهور قول المعري:

غير مُجْدٍ في ملّتي واعتقادي
نـوحُ بـاكٍ ولا تـرنُّـمُ شـادِ

ووزنه

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن
فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

والبحر الخفيف يُعَدُّ في البُحور الطوال، ويدخل فيها[١٨]- مع الخفيف - في تقسيمات د.عبد الله الطيب:

(١) : المنسرح والخفيف
(٢) : الرَّجَزُ والكامل
(٣) : المتقارب
(٤) : الوافر
(٥) : الطويل والبسيط.

والخفيف بحر يجنح صوب الفخامة، ووزنه رصينٌ قوي ذو رنةٍ ملنخولية، وتسري فيه موسيقى حيّة، «تصبغ غزل الرجال في النساء بما هو حقُّه من فحولةٍ «وتأنّ» وتلطف

وسَرَدَ الدكتور الطيب أسماء نفر من الشعراء القدامى والمحدثين الذين ارتادوا بحر الخفيف فأحسنوا، أو أسعفهم هذا البحر في ما طلبوه.

وقال[١٩] «وخفيفات شوقي معروفة، وقد أكثر المعاصرون من هذا البحر حتى أطلق عليه بعض المتهكمين لقب بحرالشباب، لكثرة ما تنشره الصحف منه»، و«قد اختلفت أغراض هذا البحر بين طرفي الغزل والحماسة، والمديح والهجاء، والرثاء والفخر، لعراقته في الاستعمال (من شعراء كثر) ومع ذلك فقد كان ذا طابع واحد في جميع هذا من: وضوح النغم واعتداله، بحيث لا يبلغ حدّ اللين ولا حدّ العُنف، ولكنّ يأخذُ من كلٍّ بنصيب».

وديوان (آلام) يقدّم للقارئ قصائد تنساب جميعاً على بحر الخفيف الذي يُعين بطوله، وطبيعة تفعيلاته على البوح النفساني والشكوى، والشجن من جهة والتحفّز والتوثب من جهة أخرى. وقد لوّن الشاعر في قوافي ديوانه وأتقن الصلة بين إيقاع البحر وملاءمه القافية للموضوع والوزن معاً.

صدور آثار نديم محمد الشعرية في «المجموعة الشعرية الكاملة» فرصة للمقتدرين من الباحثين لدراسة نتاجه في بحث مطول أو في بحوث متفرقة.

على أنّ التّرجمة الوافية لنديم محمد، المتتبعة لأحواله، وأخباره، وأصحابه، وشؤون حياته المضطربة، وظروفه الصّحية إلى غير ذلك مما يفيد في معرفة كل شيءٍ عنه. ستكون مساعدة للنظر في تراثه الشعري، وتفسير بعض الظواهر فيه، أو تفسير كثير منها.

ودواوين نديم محمد، تقدّم للقارئ العربي - لا شكّ - شاعراً تأخر التعريف به، وتأخر وضعُه مع تراثه الشعري في مكانه من تاريخ الأدب (حركة الشعر) في سورية، وفي سائر بلاد العرب.

الهوامش

١- لا أذكر للطبعة الأولى من (آلام) ناشراً وأظنه كان بلا ناشر مثبت اسمُه على الديوان.

٢- الأعمـال الشعريـة الكاملة - نديم محمد (خمسة أجزاء أو خمسة مجلـدات) - وزارة الإعلام - ج.ع.س - ط١٩٩٦م - الإشراف والتدقيق د هاشم حمادي وحسن قطريب وغسّان حسن.

٣- مدرسة أهلية للذكور - أنشأها من ماله الخاص د.سعيد عودة الحكيم أحد رجال الثورة السورية (ثم أنشأ متوسطة للبنات).

٤- وكان الوحيد، من دفعتي، الذي توجه إلى الدراسة الأدبية.

٥- كان مدرسـاً ناجحـاً، فصيح اللسان، شاعراً، سألتُ عنه من زمـن فأُخبرت بوفاته ولم يكن ممن طفا على السطح - كما يبدو - وقد توفيّ (رحمه الله) في مدينة حماة.

٦- الأعمال الشعرية الكاملة ٢: ٢٨٦.

٧- المجموعة الكاملة ٢: ٨٧.

٨- احتجن الشيء: ضمّه إليه، واحتضن به نفسه. واحتجن مال غيره: اقتطعه وسرقه.

٩- عبرت على هذا زماناً طويلاً في دولة الإمارات (أكثر من مكان).

١٠- المجموعة الكاملة ٢: ٣٠.

١١- شَغل: (فراشات وعناكب) القسم الثاني من المجلد الثاني من المجموعة الشعرية الكاملة.

١٢- المجموعة الكاملة ٢: ٢٧٠ - ٢٧١.

١٣- المجموعة الكاملة ٢: ٢٧٤.

١٤- المصدر السابق ٢: ١٥.

١٥- المصدر السابق ٢: ٢٧٠.

١٦- المصدر السابق ٢: ٢٧٠.

١٧- المصدر السابق ٢: ٢٢٣.

١٨- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها - د.عبد الله الطيب- دار الفكر - ط٢: ١٩٧٠م بيروت - ١: ١٩٢.

١٩- المرجع السابق ١: ١٩٥.

السياب..
أبرز شعراء عصره وأعظمهم شأناً

سامر مسعود*



في عام ١٩٦٤م توفي في المستشفى الأميري في الكويت الشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السياب عن ثمانية وثلاثين عاماً أمضى قسماً كبيراً منها يتعالج من مرض لم يكن له دواء شافٍ في تلك الأيام، وقد عاش حياته فقيراً إلى حد لا يوصف، لا يجد ثمن الأدوية التي تسكن أوجاعه، ولكنه كان أبرز شعراء عصره وأعظمهم شأناً.

وإلى اليوم مازال شعره جميلاً نضراً لم تقو عاديات الزمن عليه، في حين تهاتر شعر سواه من معاصريه وانعدم أي تأثير لهم في الأجيال اللاحقة. ومع أن ديوانه الأول «أزهار ذابلة»

* باحث وناقد.

العمل الفني: الفنانة رفاه كريدي.

حوى قصائد على الطريقة الخليلية، كما حوى قصائد علــى أسلوب التفعيلة الذي كان هو من روّاده، إلا أنــه انصرف لاحقاً إلى شعر التفعيلة الذي سمــي يومها بالشعر الجديــد أو بالشعر الحديث.

والواقــع أن الكتابة عــن السياب كتابة عن الشعر العربي الجديد: منجزاً وتاريخاً إبداعياً. فهــذا الشاعر الــذي مثلت قصيدتــه الذروة فــي التجديد الشعــري، هو المؤسســ الفعلي للقصيدة العربية الجديدة، حتى رأى فيه النقد العربــي، وما جاء من قراءات لشعره في اللغات الأخــرى، الشاعــر الذي حقق للشعــر العربي فــي القرن العشرين إضافــات حقيقية لا تزال منذ نحو نصف قــرن من الزمن موضع اهتمام الدارسين والنقــاد الذين وجدوا فيها، ومازالوا يجدون أبعــاداً جديدة تقع فــي صلب الإبداع الشعري. وإذا كانت قصائده الكبرى قد تشكلت وانطلقت من ذلك الإحساس بالانتماء إلى وطن، فــإن روح هذا الانتماء ستتصاعد عنده لتتشكل في منظــور قومي الرؤية والجــذور والموقف، يعبــر من خلالها عــن هموم الإنســان العربي وتطلعاته.

وقــد وجد هذا الإنســان نفسه، كما تمثلته قصيدتــه، بين حلمين: حلم البراءة الباحثة عن الرجــاء والأمــل، وحلم الإنســان الثوري الذي يتخــذ من التضحيــة في سبيــل القضية التي يتبنى، وبها يؤمن، عنواناً لانتصاره، متمثلاً في هــذا المنحنى الشعري الــذي اتخذ الأسطورة التموزية التي سيبني أهم قصائده على ما حملت مــن رؤيا، جاعلاً من رمز تلك الأسطورة تمثيلاً لوجــود إنساني حــي يتحرك بوعيــه الجديد، الذي هو وعي الإنســان صاحب القضية، حتى عده غير ناقد ممــن تناولوا شعره بأنه الشاعر الذي عقد العلاقة، في أعلى ما لها من المراتب الشعرية، بين أبديــة الرمز الأسطوري وحركية الحياة المندفعة بفعل الإنسان الحامل مصيره أنى توجــه، فإذا الموت يقتــرن عنده بالولادة، والانبعــاث بروح متجددة، والفــداء بالانتصار. وإذا رموزه تحمل المعانــي الدالة على انتصار الحياة على المــوت، وتعزيز انتصــار الإنسان فيها وجوداً وقضية عبر رؤيا الخلاص.

وقد صادف ذكرى وفاة السياب صدور كتاب عنه فــي بيروت للناقد العراقــي الكبير ماجد السامرائي بعنوان «بــدر شاكر السياب.شاعر عصر التجديد الشعري» (مركز دراسات الوحدة العربيــة). وكان السامرائــي قد أصدر في عام ١٩٧٥م «رسائــل السياب» أي الرسائل التي كان السيــاب قد بعث بها إلى أصدقائه في الخارج، خاصة في بيروت، فــي مراحل بالغة الصعوبة في حياته، كان خلالها يشكو المرض، كما يشكو الطفر.. وكل هذا واضح في الرسائل.

السامرائــي يرى أننــا إذا تتبعنــا المسار التطــوري لتجربة بدر شاكــر السياب الشعرية سنجدهــا تتشكل مــن ثلاث مراحــل أساسية، وهي مرحلة البدايــات الرومانسية، ثم مرحلة الانتقال إلى الواقعية والانشغال بهموم الإنسان،

مع ملاحظة تطور هذه الرؤية لتغدو رؤيا كونية يتداخل فيها الواقعي مع الأسطوري في سياقات شعرية جديدة، ثم تأتي مرحلة العودة إلى جيكور (مسقط رأس الشاعر في جنوبي العراق) التي ستتداخل مع مرحلة المرض لتشكل بعداً آخر في تجربة الشاعر، وانفتحت فيها قصيدته على زمنين: زمن الحلم الذاهب متمثلاً بالماضي المستعاد، وزمن المعاناة، حيث الألم الجسدي والوجع الروحي.

وإذا كانت مغامرة السياب الشعرية قد تحددت أكثر ما تحددت بالأسطورة، ومن خلال الأسطورة بما انفتحت عنه من رموز دالة، فذلك لأنه وجد فيها من عناصر التخيل ما ساعده شعرياً على أن يدمج الحلم بالواقع، مشكلاً من عملية الدمج هذه رؤيا زمانية مفتوحة على الواقع والإنسان والتاريخ، ومتصلة الجوهر بهذا الإنسان من جانب، وموصولة بما هو «تخييل موضوعي» من جانب آخر وهو ما جعل تخيلتهُ الشعرية تلقائية في تكوين الصورة الشعرية، وبنائها على أساس شكلت فيه إعادة بناء الواقع وذلك بما كان له منها من طرائق التعبير التي أصبحت من الخصائص الفنية لقصيدته.

من جانب آخر، كان السياب في علاقته بالأسطورة قد مثل شعرياً رهانه على الواقع، فاتحاً طريق الإرادة الفاعلة. وبتماهي الإنسان وجوداً مع الأسطورة، والبطل الأسطوري من خلال ما تفتحه هذه الأسطورة من آفاق جديدة أمام الروح المبدعة، لذلك لا غرابة في أن يجد صورة الإنسان الجديد تتماهى مع صورة الرمز التموزي كما حملته الأسطورة البابلية سواء من زاوية اتصاله بالعالم أو في نطاق المعنى - الدلالة، وقد جمعهما فيه رمزاً.

أعين البندقيات يأكلن دربي
شرّعٌ تحلُم النار فيها بصلبي
إن تكن من حديد ونار فأحداق شعبي
من ضياء السماوات، من ذكريات وحب
تحمل العبء عني فيندى صليبي، فما أصغره
ذلك الموت، موتي، وما أكبره.

ونجد وعيه يتحول إلى وعي بقريته جيكور وإدراكه بتاريخية البعد الإنساني لكل منها :

جيكور مُسي جبيني فهو ملتهب، مُسيه بالسعف والسنبل الترف/مدي علي الظلال السمرَ تنسحب ليلاً، فتخفي هجيري في حناياها.

وبمقاربة نقدية تحليلية لسيرته، كما تتبدى من واقع شعره، نجد أن ما كان «واقعاً» لم يكن بعيداً عن مكون رؤيته الشعرية، كما أن رؤيته الشعرية هذه لم تكن لتتم كلحظة إبداعية، بعيداً عن حالة الاتصال بالواقع والتفاعل معه، ولعل أبرز ما يتجلى في هذه القصيدة من «معالم سِيَرية» ما يتمثل في امتلاك حضور «الذات» و«الآخر» بوصفهما قوتين من قوى «الذات الشاعرة» في تدوين هذا البعد السيري.

ثلاثون انقضت، وكبرتُ، كم حبٍ وكم وجد
توهج في فؤادي،
غير أني كلما صفقتْ يدا الرعد

مددت الطرف أرقب، ربما ائتلق الشناشيل

فأبصرت ابنة الجلبي مقبلة إلى وعدي

وانطلاقاً من هذا، نجد الشاعر يحول أحكامه الناقدة إلى مجال الممارسة الشعرية، لنجد «الآخر» و«موقفه» و«الموقف منه» المحرك لفاعلية الذات الشعرية عنده. أما الأسباب والدوافع إلى ذلك فغالباً ما تكون متقاربة، إن لم نقل إنها واحدة ونجد في هذا المسار السيري أن الآخر - لا الشاعر-، هو سبب الخطأ، ومرتكب فعله، ليدينه بكلمات مجافية وعبارات بالغة القسوة، كما في قصيدته «أحبيني»:

وما من عادتي نكران ماضيّ الذي كانا،

ولكن كل من أحببت قبلك ما أحبوني

ولا عطفوا عليّ، عشقت سبعاً كنّ أحيانا

ترُف شعورهنّ عليّ، تحملني إلى الصين

وأجلسهن في شرف الخيال.. وتكشف الحُرُقَ

ظلالاً عن ملامحهن: آه فتلك باعتني بمأفون

لأجل المال، ثم صحا فطلقها وخلاها

(...) وتلك؟ تلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها،

شربت الشعر من أحداقها ونعست في أفياء

تنشرها قصائدها عليّ: فكل ماضيها

وكل شبابها كان انتظاراً لي على شط يهوم فوقه القمر

وتنعس في حماه الطير رش نعاسها المطر

وغيّبها ظلام السجن تؤنس ليلها شمعة

فتذكرني وتبكي، غير أني لست أبكيها.

في قصائد مرحلة المرض لم يبق النهج الأسطوري للشاعر على ما كان عليه قبلها، فإذا كان الموت قد مثل عنده تجلياً آخر للحياة، فإنه في قصائد مرحلة المرض سيمثل بعداً لرؤيا العدم. فقد انغلق أمامه ذلك الأفق الأسطوري الذي حمل البشارة بالتجدد والخصب.

فالحياة التي قدمت نفسها في صورة الموت/الفداء، التي تعود وتتجدد بعودة الفادي الذي يظهر في تجلياته الأسطورية من خلال ولادة جديدة للحياة محملة بمعاني الخصب والنماء ستتحول في مرحلة المرض صوراً للموت الذي راح يقرع عليه أبواب الحلم والواقع، ليغيب تموز من أفق هذه الرؤيا غياباً شبه تام.

ويعتمد العديد من القصائد التي كتبها الشاعر في هذه المرحلة على المونولوج الداخلي الذي يعتمد بدوره على تداعي الأفكار والخواطر، والكلمات متواترة المعنى التي أصبحت بذاتها تشكل رموزاً قائمة الدلالة، وإن في حياة الشاعر الخاصة، كما نجد صوره الشعرية تأخذ امتدادات تشكلها المشهدي بين ذاته والأشياء، وسيتحول الكثير من تجارب حياته الماضية إلى ما يقترب به من تلك الأصول الأسطورية التي تتسرّب تأثيراتها.

لقد سمى بعض النقاد مرحلة الشاعر هذه «بالمرحلة الأيوبية» لا لأن بعض قصائده اتخذت من عذابات أيوب (الذي نال الإثابة بنعمة الخلاص من طول معاناته وتقبله المحن)

عنواناً لها ورمزاً دالاً على طبيعة معاناته تحت وطأة المرض وحسب، بل لانفتاح هذه القصائد على معاناة شاقة وجدت تمثيلها في هذا الرمز الذي سيغني أبعاده بالكشف عن عذاباته هو، وقد واجهها بشيء من صبر أيوب:

لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهما استبد الألم
لك الحمد إن الرزايا عطاء
وإن المصيبات بعض الكرم
ألم تعطني أنت هذا الظلام
وأعطيتني أنت هذا السحر
شهور طوال وهذي الجراح
تمزق جنبيّ مثل المدى
ولا يهدأ الداء عند الصباح
ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى

وكان هذا التوجه السكوني الدعاء ناجماً عن حرج الحالة التي يعيشها، والتي لخصها بقوله في إحدى قصائده:

مُمض ما أعاني: شُل ظهر وانحنت ساق
على العكاز أسعى حين أسعى، عاثر الخطوات مرتجفا..

وتبرز في قصائد مرحلة المرض هذه ظاهرتان تتمثل الأولى منهما في الزمن والوعي بدءاً بينما تمثل الثانية يقظة الذاكرة عنده .

لا يشير ماجد السامرائي في كتابه إلى تأثيرات واضحة للتوراة والإنجيل في مرحلة السياب هذه، وفي شعره بوجه عام. أي إن مراجعة لشعر السياب كفيلة بإقناعنا بأن معاني ومفردات كثيرة للسياب مأخوذة من التوراة والإنجيل مثل (الفادي) و(الفداء) وما إلى ذلك وهناك رمز توراتي هام عنده هو أيوب وسفره وهو سفر يتحدث عن متاعب صحية خطيرة تعرض لها أيوب والشاعر يستوحي هذا السفر الذي يجد نفسه فيه وهناك الكثير من الرموز التوراتية والإنجيلية استوحاها السياب أيضاً. كما نلاحظ أن السياب تأثر بالأساطير الأجنبية مثل «تموز» وهو إله الخصب القديم الذي يؤدي دوراً بالغ الأهمية في شعر السياب لقد كان السياب متأثراً أشد التأثر بعناصر ثقافية أجنبية لم يشر إليها السامرائي في كتابه.

ويعرض الباحث في كتابه لدور «المكان» في شعر السياب ولكل ما يتصل بالمكان وسنجد العلاقة بالتاريخ تتأطر عنده بإطار الانتماء إلى مكان (وطن) يصنع طبيعته الزمانية، والعلاقة بهما، المكان والزمان، نابعة من الشعور بالغربة (في البلد الغريب) والإحساس بالحنين إلى وطن زرع الألفة في قلبه، فإذا هو يصارع الغربة بقوة الحنين في نفسه روحه إلى بلده.

وعلى الرمال، على الخليج
جلس الغريب يسرّح البصر المحير في الخليج
ويهد أعمدة الضياء بما يصعّد من نشيج:
أعلى من العباب يهدر رغوُه ومن الضجيج
صوت تفجّر في قرارة نفسي الثكلى: عراق !
كالمد يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون
الريح تصرخ بي: عراق!
والموج يعوّل بي: عراق

عراق، ليس سوى عراق!
البحر أوسع ما يكون
وأنت أبعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق!

ثمة جوهر لقصيدة السياب ظل قائماً في كل ما كتب، وهو أن القصيدة التي تبدأ في العادة، من حالة، أو موقف ومن رؤية، زمانية كانت أو مكانية، نجدها تكبر بصورها المشهدية، فضلاً عن معانيها، بما حقق التعبير المتميز عن الفكرة، أو التجربة، متزامناً مع تمثيلاتها، أي جعل القصيدة، قصيدته، متحققة شعرياً من خلال وعيها لذاتها فناً مبدعاً.

لقد كانت روح العصر الذي عاشه السياب الشاعر وكتب فيه ما كتب، عصراً متمرد الروح، تقدمي النزعة والتوجه، ثوري الفعل والإرادة كان له أن انعكس عنده شعرياً في مستويين: مستوى الموقف الشعري، ومستوى المعطى الشعري. وكانت عملية التقدم بهذا كله، من قبله شاعراً قد تمت على أسس واضحة.

تأسيساً على هذا جاء شعر السياب ليمثل الحدث الإبداعي الحقيقي لذلك وكان في تجديده، وفي المعطيات المتحققة من قبله، ومن خلال هذا التجديد، التعبير الأشمل والأكثر خصوصية عن «روح الحرية» فهو الشاعر الذي عاش ما أسمته الأدبيات ذات المنظور السياسي «عصر الثورة والتغيير»، الثورة التي كان الشعر الجديد أحد وجوهها الحية وبامتياز، كما كان مبدأ التقدم في وعي الحرية عند الشاعر أساساً في تكوين منظوره الشعري ومنطلقاً له في بناء رؤيته الشعرية.

لقد كان السياب شاعراً من غير اليسير أن يتكرر صوته في عصرنا. أما رسائل السياب فتعكس السياب الإنسان والشاعر. وكان السياب شخصاً مزاجياً، ولذلك فإن «الحالات الآنية» و«المواقف الشخصية» غلبت على كثير منها بشكل غلب فيه الانفعالُ والموضوعية. وليقينه بأنه كان يكتب «شيئاً خاصاً» فقد أطلق العنان لهواه في البعض منها، فتكلم بما يرضيه وأحياناً بما يرضي من يكتب إليه وقد غصَّ العديد من رسائله بالمواقف الشخصية أو العامة، بينما حفل قسم آخر منها بالأسماء المقترنة بسخط أو غضب منه عليها. ويلاحظ القارئ أنْ لا التواء لديه في عبارة، ولا احتيال في صياغة، إنما جاءت جميع الأشياء بمباشرة تصل حد الإسراف. فكما كان مباشراً في حياته، كذلك هو في رسائله هذه التي لاشك أنها مفيدة لدارسي شعره ودارسي سيرته على السواء.

جينكيز آيتماتوف..
إضاءات صغيرة على أعماله الكبيرة

سامر أنور الشمالي ❊



فرض (آيتماتوف) نفسه بقوة عبقريته في خريطة الأدب السوفييتي في مدة وجيزة. وهو من القلة الذين وضعوا اسم بلدهم الصغير على خريطة الإبداع العالمي. ومن الأدباء الذين نالوا شهرة عالمية منذ عملهم الأول، فما إن صدرت روايته الشهيرة (جميلة) ١٩٥٨ حتى استحوذت على إعجاب الشاعر المعروف (لويس أراغون) الذي قال فيها بعد ترجمتها إلى الفرنسية بعام واحد: (هذا أجود ما قرأته عن الحب).

يستذكر بطل الرواية طفولته فيروي

❊ أديب وباحث سوري

بطريقة رقيقة قصة جميلة التي فرت مع الرجل الأعرج من القرية لأنهما عزما على العيش معاً مهما بلغت التضحيات، فالمرأة متزوجة من جندي في الجبهة لم تره منذ سنوات، والرجل شديد الفقر لا يملك غير القميص الذي يرتديه، إضافة إلى صوت شجيّ استحوذ على مشاعرها، وزلزل عواطفها. وهذه النهاية تختلف عن نهايات الحب الشهيرة في عالم الأدب، وبعيدة أيضاً عن أدبيات الحزب الحاكم بشأن العمال والفلاحين وزوجات الجنود.

ورغم ذلك انتزع الأديب البارع بكتابه (قصص الجبال والسهوب) جائزة (لينين) لعام ١٩٦٣م وبعد سنوات خمس حصل على جائزة الدولة التقديرية في سن الأربعين، وهو عمر مبكر للحصول على أكبر جائزة أدبية في الاتحاد السوفييتي!.

أما روايته الثانية (شجيرتي في منديل أحمر) ففيها قصة حب لا تخلو من المغامرة والتمرد. فالفتاة صاحبة المنديل الأحمر تفر مع سائق الشاحنة قبل زفافها من الرجل الذي اختارته أسرتها تبعاً للتقاليد، ولكن السائق يخونها مع أخرى، ويمنعها كبرياؤها من البقاء معه فتهرب للمرة الثانية مع طفلها، ثم يكون الاجتماع مصادفة بعد سنوات، وترفض العودة إلى والد طفلها رغم أنها لم تكرهه يوماً، ويصدم الأب بأن طفله متعلق بزوج أمه الذي رباه ولا يأبه إليه. ونجد أن قصة الحب هذه مختلفة عن قصص الحب السائدة أيضاً.

والكتابة بطريقة مغايرة عن الحب، وتناول المشاعر الإنسانية ومعالجتها من زوايا جديدة، فضلاً عن الغوص عميقا في ظلال المشاعر الحميمية بأسلوب مرهف بالغ الحساسية، وبسيط رغم تكثيفه الشديد، ميز عشاق (آيتماتوف) الذين يقعون في الحب بعفوية، ويعيشون الحب بالفطرة بعيداً عن الغزل المصنوع وترفه المزوق. وغالباً ما يمنون بالفشل، ويعانون من الإخفاق. فالحب الذي كان حزيناً خلّف في نفوسهم المزيد من الحسرة والكآبة، ولكنه أرهف إحساسهم بالتأكيد.

وبذلك سحر الكاتب البارع قراءه الذين عاشوا على صفحاته مع شخصياته العاشقة التي عرفت الحب وعاشته بكل تفاصيله الصغيرة.

-٢-

على الرغم من أن روايات (آيتماتوف) الأولى حققت نجاحا باهراً، وجعلت منه كاتباً شهيراً، فإنه حاول تطوير عوالمه كي لا يكرر نفسه في أعماله اللاحقة، ونجد هذا لدى تحوله إلى معالجة مشاكل وهموم الفقراء - مع العلم أن أبطال روايته السابقة من الفقراء أيضاً - ولكنه بدأ يكتب من زاوية اجتماعية وليست فردية، وبذلك رصد الواقع المأسوي

للمسحوقين والمهمّشين، حيث يرصد معاناة الطبقة الأشد فقراً في المجتمع. وإن لم تخل تلك الروايات من قصص حب عاشها أبطالها أو رووها كحكايات، وهي تمر ضمن سياق السرد كإضاءات جميلة باهرة توشي السرد وتزينه.

وظهرت هذه الطريقة الجديدة في الكتابة بشكل جلي مع رواية (وداعاً يا غولساري) التي كتبها بالروسية مباشرة، فجمهوره الروائي الشهير اتسع، وموضوعاته أصبحت أكثر تعقيداً وبحاجة إلى لغة أكثر عراقة في عالم الأدب. فمن قبل كان يكتب رواياته بالقرغيزية - وهي من لغات وسط آسيا القريبة إلى التركية والتركمانية - ثم يترجمها بنفسه إلى الروسية التي أتقنها إلى جانب لغته الأم، فقد درس في سن مبكرة في المدارس الروسية واكتشف الأدب الروسي وتأثر به، لاسيما أنها كانت اللغة الرسمية للاتحاد السوفييتي التي كانت قرغيزيا إحدى جمهورياته.

ولكن هذا لا يعني أنه تنكر للغته الأم، بل كثيراً ما تحدث عنها بافتخار وحب: (لقد ربت جدتي في نفسي، وربما دون قصد أو عمد، حب لغتي الأم - يكتب آيتماتوف في ملاحظات عن نفسي - لغتي الحبيبة! فقط الكلمة الحبيبة، التي وعيتُ وفهمتُ في الطفولة قادرة على إرواء الروح بالشعر، المولود من تجربة الشعب مفجراً في الإنسان ينتابه الاعتزاز الوطني، ممكناً إياه التمتع بتعدد مستويات ومعاني لغة الأجداد. الطفولة هي نواة شخصية المستقبل. في الطفولة بالذات تتراكم المعرفة الحقيقية بأصول الكلام، آنذاك بالذات ينشأ الإحساس بالترابط مع الناس المحيطين، مع الطبيعة المحيطة، مع الثقافة الوطنية).

❁ ❁ ❁

بعد تراجع دور الحب قد يصبح دور المرأة هامشياً بالنتيجة، فالضوء مسلط على المشاكل الأكثر إلحاحاً والأشد خطورة. ففي الرواية الشهيرة (النطع) يلتقي بطل القسم الأول مصادفة بامرأة لطيفة مرات قليلة، ويتبادلان الرسائل، ثم تختفي من حياته وكأن شيئاً لم يكن، ولا يعول البطل كثيراً على هذه التجربة الفاشلة.

ولعل رواية (عندما تتداعى الجبال) هي الرواية التي أراد كاتبها تقديم قصة حب باهرة مستعيداً نجاح رواياته الأولى، ولكن غلبت على هذه الرواية الصنعة، لاسيما أن القضايا والمشاكل الإنسانية طغت على الجانب العاطفي، رغم أن بطلها يبدو من أكثر الرجال عناية بالحب والمحبوبة من بين أبطال الروايات جميعهم، فهو الرجل الحالم الذي أراد إحياء أسطورة حب قديمة وإن كانت حزينة - ككل قصص الحب المؤثرة في عالم الأدب والأساطير والحكايات - بنقلها من أفواه الريفيين في السهوب إلى

حنجرة المغنية الأوبرالية على المسرح. ولكن المحبوبة ذات الصوت العذب تتنكر لهذا الحلم البهي وتفر إلى المال والشهرة. وعندما يجد المرأة المخلصة والوفية يموت دونها مخلفاً جنيناً في أحشائها، فلا مجال لأن يعيش العشاق قصة حب سعيدة أبداً. والجنين هنا هو رد (آيتماتوف) على الإخفاق والفشل في الوقت الحاضر، حيث تتعلق الآمال بالغد الذي يفترض أن يكون الأجمل لأن الحياة تسير دائماً إلى الأمام على هذه الأرض الجميلة رغم كل المعوقات والحواجز في الدروب.

وثمة أمل مشرق ونور يلوح من البعيد رغم طوفان الكوارث التي تجرف في طريقها كل ما تجده أمامها، فـ(آيتماتوف) يحتفي في رواياته بالغد رغم أنه معروف بروايته الحزينة. حيث نجد في رواية (الكلب الأبلق الراكض على حافة البحر) أن الصيادين الثلاثة اختاروا الموت غرقاً لإنقاذ الطفل الباقي على القارب، فقد علموه الصيد ويستطيع إكمال مسيرتهم، ويورثها لأولاده أيضاً.

أما موت الطفل فيعني إغلاق باب الأمل تماما، ففي (السفينة البيضاء) يموت الطفل البالغ من العمر الحادية عشرة، ولم يعد لجده الذي يحفظ أساطير الأجداد من يستمع إلى حكاياته، وبذلك ينتهي الأمل ببقاء ميراث الأجداد أيضاً.

-٣-

لاشك في أن (آيتماتوف) سليل عائلة القصاصين - كل روائي كبير ينتمي لهذه العائلة - قد وجد في الحيوانات الكائنات الحية التي يمكن تحميلها أفكاره وآراءه بطريقة مناسبة لا تخلو من التشويق والمتعة والتسلية للذين لا يطمحون إلى الغوص في الطبقات العميقة للنص وفهم المرامي البعيدة له. وهذا أسلوب عرفه القصاصون القدماء منذ العصر الشفهي حين كانت الأساطير والحكايات تروى لعظة وتسلية الكبار والصغار.

وقد تميز هذا الكاتب الماهر في أعماله الروائية بإفساح المجال للحيوانات لتلعب أدواراً أساسية في تشكيل الحدث وتطوره، بل ومنحها فرصة مشاركة الإنسان أدوار البطولة، كما في رواياته: (وداعا يا غولساري- النطع- عندما تتداعى الجبال).

وفي روايات أخرى لا تلعب الحيوانات أدوار البطولة الكاملة إلى جانب الإنسان، ولكن حضورها يثري العمل الأدبي ويغنيه بالأفعال الظاهرة، أو المعاني الضمنية، كما في (السفينة البيضاء- ويطول اليوم أكثر من قرن - الكلب الأبلق الراكض على حافة البحر) ونجد أن الروايات التي لا تعتمد على حيوان واحد ينهض بأعباء البطولة إلى جانب الإنسان تتعدد فيها الحيوانات التي

تقوم بــأدوار صغيرة، ولكنها بالنتيجة مؤثرة، ولهــا أهميتها الخاصــة، ولا يمكن الاستغناء عنها لما تضفيه علــى الرواية على صعيدي المعنى والمبنى.

والاعتماد على الحيوانــات لتلعب أدواراً أساسيــة، أو مساندة، سمة غيــر شائعة في السرد الروائي الحديث - وإن عادت بأصولها إلى القصــص في مراحله الأولــى - فلا نعثر عليها لدى المؤلفين المعاصرين على اختلاف مشاريهم، وبذلك أصبحت هذه السمة علامة فارقة في معظم أعمال (آيتماتوف).

ولهذا الخيار الفني الذي سار عليه الكاتب البــارع أسباب عــدة، لعل من أهمهــا تأثره الكبير بالبيئة الطبيعيــة والاجتماعية حيث ولد وعاش على أرضــ قرغيزيا الجبلية في مجتمــع رعوي قائم على الصلة المباشرة مع الحيوانات المدجنة، دون أن تكون الحيوانات المتوحشــة بعيــدة عنــه، فالحيوانات جزء لا يمكــن إغفاله في حيــاة الرعاة المتنقلين طــوال فصول السنــة مع مواشيهــم لتوفير الكلأ والماء. كما يجاورون الحيوانات البرية العاشبة، والمتوحشــة المفترسة، إضافة إلى امتهانهم الصيد. وبذلك كانت الحيوانات من أسباب استمرارهم في الحياة، فهم يعتمدون في غذائهــم علــى لحومها وحليبهــا، ومن جلودها يصنعون الملابس والأحذية والخيم وأثاثها البسيط.

والرعاة أبناء الأرض الذين تحدد طريقة عيشهــم تبعاً للظرف الجغرافي الذي اختاره القــدر لهم، وهذا عائد إلى معرفتهم بالحياة ومحاولة فهمها واكتشــاف أسرارها، فكانت لهم أساطيرهــم وحكاياتهم التي اختار منها (آيتماتــوف) ما يناسب رواياته بعد معالجتها بأسلوبــه، أو ابتكر على منوالها، وطعم سرده بما يناسب موضوع كل رواية. وهذا التأثير لا يقتصر على الموضوعات، بــل شمل أسلوبه ذاته، فقــد حافظ على ســرد مشغول بنسج حكايــة مشوقــة لا تخلو من عبــرة متوارية ومقولة إنسانية نبيلة.

ويجــب ألا نغفل أن (آيتماتوف) درس في ثانوية البيطرة، والمعهــد الزراعي، ثم عمل مهندسا زراعيــاً. أي أن علاقته بالحيوانات لم تقتصر على المشاهدة فحسب، بل عززها بالدراسة العلمية والعمــل الميداني، أي إنه لدى كتابته عن الحيوانات كان يمتلك خلفية علميــة، فضــلاً عــن المخالطــة الواقعية. وهــذا غير كاف بالتأكيد لولا طبيعة المؤلف النفسيــة، حيث اهتــم بالحيوانات، ووجدها صالحــة لأن يكتب عنها ويعالــج أفكاره عن طريق الحديث عنها أيضاً.

ثم التحــق (آيتماتوف) بالــدورة الأدبية العليــا في موسكو عــام ١٩٥٦ وبعد التخرج عمــل رئيساً لتحرير مجلة (قرغيزيا الأدبية) ثــم مراسلاً لجريدة (برافــدا) في قرغيزيا.

وممارسته للعمل الصحفي لسنوات مكّنته من التواصل المباشر مع المحيط البشري أيضاً، ومع مختلف الشرائح والطبقات الاجتماعية.

-٤-

اللافت للنظر أن جميع الحيوانات في روايات (آيتماتوف) ضحية لجور الإنسان، سواء كانت داجنة في الحظائر والمراعي، أو متوحشة طليقة في البراري، وهذا يكون تبعاً لمؤثرات خارج البيئة الرعوية المسالمة، ونتيجة لانتشار النمط الاستهلاكي للحياة المعاصرة الذي وصل إلى القرى البعيدة عن مركز المدينة التي هي المصدر المريب الذي يهدد الحياة الهادئة التي يعيشها الرعيان في منطقتهم الوادعة لولا دخول الغرباء مباشرة، أو عن طريق نشر طرقهم في الحياة.

والخطر القادم يتجلى في السعي للقضاء على الحيوانات بالصيد، للحمها اللذين (السفينة البيضاء) أو كمصدر للتجارة والمال (النطع) أو لمجرد اللهو والتسلية (عندما تتداعى الجبال) ففي الحالات جميعها ثمة حيف يقع على الحيوانات بطرق مختلفة، والمصدر الوحيد هو الطمع البشري، والاستهتار بتوازن الطبيعة.

ولا تخلو تلك الروايات من البطل الأول الذي يقوم بدور البطولة على الصعيد البشري إلى جانب الحيوان، وهو الذي يحمله الكاتب أفكاره ووجهة نظره، لهذا يكون إيجابياً في نظرته للحيوان وتعامله معه، وإن لم تربطه بالحيوان الذي يشارك في بطولة الرواية علاقة مباشرة ويومية، كالحصان في (وداعا يا غولساري) وذلك بسبب طبيعة الحيوان النافرة كالغزلان في (السفينة البيضاء) أو طبيعة الحيوان المتوحشة كالذئاب في (النطع) والنمر في (عندما تتداعى الجبال).

❁ ❁ ❁

من الجدير بالذكر أنه عندما يختار (آيتماتوف) حيواناً بذاته ليحمله دوراً في رواياته لا يؤنسن ذلك الحيوان، ولا يمنحه القدرة على الكلام مع البشر، أو فيما بينهم على سبيل المثال، بل يستبطن ذلك الحيوان ويحاول سبر داخله بالجدية ذاتها التي يعالج بها شخصياته البشرية، فهو لا يعد الحيوان كائناً حياً هامشياً على الأرض، ويكتب عن أحاسيسه ومشاعره بطريقة تثير الإعجاب، ويدع الحيوان يقدم نفسه للقارئ دون قسره على القيام بدور لا يناسب طبيعته، وبذلك يأخذ الحيوان دوره الطبيعي في الرواية كشخصية رئيسية لها حضورها وتأثيرها، فهو شريك لبطل الرواية المتعاطف مع الحيوانات وموازي له على أكثر من صعيد، وظل ومرآة له في أحوال عدة. لهذا يصبح الحيوان رغم إمكانياته المتواضعة حاملاً لأفكار المؤلف بطريقة ماهرة تخلو من الفجاجة في تقديم

الأفكار حيث يجعل من الحيوان شخصية قريبة من القارئ سواء كان حيواناً أليفاً أو برياً أو مفترساً.

وبذلك تصبح النظرة إلى الحيوان والتعامل معه مقياساً لإنسانية البشر لدى تعاملهم مع الطبيعة، وهذه الخاصية تميز أكثر روايات (آيتماتوف) المعنية بالعالم بكل ما فيه، ولكنه عندما يتحدث عنه يختار منطقة صغيرة من العالم، وهي غالباً قرية صغيرة منسية في مناطق قرغيزيا الجبلية البعيدة عن صخب المدن، ولكنها غير منقطعة عن العالم، ولاسيما بعد التطور الكبير الذي أحدثته وسائل الاتصال من قطارات واتصالات، وصواريخ فضائية أيضاً.

في رواية (ويطول اليوم أكثر من قرن) يلجأ الكاتب للمرة الأولى إلى استخدام أساليب قص الخيال العلمي، فالكاتب رغم شغفه بمكان صغير على هذه الأرض أراد بخياله التواصل مع الكائنات العاقلة في الكواكب الأخرى.

-٥-

نعيد تأكيد أن (جينكيز آيتماتوف) جعل من الحيوانات التي كتب عنها في معظم أعماله مرآة حية للوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، منذ روايته الشهيرة (وداعاً يا غولساري) التي برز فيها الحيوان منذ العتبة السردية الأولى، فـ(غولساري) هو اسم للحصان.

وأسماء الحيوانات في الروايات هي ألقاب أطلقها السكان المحليون بحسب صفات الحيوان، سواء أكان أليفاً يربونه في حظائرهم، أم متوحشاً يراقبونه من البعيد.

وداعا يا غولساري: الحصان (غولساري) أي: الزهرة الصفراء - وردة الحب، بسبب لونه الأشقر.

النطع: الذئبة (أكبارا) أي: العظيمة، بسبب قامتها الطويلة. والذئب (تاشينار) أي: كسار الحجارة، بسبب صلابة فكه الذي يطحن العظام.

عندما تتداعى الجبال: النمر (جابارس) أي: السهم، بسبب سرعته في الجري.

بين القراءة والكتابة

❁
عبد الباقي يوسف



العلاقة بين القراءة والكتابة، هي علاقة قويمة، حيث على الأغلب تقوم القراءة بعملية فرز تتمخض عنها الكتابة، القراءة تكون حافزاً إلى الكتابة، والقراءة الجيدة، تتحول إلى حافز إلى كتابة جيدة، فالذين يقرؤون كتباً متواضعة، قد يترك ذلك عليهم أثراً سواء في تكوينهم الثقافي، أو في إبداعهم إذا كانوا مبدعين، وكذلك الأمر بالنسبة للكتب الجيدة التي تترك أثراً جيداً على القارئ وعلى المبدع معاً.

❁ أديب روائي.

مع إيزابيل الليندي

ترك غابرييل غارسيا ماركيز أثراً جلياً على مجمل نتاجات إيزابيل الليندي، وهي لاتخفي أثره على أدبها، حيث تجلو واقعيته السحرية في أعمال هذه الروائية.

في صبيحة يوم ١٨ فبراير ٢٠١٤م، أتممت قراءة قصة /الزائر/ لإيزابيل الليندي، وأنا أجلس على السطح المشمس في بيتي، وعقب قراءتها، هاهي تنتمي إلى سلسلة تلك الأعمال التي تفرض على المتلقي أن يقول شيئاً عنها بما تتركه لديه من انطباع.

هكذا من ضمن قراءات متعددة، عادة تستوقفني قراءات كما هو الأمر بالنسبة لهذه القصة.

إيزابيل الليندي، تأثرت كثيراً بموت ابنتها الطفلة، وقد ترك ذلك أثراً على أعمالها، وكذلك على أحاديثها، حيث نرى موت طفل في هذه النتاجات، ثم نرى تلك العلاقة التي يؤسسها الطفل بين عائلتين، عائلة الأب من جهة، وعائلة الأم من جهة أخرى، حيث يربط هذا الطفل بين أفراد العائلتين بصلات قربى من خلاله، وقد اكتشفت إيزابيلا ذلك بقوة بعد وفاة ابنتها حيث لم يعد لذاك الشخص الذي كان يجمع أفراد العائلتين من وجود، وبالتالي لم يعد هؤلاء يزورون ذاك البيت كي يحملوا الهدايا، أو يروا هذا الشخص سواء العم والعمات، أو الخال والخالات، أو الجدّ والجدة.

قصة /الزائر/ التي استمتعت بقراءتها كما قلت على السطح، وأشركت بمتعتها زوجتي، لاتخرج عن تلك الأجواء، حيث نجد معلمة المدرسة /أنيس/ تفقد طفلها ذا الاثني عشر ربيعاً، وكان يتلقى تعليمه في المدرسة ذاتها والشعبة ذاتها التي تدرّس فيها هذه الآنسة، وقد ذهب الطفل ذات يوم كما تروي القصة: /إلى أحد المنازل كي يجمع ثمار المانجو غير أن مالك الدار الذي لايعرفه أحد معرفة حقيقية، أطلق رصاصة من بندقيته كي يخيف الفتى ليس إلاّ، لكنها صنعت فتحة سوداء بجبينه أدت إلى وفاته على الفور/.

تتلقى الأم النبأ بحزن خاصة وأن القاتل فرّ من المكان كله وتوارى عن الأنظار هاجراً بيته.

إلى هنا تكون القصة طبيعية ولاتحمل إثارة، لكن إيزابيل الليندي لاترضى لنفسها أن تكتب قصة غير مثيرة، وهنا تكمن أهمية ما تكتبه هذه الكاتبة، حيث يتم استدراج شخصية عربية إشكالية هي/رياض حلبي/ الذي في الواقع هو الأب السري لهذا الطفل، حيث تأتيه هذه الأم بعد سنوات إلى متجره وتخبره أنها قتلت شخصاً في نزلها، وتطلب مساعدته.

يغلق الرجل متجره، ويتجهان إلى بيتها، وهناك تكشف له بأن هذا الشخص العجوز إنما هو ذاك الرجل الذي كان قد قتل فلذة

كبديهمـا وتوارى عن الأنظار، وقد عاد لأمر مـا إلى هذا المـكان، والمصادفـة البحتة جعلتها ترمقه فجأة وتسعى إلى ما قامت به من انتقام، وبالطبع يعينها الرجل الذي يقيم في بيت قريب من بيتها في مواراة آثار هذه الجريمة الثأرية.

إنها من جهة، فورة الأمومة بالانتقام، ومن جهـة أخرى يمكن تأويل أن الإنسان الشرقي يتابـع الحقيقة حتى يكتشفها، ويمتلك طاقة هائلة من الصبر على مَن يسيء إليه.

هـذه القصة تحتمل أوجهـاً مختلفة من التأويل، وقد أرادت إيزابيل أن تقول بأن هذه الأم قد عاملت القاتل بالمثل، حيث لم يقدم على الاعتذار عما قـد وقع نتيجة خطأً، بل توارى عن الأنظار فاسحاً المجال لاحتمالات أخرى.

مـن جهة أخرى، لم تتـردد هذه الأم من الانتقام لابنها من هذا الرجل العجوز عندما تمكنت منـه واستطاعـت أن تستدرجه إلى نزلها، رغم مرور كل تلك السنوات.

في اعتقادي أن إيزابيل الليندي لم تجعل الأب يقـدم على ذلك، تجنبـاً لما قد يثيره ذلـك من إسقاطات، بيد أنهـا اشتغلت على قوة عاطفة الأمومة، هذه القوة التي عاشتها إيزابيـلا واستطاعت أن تعبـر عن مكامنها بكل تلك الثيمات في هذا العمل القصصي.

شيخ وبحر همنغواي - قراءة معادة

الشهر الأول من السنة الجديدة ٢٠١٤م، كان غنياً بالقـراءة، فإلى جانـب القراءات اليومية المتنوعـة، قرأت فيه ثلاث روايات، الأولـى كانت روايـة /الخيميائي/ لكويلهو، والثانية /ذاكـرة غانياتي/ لماركيز، والثالثة التـي انتهيت منها ظهيرة يوم ٢٩ من الشهر، كانت /الشيخ والبحر/ لهمنغواي.

ولا أعرف لماذا رأيتني أكتب عن الرواية الأخيـرة مـن دون الكتابـة عـن الروايتين الأوليتين، على الرغم من أنني قرأتهما للمرة الأولـى، وهذه أعيد قراءتهـا للمرة الثانية، حيث كنت قرأتها منـذ نحو ثلاثين سنة من المكتبة الثقافية العسكرية وأنا أؤدي خدمتي الإلزاميـة في الجيش العربي السوري ، دون أن أكتـب عنهـا شيئاً، بيد أن هـذه القراءة كشفت لي ما لم تكشفه القراءة السابقة، وما لفت نظري في أثناء متعة القراءة، هو إصرار همنغـواي بـأن خطيئة العجـوز كمنت في ابتعـاده كثيراً ،الأمر الـذي جعل عودته إلى البيت مع صيده الثمين لاتكون بالأمر السهل، حيث سيستغرق ذلك أيضاً وقتاً طويلاً .

بطبيعة الحـال، فإن ذلـك جعل عجوز همنغواي يتعرض لهجمـات أسماك القرش التي تجاوزت مقدرته في الدفاع عن السمكة الكبيرة التي اصطادها، وكذلك مقدرته على الاحتفـاظ بهذا الظفر المميـز في تاريخه المهني، وبذلك فإن هذا الصيد الثمين تحوّل بالنسبـة إليه إلى وبال، فلا هـو قادر على التخلـي عنه، ولا هو قـادر على الدفاع عنه

والاحتفاظ بـه كعلامة تاريخية من علامات حياته المهنية.

يبدو الشيخ في هول دوامة لايعرف فيها استقراراً، وقد غدا في قلب واقع من الصراع بين الاحتفاظ بالغنيمة، وبين مجابهة أسماك القرش.

نهاية هـذا العجوز تذكرني بما آلت إليه نهاية بعض الذيـن، بالغوا في نمط العيش، فكان أن خرجوا مهزومين من الحياة دون أن يحتفظوا حتى بذكر طيـب، أو بماء الوجه، حتى أنني أعـرف شخصاً كانـت تعتريه هلوسـات بأنه نـور في الأرض، فأصبحت الحياة وبالاً عليه ألحقت به الويل، وذلك لأنه خرج عن الواقع، وشطحت به مخيلته بعيداً، وكان ذلك يظهر من البذخ الذي كان يمارسه في وقائع حياته اليوميـة، وهي إشارة أولى بـأن ذلك لم يكن أكثر مـن جنوح عن الواقع يكلله ردّ الفعل على شعور عميق بالدونية.

إن مسيـرة هـؤلاء، لاتخلو مـن مواقف إنسانية، وكذلك مواقف بطولية، وقد عشتُ وشاهـدتُ كثيـراً منها، بيـد أن الإيغال في الخيـال والجشع جعلهم يشطحون بعيداً عن الواقع.

لقد خرج عجوز همنغواي بهيكل عظمي للسمكـة الكبيرة التي ظفـر بها، منتبهاً للتو بأنه لو كان قد اكتفى بقدراته وإمكاناته، لكان على الأقـل يعود بسمكـة متوسطة الحجم، ذلك لايقتصر على وظيفـة دون غيرها، بل يأتـي على سائر الناس في مختلف وظائفهم ومهامهـم، فنرى الذي يشطـح في ممارسة سلطته الأبوية على أبنائه، ويبالغ في سلطته الزوجيـة على زوجته، ويتمـادى في سلطته الإدارية علـى موظفيه، ويغلـو فـي ممارسة شعائـر دينـه، ويتطرف في جمـع الأموال، ويبالغ في مسكنه وطعامه.

لقد قـدّم همنغواي حادثـة بسيطة في شكلها، بيد أنه استطاع أن يُسقط عليها رؤيته الفلسفية من خلال ما تمتعت به رواية الشيخ والبحر من فنية، ومقولات فلسفية استطاعت أن تكون دعماً للبناء الروائي، وبالتالي تقدّم رواية تستحـق أن تُعاد قراءتهـا، والحقيقة فإنني أوجه دعوة إلى قراءة هذه الرواية، أو إلى إعادة قراءتها خاصة وأن هذا العمل يُعد نوعاً ما كلاسيكيـاً وقد قرأها الكثيرون من مجايلينا، وهذه المرحلـة في واقعنا تحتاج إلى إعادة قـراءة ذاك التراث الأدبي المريع ماتـزال الكلمة تقـدم علاج الـروح، تشرح الصدر، تنعش القلـب، وكأن لامعشوقة غير القراءة، ماتـزال تمتلك مقـدرة نافذة كي تجدد كل خلية فيّ.

هكذا يكون اكتشاف كتاب جديد:

كاكتشاف سيمفونية جديدة،

كاكتشاف امرأة جميلة،

كاكتشاف مدينة سحرية،

كاكتشاف صديق عذب.

حينها أزداد يقيناً أن من أهم المكرمات

التـي حظي بها الإنسان هي مكرمة القراءة، ولاأغبط أحداً قدر غبطتي لشخص يمضي نحو البيـت وقد اقتنى كتابـاً جديداً سوف يستمتـع بقراءته كلمة كلمة، صفحة صفحة، سـوف يتجوّل في طرقاته طريقاً طريقاً، إنه يمسك بالكتـاب ككنز ثميـن، هكذا عندما أعـود إلى البيت وقد اشتريـت كتاباً جديداً أشعر بأنني أحضرتُ كنزاً إلى البيت، فتتلقفه زوجتـي من يدي لتستمتـع بتقليب صفحاته وتهيء نفسهـا للاستمتاع بقراءتـه، فتشير إلى الجمل التي تلفت نظرها خلال قراءتها المتأنيـة، ثم أشير لها إلى الجمل التي تلفت نظري.

هكذا تكتشف بأنها تحبني أكثر كلما تقرأ كتاباً جديداً، وأكتشف بأنني أحبها أكثر كلما أقرأ كتاباً جديداً.

جان جينيه وراقص الحبل

ربما اعترتني حاجة مـا إلى قراءة جان جينيه، وقد انقطعتُ لفترة طويلة عن قراءته، ربما عشر سنـوات مضت دون أن أقرأ كتاباً لـه، وكنتُ مداومـاً على قراءة مـا يتاح لي مـن أعماله، بل حتى كنـتُ أستعير كتبه من أصدقائي لقراءتها.

مؤخـراً، استطعتُ أن أحصل على بعض الكتب التي لم يسبق لي قراءتها، ورغم القائمة الطويلة التي تنتظر دورها في القراءة، فقد آثرتُ أن أقرأ بعض أعمال جينيه.

يكتب جينيـه بشاعرية فائقة، ويعبر عن مشاعـره بقـوة نافذة، وهو يشبـه في ذلك نيتشـه في بعض فـورات تدفقاته الشعرية، وجواهر لمعاته الفلسفية.

هنا أيضاً يمكن تلقـي إبداع جينيه وفق تصاعـد المرحلة التي نمرّ بهـا، كون هذه الإبداعـات تتنـاول بالدرجـة الأولى فكرة (الأخـلاق) وتأويل متفرعات هـذه الفكرة، وبذلك يمكن أن نرى الأطراف جميعاً تدّعي، بـل ترى وتؤمن وتعمل مقتنعة بأنها على حق رغم أنها تمارس الجور، وهنا يكون التساؤل: إذن أين هي الحقيقة؟!

إن جميـع الذين نراهم يرتكبون الفظائع بحق الإنسان والنبات والجماد يقولون بأنهم علـى حق، وأنهم على أخلاق عالية، ولا نرى أحداً يظهر ويقول بشجاعة بأنه على خطأ.

إن شعرية أسلوب جينيه تضعنا أمام هذه المهزلة، وقد انتبـه سارتر إلى هذا الجانب المثير فـي أعمـال جينيه، لذلـك شاء أن يُقـدّم جينيه ويكتب عنـه بشيء من التركيز الوجودي.

الآن باشـرتُ بقراءة العمـل الأول الذي لاأذكـر بأنني قرأتـه سابقاً وهـو (راقص الحبل).

إن مثل هـذا العنوان الذي يضعه جينيه علـى ما هو من تشويق، يعطي صورة مسبقة لمن يعرف جينيـه بأنه هو ذاته بدا بالنسبة للعالـم كراقص الحبل، ليس لأبناء الشرق

الأوسـط فقط، بـل حتى لموطنـه فرنسا، فكيف يمكن لجينيه أن يمضي وفق التقاليد الأخلاقيـة الفرنسية وبـلاده تقبع وتسيطر على أجـزاء من العالم دون حق، وهذا بذاته ماكان يثير ألبيـر كامو نفسه الذي ما توانى من طرح هذه الأفكار.

إن راقصـ الحبل، هو عبـد الله، فنان السيـرك الذي ينحدر مـن أب جزائري وأم ألمانيـة، وقد انتحر، فتـرك انتحاره صعقة قوية عنـد صديقه جينيه الذي أراد أن يعبر عن قوة علاقته به من خلال هذا النص الذي هو مزيج من الحبكة القصصية، ولغة الشعر، وتقنيـة المسـرح، وهو جينيه الـذي يتمرّد في كتاباته، كما يتمـرّد في علاقاته وحياته الشخصية، كما يكتب بشجاعة فائقة.

إن موقفه هنا يكمن في شرحه المستفيض عن اللا أخلاق، وهو بذلك يضع تصوراً نقياً للأخلاق.

يقـول جان: تعـال لينتحـر الجسد في الجسـد، تعـال وابحـث عـن اغترابك في اغترابي، تعال لننثر الورد على الحبل ونعلقه على الطريق، تعال ليكن انتماؤك في انتمائي، تعال لنرحل، ونرحل ونرحل لأول الطريق.

فيما يقول عبـد الله: إلى أين وقد ذاب اغترابـي في اغترابـك، إلى أيـن وهاأنذا أهوي وأهوي على الحبل، إلى أين وليس في ذاكرتي متسـع للرحيل، إلى أين وأنا، أنكص على قارعة ذاكرتك، إلى أين وأنا أسجل في رحيلـك انتحاري. إلى أيـن ولم يبق منك - مني إلا أجساداً منتحرة وذاكرات نازفة.

وأنـا أقرأ هذا النص، تقفز تلك العلاقة السريـة التي جمعت بيـن - مولانا - جلال الديـن الرومي، وشمسـ تبريز حيث عندما قـرر شمس الفراق، طفق - مولانا - يصرخ: لاترحل .. لاترحل.

يتحـد الرحيل بالموت في هـذا العمل الـذي كتبه جينيه خلال شهر من العمل فيه، ولذلك جاء بشكل مكثف، وعلى شكل لمعات متدفقة، وهـذا ما يجعل مـن قراءته متعة حقيقيـة، حيث يشعر المرء بمتعة تلقي هذه الشاعرية في وصف لباب تلك العلاقة.

يشير أدموند وايت في كتابه /حياة جان جينيه/ صـ٥٤٣، الطبعـة الألمانية بقوله: (يستطيـع المرء أن يقـول أن علاقة جينيه بعبد الله أعمق جرح ترك أثره فيه).

لذلـك يستفيض جينيه فـي حديثه عن المـوت حتـى إن جان يقول: أنـا راحل إلى لاراخا، سمعتُ أن هناك قرب الجنود الإسبان مكاناً أستطيع فيه قراءة راحة ذاكرتي.

وهنا تجدر الإشارة بأن جينيه دُفن بالفعل في الموضع ذاته (لاراخا) قرب مقبرة للجنود الإسبان في المغرب.

إن ما هو هام فـي أعمال جينيه، ومنها هـذا العمل أنها تكاد تتجرّد من الازدواجية، كمـا أن جينيه نفسه عاش حياته وهو يسعى

كـي لايدع الازدواجية تقرب إليه قيد شعرة. وهذا بذاته يجعل قراءته ممكنة في أي وقت من الأوقات.

كلمة ختام

يتحدث ماريو بارغاس يوسا عن بدايات مراحـل الكتابـة لديه قائلاً: الأمـر بدأ مع القـراءة، إذ تعلّمت القراءة في الخامسة من عمـري، ودائمـا أقول: إنه هـذا هو الشيء الأهـم الذي حصـل معي، أتذكـر كيف أن القراءة أغنت حياتي وعالمي من خلال الكتب والمغامرات التي كنت أقرأها، وأعتقد أن هذه كانت العلامات الأولى لقلق ما، لحساسية ما إزاء الأدب. كانت والدتي تخبرني أن الأشياء الأولـى التي كتبتها كانت تتمـات للروايات، أو الحكايات التـي كنت اقرأها، فكنت أغيّر نهاياتهـا أو أطيلها، وإلى مـا هنالك، علما بأني لا أتذكر شيئا من هذا.

ويضيـف يوسا موضحـا أهمية العلاقة بيـن القـراءة والكتابـة: ما أتذكـره هو أن القراءة شغلت طفولتـي ومراهقتي، فأتذكر بوضـوح تام الشخوص التي كنـت أصادفها فـي الروايات أكثـر مما أتذكـر رفاقي في المدرسة. روايات /ألكساندر دوماس/ مثلاً كانت بالنسبة لي شيئا رائعا لا مثيل له.

عشتها كأنها تجربة شخصية، كأني كنت هناك، مع الشخوص، فأعيش تجاربهم حتى تصورت أني واحد من الفرسان الثلاثة.

أتذكر أيضاً /بؤساء/ فكتور هوغو عندما كنت في بداية صفوفـي الثانوية، وقد أكون بـدأت الكتابة في تلـك الحقبة عندما كنت ما أزال فـي المدرسة حيـث كتبت قصائد وقصصاً قصيرة وحكايات، بيد أني لم أفكر أني سأكرّس يوما حياتي للكتابة.

يتميز يوسا في أعماله بأنه رجل موسوعي المعرفة، يطلع علـى كل شيء، ويستطيع أن يوظف هذه المعرفة بشكل جيد في أعماله.

أحياناً تشعر بأنك أمـام رجل موسوعي فتحترم جهده الدقيـق في عمله الذي يأتي نتيجة خبرة وبحث مكثف وقراءات غنية.

دور الأنشطة الثقافية في العملية التربوية

رحاب محمد ❁

كان هَمُّ المؤسسة التعليمية في الأزمنة الماضية هو مسابقة الزمن من أجل انتشال الأبناء من سطوة الأمية التي سادت في مجتمعاتنا في تلك الفترة من الزمن الماضي، حيث لم تتح للإنسان فرصة أن يتعلم، وأن تكون هناك مدارس لمحو أمية التعليم، بل لم تكن هناك مؤسسات ترعى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والروحية.

لذلك كان إنشاء المدارس على امتداد مساحة البلاد لتلبي حاجات جميع أبنائها يعد واحداً من الانتصارات العظيمة التي فتحت بوابة المعرفة على مصراعيها، وأتاحت فرصة كبيرة بأن يكون طريق المعرفة مشرعاً على أنواع المعارف، ووقتها لم يكن للمدرسة هَمٌّ غير التحصيل المعرفي، وضمن مناهج تركّز على بعض المواد المحددة ذات التأثير المباشر في عملية التعليم، مثل القراءة والحساب، كما أن القليلين من المتعلمين يستطيعون أن يتخطوا المراحل التعليمية الابتدائية أو الإعدادية، نظراً لأهمية النواحي الاقتصادية للأسرة وحاجة هذه الأسر لكل الأبناء بأن يعملوا مبكراً في عملية الإنتاج، فالحياة صعبة والضعف الاقتصادي

❁ باحثة وأديبة.

الاجتماعــي يحتمان أن ينضــم سائر أفراد الأسرة إلى العمل والإنتاج.

فعندمــا كان يصــل الطفــل إلــى عامه الخامســ عشــر أو فــي المهــن الصناعية والحرفية أو هــو رجل يعتمد عليه والده في أمــور التجــارة الصغيرة بالنسبــة لأصحاب الأعمال التي تعتمد على البيع والشراء، وأما في حياة البداوة فــإن التعليم لم يصل إليهم إلا متأخراً، وذلك نظراً لصعوبة البيئة وحياة التنقل والترحال والحاجة الشديدة لكل فرد فــي أن يكونوا مشتغلين فــي عملية الرعي والتنقل والإنتاج.

إنَّ الحديــث عــن مشاريــع ثقافيــة في التعليــم قد يبدو بــأن الأمــر ملتبس، حيث المعــروف أن العمليــة التعليمية برمتها هي عمل يشمل التحصيــل والتثقيف، والمعارف التــي يحصل عليها الطالب لا يمكن أن تكون غير عملية تثقيفيــة مبرمجة، وإذا كان هذا الكلام صحيحاً مــن الناحية النظرية، ولكن عند قراءة عملية التعليم فإن الأمر قد يكون غير ذلك، أو أن الأمــر يتطلب أيضاً برمجة العمليــة التعليميــة حتى نحصــل على مادة ثقافيــة تخدم جوانب كثيرة قد لا يصل إليها الطالب عند تلقيه العلــوم النظرية وحدها، والتي تقوم بها المدرسة التقليدية.

إنَّ عملية التحصيــل والتلقين التقليدية كثيــراً ما تكون بها نواقصــ تؤثر في عملية التعليم والتثقيف خاصة في المدرسة الحديثة التي تحاول أن تفتت عملية التحصيل والخروج من أعباء البرامج والمناهج التعليمية المركزة التــي لا تتيح للطالب فرصــة أن يتفاعل مع الجديــد من المعارف والعلــوم، ولا تترك له الحريــة بأن يعبر عــن مكنوناته أو الانطلاق بعيداً في كشف مستمــر عن المخزون لديه للتعبيــر عــن تجاربه الشخصيــة، أو إخراج مواهبه الفردية، خاصة إذا آمنا بأن للأفراد فضــاءً خاصــاً ويأتــون من بيئــات مختلفة ولكل واحد تجاربــه المتنوعة، كما أن لديهم مؤثرات ثقافية وفكرية قــد يحصلون عليها من الوسائــل الخارجية والتجــارب الفردية والأسرية من خلال الاطلاع الحر والتجارب العمليــة، وأيضاً هنــاك مواهب خاصة عند الأطفــال تأتي فــي شكل متجــاوز لأقرانهم وللزمان والمكان.

ولذلك فــإن للأنشطــة اللاصفية مكانة مهمة في الميــدان التعليمي والتربوي ومنها لاشك الأنشطة ا لثقافية، وقد بدأت الأنشطة الثقافية في التعليم بشكل بسيط وعبر أعوام طويلــة، ولم تأخذ شكلهــا المطلوب والفعال إلا في السنــوات الأخيرة أي في هذا الزمن المتأخر كثيراً بالنسبة للتعليم، فلم يكن الأمر مهمــاً لدى القائمين علــى العملية التعليمية القديمــة والمتلاحقة فــي مجتمعاتنا وذلك لظروف كثيرة، بدءاً بــأن التعليم عندما بدأ في مجتمعاتنا كان همه الأول والأخير هو أن يتعلم الأبناء ما يفيدهم والمجتمع، ومسابقة

الوقت للقضاء على الأمية ومحو أمية التعليم حتى إنَّ ذلك تطلب أن تكون هناك مدارس مسائية للأجيال التي لم تلتحق بركب التعليم أو التي اضطرتها ظروف الحياة إلى أن تكون هي المنتجة الاقتصادية للأسرة، وهذا المشروع ما زال قائماً وربما يحتاج لزمن طويل لكي نتجاوزه.

كما أن القيادات والمعنيين بالعملية التربوية الذين تعاقبوا على التعليم أخذوا ينتبهون لعملية التثقيف بقدر فهمها وإستراتيجيتها وأهدافها لعملية التحصيل، ولعلَّ هذه السنوات الأخيرة قد أوصلت لقيادات التعليم عناصر ثقافية وتعليمية انتبهت إلى أهمية الجانب الثقافي في العملية التعليمية ولذلك أولته اهتماماً كبيراً، وربما تجاربها الميدانية وإيمانها بأن التعليم هو في الأساس برنامج تثقيفي ذو خطوط متشابكة ومتلاحمة مع عملية التحصيل، والميدان التعليمي أكبر فرصة في يد القوى المسيِّرة للتعليم لأن تشكل أفراد المجتمع المستقبلي بعناصر لديها القدرة والفهم لمتطلبات المستقبل، وأيضاً معرفة الماضي والحاضر ثم خلق أجيال واعية بالمحيط العلمي والثقافي والفني.

وإذا كانت التجارب التثقيفية في المدرسة القديمة قليلة أو نادرة، وهي التي كانت تقتصر على مجلة الحائط أو الإذاعة المدرسية التي تقدم المنهاج المدرسي بشيء من الإيجاز إضافة إلى الأخبار القصيرة ومسرح مدرسي مرتجل إضافة إلى الفرقة الموسيقية التي عادة ما تكون لهدف صغير هو عزف تحية العلم وأناشيد صغيرة، وفي المقابل لا ينضم إليها سوى أبناء المدرسين وبعدد محدود لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، بينما أخذت البرامج الجديدة التثقيفية في عصرنا الحالي منحىً جديداً وبشكل واضح، وتعددت مجالاته وتنوع بحيث فتح فرصة كبيرة لكثير من الأبناء في المشاركة في تلك الأنشطة الثقافة، وهذا الأمر يتطلب من المعنيين والمسؤولين عن المؤسسات التعليمية والتربوية التركيز على الثقافية الأكثر فائدة، وتدعيم تلك الأنشطة التي يمكن أن تؤثر في الأجيال القادمة بشكل يخدم مجتمعها ويعزز الجوانب الذاتية والشخصية عند الأطفال ليبدعوا، ولعل أهم تلك الأنشطة الثقافية التي تحتاج للمساندة وتكثيف الجهود من القيادات التعليمية في المؤسسة التربوية والميدانية، هي ذات الطابع المستقبلي والمؤثر في صنع الأجيال والتي ستكون هي القيادات التخطيطية والميدانية، وأهم تلك المجالات والأنشطة الثقافية مايلي:

- تشجيع الابتكار العلمي والإبداع الأدبي.
- إقامة وإدارة الحلقات والندوات العلمية والأدبية.
- إدارة وتوجيه المذياع المدرسي بشكل ينمي المواهب الثقافية والعلمية للطلاب.

- تكثيف عدد المجلات والصحف المدرسية المطبوعة.

- تشجيع المسرح المدرسي والعروض المسرحية والتأليف.

- إقامة معارض للابتكارات والإبداعات العلمية والأدبية والفنية.

- تشجيع المواهب الثقافية كالشعر والقصة، وكذلك الفنية كالرسم والموسيقى، وتأمين جميع أدوات هذه الفنون للطلاب.

- إقامة الرحلات العلمية والثقافية والسياحية وبشكل دوري.

هذه بعض الأنشطة الثقافية التي يمكن أن يرتكز عليها العمل التثقيفي، حيث تصبح المدرسة ميداناً خصباً لإخراج عناصر مختلفة للمجتمع تستطيع أن تجمع بين التحصيل والتثقيف ومساندة القوى الكامنة عند الصغار ودفعها نحو الإبداع والتقدم، إن الرؤية الحديثة لعملية التعليم والتثقيف تأتي عبر إيمان القيادات التعليمية المعاصرة في الفكر والبعد الإستراتيجي لتفتح جدران المدرسة التقليدية، وتكسر فكر تلك العقليات التي ترى أن الطالب حصالة يجب أن تخرج منها ما دفعته فيها عند الامتلاء ولا تؤمن بالفكر المنطلق بعيداً عن صنع أجيال هي نسخ كربونية من أفكارنا وصنعنا.

وأخيراً نقول إنه لابد في عصرنا هذا أن نؤمن بالتحديث والتطوير وضرورة وجود أجيال جديدة يجب أن تتخطى القديم الآسر والمقيِّد، وأن يكون لها فكرها وزمنها حيث المطلوب منا أن نلاحق الزمن وأن ندفع بالجديد من المدخلات التي تناسب العصر الحالي والقادم، حتى نحصل على مخرجات قوية وفاعلة في المجتمع، وحتى لا نفاجأ بأن الأجيال مازالت تنظر إلى المدرسة والعملية التعليمية بأنها سور تؤطر العمل المنطلق نحو فضاء أشمل، وصنع أجيال المستقبل، وإذا كان ذلك مدركاً من قبل القيادات التربوية فإن الجانب التثقيفي يحتاج أيضاً للمساندة والدعم المستمر وأيضاً الصبر.

العرب واللغة العربية - رؤية تاريخية

*
نزار مصطفى كحلة



بعيداً عن السياسة وما تتعرض له الأمة العربية من هزاتٍ تشبه في تحركها مياه البحر المتلاطمة، والتي وصلت أمواجها شواطئ طالت حدَّ التشكيك بعروبة بعضنا البعض، حتى كاد البعض منَّا يكره أن يسميه آخرٌ بأنه عربي، لما بات هناك من تساؤلات حول مفهوم العرب والعروبة، وصلت حدَّ كُرهِ الانتماء لها، لما باتَ يُنسبُ للعرب – زوراً وبهتاناً – من أفعالٍ مشينة. أقول بعيداً عن هذه السياسة، واقتراباً من البحث والدراسة،

* باحث وأديب سوري.

أودُّ الخوضَ – والإدلاء بدلوي – في موضوع العرب واللغة العربية، هذا الموضوع الإشكالي الهام، الذي حيَّر الكثير من الباحثين.

فلطالما شَغلَ مفهوم العرب واللغة العربية العديدَ من الباحثين ذوي الاختصاص وغير ذوي الاختصاص، إضافة إلى الكثير من المتطفلين غير القارئين بالطبع، فأدلوا جميعاً بدلائهم في هذا الموضوع الإشكالي الهام، فكان أن كَثُرت الآراء، وزادت الطُروحات والاجتهادات ذات الخلفيات المختلفة، والمبنية على رغباتٍ ذات أبعاد سياسية، دينية، عرقية، أيديولوجية...إلخ، حتى وقعنا في حيرةٍ من أمرنا، فأصبحنا نبحث لأنفسنا عن هوية وانتماء، ولغة تجمعنا، وبيت مشترك يضمنا، حتى بدا الأمر وكأننا خُلِقنا للتو؟.

من هم العرب؟

لقد كان السؤال الهام، الذي حيَّر مفكرينا ومؤرخينا، والذي عمل فيه المستشرقون وفعلوا بتشويه حقائقه ما لم يُفعَل بتاريخ أمةٍ أخرى، والذي أيضاً أُجهِدَ فيه الكثير من الفكر والبحث والتمحيص، واستهلكَ من الحبر ما لم يستهلكه الغرب في عصر النهضة!!! يدور حول: من هم العرب؟ ومن أين جاؤوا؟؟ ومتى؟؟ وهل كان السومريون والبابليون والآشوريون والكنعانيون والإيبلاويون والآراميون والأنباط والتدمريون وحتى الغساسنة والمناذرة... إلخ، عرباً؟ أم هم وافدون جدد على هذه المنطقة، إذن، من أين جاؤوا، ومتى؟ أسئلة كثيرة بات من الضروري الفصلُ فيها، وإن كنت لا أدعي مرتبة الفصل، إلا أنني أدعي الموضوعية والبحث العلمي الجاد عن الحقيقة، من دون خلفيات مُؤَدلجة.

وللحقيقة أقول: قد يُعطى العذر لبعضهم في التساؤل حول ماهية البابليين والآشوريين والآراميين...إلخ، في كونهم عرباً أم لا، إما لعدم اهتمامهم، أو لعدم اطلاعهم ومعرفتهم بالتاريخ، أو لاعتبار أن كلمة بابلي أو إيبلاوي...إلخ هي غير كلمة عربي، وهذا برأيهم بُرهانٌ كافٍ لنفي العروبة عن هؤلاء، فلا حاجة – بالنسبة لهم – للبحث والمعرفة!

أمَّا أن يتساءل بعضهم حول عروبة الأنباط!! أو عروبة الغساسنة والمناذرة، فهذا ما لا أستطيع معه صبراً!. فلا تستغربوا فقد اعترض مرة أحدهم عليَّ في أحد المراكز الثقافية أثناء مداخلة لي، عندما قلت: إنَّ البابليين والآشوريين والأنباط عرب، فرد عليَّ قائلاً باستغراب: «ومن قال لك أن البابليين والآشوريين والآراميين والأنباط عرب» !! ثم أضاف: «إنَّ العرب هم سكان شبه الجزيرة العربية فقط»!!. فهل كلَّف هذا الشخص – المُدعي المعرفة –

نفسه مــرة وقرأ فقط أسماء ملوك الأنباط أو ملوك الغساسنة والمناذرة! وهل عرف أنَّ أسماءهم، هـي: الحارث، وعبادة، ورب إيل، ومالك...إلــخ؟، وهل سمــع بالملكة شقيلة والملكة هاجر؟، أم أنه يعتقد بأن هذه الأسماء غير عربية؟، وأن أسمــاء المنذر وجبلة بن الأيهم وامرئ القيس والنعمان وعمرو...إلخ هـــي أسماء أعجمية!!!. ولا عجب في ذلك، عندما نعلم أن الكثير من العاملين في حقل الثقافــة والمثقفين – للأسف – يجهلون أو يستنكرون هذه الحقائق، بقصدٍ أو عن غير قصدٍ؟؟؟؟.

وهنــا أجدنــي مضطراً لتبيــان بعض الحقائــق، علّها تساعد فــي فهم وحل هذه الإشكالية، التــي تبدو في ظاهرها معقدة، ولكنها فــي الحقيقة قد تكــون أبسط مما نعتقد.

• عندما دخــل الإمبراطــور الروماني تراجان ٩٧ – ١١٧ م مدينة البتراء عام ١٠٦ م سمَّاهــا مع المناطق التابعــة لها بالكورة (الولاية) العربية ؟، فهل كان تراجان يعرف العرب والعروبة أكثر منّا؟؟؟.

• يعتمــد الكثيــر ممن يعتبــرون بلادنا (خاصة بــلاد الشــام والرافديــن) ليست عربيــة، على مقولة: إن العــرب لم يدخلوا هذه البلاد إلا مــع دخول العرب المسلمين إليها في أوائل القرن السابع للميلاد، وهذا قــول لا يستحق حتــى المناقشــة، فقبائل تنــوخ وبكر وربيعة وغيرها كثير من القبائل العربية كانت منتشرة في بلاد الرافدين من أقصــى جنوبه إلى أقصــى شماله، وكذلك قبائل الضجاعمــة من بني سليح بن حلوان من قضاعة، وقبائل الغساسنة من آل جفنة من أزد اليمن، كانت منتشرة في بلاد الشام، قبل دخــول الإسلام بزمن طويــل، وقبلهم أيضاً كانــت قبائل بني قُمر، وبني عذيبول، وبني معزن...إلخ وكلها قبائل عربية سكنت في تدمر وجوارها، وكذلك آل شميمسيغرام (سيمبسي غيراموســ) العرب في حمص، ومنهم جــاءت جوليا دومنا زوجة سبتيموس سيفيروس إمبراطــور روما ١٩٦ – ٢١١ م، والأباطرة العرب في الرهــا (أديسا اليوم) ومن قبلهم بكثير كان (جندب العربي) يقاتل مع أبناء عمومته الآراميين في معركة قرقر ٨٥٣ق.م ضــد شلمانصــر الثالث – العربي – الآشــوري، فهــل جــاء جنــدب هذا من شبه جزيرة العــرب؟، أم كان يسكن البادية السوريــة، الموئــل الأوَّل لمعظــم القبائل العربية؟؟ وقبلهم وقبلهم...إلخ، وهنا يبطل هذا الادعاء.

• كان يُعتقد سابقــاً أن هجراتٍ متتالية قــد حصلت فــي السابق، أتــى من خلالها الأكاديــون والكنعانيون والآراميون إلى هذه البلاد منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد،

قادمين من شبه الجزيرة العربية، فيما يذهب بعضهم إلى اعتبار أنَّ السومريين وافدون جدد على هذه البلاد، من دون تحديد البلاد التي جاؤوا منها؟؟!!!. وهكذا يُصوَر الأمر وكأن بلادنا كانت خالية من السكان، وتنتظر المدد السكاني من خارج حدودها، لكي تُبنى فيها الحضارة وتستمر حتى عصرنا الحالي.

ولمناقشة هذا الأمر نقول: إنه من الطبيعي أن ينتقل الإنسان من مناطق الجدب إلى مناطق الخصب لكي يقيم فيها، بل إن هذا أكثر من بديهي. لكن من غير الطبيعي أن تُصوَّر الأمور دائماً على أن مناطق الخصب كانت خالية من السكان أو الحضارة، وتنتظر القادمين من مناطق الجدب – إن كانت حقاً مناطق جدب – إلى مناطق الخصب، لكي يقيموا فيها حضارة ودولاً وممالك. وكأن سكان هذه البلاد قاصرون عن صنع الحضارة.

وهنا لابدَّ من التذكير بأنَّ هذه المناطق الخصبة – أي بلاد الشام والرافدين – لم ينقطع فيها السكن عبر مراحل التاريخ كافة، وهنا أكتفي بذكر بعض الحضارات التي مرت عليها، وفق تسلسل تاريخي لم ينقطع على مدى آلاف السنين، كالثقافة الكبارية في بلاد الشام ١٧٠٠٠ – ١٠٠٠٠ق.م، والثقافة النطوفية ١٠٠٠٠ – ٨٠٠٠ق.م التي امتدت من الفرات حتى سيناء، والثقافة الزرزية شمال بلاد الرافدين ١٢٠٠٠ – ٨٠٠٠ق.م، والثقافة الخريفية (الهريفية) وكذلك الثقافة الخيامية، في بلاد الشام، مروراً باكتشاف الزراعة في تل المريبط ٧٧٠٠ق.م على الفرات الأوسط في بلاد الشام، ووصولاً إلى ثقافة حسونة ٥٨٠٠ – ٥٥٠٠ق.م، وثقافة سامراء ٥٦٠٠ – ٥٠٠٠ق.م في بلاد الرافدين، والثقافة الحلفية ٥٥٠٠ – ٤٥٠٠ق.م شمال بلاد الرافدين وفي بلاد الشام، والعبيدية ٥٠٠٠ – ٣٧٥٠ق.م في جنوب بلاد الرافدين حتى شماله، وثقافة أوروك ٣٧٥٠ – ٣١٥٠ق.م وجمدة نصر ٣١٥٠ – ٢٩٠٠ق.م على امتداد المناطق السابقة نفسها، في تواصل حضاري عبر الزمان والمكان قلَّ مثيله[١].

وهنا تُطِلُ علينا الحضارة السومرية بإنجازاتها الكبيرة، والتي ضنَّ علينا الغرب بها، فآثر إلا أن يجعلها وافدة علينا من الخارج، وذلك لاعتبارات لا حاجة لنا لبذل مزيد من الجهدِ لمعرفتها، وكأننا لا نستحق أن نكون أبناءها. فما السومريون سوى أبناء هذه البلاد، ورثوا معارفهم من أجدادهم العبيديين والحلفيين...إلخ، وأورثوها لخلفائهم الأكاديين والبابليين وغيرهم من أبناء العرب. وهنا يبدو جلياً لنا أن هذه البلاد لم تخلُ يوماً من السكان

أو صنـــع الحضـــارات والإبداعات الكبيرة، فمـــا الداعي لقدوم آخرين إلينا كي يعلمونا أســـس بناء الحضارة؟؟؟. وما الداعي أصلاً لحدوث هذا الانقطـــاع – الفجوة الثقافية – في سلسلة مـــن التواصل الحضاري عبر آلاف السنين، زد على ذلك، أنه من المعلوم لدينا: إنَّ معظم مـــن قدموا إلينا من خارج المنطقة، إنما كانوا من الغزاة الذين خربوا الحضارة، أو نقلوها، مـــن أمثال الغوتيين، والحثييـــن، وشعـــوب البحـــر، والسكيثيين، والكميريين، ولم يكونـــوا في يومٍ من الأيام بناةً لها.

ذكر اسم العرب في الوثائق التاريخية، وأهميته

وأمـــام تساؤل البعض عـــن أسباب عدم ذكر اســـم العرب في التاريخ القديم، طالما أنهـــم موجودون منذ ذلـــك الزمن؟؟؟. وكأن وجـــود العرب فـــي بلادهم، مرهـــونٌ بذكر اسمهـــم علـــى صفحات كتـــب التاريخ، وإن صـــح ذلك!!! فلهذا أسبابه التي سنأتي على ذكرهـــا لاحقاً. إلا إنـــه وعلى الرغم من كل هذه الادعـــاءات!! فقد ورد اسم العرب في مواقع عدة، منها:

• إن أقـــدم ذكر للعرب معروف ومتداول حتى الآن يعود إلى عام ٨٥٣ ق.م عندما ذكر شلمناصر الثالث: «إن من قاتلهم في معركة قرقر على العاصي هم تحالف من الممالك الآرامية إضافة إلى جندب العربي»، وجاءت هـــذه المعلومة لكي تؤكد على أن بدء ظهور العرب كان عام ٨٥٣ق.م، وأن العرب ليس لهم وجود قبل ذلك وكأنهم ولدوا لحظتها؟؟؟

• وتأتي مكتشفـــات أوغاريت لتقول: إنَّ العـــرب ذكروا في القـــرن الرابع عشر قبل الميلاد أربع مرات في أسطورة سحر وسالم، ففرحنا بكِبَرِ عمرنا خمسة قرون أخرى.

• وقد كانـــت القبائل العربيـــة (العرب المستقـــرون – والأعـــراب الرُحَّل) معروفة منذ نهاية الألـــف الثالث ق.م ويمكن رؤيتها مع الجماعـــات الأخرى محـــددة المعالم، كالأكاديين والأموريين والسوتيين...إلخ.

• ومن القليل من الكتابـــات المسمارية التي جـــاءت علـــى ذكرهـــم – أي القبائل العربية – بشكل مباشر، تلك التي وردت في الأكادية بالصيغة:

a – ra – bu و La – ra – bu – um – um

أمَّا لفظة Arbi وبلادهم المسماة أربي فهي الراجح (عريبي) في جنوب بادية الشام، وشبه جزيرة سيناء، وشمالي الجزيرة.

• وفي مدينة سيبـــار(٢) سبق العثور على رؤوســـ صولجانات مصنوعـــة من الحجر المنقوش بكتابات سومرية، أحدها منقوش بأربعـــة وعشرين سطراً مـــن الكتابات تعود

إلى الملــك (لعرب) La – arab وهو أحد ملوك الغوتيين[٣].

• ومرة أخــرى ساعدتنا الوثائق والرقم المسمارية فــي تأكيد قِدمنا فــي التاريخ، حيــث ذكر نقشٌ أن: نارام سين (نور القمر) حفيــد شاروكين الأكادي ٢٣٣٤ – ٢٢٧٩ق.م تحدث عن: «عــرب ملوقا ودلمون وعرب مكّان»[٤] وبذلك أصبحنا نعود بوجودنا إلى ٢٣٠٠ق.م تقريباً.

• أمَّــا أقــدم استعمال لكلمــة عرب – حسب معرفتي – كدلالة على جنس وانتماء، فقد ذكر هيرودوت في تاريخه أنه: في عهد كيبوتــس (يفترض أنه الملــك خوفو) أحد ملوك الأســرة الرابعة التــي حكمت وادي النيــل ما بيــن ٢٦٨٠ – ٢٥٦٠ق.م إذ سخَّر هذا الملك جميع المصريين لخدمته حيث عيَّنَ طائفة منهم لقطــع الأحجار من بلاد العرب من أجل هرمه العظيم.

ومــا زلنا ننتظر النقوشــ لكي تعطينا عمراً أطول على أرضنا العربية، وذلك للرد على مقولة إن: عدم ذكر العرب في التاريخ القديم، يدل على عدم وجودهم فيه، وعلى ادعاء أن السومريين والأكاديين والعموريين والكنعانيين والآراميين والتدمريين والأنباط، وربما الغساسنة والمناذرة وملوك كندة أيضاً ليسوا عرباً، فهــم مناذرة وغساسنة وأنباط ولكنهــم ليسوا عرباً، وكأن وجود العرب في بلادهم، مرهون بذكر كلمة (عرب)!!.

وللإجابة على هذه المعضلة الكبيرة؟؟؟ أودُّ أن أشــارك قرّاء هــذه المقالة ببعض الأفــكار، علّها تساعدنا علــى فهم التاريخ وكيفية قراءته جيداً.

يُقال إنَّ التاريخ يكرر نفسه، فكيف يكرر التاريخ نفسه حقاً؟ وهل سيحدث أننا سنرى حمورابي وهانيبعل وخالد بن الوليد ويوسف العظمة مرة أخرى؟ أم أن الدوافع التي أدت إلى ظهــور هؤلاء الأشخاصــ وقيام الدول واندثارها وقيام المعــارك هي التي تتكرر عــادة؟ أم أن التاريخ يكــرر نفسه بإسقاط وقائعه على الحاضر، ومحاولة مقارنتها به، مستفيدين من عِبَره الكثيرة.

إنَّ التاريخ يكرر نفسه بالدوافع والظروف والرغبــات والحوافز والنتائج، ونحن ندرك التاريــخ وحقائقــه، من خلال الولــوج إليه ومعرفة كيف كان يُكتب.

لذلــك فــإن نظرة مليَّــة إلــى واقعنا، ومقارنتــه بالماضي البعيــد، تعطينا إجابة واضحة عن ماهية العرب وماهية العروبة، فمــا كان يحصل في الماضــي يحصل في الحاضر.

ولمعرفــة ماهيــة العرب فــي التاريخ استناداً على إسقاط الحاضر على الماضي، أورد مثــالاً علــى ذلــك، أقول مثــلاً: لقد حضرتُ مهرجاناً في ساحة عامة وشاهدت

فيها شخصاً مصرياً، وآخر أردنياً وثالثاً عراقياً ورابعاً حمصياً وخامساً حموياً أو حلبياً أو بيروتياً أو صيداوياً، ورجلاً ريفياً وآخر بدوياً، ربما كان من قبيلة عنزة أو شمر أو من الموالي أو من بني خالد...إلخ، (وكل هذه القبائل العربية غالية على قلوبنا) فهل كان كل من ذكرتهم عرباً أم لا؟ وإذا كانوا كلهم عرباً فلماذا ذكرتهم كما سبق، ولم أقل رأيت أشخاصاً عرباً؟؟! السبب هو لأنني عربي، وعندما أريد أن أعرِّف عن نفسي وإلى أية دولة أنتمي، أقول: أنا سوري، وذاك أردني والثالث عراقي، وضمن البلد الواحد – سورية مثلاً – أقول: هذا حموي أو حمصي أو دمشقي...إلخ، وإذا جاءني زائر كريم من الريف، أقول: هذا ريفي أو بدوي أو عربي من عرب فلان، ولكننا كلنا عرب. فلماذا إذاً كل هذه المسميات؟؟.

إنَّ الإجابة عن هذا التساؤل معروفة لدينا حالياً، وهي: (لسهولة التمييز الجغرافي والإداري) لكننا عندما نذهب نحن – جميعاً – إلى أوروبة، سواء أكان أحدنا (سورياً – أردنياً – شامياً – بغدادياً – حمصياً – بدوياً – عنزاوياً أو من الموالي... إلخ) فإنَّ الأوروبي يقول عنا جميعاً أننا عرب. لماذا؟؟؟؟. لأنه غير عربي بالطبع.

وبإسقاط هذا المثال على الماضي، فنحن عندما نقول: آرامي أو عموري أو كنعاني أو من قبائل السوتو أو بني يمين أو الأخلامو...إلخ، فكأننا نقول حالياً فلان من قبيلة عنزة أو الموالي أو غيرها... إلخ. وكما للقبائل الكريمة الحالية فروع، فقد كان للقبائل العربية القديمة (عمورية وكنعانية وآرامية...إلخ) فروع أيضاً، نذكر منها بني يمين وبني شمال وقبائل السوتو والأخلامو...إلخ، كما نذكر بيت عديني وبيت بخياني...إلخ، كما أننا نذكر أيضاً في فترة لاحقة بني عبس وبني ذبيان وبني كلاب وبني كلب وبني طيء وربيعة...إلخ. وعندما نقول هذا بابلي، فلأنه من مدينة بابل، وهذا إيبلاوي فلأنه من مدينة إيبلا، والآشوري ينتمي إلى الإمبراطورية الآشورية أو لأنه ينتمي إلى مدينة آشور...إلخ.

ذلك أنَّ اسم الدولة قديماً وبالتالي الانتماء، كان يأتي إما من اسم المدينة كمملكة إيبلا، أو تبعاً للإله المعبود فيها كأن نقول آشور أو عمور، وربما ضمت المملكة الواحدة أكثر من مدينة فنقول: صيداوي أو صوري، وكلاهما من مملكة صور الكنعانية، فالصيداوي أو الصوري أو الكنعاني ما هي إلا مسميات مختلفة لسكان هذه البلاد وهم العرب، فالكاتب (المؤرخ) في السابق، كان لا يرى ضرورة لذكر اسم العرب، الأسباب

الحاليــة نفسهــا التــي لا نرى نحــن فيها ضرورة لذكر اسم العرب حالياً، والذي يرى ضــرورة لذلك هو الغريب عن المنطقة، أي الأوروبي، حالياً، واليوناني والروماني سابقاً. فعندمــا يزورني عراقي أقول زارني عراقي ولا أقول زارني عربي، فلا حاجة لذلك لأن كلينــا عربي، ولأن ذكر العــرب في العصر الحالي، قد انحصــر فقط في التعبير عن القبائل التــي مازالت تسكن البادية، فنقول زارنــي بدوي أو أعرابــي، أو عندما يصفنا أجنبي جميعنــا بأننا عرب. وهذا هو الذي كان يحصل قديماً، وما زال يحصل حديثاً، وهذا مــا يفسر تمييــز شلمنصــر الثالث لجندب بوصفه عربياً، فيما وصف الآخرين بالآراميين، وهــذا ما يفسر أيضاً ندرة ذكر العرب فــي النقوش التاريخية القديمة، لأنَّ نقوشنا القديمة هي من كتاباتنا نحن العرب وليس غيرنا، وهذا ما يفسر أيضاً أن كتابات المؤرخين الكلاسكيين (يونان ورومان) فيما بعــد وصفتنا بأننا عــرب لأنهم غير عرب، لذلك كان المــؤرخ اليوناني هيرودوت ٤٨٤ – ٤٢٥ق.م يصف الملك الآشوري سنحريب ٧٠٥ – ٦٨١ق.م بأنَّــه ملــك العــرب. فهل عــرف اليونان والرومان ومنهــم (تراجان) قديماً والأوروبيون حديثاً أننا عرب ونسينا نحن ذلك؟؟؟.

إشكالية اللغة العربية

أمَّــا الســؤال الإشكالي الآخــر والهام جــداً، فكان: ما هــي اللغــة العربية؟؟، وهل هناك لغة عربية ولغة أكادية ولغة آرامية... إلخ؟؟ أم هي مجــرد لهجات عديدة للغةٍ أُمٍ اندثرت؟؟؟.

أمَّا عن موضوع اللغة العربية وما يميزها عن اللهجات المختلفة السائدة سابقاً، وهل هي لغة واحــدة قيلت بلهجات متعددة؟؟ أم هي لغات عدة لأقوام وشعوب مختلفة؟؟.

وللإجابــة على هــذا التســاؤل، نقول: فليحــاول أحدكم أن يُجري التجربة التالية: اكتــب نصاً واحــداً مؤلفاً مــن جُمل عدة، بلهجة أهــل الجزائر العاميــة الحالية كما تلفظ تماماً، واكتب النص نفسه بلهجة أهل السودان، ثم بلهجة أهل العراق، ولهجة أهل شبه الجزيرة العربيــة، ولهجة أهل دمشق، ولهجــة أهــل الساحل الســوري كما تلفظ حالياً، وكذلك بلهجة سكان البادية السورية والعراقيــة مثلاً، ثم أعطهــا لشخص آخر لا يعرف اللهجات العربيــة، ولا حتى اللغة العربية، فماذا سيقول عنها؟؟؟.

سيقول لك وبكل تأكيد إنها لغات لأقوام وشعــوب مختلفة، وليســت لهجات متعددة للغــة واحدة أُمّ، هي العربيــة!!. ولكنك إذا أعطيتهــا إلــى خبيــر باللغــات واللهجات العربية، فسيقول لــك إنها لهجات متعددة

للغــة أُم واحدة، وهذا ما كان يحصل سابقاً بالضبــط، لأن الكتّــاب (المؤرخين) قديماً كانــوا يدونــون اللهجة (اللغــة) كما تلفظ تمامــاً، وكلٌ حسب منطقتــه، ومن هنا جاء هــذا الاختلاف فيما بينهــا عندما وصلت إلينــا، فبــدت وكأنَّها لغــات مختلفة، فما الكنعانيــة والإيبلاوية والأكاديــة والآرامية وغيرها من اللهجات السابقة، سوى لهجات متعددة للغة واحدة أُمّ، كُتِبت بشكلها السابق كمــا لُفِظت تمامــاً، ووصلت إلينــا بشكلها الحالي، فاعتقدنا أنها لغات مختلفة، وذلك لبعــد زمن كتابتها عنــا، لكنها في الحقيقة مــا هي إلا لهجات متعددة للغة واحدة، هي اللغة العربية الأم، والتي ربما كان ما نسميه اليــوم (اللغة الفصحى) ما هــي إلا إحدى لهجاتها والتي وصلت إلينا بشكلها الحالي، وإن الكثير ممن درسوا هذه اللهجات، أكدوا بمــا لا يدع مجالاً للشك أن لها بنية واحدة، خاصــة من حيــث أصل الفعــل (الثلاثي)، وإن الخلاف فيهــا لا يعدو كونه خلافاً من حيث الشكل فقط، كالخــلاف الحالي بين اللهجة الجزائرية واللهجة المصرية ولهجة الباديــة السورية...إلــخ، فيما لو دوِّنت كما تلفظ، وكذلــك كالخلاف الحالــي ما بين اللغة الفرنسيــة واللغة الإنكليزية، وكلاهما من أصــل واحد (اللغة اللاتينية). فما أبعد هذه اللغة (اللهجة) العربية الفصحى اليوم عن الكثير مــن اللهجات في البلاد العربية وخاصة العامية منها.

هــذا ما كان يحصل فــي الماضي وهو نفسه مــا يحصل اليوم. فكفانــا بحثاً عن مفهوم العرب والعربية، فنحن عرب ولهجاتنا كلهــا عربية للغــة أُم مشتركة، هي العربية، وإننا نسكن في أرضٍ هي الأرض العربية، في الماضي، وفــي الحاضر، وسنبقى فيها في المستقبل.

وفــي الختــام ورغبــة مني فــي إثارة بعض التســاؤلات لدى الراغبين في معرفة الحقيقة، أودُّ سوقَ بعض التساؤلات الهامة وذات الصلة:

• لماذا نقبل أن يكون الصينيون والهنود والإيرانيــون والأتراك، والكنديون أمماً، ولا نقبل لأنفسنا أن نكون أمة واحدة؟

• هل كان الإنكليز والألمان والفرنسيون... إلــخ أمماً نقية الأعــراق؟ فلماذا نقبل أنهم أمم ونتحدث عن أمة فرنسية، وأمة ألمانية وو...إلخ، ولا نقبل ذلك لأنفسنا؟.

• عندما انحسر المد العربي (الإسلامي) عــن معظم البــلاد التــي فتحهــا العرب المسلمون إبان عصر الفتوحات الإسلامية، لماذا انحسرت اللغة العربية عن معظم هذه المناطق، ولم تبق ســوى في المناطق التي

ندعوهـا حالياً بالبلاد العربيـة؟ علماً أننا بقينا في إسبانيا مثـلاً ما لا يقل عن ٨٠٠ سنـة، وبعد خروجنا منهـا، لم يبق فيها أي ناطق بالعربية؟

إننـي كمختصـص بالتاريـخ وعاشـق له وللعروبـة، أضـع كل هـذه الملاحظـات والحقائق والأسئلـة أمام كل من يرغب في رؤية الحقيقة فـلا ينكرها لأسباب لا أريد معرفتها، وحسبي أننـي قد حاولت إيضاح ما كان غائبـاً، فعروبتنا تستحـق منا أكثر من ذلك، فلا نـدع للحاقدين عليها تشويه صورتها في أعيننا وأعين أولادنا.

وختاماً، أود أن أشكر سورية وطننا الغالي علـى ما قامت به مؤخراً من التأكيد والحرص على اللغـة العربية، واعتبار الأول من آذار من كل عـام، يوماً لإحياء اللغـة العربية، بعد هذا الغزو اللغوي الخطير لتراثنا العربي المجيد.

الهوامش

١- إنّ كل مـا ذكرنـاه من أسماء لثقافات، لا يعدو كونه ثقافات في حضارة واحدة، هي الحضارة العربية، وإنّ الأسمـاء السالفة الذكر، ما هي إلا أسماء المواقع التي اكتشفت فيها هذه الثقافات، والتي تنتمي لعصور ما قبل التاريخ، أي ما قبل الكتابة، لذلك لم نعرف لها أسماء واضحة.

٢- سيبـار، مدينـة سومرية، وهي تـل أبو حبة اليوم، وتقع على الضفة الشرقيـة لنهر الفرات، حوالى ٣٢ كم جنوب غرب بغداد.

٣- الغوتيـون: أقوام جبليـة متخلفة ومتوحشة، نزحت من جبال زاغروس من أطراف لورستان، وانحدرت نحو سهول العراق، وقد قضوا على الإمبراطورية الأكادية، بعد ضعفها عام ٢١٩٣ق.م.

٤- يذكـر إسرائيـل ولفنسون في كتابه اللغات السّامية: «وكان سرجـون الأول أوّل من أسس ملكاً (سامياً) في أرض بابل وحارب الأمراء السومريين ثم خرج من تخوم بلاد العراق واتجه شطر الجزيرة العربية مع ابنه نـارام (نارام سين) (نـور القمر) وقاتل قبائل عربية ذكرت في الآثار البابليـة باسم عرب ملوكة أو عرب مجان أو معان».

الذات بين الهوية والشخصية

عيد الدرويش *



يصعب علينا وضـع خطوط دقيقة بين تلك المصطلحـات، للتداخل والتشابك في الـدلالات، والعوامل المتشكلة منها، فهناك علاقـة جدلية بين الفرد والمجتمع مع تلك المفاهيم، وستبقـى منقوصة إذا بقيت في حيـز الفردية، فلا ذات مـن دون الآخرين، ولا هوية من دون الآخرين، ولا شخصية من دون الآخرين.

فالـذات والهوية والشخصيـة تكتسب من خلال الحالة المعرفية الجمعية لتمتزج بهـا مجموعة من السمـات التي تكوّن تلك الهوية، فلا هوية إلا من تشكل المجموع، ولا

* كاتب وباحث.

شخصيـــة من دون الحالة الجمعية من خلال بنائها الذي يستلزم مدة عمرية غير محدودة، وهنا يتبادر للذهـــن السؤال التالي: إذا كانت كلهـــا مكتسبة ومتشكلة، وتـــذوب في الحالة الجمعية، مـــا الذي يجعلها مختلفة من حيث المصطلح والدلالة؟

أهـــي العوامـــل الخارجية مـــن المحيط الاجتماعي، أم من الاستعداد الفطري للفرد؟ وللإجابـــة على هـــذا التساؤل، فـــلا بد من أن نوصّـــف تراتبية هـــذه المفاهيم الثلاثة، وتبيان العلاقـــة بينها، وكل مصطلح نضع له روائـــزه ومعانيه ودلالاتـــه المعرفية، عندئذ نـــدرك معنى كل واحد منهـــا، وندرك علاقة كل واحـــد من هذه المصطلحـــات، وعلاقته بالآخر، وكيف يـــؤدي دوراً مهماً وفاعلاً في تشكيله؟ وهل يمكن أن ندرس كل مفهوم على حدة من دون ارتباطـــه بالآخر؟ وإلى أي حد يمكـــن أن يشمله، لأن كل واحدة تأخذ مادتها من الأخرى، فالذات هـــي صيرورة الإنسان، والتي تتشكل مـــن الاستعداد الفطري له، مع مجموعة القدرات المكتسبة، وتؤثر بها حالة الوعي الداخلـــي، وتفيض علـــى الشخصية والهوية، ولكنها ليســـت مستغرقة فيها، وكل ما استقـــر في الذات هو ذلـــك الأكثر عمقاً ورسوخاً، ويعتبر كجـــذر الشجرة الذي يؤمن كل مستلزمات الغذاء للشجرة بشكل أساسي، أمـــا الهويـــة ذات صبغة تـــؤدي دوراً أساسياً للشخصيـــة، وتستمد مادتهـــا من الذات، ولا تعتمـــد عليها بشكل كلي، والهوية تعتبر أيضاً مادة أساسية للشخصية، كما لا تعتمد عليها بشـــكل كلـــي، والهوية تعتبر مرتبـــة متقدمة لصفات الشخصية، وقد تتغير وفق الظروف ووفق حالات القـــدرة الاستباقية في حالات التكيّف مع الواقع، ولكنها لا تستطيع أن تؤثر على الهويـــة، وعلى الذات بشـــكل كلي، فلا توجـــد شخصية مـــن دون ذات، ولا شخصية من دون هويـــة وذات، ولا هوية من دون ذات وشخصية، والشخصية تأخذ شطراً من الذات وشطراً مـــن الهوية، وتحدد معالم الشخصية من عمق الهوية، وعمق الذات.

الـــذات مفهوم غامضـــ، ويتعذر على أي دارس الإلمام بجوانبـــه، أو الوصول لتعريف كامـــل أو قريـــب من ذلـــك، ممـــا يستدعي الدراســـة والتأمـــل فـــي جوانبـــه المتعددة، ومختلف استخدامات هذه الكلمة التي تدخل فـــي تراكيـــب وتعابير ومصطلحـــات عديدة مثـــل «تحقيق الذات» والذات في علم النفس مرادف لمفـــردات «الشعور» والشخص الذي يقابل على هذا النحـــو بين الذات واللاذات ليحدد جوانب الشخصيـــة بوصفها العلاقة المباشرة مـــع العالم من خـــلال تعاملها مع الوســـط المحيط ، وتتضـــح بما اكتسبته من معايير وسلوكيات وقيم من هنا وهناك، ومن الأنـــا والهو المصدريـــن الأساسيين لتشكيل الـــذات، وبمـــا أن الأنـــا مكتسبـــة ، فالذات

مكتسبة ومتطورة،والموجود الشعوري بوصفه ذاتاً، بدلاً من الأنــا التي تدل على مجموعة الخصائصــ الفردية، وتشمــل الذات، وهي ضـــرب من أنا، فالذات بهذه الصفة لا تشمل الحالات الشعورية فحسب، بل تشمل الجسم أيضــاً، ويسمــي فرويــد ذاتاً هــذا الجسم اللاشعوري مــن الأنا، أقتــرح أن أسمي أنا، وكتب عــن «أنا» يقول: «الكيــان الذي تكمن نقطــة انطلاقه في النظريــة «إدراك العالم الخارجــي» ويتصــف بأنــه قبــل شعوري، محتفظين بتسمية ذات لكل العناصر النفسية الأخرى التي تستطيــل فيها «الأنا» إذ تسلك على نحو لا شعوري، فالفرد يتألف على هذا النحو، في رأينا في ذات نفسية، مجهولة ولا شعورية تتنضد عليه «أنا» سطحية انبعثت من المنظومة (الإدراك) وليس بين الأنا والذات انفصال حاسم، وخاصــة في الجزء السفلي من الأنا حيث تنزعــان إلى الاختلاط، ولكن ما هو مكبوت يختلط أيضا بالذات، وهو ليس إلا جزءاً منها.

مفهــوم الذات دلالة مختلفــة إنها تعالي الأنا، والذات موضوع كليــة الحياة النفسية، وتتيح للأنــا أن تتحول إلى وعي كامل بالغير والعالم والذات، إنما هــي الآخر والآخرون، وليس الأنا فقــط، فالتفرد لا يستبعد العالم بــل يدمجه، وليست الذات فقــط ضرباً من «مثال الأنــا» بل هي إخراج الكمون الإنساني مــن القوة إلى الفعل، وتحقيق كامل للموجود الإنســي والذات الواقعيــة بوصفها تجاوز الأنا.

إنَّ الأنا في نظرية «فرويد» تعتبر مرجعاً من مراجع الشخصية يناضل نضالاً مأساوياً ليفرضــ الانسجام بين مقتضيات متعارضة، مقتضيات الحاجــات الغريزية الناجمة عن «الهــو» ومسألة الأخلاق «الأنــا العليا» أولاً، ومقتضيات الواقــع أخيراً،لكي نفهم دينامية شخصية سويــة، وشخصية مَرضية على حد سواء، عندما تم تجــاوز التأثير الأول الآسر الــذي أثاره اكتشــاف دافعيــات لا شعورية، تعاظم دور الأنا في نظرية التحليل النفسي.

واتخــذت الأنا معنــى موسعــاً بوصفها مفهومــة أنهــا مرجع مــن مراجــع الجهاز النفســي بنيــة تحتيــة للشخصيــة حاملــة الوظائف المرتبطة بالشعور (إدراك – فكر) بقدر ما هي حاملة آليات الدفاع اللاشعورية، معنــى موسعاً إلى حد أصبحت حدودها غير واضحة إلا قليلاً.

وابتكر عــدة علمــاء نفــس معاصرين، يتحدد موقعهم في رأي «وليم جيمس» مفهوم صــورة الــذات، والمقصود امتثــال معرفي للشخصــ بوساطة الفرد ذاتــه، والعلاقات مــع الموجــودات والأشياء التي تكــون أكثر أهميــة بالنسبة لــه، ولهذه الصــورة، صورة الــذات، فيمكننا انطلاقاً منــه أن نفهم على حد ســواء استقــرار الشخصيــة وصلابتها

المرضية، وقوانين تغيرها الدينامي، وخاصة تحت تأثير العلاج النفسي، وتستخدم الاستبيانات لدراسة صورة الذات، ذلك أن أفضل وسيلة لمعرفة الكيفية التي يدرك بها فرد نفسه هي أن نتوجه إليه بالسؤال عنها، على سبيل المثال طريقة تسمى «من أنت» ؟ فقد تبناها عدة باحثين آخرين وعدّلوها، وعُني بها باحثون آخرون، بغية تجاوز الصعوبات المرتبطة بهذه التقنية من خلال تحديدات ناجمة عن اللغة، أو عن الجانب العقلي المشكل من الاتجاهات إزاء الذات، والمقصود بصورة أساسية عودة إلى مفهوم «مركّب الأنا» فقد ابتكر بعض الباحثين أيضاً مفهوماً أكثر خصوصية مثل «عاطفة الذات» و«قبول الذات» و«احترام الذات» ولاسيما اعتبار الذات وهو مفهوم مشتق من مفهوم أدلر «عاطفة الدونية» ونحن نصادف في علم النفس ذي النزعة الإنسانية التي أوحت به الفلسفة، ولاسيما مفهوم الأصالة تعبيرات مثل(تحقيق الذات) وما يتناوله «جان بول سارتر» وقد يحدث أيضاً أن نجد الفكرة الرومانسية، فكرة الإنسان الطبيعي فكرة الذات الأصيلة، التي لم تشوهها الحضارة، ويمكننا أن نرى في البحوث الحديثة في الذات اتجاهاً طافحاً في الوعود، يقرن وجهات النظر التكوينية والنفسية المرضية - نمو الشخص واضطراباته - ويوجه بعض المؤلفين موقعهم في وجهة نظر السيكولوجيا الدينامية، انتباههم إلى الذات - لا إلى الأنا المعنى الفرويدي - فيما يخص النرجسية ويجدون إلهامهم في فكرة جان بياجيه بنشوء الذات النفسي من حيث هي بنية معرفية.

ويمكن اعتبار بعض الفاعليات أو أجزاء الفاعليات، كالسيادة على الذات مصدر الذات في الأطوار الأولى من النمو الإنساني، ومصدر وظيفتها أيضاً في المراحل اللاحقة.

الذات مفهوم يتحدد بدرجة المعرفة التي نتوصل إليها أو نمتلكها، والذات تتحقق بالاكتساب، كما تشترك الهوية والشخصية بحالة الاكتساب، من خلال الوسط الاجتماعي والمعرفي اللذين يحيطان بالفرد، أو من خلال معرفة تلقاها من مجتمع آخر لا يمت له بصلة اجتماعية، ولكنه متوحد معه بالإنسانية، وفي كل الأحوال إنَّ حالة الاكتساب هذه متعلقة بالشرط ذاته أنه يبني ذاته، ليراه أو ينعكس على المجموع، إلى حد التماهي مع الآخر، ولا يمكن رؤيته إلا من خلاله، وأكثر وضوحاً في حالتي الاكتساب وبما يفضي به في حالة السلوك، آجلاً أم عاجلاً، والذات تبقى متخفية ولا نقرؤها إلا من خلال الشخصية والهوية، وهي العالم الداخلي والخاص للفرد، لا يمكن أن نصل لمعرفتها بالشكل التام بمثل ما يراها الفرد بنفسه، أمَّا الشخصية فهي عارضة للهوية، وإظهار لبعض جوانب الذات وخصائصها،

والذات أيضاً تتشكل وتتفرع عنها مجموعة من الذوات، وتكون أكثر ميلاً نحو جوانب تأخذ حيزاً في تشكيل ذاته التي تتمحور حولها شخصية الفرد، وتكون أكثر تجلياً من خلال هوية الفرد مثل «ذات معرفية، وذات روحية، وذات دينية ..إلخ كما هي أيضاً الهوية، هناك هوية اجتماعية، وهوية دينية، وهوية معرفية، وهوية ثقافية، وهوية حضارية، وهوية لغوية...إلخ ».

الأمر مركب في التحليل، كما هو مركب في التركيب،فضلاً عن استمرار تكامل الذات والهوية والشخصية ولا يتحدد في عمر معين للفرد، وإنما يبقى مفتوحاً للاستزادة والإضافة، وهذا يُدخلنا في حالة التغيير، ولكنها في خصوصية التراكم المعرفي والعلمي، وكلما كثر الزاد المعرفي والعلمي تصبح الذات أكثر قدرة وقوة ووضوحاً، مما ينعكس على الهوية والشخصية، ويكون الفعل الأخلاقي الذي يلامس إنسانية الإنسان وهو جوهر الذات، وبها تتحدد هويته وشخصيته.

فالتأمل حالة داخلية نفسية شعورية تقوم بها الحالة الواعية وهي الذات للنظر في موضوع فكري بانتباه ومنهجية، وبأسلوب هادئ، لمعرفتها على نحو كلي، واستخلاص عِبرهُ منها، إنها مراجعة وترتيب لكثير من القضايا التي تخامر ذاكرة الإنسان لتتشكل لديه منظومة ما يستقر في ذاته، وما يشفي غليل هويته، وما يرسم خطاً بيانياً ومعايراً لشخصيته، كما يقف خارج ذاته ليخاطب شخصيته، ليراها في صورة يرسمها قبل أن يراها الآخرون، ويحاكمها محاكمة افتراضية، وهو في هذا الحال له مطلق الحرية مع نفسه وشخصيته من حيث الأسئلة والإجابات، فإذا كانت أكثر واقعية، فقد منح شخصيته التوازن والتوافق مع المحيط، ويستمد طاقته من هويته التي تشكلت هي الأخرى من الاكتساب ويعتمد عليها في مد شخصيته معرفياً وسلوكياً، وهي الزاد المعرفي في حسن التصرف والتعامل مع الآخرين.

ولا يقتصر تأمل الذات في جانب الشخصية، وإنما تقوم الذات بالتأمل في القضايا المجردة في الخير والحق، والذات الإلهية، وعالم الماورائيات، وفي الجانب الديني، كما في الأديرة المسيحية يقوم الرهبان بتأملاتهم في صوامعهم، أو في المصلى، وأماكن العبادة عند المسلمين، ولا يقتصر على الأديان السماوية، وثمة في صوامع «زن» صالة تأمُّل لكل راهب فيها مكان تحدده حصيرة من قش الأرز (تاتامي) وهذا التركيز، تركيز الفكر، الذي ينشد منح الواقع رؤية عميقة (يسعى أيضا في البوذية إلى بلوغ أفضل معرفة للذات، وإهمال ما ليس أساسياً، وحتى إلى استبعاد كل رغبة في الذات، كيما يفضي المرء إلى اليقظة والنرفانا، أي إلى التحقيق الأسمى للوجود، حيث يجد الكمال والسلام والسعادة) ويصبح

التأمل في بوذية «زن» غاية في ذاته، وفي البراهمية الديانة الخاصة للهند يكمل التأمل تقنيات اليوغا، في حين أن المؤمنين في التيبت يستخدمون باندالا رسماً ينسخ الكون بصورة إجمالية وفق النظرية الهندية في نشأة الكون بوصفها دعامة للتأمل، ويتفق ممارسو الزن والبراهميون، وممارسو اليوغا على أن يروا التأمل القوة الفاعلة الرئيسة.

ومن مزايا تحقيق الذات هو شكل الإبداع ويكون انعكاسه المباشر على الشخصية، ومراحل نموها والذي ترافق مع وجود دوافع في كل مرحلة من مراحل التكوين للشخصية رغبة وهدفاً لتحقيق الذات حامله الأساس هو ذلك التميز بما يسمى الإبداع (بأنها ميل طبيعي موجود في حالة الكمون لدى الأفراد كلهم وكل الأعمار،إنها ذات علاقة وثيقة بوصفها مرتبطة بالخيال والإعلام بالوسط المادي والسوسيولوجي والثقافي والأشخاص الذين يحيطون بالفرد).

كما أن الذات تبحث عن التكيف لتحقيق التوازن النفسي والتوافق العضوي مع المحيط البيئي والاجتماعي، ولا تقف الذات عند حد معين من خلق التوازن، وتقتضي مجموعة من التبادلات التي لا تنقطع مع الجسم ووسطه في التأثير المزدوج للفرد، يتحدان باستمرار للمحافظة على حالة توازن مستقرة تحدد التكيف.

فيقول بياجيه: فثمة تكيّف عندما تتحول العضوية تبعاً للوسط، وعندما يكون لهذا التغير مفعولاً مفاده توازن التبادلات بين البيئة وهذه العضوية، وبفضل هذه المرونة إنما يكون بوسع الوجود الحي أن يظل على وفاق مع بيئته، ويتجنب القوانين التي تعاكسه، وعندما تُهزم هذه الصفة الأساسية تحدث أمراض التكيف، ومن يفقد توازن ذاته سينعكس على شخصيته وعلى هويته، ولذلك تقاس الذات الجمعية للذات الفردية للمجموع، وهذا ما يحمل عناصر مهمة في تشكيل الأمة، ووحدتها وديمومتها، إنَّ الهوية هي المنطقة الوسطى بين الذات والشخصية، وإن بناء الهوية ينبغي أن يكون راسخ الجذور في الذات الجمعية، ليجعل الشخصية أقوى وأصلب،وهذا ما نجده لدى الكثير من المجتمعات التي تحمل ذاتاً وهوية، فإنها تفرض شخصيتها في الواقع، ويتجلى ذلك في مكونات الثقافة والمعرفة وذوات حامليها عبر التاريخ.

هذا البحث يدفعنا لمعرفة جوانب كثيرة لنقاط ضعفنا، ونقاط قوتنا التي تتمايز فيما بينهما في تلك المحددات، عندها ندرك ما نحن فيه من تخبط يحيق بالأمة والمجتمع والفرد على حد سواء، فاعلم أن هناك خللاً في الذات الفردية ابتداءً، ووصولاً للذات الجمعية، سينعكس على هوية الأمة، وتفقد شخصيتها، فيستلزم إعادة ترتيب تلك المصفوفة بين الذات والهوية والشخصية.

– ويمكننا القول أيضاً إنَّ الذات هي حالة

الوعي بمن حولك والعالم وعندما تتجلى تلك المعرفة تصبح الذات أكثر وضوحاً، وأكثر تحديداً بالنسبة لإطلاق ذلك المفهوم ومن هنا نعرف وعي الذات والذات الواعية.

- فالذات العضوية بعواملها وتكاملها البيولوجي، تظل غير مكتملة ما لم يكتمل بذلك الوعي الذي يجعلها أكثر وضوحاً، وهي التي تجعله سعيداً، أو أكثر شقاوة، فالفرد مكون من مجموع ذوات منها الذات العقلية والذات النفسية والذات العضوية والذات الإلهية، فالفرد مكون من مجموع ذوات مكثفة وتظهر له ذات في جانب من الجوانب.

- فالفرد يحب أن يتمظهر في لباسه الأنيق أمام زملائه، وآخر يحب أن يلازم المعرفة فيجد ذاته فيها، وآخر أيضاً يريد أن يعرف العالم وتدفعه «الأنا» لتسيطر ذاته على ذلك المشهد وتحقيق العبودية للآخرين، بينما يرى السيادة على أقرانه، هو الذات التي يراها ذلك الفرد الطموح.

الإنسان مسكون خارج ذاته التي يبحث عنها طوال حياته، ولا زمن محدد لتحقيق الذات، وغير ثابتة، وإنما ملازمة لذلك التطور، فقد يجد ضالته في البعض من هذه الجوانب أو يراها في موضع آخر، ولا يستطيع أن يعيش داخل ذاته، إنما خارج ذاته، فهو في جلسة ما نجده يغرق بأمجاد الماضي التي مر به مرور الكرام، وكما يعيش خارج ذاته في هيامه للمستقبل الذي يُعد نفسه له في تحقيق أمانيه، في هذه الحالة لا هو عاش اللحظة الحاضرة بشكل جيد،خشية أن يخسر مستقبله، أما ماضيه فقد أصبح خلف ظهره، وتلح عليه ذاته من أجل تقويمه، فالذات تعيش في ثلاثة أزمنة الماضي والحاضر والمستقبل، وكل إسهاب في أحدهما سيكون على حساب الزمنين الآخرين.

الإنسان يعيش في ذاته، ولا يستطيع أن يعيش إلا في ذاته، وغير ذلك سيكون خللاً فيما يحققه لذاته وبذاته ولذاته، ولأن الآخرين لا يرونه إلا من خلال ذاته التي تجول بين جوانحه، الذات مختلفة من شخص لآخر، وهذا ما يحدد نمط الشخصية، وبهذا يتفرد كل فرد بشخصية و«كاريزما» تختلف عن الآخر، ويرى «جان بول سارتر» مفهوم الأصالة في تعبيرات مثل تحقيق الذات، وقد يحدث أيضاً أن نجد الفكرة الرومانسية، فكرة الإنسان الطبيعي فكرة الذات الأصيلة، التي لم تشوهها الحضارة، ويمكننا أن نرى في البحوث الحديثة في الذات، اتجاها طافحاً في الوعود، يقرن وجهات النظر التكوينية والنفسية المرضية(نمو الشخص واضطراباته) ويوجه بعض المؤلفين موقعهم في وجهة نظر السيكولوجيا الدينامية، انتباههم إلى الذات (لا إلى الأنا المعنى الفرويدي) فيما يخص النرجسية ويجدون إلهامهم في فكرة جان بياجيه بنشوء الذات

النفسي من حيث هي بنية معرفية.

ويمكــن اعتبار بعض الفاعليات أو أجزاء الفاعليــات، كالسيــادة على الــذات مصدر الذات في الأطوار الأولى من النمو الإنساني، ومصدر وظيفتها أيضاً في المراحل اللاحقة، فالهو يعتبر نواة الذات ومحورها يتغير ويتبدل ولكنــه لا يزول، ونــرى أن الــذات الفطرية الحقيقيــة للفرد هو ذلك الهو، أما الأنا التي يختبئ وراءهــا الفرد هي تلــك الذات التي يحاول رسم ملامحها في كل موضع وفي كل حين، وفــي مرحلة متقدمة منها هو أن يتفق مع المجتمع والعالم من خلال ذات المنظومة للأنــا الأعلى، وهــو العامــل المشترك بين جميع أبناء البشر، والإنسان الذي يتوافق مع معاييــره ونواظمه ومصطلحاته، ستكون ذاته واضحة ومتطابقة مع الآخرين فيما يتفقون، ومتفاوتــة فيما يختلفون عليــه، إنها محققة الرغبــات الجسدية والنفسيــة والبيولوجية التي ينميهــا الإنسان، وقــد تنحسر بعضها من خــلال الرغبات الجسديــة على حساب الرغبات النفسيــة، فتتجسد الذات للرغبات فــي انحسار للرغبــات للقيــم، فيخفي ذاتاً ويحرر ذاتــاً أخرى في موضعيــن مختلفين وتسعفه ذاتٌ أخرى أيضاً.

إنَّ كل الــذوات التــي تتساير مع الإنسان هي التي تجعلــه أكثر انسجامــاً مع بعضها البعضــ أولاً، ومن ثم الآخرين،وهناك حركة تجوال بيــن تلك الذوات التــي تجري داخل الفرد نفسه بما يسمى بالوجدان أو الضمير، إنهــا صــراع الإرادة الحقيقيــة الحرة، لكي يعيد الإنسان ترتيب نفسه مع نفسه ولنفسه، ويظهرها في أحسن حال، وإن كانت في أسوأ الظروف، لأن الإنسان مسكون بالأمل كل ذلك في حرم الذات.

إنَّ محاولة الفرد أن يتجمل أمام الآخرين ما هي إلا صورة ذاته التي يعمل لإظهارها أمام الآخرين،وبقــدر ما تشي به الذات الظاهرية من خلال السلوك تعطي صورة حقيقية لهذا الفرد، وقد لا تكون الصورة كاملة ولن تكون، لأن الــذات لا تتجلى فــي الشخصية بشكل كامل، وهب لــك أن تجالس شخصاً ويفضي لك بكل ما تشــي به نفسه عندها تدرك بوح الذات بين مفردات حديثه.

ربمــا يصبح من العسير أيضــاً أن يكون هناك توافق مــع تلك الذوات وصراع داخلي بين الهــو والأنا، والأنا الأعلــى، فتتمثل في مظاهــر واضحــة لتلك الــذات، ومن خلال اختلال العواطــف والحالات الأنانية، وصولاً إلــى حالات الانتحــار، فالانتحــار هو ذروة الصراع مع هذه الذوات المتنازعة، وانحسار في منظومة «الأنا» والأنا الأعلى - المنظومة الأخلاقية - وربمــا ذلك نابع من قصور في وعي العالم، وهذا مــا شكل نقصاناً في نمو الذات، أو أنها منظومة مختلفة المعايير، تلك المقدمات ستفضي إلى تلك النتائج.

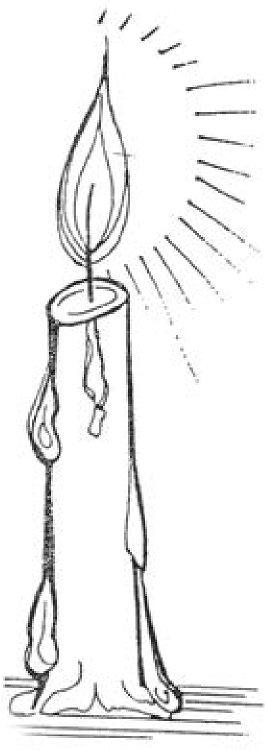
الــذات هــي كل الرغبــات والدوافــع

والعلاقات الناظمة فيما بينها والسيطرة على البعض الآخر وتصريفها في فعل إيجابي في مواضع أخرى، وأي خلل في إحداهما سيكون خللاً على الجوانب الأخرى ذاتياً للفرد، لأن الذات غير مستقرة.

إنَّ كل الممارسات والرغبات تمارس لإرضاء الذات، وتحقيقاً لها، وفي غير موضعها سيكون هناك خلل ويعود إلى البدائية لمراحل تطور الإنسان وتكون الذات، فهي مرحلة الهو، وهذه المرحلة التي يمكن وصفها بأنها الذات الحقيقية تظهر بتجلياتها، ولكن ظهورها سيدمر تلك الذات التي كانت الشرط اللازم والكافي لها هو وعي العالم وصيرورته، فمسألة الوعي مقترنة بالذات، وهذا الوعي بشكل أو بآخر هو تلك الهوية، ونرى ارتباطاً وثيقاً بين الذات والهوية، فكل هوية يجب أن تكون مدعومة من الذات، والذات ملازمة لتحقيق الهوية، ولن تكون في حالة توافق دائم، منها عوامل داخلية ونفسية تترافق مع التطور العقلي والنفسي والجنسي، ومنها عوامل خارجية ستسهم في تبدلات الحياة الاجتماعية، قد يضعف بعضاً منها بنسب متباينة لتظهر ملامح الشخصية تحمل ماهية الذات وجوانب الهوية، ويحصل صراع بينهما دائم، فيطغى أحدهما على الآخر، وقد لا يكون ملحوظاً في جوانب الشخصية ظاهرياً في بعض المواضع، ويظهر في مواضع أخرى، منها الارتباك والقلق والسرقة والانتحار وبنسب متفاوتة، وما يراه «باسكال» بقوله: «بأن هناك تضاد في الإنسان، فالإنسان عظيم لأنه يعمل لسعادته، ولكنه لا يمنحها للعالم، ولكنه شقي لا يلقى السعادة في نفسه، وهناك ما هو أخطر من التضاد، ويحاول الإنسان أن يجمع بين الأضداد، فيختلط الأمر عليه ولا يبلغ سعادة ولا راحة، فالإنسان هو وسط العالم، ولكنه متنقل، فالإنسان دائماً خارج ذاته، ويعمل من أجل ذاته بذاته».

ثورة حقوق الإنسان

❁ فايز أبو عجيب



«حقوق الإنسان»، «القانون الدولي لحقوق الإنسان»، «الشرعة الدولية لحقوق الإنسان»، مصطلحات بات تكرارها أمراً معتاداً في يومياتنا، لدرجة أمكن القول معها إنّ هذه العبارات غدت مظهراً أساسياً من شكليات اللغة الإعلامية والأدبية والدبلوماسية التي نحتك بها يومياً، إلا أنّ المعاني الاصطلاحية التي تحملها هذه العبارات ليست بديهية بالقدر الذي يوحي بها تواترها، ومع ذلك فإنّ معناها اللغوي الذي يتبادر إلى الذهن مباشرة من حيث إنها «حقوق» يملكها «الإنسان» يرتب واجباً على كل إنسان أن يعي

❁ باحث وحقوقي سوري.

مدلولاتٍ اصطلاحية تمســه وتخاطبه وتعنى به، ومن هنــا كان منطلقي لكتابة هذا البحث عله يكون شمعة تنير بداية طريق القارئ نحو عالم حقوق الإنسان الذي -وللأسف- مع كل اتساعــه وتشعبه لم يلــق الاهتمام الكافي في المكتبة العربية ومازالت الكتابات العربية في ميدان حقوق الإنســان لا ترقى لما هو معول عليها من حيــث إحاطة القــارئ العربي ولو بمعرفة أولية بحقوقه الأساسية ومصادرها.

تعد نهاية النصف الأول من القرن العشرين -وتحديــداً العــام ١٩٤٨م- بدايةً لما اخترت تسميته «بثورة حقوق الإنسان»، فقد كان هذا التاريخ محورياً في عملية تبلور واستقرار هذه الحقــوق، وفاتحة لقفزات متسارعة ومتزايدة الاتســاع في إضفاء الصفــة العالمية لحقوق الإنسان، والنقطة التي التقت عندها مسيرات تطور هذه الحقــوق لدى أمم العالم المختلفة معلنــة ولادة ما اصطُلح على تسميته بالقانون الدولي لحقوق الإنسان، -وهو ما يختلف عن القانون الدولي الإنساني الذي يهدف لحماية الإنسان أثناء النزاعات المسلحة-.

وكان من المنطقي أن يعود بنا هذا البحث في فرعه الأوَّل إلى الجذور التاريخية لحقوق الإنســان، ومــن ثم سيتطــرق الفــرع الثاني لمضمون حقوق الإنسان الدولية.

الفرع الأول: الجـذور التاريخية لحقوق الإنسان.

إنَّ الهويــة الإنسانية هــي الهوية الوحيدة المتفق عليها كهوية مشتركــة بين بني البشر أجمعيــن مهما تعددت انتماءاتهــم وصفاتهم وعصورهم، ومن حيث المبــدأ فإن مصطلح حقــوق الإنسان يرتكز على مفهومين، التشابه والاختــلاف،[1] فالتشابه هو الهوية الإنسانية، ويتمثل الاختلاف في الهويــات الأخرى التي تُلحق بالإنسان سواء عند ولادته أو تبعاً لأصله ومحيطــه، أو الهويــات التــي يكتسبها لاحقاً نتيجة لمســار حياته ومجموع هــذه الهويات الأخرى يصطلــح على تسميتهــا الهوية عبر الزمنيــة للإنسان،[2] ومفهــوم الاختلاف ولّد مفهوم -الآخر-، وهنا ظهرت فكرة «الحقوق» من حيث ضرورة تنظيم علاقات الأفراد التي قامت نتيجة للاعتبــارات الاجتماعية، أي إن المظهر الأول للحقوق التي يتمتع بها الإنسان نتج عن وجوده -مــع الآخر- الأمر الذي كان حتمياً نتيجة لوجوده -فــي العالم،[3] ووجود القانون بحد ذاته يعد تعبيراً واضحاً عن توغل فكرة حقــوق الإنسان في التاريــخ، فالقانون مجموعة من القواعــد تنظم العلاقات ضمن الدولة بحيث تضمن حقوق الأفراد سواء تجاه بعضهــم أو تجاه السلطة، وهــذا هو المفهوم الواسع لحقوق الإنسان والذي يخرج عن نطاق موضوعنا.

أمَّا حقوق الإنسان وفقاً للمدلول المعاصر إنما تعني الحقوق اللصيقة بالشخصية والتي يكتسبها الإنسان تبعاً لهويته كإنسان فقط من دون أي اعتبار آخر، وبهذا المعنى فإن حقوق

الإنسان هي حقوق للأفراد تجاه السلطة أو الدولة التي تلتزم بالامتناع عن الافتئات عليها، ومنع أي تعدٍ من قبل الأفراد على حقوق بعضهم البعض.

لم تظهر حقوق الإنسان -وفقاً للمعنى الأخير- في الحضارات القديمة، نظراً لقيام أنظمة حكم تيوقراطية فيها على أساس الحق الإلهي ابتداءً ومن ثم على أساس التفويض الإلهي، وبالتالي ما كان للأفراد حق المطالبة بأية حقوق تجاه السلطة القائمة على أسس دينية، ولا يمكن نسبة الخطأ إليها فهي من يحدد خير الإنسان وشره، وهي من يمنح الحقوق ويرعاها، وهو ما كان سائداً في الحضارات الشرقية السومرية والبابلية وفي مصر الفرعونية على سبيل المثال.

وقدّم اليونان النموذج الأول لمنظومة حقوق إنسان، ففي ديمقراطية أثينا تم الاعتراف بحقوق كثيرة كالمساواة أمام القانون والحق في حرية التعبير والكلام والحق في الانتخاب، وأكد أفلاطون أن الدولة مسؤولة عن تحقيق رفاهية الشعب وضمان حرية الرأي، إلا أن هذه الحقوق كانت قاصرة على اللاتينيين دون غيرهم من الأعراق، ولم يتم إلغاء نظامي الرق والطبقات[٤] بكل ما فيهما من افتئات على الحرية والمساواة، وتجسد ذلك بقول أرسطو إن بعض الناس يولدون عبيداً بالطبيعة ولهذا فهم لا يصلحون إلا للعبودية، ناسفاً بذلك فكرة الهوية الإنسانية أساساً.

ولعبت الديانة المسيحية في الفترة اللاحقة دوراً هاماً تمثل في فصل الدين عن الدولة ابتداءً، الأمر الذي شكل منطلقاً لإمكانية ترتيب مسؤولية الحاكم، وهو ما انعكس على الإمبراطورية الرومانية عقب اعتناقها المسيحية وتجلى ذلك لاحقاً ببعض الحقوق والمبادئ التي وردت في ألواح جوستنيان الاثني عشر في القرن السادس الميلادي، ودخلت أوروبة لاحقاً العصور المظلمة التي استمرت مدة خمسة قرون.

وجاء الإسلام خلال هذه الفترة بمنهج فكري وحضاري خاص، فلم يفصل الدين عن الدولة لكنه رتب مسؤوليات عظمى على الدولة تجاه الأفراد، وأكد على حقوق أساسية كالحق في الحياة والمساواة والكرامة، وأكد على مبدأ الشورى، والنقطة الأهم أن الشريعة الإسلامية كانت ذات صبغة عالمية تستهدف بمبادئها الإنسانية جمعاء، إلا أن هذا المنهج الحضاري لم يستمر على هيئته الأولى في العصور اللاحقة، وتراجع دور الدولة الإسلامية نتيجة للاستبداد والانقسام وعوامل أخرى كثيرة.[٥]

من ثم انحصر التجديد في مجال حقوق الإنسان في أوروبا وذلك منذ بداية عصر النهضة في القرن الثالث عشر وتحديداً في العام ١٢١٥م حيث تم توقيع وثيقة الحريات الكبرى «الماجنا كارتا»، بعد الثورة التي قامت ضد الملك جون، وكانت الحقوق الواردة في

هذه الوثيقة محصورة بطبقة النبلاء، إلا أن أهميتها تنبع من كونها أوّل وثيقة مكتوبة تحوي تعهداً من الملك بضمان حقوق الأفراد، وشكلت بالتالي فاتحة لعصر جديد من حقوق الإنسان لا بل إن البعض يؤرخ لحقوق الإنسان ابتداء بها، كما كانت الأساس الأول الذي ارتكزت إليه فكرة الدساتير المكتوبة لاحقاً منذ القرن الثامن عشر، وكانت أهم الحقوق المستحدثة التي جاءت بها الماجنا كارتا حظر الاعتقال التعسفي، وبني لاحقاً على هذه الوثيقة وثيقة أخرى صدرت عن البرلمان البريطاني في العام ١٦٢٨م سميت بمُلتَمس الحقوق،[٦] ووافق عليها شارل الأوَّل بمقابل ضمان دعم الشعب له في حربه ضد أسبانيا، وقد احتوت على ضمانات هامة للحريات الفردية وحقوق الإنسان، ومن ثم جاء دور جون لوك الذي طور نظرية هوبز في العقد الاجتماعي، حيث جعل الحاكم طرفاً في العقد وبالتالي كان ملزماً به ومسؤولاً عن الوديعة التي أودعها باقي الأفراد في عهدته أمامهم، وتمسك لوك بالحقوق الطبيعية، الحق في الحياة والحرية والمساواة، وتحت تأثير أفكاره أصدر البرلمان البريطاني عقب ثورة شعبية «ميثاق الحقوق»، وذلك في العام ١٦٨٩م والذي أنهى الحكم المطلق للملوك في بريطانيا من دون رجعة، واعتبر الملك مفوضاً من قبل البرلمان ومسؤولاً عن أعماله، وعلى الرغم من أهمية الوثائق الثلاث السابقة الذكر إلا أنها لم تكن ذات صبغة عالمية وكانت موجهة لحماية حقوق الأفراد بمواجهة سلطة الملك دون سلطة البرلمان.

من ثم جاء الإسهام الأميركي عقب حرب الاستقلال عن بريطانيا، والذي تجسد بإقرار «إعلان الاستقلال» كأوَّل دستور مكتوب بالمفهوم الحالي في العام ١٧٧٦م،[٧] وذلك بجهود المؤسسين الثلاثة توماس جفرسون وجورج واشنطن وبنيامين فرانكلين، وقام هذا الدستور على نظريات جون لوك وجان جاك روسو، ناظماً العلاقة بين سلطات الدولة، كما ضمن حقوق الأفراد تجاه هذه السلطات جميعها، لكن هذه الحقوق لم تشمل فئات كذوي البشرة السوداء حتى صدور قانون الحقوق المدنية الأميركي في العام ١٩٦٤م أي بعد قرابة قرنين من إقرار الدستور، كما أن المذابح بحق السكان الأصليين استمرت حتى وقت متأخر، فلم يلغَ -على سبيل المثال- القانون الذي يمنح كل أميركي يحصل على فروة رأس أحد السكان الأصليين (الهنود الحمر) مكافأة مجزية حتى العام ١٨٦٥م أي بعد مرور قرن على إقرار الدستور تقريباً، وهي أمثلة عن البراغماتية الأميركية المستمرة حتى يومنا هذا.

شكلت الثورة الفرنسية ١٧٨٩م نقطة التحول الأخيرة في مسيرة حقوق الإنسان قبل عهد التنظيم الدولي، وارتكزت هذه

الثورة على أفكار جان جاك روسو وفولتير الذي تتلمذ على يد جون لوك، توفي روسو وفولتير في عام واحد ١٧٧٨م، ولم يشهدا ولادة «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» الذي أصدرته الجمعية التأسيسية في العام ١٧٨٩م، ولم يشتمل الإعلان سوى على الحقوق المدنية والسياسية من دون الحقوق الاقتصادية، وأهم هذه الحقوق: الحرية، المساواة، الأمن، توزيع الوظائف والمراتب حسب الكفاءة، حظر الاعتقال التعسفي، شرعية الجرائم والعقوبات، الحرية الدينية والفكرية،(٨) والحقيقة أنَّ هذا القصور أرخى ظلالاً اصطلاحية لاحقاً، فسميت حقوق الإنسان المدنية والسياسية بحقوق الجيل الأوَّل باعتبارها أولى مجموعات حقوق الإنسان من حيث الظهور، ثم أتى دستور الجمهورية الفرنسية الثاني في العام ١٨٤٨م ليضيف بعض الحقوق الاقتصادية، لكن طائفة الحقوق الاقتصادية لم تتبلور إلا في الإعلان الشيوعي «كارل ماركس وفريدريك أنجلز» في العام نفسه ١٨٤٨م، وجاءت ثورة ١٩١٧م في روسيا لتتبنى الحقوق الاقتصادية الواردة في الإعلان الشيوعي.

بعد هذا العرض الموجز لأهم الوقائع التاريخية التي ارتكز إليها التنظيم الدولي لحقوق الإنسان، ننتقل للحديث عن بدايات ظهور حقوق الإنسان الدولية وعن مشتملات ومصادر هذه الحقوق.

الفرع الثاني: عالمية حقوق الإنسان.

عقب نهاية الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٩م، اتفقت الدول في مؤتمر «فرساي» على إنشاء «عصبة الأمم»، والتي لم تستطع أن تمنع نشوب الحرب العالمية الثانية وفقاً لما هو معول عليها، ولاحقاً وفي خضم الجهود الرامية لتشكيل منظمة عالمية تخلف عصبة الأمم مهمتها حفظ السلم والأمن الدوليين في نهايات الحرب العالمية الثانية، والتي أفضت إلى ولادة منظمة الأمم المتحدة في العام ١٩٤٥م، بدأت الأصوات تعلو مطالبة بتضمين ميثاق المنظمة المنشودة نصوصاً تكفل حقوق الإنسان أنّى وجد وأياً كانت جنسيته، وقد جاء المشروع المقدم إلى مؤتمر سان فرانسيسكو١٩٤٥م بإشارة بسيطة لحقوق الإنسان مفادها أن تعمل المنظمة على تشجيع احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية، ومن ثم اقترح الوفد الممثل لبنما وذلك بالنيابة عن دول أميركا اللاتينية إصدار إعلان ينص على حقوق الإنسان، لكن الاتحاد السوفييتي عارض ذلك بحجة أن هكذا إعلان يخالف المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الأمم المتحدة وهو حظر التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء ووجوب احترام سيادة كل منها، وكان الدافع الحقيقي هو التخوف من ظهور نزعات انفصالية في الاتحاد السوفيتي الذي يضم قوميات متعددة، ولم تؤيده بريطانيا حفاظاً على مستعمراتها

في ما وراء البحار، واتخذت الولايات المتحدة الأميركيــة موقفاً سلبياً من المقترح، ولا ينكر ما كان للدول الثــلاث السابقة الذكر من ثقل بعد انتصارهم في الحرب العالمية الثانية ولم يكن لفرنســا رأي مستقل يذكر نظراً لضعفها بعد مــا حل بها من دمار فــي الحرب، فجاء ميثاق الأمم المتحدة في النهاية بسبع إشارات عامة وواسعة تحث على ضرورة احترام حقوق الإنسان.

لاحقاً تم تشكيل لجنة من ثماني شخصيات مهمتهــا وضع مشروع إعــلان عالمي لحقوق الإنسان، واستمر عمل اللجنة من العام ١٩٤٦م حتى العــام ١٩٤٨م، وكان الأعضاء الأبرز في اللجنة هم السيدة إيلينور روزفلت زوجة الرئيس الأميركــي فرانكلين روزفلــت، والدكتور في الفلسفة اللبناني شارل مالك مشرقي الانتماء والمتتلمذ على يد هيدجر أحد رموز الوجودية، إضافة للكنــدي جون همفــري والبروفيسور الفرنسي رينيه كاسان، وصدر الإعلان العالمي لحقــوق الإنســان (IDHR) بتوصية صادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ١٠ كانــون الأول من العــام ١٩٤٨م، واعتمد هذا التاريخ فيمــا بعد للاحتفال باليــوم العالمي لحقوق الإنسان، أمَّا عــن القوة الملزمة لهذا الإعلان فهو قد صدر بموجب توصية أي إنها غير ملزمة من حيث المبدأ، وهو ما عبرت عنه إيلينور روزفلت بالقــول: «إنَّ مشروع الإعلان لا يعتبر معاهدة ولا اتفاقــاً دولياً، كما أنه لا يتضمــن أي التزام قانوني، لكنــه يعد تأكيداً للمبــادئ الأساسيــة التي تقــوم عليها حقوق الإنســان التي لا ينازعه فيها منــازع، كما أنَّ الإعلان يهدف إلى إرساء المبادئ التي ينبغي أن تكــون غاية شعوب الأمــم المتحدة كافة»، وهــو ما يدعو للقول بعالميــة حقوق الإنسان وليس عولمتها، فالإعــلان قرر حقوقاً متفقاً عليها بصيغة أو بأخرى لدى مختلف الشعوب، والواقــع إن مــن يقــول اليوم بعــدم إلزامية الإعلان والقانون الدولــي لحقوق الإنسان - بشكل عام- إنما فاته فهم الفلسفة التي يقوم عليها القانون الدولي عموماً والقانون الدولي لحقوق الإنسان بشكل خاص، من حيث انتزاع الإلزام بتكريس المبادئ بالممارسة والمتابعة، والدليــل على ذلك أن الإعــلان كان الشرارة التي انطلقت منها عمليات إنشاء الدساتير أو تعديلها في أرجاء العالم كافة، إضافة لاعتماد الحقوق والمبادئ التي جــاء بها الإعلان في معظــم دساتير دول العالم إن لم نقل جميعها، كما أنَّ الإعلان كان اللبنة الأساسية التي ارتفع فوقها بنيان القانــون الدولي لحقوق الإنسان باتفاقياته العديدة والتي لمعظمها قوة إلزامية مستمدة روحها من فلسفــة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

يقــع الإعــلان العالمي لحقــوق الإنسان فــي ديباجــة وثلاثين مــادة تشمــل الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافيــة بشكل عام، وأهــم هذه الحقوق ما

يسمى بالحقوق الأساسية وهي الحق في الحياة والكرامة والمساواة والحرية، وسميت بالأساسية لأن حقوق الإنسان الأخرى كافة تدور في فلكها وتعمل في إطارها.

وفي العام ١٩٦٦م تمَّ إصدار اتفاقيتين هما العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية (ICCPR)، والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية(ICESCR) ، ليشكل العهدان إضافة للإعلان ما يسمى اليوم «بالشرعة الدولية لحقوق الإنسان».

يحوي العهد الأول على ديباجة و٥٣ مادة تشمل الجيل الأول من حقوق الإنسان -الحقوق المدنية والسياسية- أهمها الحق في الحياة والمحاكمة العادلة والحق في حرية التعبير والرأي والتجمع وتكوين الجمعيات والانضمام إليها ومنع الاعتقال التعسفي والتعذيب، وبلغ عدد الدول المصادقة على هذا العهد١٦٧ دولة حتى بداية العام ٢٠١٤م.

ويتوزع العهد الثاني على ديباجة و٣١ مادة تشمل حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتسمى حقوق الجيل الثاني، وأهم هذه الحقوق الحق في العمل والراحة ومستوى معيشة جيد والتعليم والضمان الاجتماعي والمشاركة الثقافية، وبلغ عدد الدول المصادقة على هذا العهد١٦١ دولة حتى بداية العام ٢٠١٤م.

تعد الشرعة الدولية لحقوق الإنسان الخميرة الأساسية التي تفرعت عنها لاحقاً اتفاقيات متخصصة سواء لحماية فئات من الأشخاص، أو للتوسع في حماية حقوق معينة، ونذكر على سبيل المثال اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (CEDAW)، وتهدف إلى تعزيز مساواة الرجال بالنساء وتمكين المرأة في شتى المجالات، واعتمدت في العام ١٩٧٩م، كما صدرت في العام ١٩٨٩م اتفاقية حقوق الطفل (CRC) وهي اتفاقية متخصصة بحماية حقوق الأطفال، واتفاقية حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة (CRPD) وتهدف لحماية وتمكين الأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصة ومنحهم معاملة تفضيلية تحقيقاً لمبدأ المساواة بالفرصة وأقرت في العام ٢٠٠٦م، واتفاقية حماية حقوق جميع العمال المهاجرين وأفراد أسرهم (CMW) المقرة في العام ١٩٩٠م والتي تهدف لحماية العمالة المهاجرة داخل الدول المضيفة.

أمَّا الاتفاقيات المتخصصة بحقوق معينة فمنها الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري ((ICERD والتي اعتمدت في العام ١٩٦٩م وهي اتفاقية تهدف لتعميم مبدأ المساواة بين جميع الناس والفئات وفي شتى مناحي الحياة، ومن الاتفاقيات المهمة أيضاً اتفاقية مناهضة التعذيب (CAT) والتي أقرت في العام

١٩٨٤م، وهدفهـا الرئيسـي حماية الحق في الحياة والسلامة الجسدية.

جميـع الاتفاقيات الدوليـة السابقة تعد ملزمة للـدول المنضمة إليهـا، والتي تشكل فـي الوقت الراهن النسبـة العظمى من دول العالم، والجمهوريـة العربية السورية منضمة لجميـع هـذه الاتفاقيـات، وهنـاك إضافة للاتفاقيات التي ذكرتهـا عشرات الاتفاقيات الأخـرى المتخصصـة في حقـوق الإنسان لامجـال لذكرها فـي بحث محـدود كبحثنا هنا، واقتصرت علـى ما يسمى «بالمعاهدات الأساسية لحقوق الإنسـان» وهي الاتفاقيات الأهم، كما انبثقت أجيـال جديدة من حقوق الإنسـان الدولية إضافة للجيليـن السابقين، فهناك الجيل الثالث ويضم الحقوق المرتبطة بالتنميـة، والجيل الرابع -جيـل إستوكهولم- ويحوي الحقوق البيئية.

تنبثـق عـن كل اتفاقيـة لجنـة مختصة تعمـل على متابعة تنفيذ الاتفاقية المعنية بها واستقبال تقارير الـدول بشأن مدى التزامها بتطبيق بنودها سواء على المستوى التشريعي أو التنفيـذي أو القضائـي، كمـا تبحث هذه اللجان الشكاوى مـن الدول على بعضها عند عـدم الالتزام بتطبيق الاتفاقيـة كما تستقبل شكاوى من قبل الأفراد المتضررين مباشرة في بعض الأحـوال، وعليه تقدم توصياتها للدولة المخالفة في حال ثبت وجود الانتهاك.(٩)

ويوجد إضافة للاتفاقيات العالمية السابقة الذكـر اتفاقيـات دولية إقليميـة في حقوق الإنسـان كالاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان ١٩٥٠م، والاتفاقية الأميركية لحقوق الإنسان ١٩٦٩م، والاتفاقية الأفريقية لحقوق الإنسان والشعوب ١٩٨١م وهي سارية في بعض الدول العربية فـي القارة الأفريقية، وأخيراً الميثاق العربي لحقوق الإنسان ٢٠٠٠م وصادقت عليه حتـى الآن ١٤ دولة عربية، وكلهـا اتفاقيات استمدت روحهـا من الإعلان العالمي لحقوق الإنسـان مع مراعاة بعض الأوضاع الإقليمية، وهناك الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان وهو إعلان عقائدي مستمد من الشريعة الإسلامية ويحاكي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

تشـكل الاتفاقيات والعهـود والإعلانات الدولية -الإقليميـة والعالمية- المشار إليها سابقاً باجتماعها مـا يسمى بالقانون الدولي لحقوق الإنسان وهو مـن حيث الغاية ضمانة عالميـة قانونيـة تهـدف لحمايـة الأفـراد والمجموعـات ضد الأفعـال -والامتناع عن الأفعال- التي تتعارض مع الحريات الأساسية والكرامة الإنسانية.(١٠)

وختامـاً لهـذا البحث الموجـز لا بد من القـول إن حقـوق الإنسان هـي مسألة فكر وممارسة يتوجب علينا جميعاً، شعوباً وأفراداً، الإيمـان بها ومن ثـم الاعتراف بهـا حقوقاً لأنفسنا وللآخرين لينعم -الإنسان- بثمراتها.

الهوامش

١- راجع في التشابه والاختلاف والتناقض: ولتر ستيس، فلسفة هيجل، المجلد الأول: المنطق وفلسفة الطبيعة، ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الثالثة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠٠٧م، ص١٨٩-١٩٥.

٢- كاترين آلبيرن وجان كلود روانو بوريالان، الهوية والهويات (الفرد - الزمرة - المجتمع)، ترجمة الدكتور إياس حسن، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١٠م، ص٣٢.

٣- راجع في الوجود والماهية: جون ماكوري، الوجودية، ترجمة د.إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت ١٩٨٢م، العدد٥٨.

٤- راجع في التقسيم الطبقي عند أفلاطون: د.أميرة حلمي مطر، جمهورية أفلاطون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص٢٤.

٥- للتوسع في دور الإسلام في ميدان حقوق الإنسان راجع: د. محمد عمارة، الإسلام وحقوق الإنسان، سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٥م، العدد ٨٩.

٦- د. عبد العزيز سليمان نوار، د. محمد محمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، ١٩٩٩م، ص٢٠٧-٢١٨.

٧- ه. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، كتاب عربية، د.ت، ص٥٧٨.

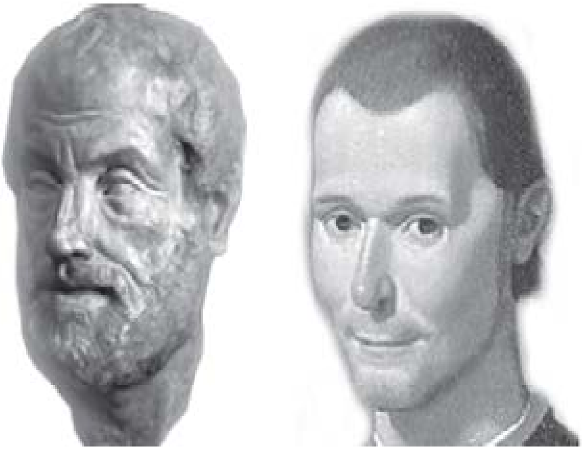
٨- راجع في أحداث الثورة الفرنسية: فرنسوا فوريه، دني ريشيه، الثورة الفرنسية، ج١+٢، ترجمة زياد العودة، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م.

٩- للتوسع والاطلاع على تفاصيل الاتفاقيات وآليات عمل اللجان المنبثقة عنها يمكن زيارة موقع الأمم المتحدة على الإنترنتWWW.UN.org .

10- Human Rights Indicators, A Guide to Measurement and Implementation, United Nations, Office of the High Commissioner, New York and Geneva, 2012, p24.

نحن والسياسة
بين الفضيلة والفساد

❋
المهندس: جورج. ن. جبلي



تسمى دراسة السياسة عامة بعلم السياسة، وهي التي لا يمكنها أن تكون علماً المحتوى نفسه الذي ينطوي عليه علم الفيزياء، لما يقوم عليه من قياسات وتجارب وأرقام، إذ إنه في كل قرار سياسي، يوجد عنصر من المغامرة والمجازفة.

«كريستيان غاوس
عميد جامعة برينستون»

الخطة والهدف

لأنّ جنوح النفس البشريّة إلى الفساد، أسهل بكثير من الحفاظ على براءتها، فتصبح

❋ باحث ومترجم.

تنمية «الروح الأخلاقيــة» بالثقافة والحكمة هــي الكفيلة والداعم الأقــوى لقدرتها على مواجهة الخطط الشيطانية لقوى الشرّ.

قــد تضــع الــدول خططــاً لأهــداف إستراتيجيــة كبــرى، مــع الخطــط البديلة ومراحلهــا الزمنيــة واحتياجاتهــا العملية، وأدوار حلفائها وعملائها إعلامياً واقتصادياً وثقافيــاً وعسكريــاً، وبشــكل تبــدو الخطة ظاهريــاً بمظهر المدافع عــن حق له وليس المهاجم، وبالأقنعة المناسبة.

وحتى تكون الجهــة المقاومة قادرة على إفشال الخطة، هي بحاجة إلى سياسيين لهم خبرة بفــك الشيفرة وكشف الخدع والإعداد المسبق لزمن وأسلوب الرد.

في لعبة البليــاردو، يضرب اللاعب كرةً قريبةً مــن عصاه السحرية، (بعــد أن يضع خطّته بهــدوء)، فتتضارب الكــرات بعضها ببعض، وأخيراً تسقط كرةٌ ما في الحفرة.

هذه هي لعبة السياسة، المعلن والظاهر منها شــيء، والغاية النهائية من الخطة شيء آخر، يبقى سرياً وغامضــاً ملفوفاً بالأقنعة، حتى تسقط الكرة في المرمى.

يتحدث الناس عامةً في السياسة، معتمدين على ما تيسر لهم مــن معلومات مستقاة من (وسائــل إعلام؟) أو من أيــة مصادر أخرى، فيتحــاور المتحاورون، ويتحــدث المعلّقون، ويبحث الباحثون، وينجّم المنجّمون، محاولين كشف ما وراء هــذا الخبر أو ذاك، والجميع يعرف بــأن الحقيقة محجوزة في (الصندوق الأسود)، إلى أن ينجلي غبار المعركة فيحتفل المنتصرون، وقد يعيد المهزومون حساباتهم الواقعيــة استعــداداً لجولة جديــدة، وغالباً ما يحاولون إقناع الشعــب بأن ما حصل هو «انتصار»، أو أنه انسحاب تكتيكي كحد أدنى لحفظ ماء الجبين.

الحكمة والحمق

إنَّ مــن يتحمّل نتائج مغامــرة ومجازفةِ السياسييــن، بقراراتهم التــي لا تستند إلى دراسات واقعية للحاضر، ومنطقية للمستقبل، هــو الشعــب الفقيــر، فمنه يسقــط أغلب الشهــداء، ومنه الأمهــات الثكالى والجرحى المشوهون جسديــاً ونفسياً، والعائلات التي تفقد مأواها وتتشرّد في وطنها ودول العالم، فقط بسبب قرارٍ أحمق.

وأمَّا القرارات الحكيمة النابعة من الإخلاص للوطن والشعب، والتي أخذت بالحسبان حجم الفعل ورد الفعل والاستعداد لاحتمال المفاجآت غيــر المتوقعة كافة بعد أن تكــون قد وصلت استعداداتها لدرجة «توازن الرعب» الذي يمنع المعتدي من العدوان أو يؤجله.

بهــذه القرارات فقط ينــدفــع كلّ الشعب ليدعــم دولته بكل ما يملك متناسياً الخسائر كافة ويداً بيد يسير مع السياسيين الحكماء.

وبيــن أطماع الطامعين ودفــاع الشعوب عــن حقوقها، فقد تتالت عبر التاريخ حروبٌ طاحنةٌ، بأقنعةٍ ومبرراتٍ مختلفة دمّرت شعوباً

وأفنت شعوباً، فقط لقرارات حمقاء من السياسيين الطامحين إلى السلطة من أجل السلطة، وتنفيذاً لرغبات نفوسهم المريضة.

١ - أرسطو

الفضيلة والعدالة

وُلد أرسطو «السوري» في قرية «ستافرو» في لبنان عام ٣٨٤ ق.م وعندما بلغ الثامنة عشرة، انتقل إلى أثينا ليكمل علومه، وأصبح من تلاميذ أفلاطون، عمل معلماً للإسكندر المقدوني، وتوفي في عنجر في لبنان عام ٣٢٢ ق.م.

إنَّ من أهم وأقدم المؤلفات التي وضعت في السياسة «كتاب السياسة» للفيلسوف والمفكر أرسطو، الذي تنبأ فيه بسقوط إمبراطورية قرطاجة لفساد سياستها، وركّز فيه على ضرورة الاهتمام بالتعليم، ليرتفع شأن المحكومين والحكّام والحُكم، وأعطى الدور الأكبر للفكر والثقافة في عالم السياسة.

رأى أرسطو أنَّ الفلسفة لم تبدأ إلا من القرن السادس ق.م، على يد «طاليس المالطي»، ويبدو أنه تأثر بأفكار أفلاطون وآرائه الاجتماعية، لكنّه كان أكثر اعتماداً على التجربة، وشبه المجتمع بالكائن الحيّ الذي يولد وينمو ويموت، ووضع شروطاً للدولةِ الصالحةِ الفاضلة، إضافة إلى ضرورة الجمع بين القوة والذكاء، وجَعَل السياسة علماً مستقلاً.

استند أرسطو في آرائه إلى المنطق، وجعل مشاهداته وتحليلاته أساساً لآرائه في علميّ السياسة والأخلاق، ولقد رأى بعض المفكرين والنقاد أن أرسطو كان أستاذَ الفكرِ النقدي، الذي هو أساس العلم بالذات.

أرسطو والدولة

لقد رأى أرسطو أن «الدولة هي جماعةٌ ذات تنظيم مشترك، أو مصالحَ مشتركة، أو تعيش في موطنٍ واحد، وفي ظل قوانينَ واحدة، وتهدف كل جماعةٍ إلى كفالة الخيرِ لأعضائها، لأنَّ البشر يتجهون دائماً إلى ما يظنونه نافعاً لهم، ولكن الجماعاتِ بأسرها تصبر لاستجلاب نفع عام، وأصبح لا مناص من انبعاث الجماعة السياسية «أي الدولة».

يقول أرسطو: «لأن الفضيلة ليست مجرد فعل، إنما هي شيء مكوَّن، فنحن نصبح عادلين عندما نتصرف بشكل عادل، هي شيء يتألف من جانب إرادي يحدِّد الغاية، ومن جانب عقلاني يحدِّد الوسيلة، ومن هنا جاء التعريف القائل بأن الفضيلة هي حالة مكتسبة إرادياً، ترتكز فيما يتعلق بنا على القياس، وهو حالة يحدِّدها العقل، بما يتناسب مع سلوكية الإنسان المتزن، والنشاط الأخلاقي، يصبح ضرورياً للإنسان لكي يلطِّف من شهواته، وينصرف تحديداً إلى الحياة».

وقال فـي العاملين بالشـأن العام: «ثمة شـروط ثلاثة يجـب أن تتوافر فـي كلٍّ من يملُكون السلطة في الدولة وهي:

١- الإخلاص لنظام الدولة.

٢- الكفاءة لأداء مهامٍّ وظائفهم.

٣- الفضيلـة والعدالة، في المعنى الذي يتفق مع نظام الدولة.

وإنَّ خير ما يصون نظام الدولة، هو تعليم المواطنين على «روحيـة الدولة» إذ من دون هذا التعليم، تغدو أحسـن القوانين وأكثرها حكمـة غير مجدية، ولما كانـت الدولة، كل دولة، نوعاً من المشاركة، وكانت كل مشاركة تتم للوصول إلى نفع وخير، إذ من المفروض أن الخير هـو نهاية كل عمـل، وبالنظر لأن الخيـر هو هدف جميـع المشـاركات، فإن الخيـر الأسمى وفي أرفـع رتبة هو في تلك المشاركة السامية في السياسة».

لقـد كان أرسطو «السـوري» أهم نقطة إشعـاع فكـري وأخلاقي وثقافـي في تاريخ الفلسفة والسياسة من دون منازع.

٢ - زينون الرواقي

«الأخلاق»

فيلسـوف فينيقـي ولد فـي قبرص بين عامي ٣٥٨-٢٦٠ ق.م، كان والده تاجراً يسافر إلى بلاد اليونان، شُغف بمذكرات (كزنوفون) عمل بالتجـارة كأبيه وفقد ثروته في البحر، استقر فـي أثينا وهو في الثلاثين من عمره، وتتلمـذ علـى الفيلسوف (أقراطسـس)، وقد أسس مدرسته (الرواقية) حوالى عام ٣٠٠ق.م، تـرك مؤلفات كثيرة مـن بينها «الأخلاق» و«الجمهورية في العقل».

كان زينون يَعتَبِر أن «الفضيلة هي الخير الأوحد، وأن الشر ضعفٌ وفسادٌ في الأخلاق «كما يرى بأن «الإنسـان الحكيم هو الوحيد الذي يحوز الخير الحقيقي، ومن آراء زينون ومواقفـه قوله «عش بوفاقٍ مع نفسك، وعش بوفاق مع الطبيعـة» و«إنَّ الحكمة والسعادة تحصـلان مـن الانسيـاب في تيـار الحياة الكونية، فـإذا اتبع الإنسـان الفضيلة عاش سعيداً، لأنَّ الفضيلة كلها جيدة، وإن الرذيلة شر كلها، وإنَّ الفضيلـة توصل إلى السعادة، والرذيلة تجرّ إلى الشقاء».

ولقـد ميز زينـون بين ثـلاث فئات من الأشيـاء: «فئة الطبيعة الفاضلة وفئة الأمور السيئـة الفاسـدة وفئـة حياديـة بذاتها». وقسم الفلسفة إلـى ثلاثة أشياء رئيسية هي «المنطق والطبيعيات والأخلاق». وأدخل في الطبيعيـات ما أسماه مباحث الوجود، وبلغت عنايته بها وبالأخلاق حداً كبيراً إذ كان يقول عن الطبيعة البشرية «إنها العقل».

ومن أقواله:

«أنـا أمارسـ فن الحيـاة، وهدفها هو الفضيلة».

«إنَّ القيمة ليسـت للكلمات، بل للمعاني الكبيرة التي تتضمنها».

«لنا أذنان ولسان واحد لكي نسمع أكثر مما نتكلم».

لقد أورد (ديوجانس) في كتابته لسيرة زينون، شهادة (لأرسطو) تبين مدى رقيه جاء فيها: «ألم يكن (طاليس) أبو الفلسفة بشهادة أرسطو فينيقياً مثله، وكم هي أقدم من أفلاطون وأرسطو الحضارة الفينيقية - الكنعانية، حضارة صيدون مدينة آبائهما».

وكما قال «برتراند راسل» الفيلسوف البريطاني عن الرواقيين، «إنَّ الرواقية أقل الفلسفات يونانيةً، الرواقيون الأوائل كانوا غالبيتهم سوريين».

ولما رثاه تلميذه (زينودوت)، الذي ألقى قصيدة نُقشت على قبره جاء فيها «هل يُضيرك أن تكون فينيقيا موطنك؟ ألم يكن « قدموس» نفسه فينيقياً، وهو الذي أعطى لليونان فن الكتابة».

ابن خلدون

الحكمة

لم يَعرف التاريخ السياسيُّ العربيُّ رجلاً مُلئَت حياتُهُ بالحوادث كعبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي «ابن خلدون» الذي ولد في تونس عام ١٣٢٢م وتوفّي في مصر عام ١٤٠٦م.

لقد ترك ابن خلدون مؤلفات عدّة، منها كتاب «العِبَر وديوان المبتدأ»، والخبر «حياة ابن خلدون» و«فلسفة ابن خلدون» وأهمها «مقدمة ابن خلدون الشهيرة».

١ - الحُكْم والمحكمة

في الفصل الرابع والعشرين من كتابه «مقدمة ابن خلدون» قال:

«اعلَم بأنّ مصلحة الرعية في السلطان، ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحةِ وجهه، أو عِظَمَ جثمانه، أو اتساع علمه، أو جودة خطه، أو ثقوب ذهنه، وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم، فإنَّ المِلكَ والسلطان من الأمور الإضافية، وهي نسبة بين منتَسَبين، فحقيقة السلطان، أنه المالكُ للرعية، القائم على أمورهم عليهم، فالسلطان من له رعية، والرعية من لها سلطان، والصّفة التي له من حيث إضافته إليهم هي التي تسمى الملَكَة، وهي كونه يملكهم، فإذا كانت هذه الملَكَة وتوابعها من الجودة بمكان، حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه، فإنها إن كانت جميلة صالحة، كان ذلك مصلحة لهم، وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضرراً عليهم، وألاَّ كالَهُم، ويقود حسن الملَكَة إلى الرفق فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات، منقباً عن عورات الناس، وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلّقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت النهاية بفساد النيات، وربما أجمعوا على قتله لذلك، فتفسد ويخرَّب السياج، وإن دام أمْره عليهم وقهرُه فسدت العصبية لما قلناه أولاً

وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية.

وإذا كان رفيقاً بهم، متجاوزاً عن سيئاتهم، استناموا إليه، ولاذوا به وأُشربوا محبته، واستماتوا دونه في محاربة أعدائه، فاستقام الأمر من كل جانب، وأمَّا توابعُ حُسنِ الملَكَة، فهي النعمة عليهم، والمدافعة عنهم فالمدافعةُ بها تُتم حقيقة المَلِك، وأما النعمةُ عليهم والإحسانُ لهم، فمن جملة الرفق بهم، والنظر لهم في معاشهم، وهي أصلٌ كبيرٌ من التحبب إلى الرعية، واعلمْ أنه قلّما تكون ملكَةُ الرّفق في من يكون يقظاً شديدَ الذكاءِ من الناس، وأكثر ما يوجد الرفقُ في الغَفِل، والمتغفِّلِ وأقلُّ ما يكونُ في اليقظِ، لأنه يكلفُ الرّعيّة فوق طاقتهم، لنُفوذِ نظره فيما وراء مداركهم، واطلاعه على عواقب الأمور في مبادئها بالمعيّة فَيَهلَكون، لذلك قال صلّى الله عليه وسلّم (سيروا على سيّر أضعفكم) ومن هذا الباب اشترط الشارعُ في الحاكم، قلّة الإفراط في الذكاء وتقرر من هذا أن الكَيّس والذكاء عيبٌ في صاحبَ السياسة، لأنَّه إفراط في الفكر، كما أنَّ البلادة إفراط في الجمود، والطرفان مذمومان من كل صفة إنسانية، والمحمود هو التوسط، كما في الكرم مع التبذير والبخل وكما في الشجاعة مع الهَوَج والجبن وغير ذلك من الصفات الإنسانية، ولهذا يُوصف شديد الكَيّسِ بصفات الشيطان، فيقال شيطان ومتشيطن، وأمثال ذلك والله يخلق ما يشاء وهو العليم القدير».

٢ - بين السيف والقلم

في الدول

وفي الفصل الخامس والثلاثين، وفي التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول قال ابن خلدون:

«اعلم أن السيف والقلم - كلاهما - آلة لصاحب الدولة، يستعين بها على أمره، إلاَّ أن الحاجة في أول الدولة إلى السيّف، مادام أهلها في تمهيد أمرهم، أشد من الحاجة إلى القلَم، لأنَّ القلم في تلك الحال خادمٌ منفذٌ للحكم السلطاني، والسيف شريك في المعونة، وكذلك في آخر الدولة، حيث تضعُف عصبيتُها كما ذكرناه، ويقلُّ أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدّمناه، فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف، وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة والمدافَعة عنها، كما كان الشأن أوّل الأمر في تمهيدها، فيكون للسيف مزيَّة على القلم في الحالتين، ويكون أرباب السيف حينئذ، أوسعَ جاهاً، وأكثر نعمة، وأسنى إقطاعاً، وأمَّا في وسطِ الدولة، فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف، لأنَّه قد تمهَّد أمره ولم يبق همّه إلا في تحصيل ثمراتِ المُلكِ من الجباية والضّبط، ومباهاة الدول، وبتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين له في ذلك، فتعظم الحاجة إلى

تصريفه، وتكونُ السيوف مهملةً في مضاجع أغمادها، إلاّ إذا أنابت نائبةٌ، أو دعيت إلى سدِّ فرجة، ومما سوى ذلك فلا حاجة إليها، فتكونُ أرباب الأقلام في هذه الحاجة أوسَعَ جاهاً وأعلى رتبةً، وأعظَمَ نعمةً وثروةً، وأقرب من السلطانِ مجلساً، وأكثَرَ إليه تردداً، وفي خلواته نجياً، لأنه حينئذٍ آلتهُ التي بها يستظهر على تحصيلِ ثمراتِ ملكِه، والنظر إلى أعطافه، وتثقيف أطرافه، والمباهاة بأحواله، ويكون الوزراء حينئذٍ، وأهلُ السيوف مستغنى عنهم، مبعدين عن باطن السلطان، حذرين من أنفسهم من بوادره».

٤ - مكيافيلّي

الدهاء والعنف والمكر

وُلد مكيافيلّي في فلورنسة في إيطاليا عام ١٤٩٦م، عَثر على مُثله العليا في تاريخ الرومان، ومن ثمَّ أضحى من واضعي السياسة ومخططيها لمدة ثلاثة عشر عاماً، نُفي بعدها إلى خارج فلورنسة حيث تمكّن من أن يضع كتاباً صغيراً، أسماه «الأمير»، وتوفي عام ١٥٣٢م.

لقد بات كتاب (الأمير) من الكتب التي طوتها صفحة الزمن، إذ إنَّ عهد الملوك والأمراءِ قد ولّى أو في الطريق إلى ذلك، حيث كُتب في فترةٍ أسماها أعظمُ مؤرخي عصر النهضة من الإنكليز «بعهد الطغاة»، وليس في وسع إنسان من أبناء القرن العشرين، أن ينكرَ وصولَ زعماءٍ وسياسيين إلى السلطة، من أمثال هتلر وموسوليني، ولينين وستالين وغيرهم ممّن يعتقدون بأنَّ الدولة قوة فقط، ولا تنطوي على مبادئ أخلاقية، فقد اختاره موسوليني في أيام تلمذته موضوعاً لأطروحته لنيل درجة الدكتوراه، وكان يضعه هتلر قرب سريره ولا يدهشنا قول «ماكس ليرنر» في مقدمته لكتاب «أحاديث» أن لينين وستالين أيضاً قد تتلمذا على مبادئ مكيافيلي.

النذالة والقبح

لمّا كان الوصول إلى الإمارة بطريقتين، لا علاقة لهما مطلقاً بالحظّ أو الكفاءة، الأولى عن طريق النذالة والقبح والعنف، والثانيةُ عن طريق ارتقاءِ أحد أبناء الشعب سدّة الإمارة بتأييد مواطنيه، فقد سرد مكيافيلي مثالاً عن النذالة للوصول إلى الإمارة من دون التحدث عن مزايا هذا الأسلوب، لاعتقاده بأنّه كافٍ لإقناع من يرى نفسه مضطراً لتقليده.

في الفصل الثامن من الكتاب، حكى مكيافيلّي عن ذلك اليتيم الذي يرعاه خاله في فيرمو في إيطاليا، والذي ابتدأ حياته كجندي، وبفضل «ذكائه وحاضر بديهته وحيويته»، تمكن من أن يصبح أحد قادة القوات المحاربة، وعندما عزم على احتلال «فيرمو» مدينة خاله جيوفاني، كتب له معرباً عن أشواقه لرؤياه، ورؤية مدينته، وتفقّد ممتلكاته، وأنه يودُّ أن يأتي إلى المدينة بصورة تنطق بالمجد، يرافقه نحو مئة فارس،

من أصدقائه وأتباعه، ورجا خاله أن يصدر أوامره بأن يستقبله أهل فيرمو استقبالاً ينطوي على التكريم، فلم يتقاعس خاله عن الاحتفاء بابن أخته، ثم استضافه في بيته.

وبعد أيام عدة، أعدَّ خطته الشريرة الماكرة، دعا خاله وجميع البارزين من رجال فيرمو، إلى وليمة كبرى، وبعد العشاء، افتتح بكياسة بعض المناقشات المهمة، وعندما بدأ خاله والآخرون بالردِّ عليه، نهض فوراً على قدميه قائلاً: إن هذه المواضيع يجب أن تُبحث في خلوةٍ، ومضى إلى غرفة مجاورة، لحقه إليها خاله والآخرون، وما كادوا يجلسون حتى هجم عليهم الجنود من مخابئهم، فقتلوا خاله وجميع الوجوه المدعوَّة، واحتلَّ المدينة.

ويقول مكيافيلّي: «إنَّ على المحتل، عند احتلاله لدولةٍ من الدول أن يتخذ التدابير اللازمة، لارتكاب فظائعه، فوراً ومرةً واحدةً، وبصورة جماعية، أمَّا المنافع فيجب أن تمنح قطرة فقطرة حتى يشعر الشعب بمذاقها، ويتلذذ بها».

الغاية تبرر الوسيلة

إنَّ إنسان مكيافيلّي المثالي هو من يستطيع أن يتبدل ويتلوَّن وفق الظروف والأحوال المختلفة وفي هذا يقول: «قد تكون عوامل الزمن والظروف ملائمة، فيلقى أحدهم النجاح، ثم لا تلبث أن تختلف هذه العوامل فيتحطَّم، لأنه لم يغيِّر طريقته في العمل، وإذا كان باستطاعة الإنسان أن يغيِّر طبيعته وفقاً لتغير الأزمنة والظروف، فإن القدر لا يتغير أبداً».

«وأقول بأن الحظَّ يتبدل، وأما الناس فيبقون ثابتين على أساليبهم، وهم ينجحون طالما تتوافق أساليبهم مع الظروف، أما عندما تتعارض، فإن الفشل سيكون من نصيبهم، وإني لأعتقد بأن التهور خير من الحذر،... يميل دائماً إلى الشباب لأنهم أقل حذراً، وأكثر ضراوة ويمتلكونه بوقاحة وجرأة».

مصباحُ الشيطان

في رواية شكسبير «زوجات وندسور المرحات» أطلق على لسان أحد شخصياته قوله «ماذا، أأنا مخادع، أأنا مكيافيلّي؟».

لقد كان من المعروف والشائع عن مكيافيلّي نفسه، أن سمعته موضع الطعن والشبهات، ولاسيما وقد غدت المكيافيلّية نعتاً يجمع من المعاني ما تحمله كلمة الشيطان.

وفي رواية مارتسون «بيجماليون» يقول «وكان أحد المكيافيليين الملعونين يحمل المصباح، للشيطان برهة من الزمن» ولم يحدث أن تبدل موقف الرأي العام تجاه سمعة مكيافيلّي، وظلَّت كلمتا «مكيافيلّي» و«ميكافيلّية» إلى اليوم تحمل المعاني نفسها التي كانت تحملها في الماضي.

ويقول دبليو. اش. داننغ. في كتابه «تاريخ

النظريـات السياسية» «لقد ظلَّ هذا المؤلَّف مغايراً لتيـارات الفكر السياسـي الحديث، مدة ثلاثة قرون، وقد بـدأ بالتسلّل إلى هذه التيارات الحديثة، فـي أواخر القرن الثامن عشـر، وغدا قريباً مـن السيطرة عليها، في القرنين التاسع عشر والعشرين».

إنَّ كتـابَ «الأميـر» قد وضـع القواعد الأولى للفساد فـي الدولة والمجتمع، وجعل من نظريته «الغايـة تبرر الوسيلة» دعوة لكل شرير إلـى التكيف وفقاً لتطـورات الأزمنة ومقتضيـات المصلحة، وهـو الكتاب الذي يبدو أن الصهيونية قـد استوحته في كل ما عملته وتعمله في هذا العالم.

الغرب.. ورد الجميل...!!!

لقد اختلطت مفاهيمنا كثيراً، بين الحلال والحـرام، بين الحقِّ والباطـل، بين الفضيلة والرذيلة، منذ ابتدأ الغرب بتصدير عولمته، من خلال أفـكار بعض فلاسفته في الترويج للفسـاد، وإعطائه المبـررات، والدفاع عنه، ومن خـلال الاستعمار الذي يهدف إلى إلغاء هويتنـا، واستثمار اختراعاتـه، ما شجّع كل طامعٍ بالثروة أو الجـاه أو السلطة، ليضرب عرضَ الحائـط، بـكل المفاهيـم والقيم الأخلاقية ويتحـول إلى إنسـان فارغ تقوده الغريزة، والأهواء، والأنانية.

نحن الذين صدَّرنا إلـى العالم، والغرب بالخصوص، «إقليدس» عالـم الرياضيات والهندسـة، و«أبُّولـودور الدمشقي» مهندس العمـارة الذي شيّد في رومـا أهم منشآتها، و«جوليـا دومنا» التي مُنحت لقب إمبراطورة رومـا، ونقلت الأفـكار الدينيـة والفلسفية السورية إلـى الغرب، و«فيليب العربي» الذي كان استمراراً لحكـم الأباطرة السوريين في روما، وكما ذكرنا، «أرسطو» أستاذ الفلاسفة ورائد الفضيلة والعدالة في العالم، وغيرهم الكثير، فنحن أبناء بلدِ النور والإشعاع الفكري والثقافي إلى العالم.

وبالمقابل، مـا الذي صدَّره الغرب إلينا؟ استعمـار قديم، واستعمار جديد مغلف باسم العولمة أحيانـاً، والحرية وحقـوق الإنسان أحياناً أخرى.

لقد بدأ الهجوم الغربي في نهايات القرن التاسع عشر، وبعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول فـي بازل فـي سويسرا عـام ١٨٩٧م وحتـى اليوم، إلـى أن تحوَّلنـا تدريجياً إلى مجتمع استهلاكـي لمنتجات الغرب الثقافية والصناعية، وأصبح أغلبنا كالدمى المتحركة في أيديهم أو بيادق صغيرة في لعبتهم.

فنُّ المُمكن

يُقـال بـأن «السياسة هي فـنُّ الممكن» وأن اختيار قـرار «الممكن» هـذا يعود إلى سياسيين مختلفين من الأصـل، أيديولوجياً وفلسفةً وانتماءً فكرياً، كما هو حال الفلاسفة ونظرياتهم عبر التاريخ القديم والحديث.

إنَّ الصّـراع بيـن الفضيلـة والفسـاد، بين السالـب والموجب، قد رمـى ظلّه على

الفلاسفةِ والسياسيين، فلكلٍّ نظريةِ البيئةُ التي نمت فيها، باختلاف الزمانِ والمكانِ والإنسان.

لقد تميَّزت الحقبة اليونانية الإغريقية بفلاسفتها المرتكزين على ثقافةٍ وأفكارٍ أخلاقية، بينما فرضت ظروف أوروبا في القرون الوسطى هيمنتها على فلسفةِ العنف الشريرة، جرَّاء الحروبِ التي أنتجت عصرَ النهضة.

ولطالما أن السياسة في أغلب الأحيان هي بنتُ الفلسفةِ والفكر، بفرعيها السالب والموجب، فالناتج أيضاً باختيار «الممكن» يشمل ضمناً صراعَ الأفكارِ والنظريات، فبين أن تكون دوافع السياسيِّ ذي الخلفية النابعة من ارتباطه بأرضه ومصالح شعبه، وتكون لقراراته الخير الذي يعم الجميع، وبين أن تكون دوافعُ السياسيِّ الآخر، اتباع أهوائه وغرائزه وإيجاد طريقةٍ قانونية أو غير قانونية، بأقنعة أو من دون أقنعةٍ للوصول إلى المال والجاه والسلطة، فيكون قرار «الممكن» هنا كارثة اجتماعية وإنسانية، لايُعرَف مداها.

وأمَّا عن أغلب أبناء الشعب رماديي اللون والطبقة الصامتة، فهي التي تدفع أثمان الكوارث، ما يُلزِمُ الجهات المختصة كافةً تحصينها بالعلمِ والثقافةِ كي تتمكّن من إفراز سياسيين ومسؤولين يعبّرون عن مصالحها بكفاءات علمية وأخلاقية، ووعي كامل لأبعاد المرحلة، فالشعب هو مرجع السلطات، وعليه محاسبة هذه الطبقة السياسية المنتخبة حساباً عسيراً إذا أساءت أو خانت. ومكافأتها إن أصابت.

يسير العالم اليوم إلى المجهول، وسط مخاضٍ فكريٍّ بين الطريقين الأزليين، الفضيلة والفساد فلتتزوّد حَمَلة راية الفضيلة والحبِ والسلامِ بالقوة اللّازمة والملائمة ضماناً للشعب من غدر الفريق الآخر الفاسد، وحمايته من الكراهية والتعصب والحروب، فالحقُّ يحتاجُ دوماً إلى قوةٍ تحميه، وكما قال «غاندي» وحده اللاّعنف قادر على استعادة الحقيقية، ثم العنف إن لم يوجد طريق آخر.

المراجع

١- كتاب «مقدمة ابن خلدون»، إصدار مكتبة المثنى بغداد.

٢- كتاب «الأمير» لمكيافيلّي، ترجمة خيري حماد وتقديم كريستيان غاوس، العميد السابق لجامعة برنستون في أميركا الناشر: الأستاذ زهير البعلبكي - بيروت عام ٢٠١٣م.

٣- كتاب «سوريّون في التاريخ» تأليف سهيل رستم، الناشر: دار فكر للأبحاث والنشر - بيروت عام ٢٠١٣م.

٤- كتاب «السياسة» لأرسطو، ترجمة الأب أوغسطيس بربارة البولسي بيروت عام ١٩٥٧م.

حقيقة التطرف

❋
نبيل فوزات نوفل

لم يعد خافياً على كل متابع للدور الذي تقوم به القوى الاستعمارية على المسرح الدولي قديماً وحديثاً من خلال بشاعة وقذارة الأساليب التي تستخدمها في سبيل الوصول لأهدافها في الهيمنة والسطو على خيرات الشعوب واستلابها لكي تبقى المجتمعات البشرية ألعوبة بيد القائمين على صناعة القرار في الإمبراطورية الرأسمالية العالمية المدارة من قبل الماسونية العالمية المسخَّرة لخدمة الصهيونية.

ومن بين الأسلحة القذرة والأكثر فتكاً الذي تستخدمه هذه القوى لتحقيق هدفها الخبيث هذا سلاح التطرف لأنه الطريق الذي يسهل لها تنفيذ أحلامها في الهيمنة على البشرية جمعاء من دون تكاليف، بل بأيدي الضحية نفسها.

ولقد تم الخلط بين الأصولية والتطرف، حيث المعنى السائد المعمول به للأصولية ليس هو المعنى القاموسي الأصيل للكلمة، ذلك أن الأصولية، تعني الانتماء الأصيل والعودة إليه، فالأصولية اشتقاق من «الأصول»، جمع أصيل، وهي من هذا المنظور تعني الأصالة، وهذا هو بالضبط المعنى اللغوي الأصيل للأصولية الذي يعني إحداثيات النسب

❋ باحث وناقد.

التاريخي والحسب الثقافي العام للجماعة المعنية والمجتمع أو الفرد المعني.

وأمَّا العودة إلى الأصل، فلا تعني هنا لوي عنق الحاضر أو «قص» «أطرافه» في سبيل تفصيله على مقاس «صندوق» الماضي بفرض التمسك بحرفية الأصل والانصياع له أو الانغلاق عليه ضمن أطر ماضوية تحول دون رؤية أو مواكبة تطورات الواقع ومستجدات التاريخ، فالانتماء إلى الأصل والعودة إليه بالمفهوم الإيجابي للأصولية تعني وتفترض بالضرورة التاريخية إعادة تأصيله وتأهيله شرطاً ضرورياً لتوطينه في الحاضر، ذلك هو الشرط الضروري للإبقاء على الأصل واقعاً حاضراً باستمرار. فالتمسك بالأصل والانتماء إليه لا يقومان على مسخ الحاضر أو اعتقاله في معتقل الماضي وإنما على تطوير الأصل نفسه تبعاً لتطور الواقع ذاته.(١)

والحال يختلف بالمفهوم الشائع للأصولية، وهو المفهوم المبتذل، أي اختلاف عن مفهومها القاموسي الأصيل أعلاه، فهي بالمفهوم المختزل، ظاهرة خاصة بقوم معينين أو جماعة محددة يراد بها من جانب البعض القدح والذم والتشهير أو التجريح والنيل من قدر وكرامة البعض الآخر وهذا هو أكثر مفاهيم الأصولية ابتذالاً وسلبية، فالأصولية بالمفهوم «السوقي «الرائج أو الشائع ظاهرة محض دينية تلبس لباس الطائفية في حالات غير نادرة «فتبدو بمثابة «لعنة» تلصق بهذه أو تلك من طوائف هذا المجتمع أو ذاك، وبالتالي فإنَّ المفهوم الطائفي «اللعين والملعون» للأصولية في بلداننا العربية واحد من الأسباب الكبرى للحروب الطائفية التي شهدتها وتشهدها هذه البلدان اليوم وأكثر من أي وقت مضى.

وأمَّا الأصولية بالمنطق الغربي الرسمي، وحسب المفهوم الأميركي المتطرف فهي ظاهرة «عالم إسلامية» إن لم تكن مرادفة للشريعة الإسلامية لدى عدد كبير من صقور المحافظين الجدد الحاكمين في البيت الأبيض والبنتاغون الأميركي، المفهوم المبتذل، الذي عبر عنه الرئيس الأميركي جورج بوش جلياً عندما توعد في وقت سابق، ومن على متن طائرته شعوب العالم الإسلامي بحرب «صليبية»، ستبدأ دونما نهاية مُجَدْوَلة، وهذا المفهوم الأميركي للأصولية، بشكل عام، والأصولية الإسلامية بشكل خاص، هو واحد من أبرز وأخطر الخلفيات الثقافية لسلسلة الحروب الأميركية الأخيرة ضد عدد من شعوب البلدان الإسلامية تحت مسمى» الحرب على الإرهاب ومواجهة الجماعات والشعوب «الإرهابية».

فالخلط بين الأصولية والإسلام والعنف والتطرف إنما ينبثق مما لدى الغربيين من مفاهيم حول الأصولية، وهو ما يستشف من مقولة المستشرق الروسي ألكسندر سميرنون حين قال: «لا يجوز الخلط بين الأصولية

الإسلامية والتعصب والتطرف، لأنَّها تعبر عن مفهوم أوسع، فالأصولية الإسلامية بنواحيها السلبية، إرهاب سياسي، وعنف حتى ضد المسلمين أنفسهم».(٢)

وفي الواقع نجحت المؤسسات الغربية بابتداع الأصولية المتشددة، وإلصاقها بالعرب والمسلمين وعقيدتهم، واختلط مفهوم المقاومة والجهاد بمفهوم العنف والقتل. وراح شذاذ الآفاق يحرضون الغرب على العرب باسم الأصولية المزيفة وفق مفهومها المبتذل، فاستغلها أعداء الأمتين العربية والإسلامية لشن حربه لتدمير العرب والمسلمين، فهذا شمعون بيرز يقول: «إن الأصولية تهدد الاستقرار في معظم الدول العربية» إذاً، وقع الخلط المدوي في مصطلح الأصولية ودلالته عند الغربيين وكذلك عميت بصيرة كثير من العرب والمسلمين عن الحقيقة وخلطوا هم أيضاً بين دلالة الإرهاب والعنف والتطرف، ومفاهيم الجهاد والمقاومة والاحتلال الصهيوني. وبالتالي أصبح مفهوم التطرف بفضل السياسة الأميركية، والرؤية الغربية المتطرفة، من المفاهيم الإشكالية التي تنسج حضورها الكبير في أدبيات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويمكننا الإشارة إلى بعض الحقائق التي تتعلق بمفهوم التطرف وهي:

١- **هناك أشكال متعددة للتطرف، فهناك التطرف العرقي، والثقافي، والديني والطائفي**، أي إن التطرف ليس مصدره ديني فقط، بل كل طرح يستند إلى ما قلناه سواء أكان اقتصادياً أو ثقافياً أو سياسياً أو دينياً، وبالتالي فليس هناك نوع واحد من التطرف، بل أنواع متعددة بتعدد حقول وميادين الحياة الاجتماعية، والمعرفية منها السياسية والدينية.

ولقد اتفق معظم المفكرين الموضوعيين على أن التطرف ظاهرة عالمية كونية، ومسألة اجتماعية، تعني الشعوب كافة، وليس في حقل اجتماعي واحد فحسب، وإنما في حقول الواقع الاجتماعي كافة.

٢- **التطرف هو أفكار وتصورات تتعارض مع الحقيقية الموضوعية**، وتشكيل رأي، من دون أخذ وقت كاف للحكم عليه بإنصاف، وتتجلى بشعار «من لا يشبهني فهو ضدي» ونبعه الأساسي هو التعصب الذي عرفه قاموس (لاروس) الفرنسي «بأنَّه حماسة عمياء لعقيدة أو رأي أو مشاعر جارفة نحو شيء ما». حيث يظن الواحد أن ما يملكه هو الحقيقة المطلقة، وما عداها ليس سوى أكاذيب وخرافات،، وبالتالي فهو محاولة لاحتكار الحقيقة والرأي، واتهام الآخرين بالخطأ. بحيث تخلق كل جماعة متعصبة حقيقة خاصة بها تنسجم مع مصالحها، ورغباتها، وترفض الحوار مع الآخر.

٣- **لا يرى المتطرف الفرد أو الجماعة إلا فكرة واحدة**، وحينئذ يكون تفكيره واستدلاله

-دائماً- خاطئاً، بل ويكون هشاً ضعيفاً، لا يستطيع مقاومة المنطق الاستدلالي للأفكار الأخرى، وهنا يلجأ لاستخدام العنف بأشكاله كافةً لفرض أفكاره ومعتقداته على الآخرين. وهذا ما نلحظه اليوم من خلال ممارسة الإمبريالية الصهيونية المتطرفة على الصعيد العالمي، وما يمارسه الكيان العنصري الصهيوني على أرض فلسطين العربية، وما تمارسه الجماعات الدينية التكفيرية المتطرفة في العالم عامة وخاصة الجماعات الوهابية بماركاتها المختلفة في وطننا العربي وفي سورية خاصة، وما تمارسه بعض الأنظمة صنيعة النظام الإمبريالي العالمي.

ولا يكتفي المتطرف أن يحتكر الرأي لنفسه، وينطوي على ذاته، وينسب إليها كل الفضائل والقدسية، بل ويهاجم الآخرين، ويسلبهم الفضائل، وينكرها عليهم، ويحاول تأكيد ذاته من خلال هدم آرائهم. إنه يعتبر أنه مركز العالم وبالتالي فظاهرة التطرف تمتاز بخاصتين رئيستين هما: الجمود والثبات في مواجهة التطور والحركة، ثم التعصب أو التحيز الأعمى في مواجهة الحياد والموضوعية.

٤ - **التطرف ظاهرة عالمية،** ليست مرتبطة بدين معين أو فئة أو جغرافية معينة، حيث نزعات التطرف، والعنف السياسي، والديني، والقومي، لم تعد لصيقة بمجتمع من دون غيره؛ بل أصبحت ظواهر ذات طابع عالمي، تعرفها الدول الغنية والفقيرة، وتعرفها دول الشرق، كما تعرفها دول الغرب. وتكفي الإشارة في هذا المقام إلى تنامي الجماعات ذات التوجهات الفاشية، والنازية، في المجتمعات الغربية، وتنامي التلمودية اليهودية والمسيحية الصهيونية في الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية. وهذا التصاعد المتزايد لتيارات وقوى التطرف داخل الكيان العنصري الصهيوني الإرهابي -منبت الإرهاب العالمي- وأيضاً التنظيمات الإسلامية المتصهينة التي تتبنى أفكاراً تدور حول مقولات الجاهلية والتكفير وغيرها، وهي تعود في نشأتها للقوى الاستعمارية التي رعتها وأوجدتها - المخابرات البريطانية والأميركية -بشكل خاص وترعاها بعض دويلات الخليج العربي وعلى رأسهم آل سعود.

إن المتطرف غالباً ما يعاني من مركّبات نقص يعالجها بتفوقه الديني على الآخرين، أنه لا يمارس تدينه ليمنحه السكينة والسلام، وإنما يستعمله لكي يقهر الآخرين ويسيطر عليم، وهذا ما نلحظه عند الذين يختبؤون تحت عباءة الإسلام، من الحركات التكفيرية المتطرفة المنتحلة صفة الإسلام تخفي في طياتها حالة من التأسي والتحسر فهم يؤمنون دائماً بأنهم يحتكرون الفهم الصحيح للدين، وهم يطرحون أنفسهم على أنهم من

يمتلك جوازات السفر إلى نعيم «الجنة» أو جحيم النار، أمَّا الآخرون فهم في نظرهم كفار أنجاس أو فاسقون منحلون مقيمون على الخطايا. فهم يستبيحون دم كل من يخالفهم الرأي،فالتطرف الديني يجعل من المستحيل أن يتآخى الديني مع السياسي، بالاعتبار المبدئي أي الابستمولوجي (التأسيسي النظري) فهي ترفض النظر إلى التاريخ مفتوحاً، بل ترى في مرحلة الإسلام البكر التجسيد الوحيد للتاريخ الحقيقي وهذا يمنح التاريخ قداسة بحيث يظهر من لا يأخذ به رافضاً لهذا المقدَّس، أي الإسلام ذاته، وبالتالي الأصولية الدينية المتطرفة تتمتع بصفتين أولهما: استبدادية إقصائية واستفرادية، وثانيهما: ظلامية.

فالتطرف نقيض الديمقراطية والحرية ولقد لجأت الطبقة الإقطاعية التقليدية لاستغلال الدين في تثبيت شرعيتها باتباع سياسات وإجراءات عدة في مقدمها تشجيع التفكير السلفي الغيبي الرجعي المغرق في متاهات الماضي، فتحوّل الدين إلى سلاح تبريري وترويعي بآن معاً، وعززت الطبقة الحاكمة الإقطاعية الولاء الطائفي للإبقاء على التجزئة خدمة لمصالحها.

ولقد استعمل العامل الديني من قبل فئات وأيديولوجات مختلفة في دعم مواقفها وتثبيت وجودها بدءاً من القرن الثامن عشر للميلاد حيث جمعت العائلة السعودية مثلاً بين العائلة والقبيلة والحركة الوهابية، لتدعيم ركائز حكمها في شبه الجزيرة العربية حيث ارتبط مصير العائلة السعودية بالوهابية منذ عام ١٧٤٤م وبالتالي التطرف نقيض الديمقراطية والحرية، لأنَّ كل متطرف هو مستبد، وهذا هو واقع الأحزاب والحركات السياسية الإسلامية المتطرفة فهي تسفِّه الحزبية والعمل الحزبي، الذي يخص القوى السياسية المغايرة .وقد نشرت بعض الصحف رؤية إحدى الجماعات المتطرفة الإسلامية ذات الاتجاه الإقصائي الرافض للديمقراطية والانتخابات الحزبية إذ تورد الوثيقة خمسين تحفظاً تسميها مفسدة فتعدد التطبيقات الديمقراطية والتحزب (ومخاطرها).[٣]

فالحرية في الكتابات والتنظيرات والتعليقات والفتاوى التي يأتي بها غير قليل من الإسلاميين المتطرفين، تعادل الانحلال والإباحية والفسق، كما أن رفض الحزبية تابع لرفض الحرية، التي تعطي الجميع حق تنظيم أنفسهم والتعبير عن آرائهم أمَّا بالنسبة إلى البرلمان والمشاركة في المجالس النيابية،فقد حرمه بعضهم وكما يقول عبد الله عزام: وهو أحد قادة تنظيم القاعدة التكفيري، (المجالس النيابية لا يمكن أن تكون طريقاً لإقامة مجتمع مسلم، ولا لنصرة دين الله في الأرض نصراً حاسماً، نهائياً، ولا يمكن أن تقوم دولة إسلامية عن هذا الطريق، لا يقر الشرع المعارضة الماركسية

لأن الشيوعي مرتد أو زنديق حكمه القتل، لا أن يُعترف به كقوة منظمة معارضة).[٤]

إن الحركات والأحزاب السياسية الإسلاموية والفكر السياسي المتأسلم عموماً، تواجه معضلة (تبيئة) أو(تكييف) و(أقلمة) الديمقراطية حتى بعد تحييدها واختزالها إلى آليات ووسائل، فما زال الإسلاميون يتجادلون ويختصمون حولها، فالتعددية تبدو منذ الوهلة الأولى خطراً على دين يقوم على التوحيد الشامل، والأحادية الفكرية، ووحدة الأمة الإسلامية.

ولقد أثبتت الأحزاب والحركات الإسلامية السياسية فشلها في تأكيد قدرتها على تقبل الديمقراطية وممارستها عملياً، وواقعياً، في إطار مسمى دعاة (الحل الإسلامي) لتحليل رفضهم العملي لجوهر الديمقراطية الاجتماعية والسياسية، فإنهم يلحون على مقولة (عبودية) المخلوق للخالق، وعدم حريته في اختيار (قدره) ومصيره.

فهم يجدون في نهج الحرية الفكرية والاجتماعية شركاً وتعدداً مضاداً للتوحيد.

- **المتطرف انتهازي لا عقيدة ثابتة لديه**، فنراه تارة متشدداً دينياً، وتارة أخرى علمانياً يتحول إلى منظرٍ للفكر السلفي: حيث كشفت الحرب الكونية التي تعرضت لها سورية في مطلع عام ٢٠١١م، إن بعض الذين كانوا يتشدقون بالعلمانية قد تحولوا منظرين ومتطرفين لدى الفكر السلفي وتحولت سورية عندهم لمجرد مزرعة يتحارب عليها الفرقاء أمثال صادق جلال العظم (العلماني) ففي لقائه في جريدة الحياة اللبنانية يقول «الفرقاء يتحاربون على كل المزرعة، وليس نصفها» فبئس المفكرون الذين يعيشون عقدة النقص لأنهم بلا انتماء. هؤلاء المتطرفون الذين يرتدون أقنعة مختلفة يستبدلونها حسب واقع الحال.

- العولمة والتطرف الديني وجهان لعملة واحدة:

لقد اقترن نشوء التطرف في المجتمعات الغربية والأميركية بعوامل عدة أهمها: المواقف المتشددة في السياسات الوطنية والعسكرية والثقافية القائمة حول التمركز حول الذات أولاً، واقتصاديات السوق المدمرة للقاع السكاني الفقير.والتي كان لنشوء جماعة المسيحيين الصهاينة التي شرع منظروها يصوغونها على نحو يضعها في خدمة المشروع العولمي المؤمرك، أي بصيغةٍ تُفصح عن الشعب الأميركي بمثابة «الشعب المختار» والتي تبدو بكونها مدخلاً إلى حالة من التأسيس التاريخي للنظام العالمي الجديد الذي ولد مؤمركاً، ومن ثم بكونها محاولة لشرعنة هذا النظام بصيغةِ هيمنتهِ «المقدسة» على العالم.

ولقد تجلى التطرف في الغرب عامة وفي الولايات المتحدة الأميركية من خلال النزعة الأوروبية المركزية والتي هي تطرف خطير

حيث تزعم أن العلم إبداع أوروبي وهو، بصفته تلك، حزمة من الحقائق المطلقة والمعارف الناجزة المكتملة، وبالتالي، فإن العلماء الأوروبيين هم رجال العلم الأصليين الذين ينتجون العلم من ألفه إلى يائه، وما على الأمم الأخرى إلا نقل أو اجترار معارف أجيال العلماء الغربيين وعلى هذا النحو تنسف هذه النزعة المتطرفة سمتين أساسيتين للمعرفة العلمية وهما :النسبية والتراكمية، وبالتالي بالمقارنة بين التطرف الديني وبين ما تطرحه العولمة المتوحشة يمكننا القول: إنَّ كلاً من التطرف الديني (الأصولية) والعولمة كلاهما يستفرد بالحقيقة، حين يعلن أنه وحده يجسدها وأنَّ «الآخر» خارج عن «الدائرة»، دائرة الحقيقة، أولاً، وخارج عليها ثانياً. فالمتطرفون الدينيون يتحدثون عن معادلة تقوم على «المؤمن والكافر»، وبالتالي عقابه وتدميره والعولمة تتهم كل من لا يخضع لها بأنه إرهابي يجب تدميره، حيث ترى أن التاريخ «الحقيقي» بدأ بالقرن السابع، وينتهي به. وكما يقول سيد قطب، ليس إلا «جاهلية جديدة» ومن ثم، فإن «نهاية التاريخ» ظهرت مع بدايته، وعلى البشرية، بالتالي، أن تكافح من أجل العودة إلى تلك البداية، بحيث يتحقق المبدأ المتطرف التالي: الأسلاف لم يتركوا شيئاً للأخلاف! وكما نرى فإنَّ المتطرفيين الإسلاميين تحولوا إلى أدوات لتدمير المجتمعات العربية.

أمَّا العولمة فقد أعلن منظروها بأنَّها تمثل نهاية التاريخ، وبأنَّها قمته، وفوكوياما هنا، على عكس سيد قطب، ينطلق مما يعتبره نهاية التاريخ، وهكذا نضع يدنا على المشترك، بينهما، وهو كونهما ينظران إلى موضوعهما بوصفه فوق التاريخ، العمومي العادي وبالتالي نكون أمام إنكار الظاهرتين كلتيهما (التطرف الديني والعولمة) لمبدأ «شرعية التعددية» بشتى حقولها ومرجعياتها الثقافية والحضارية والفكرية والحزبية والقومية وغيرها. فالأولى لا تقر بغيرها إلا بمثابة أنه «غير شرعي» في حين تعلن الثانية أن «الآخر» لا يدخل في حقلها وكلاهما تعطيان إنكارهما لمبدأ «الشرعية التعددية» طابعاً وجودياً وأخلاقياً بحيث يصير «حكم قيمة» فينظر إلى الآخر على أنه كافر بالنسبة للمتطرفيين الدينيين و»شرير إرهابي» بالنسبة إلى العولمة.

الهوامش

١- د فيصل سعد، مجلة المعرفة، العدد٥٠٩ شباط ٢٠٠٦م، وزارة الثقافة دمشق ص١٤٦.

٢- إبراهيم محمد جواد البنا، المستشرقون والإسلام، معالجة منهجية خاطئة،، تشرين الثاني ٢٠٠٠م، ص١٨، المواقع الإلكترونية.

٣- راجع صحيفة الوحدة،اليمن، تاريخ١٩٩٣/٤/٧م.

٤- عبد الله عزام، وثيقة خطبة ١٩٨٩/١١/١٢م، نقلاً عن (أبو رمان)، الحركة الإسلامية والبرلمان، عرض ومناقشة لآراء عدد من كبار الدعاة وقادة الفكر الإسلامي السلط ١٩٩١م، ص٢٢.

البحث العلمي في الوطن العربي (رؤية تشخيصية)

فريد أمعضشو *

من الأمور المسلَّم بها أنَّ الدول المتقدمة في العالم بأسره قد حققت ما حققته من ازدهار وتفوّق، في شتى مجالات الحياة، بفضل اهتمامها بالبحث العلمي، وحرصها على ربطه بالواقع والإنسان، فضلاً عن تحلي مواطنيها بقيم الانضباط والإخلاص والتضحية والعمل الدؤوب وغيرها. وتزداد أهمية هذا البحث يوماً بعد آخر، ولاسيما في سياق التدافع والتنافس الحضاريين اللذين يشهدهما عالمُ اليوم بوتيرة أقوى، وسَعْي الدول الكبرى إلى التسيُّد والتحكم في المعمورة عبر توظيفها سلاحَ العلم لإنتاج تقنيات وأساليب حياة مغايرة ومتطورة. ولذلك، لا نعْجبُ حين ندرك حجمَ المُخَصَّصات المالية التي ترصدها للبحث والتطوير، وعِظَم البنْيات التي توفرها لممارسة هذا النشاط الفكري العلمي، في جامعاتها ومعاهدها ومراكزها البَحْثيّة، والاعتبار الخاص الذي توليه للمُشْتغِلين بحقول المعرفة كافة من دون استثناء.

إنَّ البحث العلمي عموماً يعدّ «مطلباً مُلِحّاً، وضرورة قصوى لأي مجتمع في وقتنا الحاضر لِما له من دور في التقدم والحضارة، ذلك أن تحقيق التقدم في أي مجتمع مرهون

* باحث من المغرب الشقيق.

بالاستخدام الأمْثل للموارد البشرية والمادية المتاحة بالاعتماد على الدراسات العلمية التي تُتْقِن المواردُ البشرية إعدادَها بمنهجية علمية ودقيقة، تهدف إلى تأطير كافة المعارف والخِبْرات ذات العلاقة، بصورة شاملة وواضحة تقود إلى اتخاذ القرارات الرّشيدة».[1]

وحين يَعْمد الدارسُ إلى مقارنة واقع البحث العلمي في العالم المتقدِّم بنظيره في الدول المتخلفة يسجل، بسهولة، عُمقَ الهُوة بين هذين المجاليْن الحضارييْن؛ إذ إنَّ هذا البحث في العالم الثالث - وضمنه الدول العربية - متواضعٌ، ولا يرقى إلى مستوى تحقيق انتظارات أُناسه والاستجابة لمُتطلَّباتهم، وتقديم الحلول الناجعة لأكثر مشاكلهم وأزماتهم. وليس مؤهَّلاً، في الغالب، لإفراز جيل من العلماء يمكّنه الاشتغال من داخل العالم المتخلف لإنتاج أفكار ونظريات وتقانة متطورة، تضْمَن له التأثير والإسهام الفاعل في رسْم صورة العالم، وتحديد مساره، واتخاذ القرارات الحاسمة في كل الميادين.

إنَّ الأمة العربية والإسلامية - وهي أمّة «اقرأ» - لا تنقصها الكفاءات والطاقات في العلوم كلها، بل يشْهد الواقع بخلاف ذلك؛ فهي تزخر بقاعدة عريضة من الشباب الطُّمُوح المتحمِّس الغيور المُبادِر المثقف ثقافةً واسعة، ولكنه - للأسف - يصطدم بواقع غير مشجِّع ولا مُساعِد على احتضانهم وتعهُّدهم ورعايتهم، وتنمية مواهبهم، واستثمار قدراتهم وإمكاناتهم بما فيه صالحُ بلدانهم وأُمتهم.. إذ لا يجد أمامه مختبَرات علمية مجهّزة، ولا أدوات عمل كافية، ولا التشجيع المعنوي... الأمرُ الذي يدفع بكثيرين منهم إلى التفكير في مغادرة أوطانهم، والتوجُّه نحو البلدان المتقدمة (مثل كندا والولايات المتحدة الأميركية وألمانيا وفرنسا) التي ترحّب بهم، وتوفر لهم كلّ ما يحتاجونه لممارسة بحثهم العلمي... وبذلك، تخْسر بلدانهم الأصلية هذه الطاقات النّيِّرة بعدما أنفقت أموالاً باهظة لتعليمها وإعدادها، وتحْرم نفسَها من الاستفادة منها، ويجدها العالم المتقدم - في المقابل - هدية مجّانية جاهزة لا يتوانى في احتضانها وإغرائها بكل ضروب الإغراء. ولمّا تُهَيَّأ لهذه الكوادر والأدْمغة المُهاجِرة ظروف الاشتغال والبحث المناسبة، فإنها سُرْعان ما تعطي الثمار الوفيرة التي تستغلّها دول الاستقبال بالدرجة الأولى؛ فتحصد لها الجوائز العالمية الرفيعة، وتبدع وتقدّم التجارب الجديدة والنظريات والتقنيات المتطورة بأسمائها أو أسماء الفرق البحثية التي تنضوي تحت لوائها مقرونةً باسم البلد المحْتضِن. وينعكس ذلك مباشرةً على تلميع صورة البلدان المستقبِلة في المحافل الدَّوْلية، وتبوئها المراتبَ الأولى في التصنيفات العالمية على مستوى البحث والتطوير والتجديد العلمي. هذا في

الوقت الـــذي تظل بلدانها الأصلية قابعة في مؤخِّرة تلك التصنيفات، ومتخبِّطةً في أوحال الاجترار والجمـــود وغياب الجودة والنجاعة فيما تعْرفه مـــن أعمال بحثية في المجالات كلها، وخارجَ نطاق تصنيف أفضل الجامعات علـــى الصعيد الدولي، الـــذي يصْدر، بصفة دورية، عن منظمة اليونيسكو.

لعـــلَّ ما يمكن أنْ نصـــف به واقع البحث العلمـــي فـــي العالم العربـــي، عمومـــاً، أنه مُؤسِف حقاً، وأنه مُخيِّب للآمال، وأنه يفتقد إلـــى النجاعة والقـــوة المطلوبتين ليكون في مستوى مواجهة التحدّيات، وكسْب الرِّهانات. فهو لا يشـــكل أولوية لدى العـــرب اليوم، بل يُنْظَر إليه بوصفـــه أمراً ثانوياً، ولا تُخصَّص لـــه الاعتمـــادات المالية الكافيـــة، ولا توفَّر للمشتغلين به بنيات البحـــث الضرورية، ولا تُستغَـــلّ نتائجه، وإنْ قلّت، استغـــلالاً مُعَقْلناً فعّـــالاً... ولا يجـــب إنكار التطـــور الطفيف الذي عَرَفه هـــذا البحث على امتداد العقود الماضية في المنطقة العربية؛ بحيث تكشف الإحصـــاءات والتقارير المنجَزة حول البحث العلمي العربي أن مـــردود هذا الأخير ازداد نسبياً ما بين ١٩٦٧ و١٩٩٥م وما بعدها، وبلغ إجمالي إنتاج هـــذا البحث حوالى ستة آلاف بحثٍ عـــامَ ١٩٩٥ في أكثر مـــن ١٧٥ جامعة عربيـــة.[٢] ولكنّ ذلك، يظـــل ضعيفاً جدّاً إذا مـــا قُورن بما لدى الغرب في أوروبا وأميركا، وفي بلدان متقدمة أخرى؛ كاليابان.

ويعدّ مؤشـــر عـــدد المشتغلين في حقل البحـــث العلمي، بالنسبة إلـــى عدد السكان، مـــن المعايير الأساسية المعتمَـــدَة دَوْلياً في تصنيـــف الدول في سلم البحث العلمي. وقد كانـــت أعداد هـــؤلاء الباحثيـــن والعلماء في الـــدول المتقدمة كبيـــرة (بلغت ٩٥٣٣ عامل في البحـــث العلمي، بالنسبـــة إلى كل مليون نسمـــة، في أميـــركا الشماليـــة، و٢٢٠٦ في أوروبا؛ حسب إحصاءٍ صدَرَ عام ١٩٩٠م)، إلا أنَّها ضعيفة جدّاً في البلـــدان (العالَمَثَالِثِيّة) عامة، ومن بينها البلدان العربية؛ إذ بلغ عدد المشتغلين في البحث العلمي، عربياً، حسب تقاريـــر أممية، حوالى ٣٦٣ عامل لكل مليون نسمة عام ١٩٩٠م، بعدما كان الرقم لا يتعدى ١٢٤ عامـــل عام ١٩٧٠م. وهو ما يشكل نسبة ١،٤٧٪ من إجمالي عدد العلماء والمهندسين المشتغلين بالبحث العلمي على مستوى العالَم كلـــه.[٣] وأشـــارت إحْصاءاتٌ سابقـــة إلى أن مجمـــوع الباحثين في الوطن العربي يقل عن ١٦ ألف باحث، وفي إحصاءات أخرى صدرت عن جامعة الـــدول العربية، عام ٢٠٠٦م، أنه يقابل كل مليون عربي ٣١٨ عامل في مضمار البحث العلمي!

إنَّ أبـــرز سبـــب يُفسَّر به هـــذا الضعف المَهول فـــي أعداد الباحثيـــن على الصعيد العربي هو نقص الإنفاق عليهم وعلى البحث العلمـــي عموماً. ذلك بأنَّ مـــا ترصده الدول العربية من مخصَّصات مالية لهذا البحث لا

يصل إلى النسبة المتوسِّطة المتعارَف عليها دولياً في هذا النطاق، والتي تحدِّد ما إذا كان إنفاق أي بلدٍ على البحث العلمي مُجْدياً أو غير مُجْدٍ، وقد حُدِّدت هذه النسبة بـ ١٪ من الناتج الإجمالي. بمعنى أن الإنفاق على هذا البحث، في أي بلد، يكون مجدياً إذا بلغ هذه النسبة كحدّ أدنى، وإذا لم يصلها فإنّ إنفاقه، في هذا الصدد، يعد غير ذي جدوى. ولم تستطع أي دولة عربية بلوغ نصف هذه النسبة لسنوات طويلة، وربما كانت تونس استثناءً سنة ٢٠٠٧م؛ حيث تجاوز إنفاقها على أنشطة البحث العلمي والتطوير عامَئذ عتبة ١٪ من ناتجها المحلي الإجمالي.(٤) وتُجْمِع التقارير والإحصاءات على أن ما ينفقه العالم العربي على أنشطة البحث العلمي يظل دون المستوى المطلوب، ولا يبشّر بمُخْرَجات قوية ذات تنافسية، ولا يؤهّل للَعِب أدوار ريادية، ولا لأنْ يكون طرفاً فاعلاً في اتخاذ القرار العلمي الحاسم عالمياً!

فقد كشفتْ إحصاءات اليونيسكو عام ٢٠٠٤م أن الإنفاق العربي على البحث العلمي لم يتجاوزْ ١،٧ مليار دولار، أي بما نسبته ٠،٣٪ من الناتج القومي. وأشار تقرير اليونيسكو عن العلوم عام ٢٠١٠م إلى أن الدول العربية هي الأقلّ إنفاقاً على البحث العلمي والتطوير في العالم. وحين نحاول مقارنة هذه النسبة بتلك المتحقِّقة في الدول المتقدمة يتبيّن، بالملموس، أنّ لا مجالَ لإجراء مثل هذه المقارنة إطلاقاً! ففي المتوسط، «ينفق العالم حوالى ٢،١٪ من إجمالي دخْله الوطني على مجالات البحث العلمي؛ أي ما يساوي ٥٣٦ بليون دولار، ويعمل في مؤسسات البحث العلمي في العالم ما يقارب ٣،٤٩ مليون باحث؛ أي بمعدل ١،٣ باحث لكل ألف من القُوى العاملة.

وقد قُدِّر إنفاق الولايات المتحدة الأميركية واليابان والاتحاد الأوروبي بما يقارب ٤١٧ بليون دولار، وهو ما يتجاوز ثلاثة أرباع إجمالي الإنفاق العالمي بأسْره على البحث العلمي، وتنفق الولايات المتحدة سنوياً على البحث العلمي أكثر من ١٦٨ بليون دولار؛ أي حوالى ٣٢٪ من إجمالي ما ينفقه العالم كلّه. وتليها اليابان، التي تنفق حوالى ١٣٠ بليون دولار على ذلك البحث، ثم ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وكندا. أمَّا الدول العربية فقد أنفقت مجتمعةً، في السنوات الأخيرة، حوالى ٥٣٥ مليون دولار فقط (الإمارات العربية المتحدة: ٠،٦٪ - الأردنّ: ٠،٣٪ - مصر: ٠،٢٪ - سورية: ٠،٢٪..)».(٥)

وإذا رجعْنا بضعة عقود قليلة إلى الوراء، نجد أن الولايات المتحدة قد أنفقت، خلال الثمانينيات، أكثر من ٤٠ بليون دولار على البحث العلمي، على حين لم يتعدَّ الإنفاق العربي على هذا الأخير سقف المئتَيْ مليون دولار. ولم يتجاوز هذا الإنفاقُ، حسب معطيات حديثة نسبياً، أربعة دولارات للفرد

سنوياً، على حين وصل في اليابان - مثلاً - إلـــى ١٩٠ دولاراً، وفي ألمانيا إلى ٢٣٠. وينمّ حجـــم الميزانية التـــي تخصصها الجامعات العربية لأنشطـــة البحث والتطوير والتجديد عن ضعفهـــا وهزالتهـــا؛ فهي ترصـــد لهذه الأنشطة ما لا يتجـــاوز، في أحسن الأحوال، عتبـــة ١٪ أو أكثـــر من ذلـــك بقليل، هذا في الوقـــت الـــذي تخصص جامعـــات الولايات المتحدة لها ما يفوق الـــ ٤٠٪ من ميزانيتها العامـــة، وقِسْ على ذلك جامعـــات عالمية أخرى كثيرة في بريطانيا وألمانيا وغيرها.

وقبل الانتقال إلى تناول نقاط أخرى في هذا المقال، فلْنَقِــفْ وقفة سريعة عند واقع البحـــث العلمي لدى الكيان الإسرائيلي. فقد بلغ حجم ما أنفقه على التعليم، سنة ١٩٩٩م، أكثـــر من ٦،٥٪ من ناتجه الإجمالي. وهو في ذلك متفـــوّق على الولايـــات المتحدة نفسها التـــي خصصـــت للتعليم، في السنـــة عيْنِها، حوالى ٥،٣٪ من إنفاقها. وبلغت نسبة العلماء والمهندسيـــن والتقنيين فـــي ذاك الكيان ٧٦ لـــكل ١٠ آلاف نسمة، سنـــة ٢٠٠٠م، ويُعْزى اهتمام الكيان الإسرائيلي بهذه الفئة المتنوِّرة من المجتمع إلى إيمانه بقيمة العلم والعلماء في صنـــع التقدم والتنميـــة، وضمان التفوق والهيمنة؛ ولهـــذا، بادر إلى توفير ما تحتاجه من بنيـــات بحْثيّـــة، وظروف عمـــل مؤاتية؛ فأنشأ سنـــة ١٩٤٩م معهد الجيولوجيا، وسنةَ ١٩٥٠م المعمل الوطني للفيزياء، وعدداً مهمّاً من المعاهد والمراكـــز العلمية في مجالات الإلكترونيك والتقنيات الدقيقة والتكنولوجيا المتقدمة وتطوير السلاح وغيرها. وقد بلغت ميزانية معهد وايزمان للعلوم (Weizmann Institute of Science) السنويـــة وحْـــده ١،٢ مليـــار دولار، في الوقت الذي لم تتجاوز ميزانيات جميع الجامعـــات والمعاهد العليا المنتشرة على صعيد العالم العربي كله ٨٠٠ مليون دولار! وإذا كانت الدول العربية رُمَّتها لم يتجاوز إنفاقها علـــى البحث العلمي، كما قلنا، نسبـــة ٠،٥٪ من ناتجهـــا القومي، فإن الكيان الإسرائيلي أنفـــق على المجال نفسه حوالى ٢،٧٪. وهو بذلـــك مُقترب من نسبة إنفـــاق الولايات المتحدة علـــى هذا البحث (٢،٩٪)، وكذا اليابان (٣٪).[٦]

إن لتبايُن حجم الإنفاق على أنشطة البحث العلمـــي والتطويـــر، بين العالَمَيْـــن المتقدم والمتخلف، انعكاسات مباشرةً على واقع هذا البحث داخلهما، كمّاً وكيفاً. فإنتاجية الباحث في الدول المتقدمة مرتفعة؛ إذ تقدَّر بمعدل ١،٥ بحـــث للباحث في المتوسط، مقابلَ ٠،٢ بحـــث للباحث سنوياً في العالم العربي (١٠٪ مـــن المتوقَّع فقـــط). ونُشرت فـــي الأعوام الأخيـــرة أكثر مـــن ٣٠٥ مليـــون ورقة بحث علميـــة في جميع أنحـــاء المعمورة - أقصد تلك المنشـــورة في مجلات علميـــة عالمية محكّمة ومصنفة يَجْري الاقتباس منها كثيراً - كان نصيب الباحثيـــن العرب منها أقلّ من

١٪، على حين استحوذ الباحثون الأميركيون علـى ٣٤٪ من المنشور فيها. وكشفت دراسة أخـرى أن مجمـوع البحـوث العلميـة التي تُجْريها جامعة هارفارد (Harvard) وَحْدَها يساوي مجموع البحوث المجّراة على صعيد جامعات العالـم العربي ومعاهـده ومراكزه البحثية برمتها!

ومن الناحيـة الكيفية، نجـد أن أبحاث علمـاء الـدول المتقدمـة ودارسيهـا تمتاز بكثير من الجِـدّة والإبداع والأصالة، وتربط النظري بالتطبيقـي والعَمَلـي، وتسعى إلى تقديم إجابات، قابلة للأجْرأة والتنفيذ، لكثير من إشـكالات الواقع والمقـاولات وغيرها. ولهـذا، نجد تلك الـدول تستحوذ على ٩٩٪ من بـراءات الاختراع عالميـاً، وتتحكم في ٩٥٪ من التكنولوجيا العالمية المتطورة؛ مما يؤهّلها لحَصْـد الجوائز الرفيعة دولياً (نوبل للعلوم تحديداً). وليس بمقدور باحِثِي الوطن العربي وعلمائه فرضـ الذات والتنافس في مثل هذا الجوّ العلمي بكل موضوعية وتجرُّد؛ إذ إنهـم سجّلـوا ٢٤ اختراعـاً فحسب عام ١٩٩٧م؛ أي بمـا معدّلُه اختـراع واحد لكل عشرة ملاييـن نسمة، على حين نلفي الكِيان الإسرائيلـي قد سجّـل، في السنـة نفسها، (٥٧٧) اختراعاً![٧] ويرتفع كمُّ هذه الاختراعات فـي دول أخرى؛ من مثـل ألمانيا الاتحادية التي بلغـت نفقاتها على البحـث والتطوير، عام ١٩٩٥م، مثـلاً، حوالى ٢،٣٪ من ناتجها المحلي الإجمالي، ويبلغ الآن عدد المشتغلين بهـذا المجال فيها مئات الآلاف، الذين توفّرُ لهم أمْثل شروط العمل، وشتى صنوف الدعم المادي والمعنوي... ولهذا لا نستغرب حصول العلماء الألمان على عشرات من جوائز نوبل فـي الفيزياء والكيميـاء وتخصصات علمية ومعرفيـة أخرى عدة، علـى حين لم يحصلْ علمـاءُ العرب على أيّ جائزة نوبل في العلوم الدقيقـة، اللهمّ إذا استثنينا تلك التي حازها المصريّ أحمد زويل، ذو الجنسية الأميركية، عـام١٩٩٩م، في الكيمياء، ولكـنْ من داخل معهـد كاليفورنيا للتكنولوجيـا في الولايات المتحدة الأميركيـة. طبعاً يضاف إليها، في مجال الأدب، تلـك التي نالها مواطنه نجيب محفوظ (ت ٢٠٠٦م) سنة ١٩٨٨م.

وفي الوقـت الذي تنصـبّ حوالى ٩٩٪ من بحوث الطـلاب والباحثيـن اليابانيين، علـى مستويي الماجستيـر والدكتوراه، على تناول مشكلات حقيقية تعاني منها الوَحْدات الإنتاجيـة والمقاولات والشركات الصناعية، نجـد أن القسـم الأكبر مـن أبحاث طلاب الجامعات العربية يتجه إلى تناول موضوعات يغلـب عليهـا الطابـع النظَري، بعيـداً عن ملامسة هموم المجتمع، وبَحْث حلول لأزماته ومشكلاته في الاقتصـاد والاجتماع والعلوم البحتـة وغيرها، ثـم إن بعضـاً منها يفتقد إلى الجـدة والإبداع؛ فتأتـي، غالباً، مجترّة لاجتهادات سابقة، من دون أنْ تستطيع تقديم

إضافات نوعية إلى صَرْح البحث العلمي... وهو وضْعٌ تقف وراءه، بلا شك، عوامل كثيرة؛ منها ما يتعلق بشخص الباحث نفسه، ومنها ما يتجاوزه... ولا ننسى أنّ نسبة مهمة من الأبحاث الجامعية، أو التي ينجزها جامعيون، في العالم العربي، يكون الهدف منها، أساساً، هو الحصول على ترقية أو تثبيت في منصب؛ فتكون قيمتها متأثرة وخاضعة لهذا المطلب. هذا في الوقت الذي تقل الحوافز وأشكال الدعم لهم، سواء من قِبَل المؤسسات التي ينتمون إليها أو من قبل غيرها؛ ولهذا نجد، أحياناً، بعض أولئك الباحثين لا يملكون في رصيدهم العلمي سوى ما أَعَدُّوهُ - مُجْبَرين - من رسائل وأبحاث جامعية، وبضع مقالات منشورة، هنا وهناك، في منابر صحافية غير محكّمة وغير مصنفة عالمياً، في أحسن الحالات!

وإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه، ثمة صعوبات وأسباب أخرى تعيق البحث العلمي في الوطن العربي، وتجعله دون مستوى آمال أناسه وتطلعاتهم، وغيرَ مؤهَّل، بما فيه الكفاية، لتكوين نُخَب عالِمة مؤثّرة في الساحة العلمية العالمية حالياً، في الغالب الأعمّ. من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر:

- بُعْد الجامعات ومعاهد البحث عن الوحدات الإنتاجية (لا أقصد هنا البعد بمعناه الجغرافي)، وغياب التكامل بينهما.

- محدودية الخدمات المكتبية التي توفرها هذه المراكز والجامعات للطلبة والباحثين، وعدم مواكبتها لِما يستجدُّ من دراسات وأبحاث علمية؛ لضعف إمكاناتها المادية في أكثر الأحايين، وعدم توفرها على كوادر كُفْأة في مجال العمل المكتبي، وعلى فهارس وافية مُحيَّنة...

- عدم توافر قاعدة البيانات والمعلومات التي من شأنها أن توفر إحصاءً دقيقاً للبحوث المنجَزَة، سواء داخل البلد الواحد أو على صعيد الوطن العربي، وينسحب هذا على المستوى العالمي كذلك؛ وبالتالي تُجَنِّب معظم الباحثين تناولَ موضوعات معينة، برؤى متشابهة أحياناً، وهدر الطاقات والأموال والوقت...

- نقص المراجع الأجنبية بلغاتها الأصلية، وما تطرحه ترجماتها من مشكلات. وعدم تمكن كثير من باحثينا من الكفايات اللغوية اللازمة لإنجاز رسائلهم وأطروحاتهم، بما فيها اللغة التي يكتبون بها هذه البحوث.

- عدم استثمار نتائج البحوث عملياً؛ ذلك بأنها تظل حبيسة رفوف خزانات الكليات والمعاهد، وحين يمرّ عليها زمن طويل تصير تلك النتائج مُتجاوَزَة!

- ضعف التعاون والتنسيق بين الجامعات ومراكز البحث العربية، وبينها وبين مؤسسات البحث العلمي في الدول الأخرى. ومما يُؤسَف له كثيراً أنّ تجد مثل هذا التعاون والتواصل غائباً بين مختبرات الجامعة

الواحدة ومراكزها البحثية، بل إنك لَتَجِدُ أحياناً باحثين من الجامعة نفسها لا يعْلمون بوجود معاهد ومخابر بحثية بعيْنِها داخلها! ومردّ ذلك، بالأساس، إلى غياب الإعلام والتواصل داخلها.

- مشكلة النشر؛ لأنّ من الأبحاث ما يكون ذا قيمة علمية حقيقية، ولكنّ يحتاج إلى أن يُنشر في مجلات المؤسسة إذا كان لها انتشار واسع، وتتمتع بمقروئية كبيرة، وإلا فالواجبُ تسهيل نشْر مثل هذه المجهوادت الجادّة الرصينة في مجلات عالمية معترَف بها، وتحمُّل مصاريف ذلك.

- تدني مساهمة القطاع الخاص في دعم مشاريع البحث العلمي ونشاطاته في العالم العربي؛ بحيث أشارت تقارير سابقة إلى أن ما يناهز ٩٠٪ من الإنفاق العربي على هذا البحث مَصْدَرُه حُكوميّ. ففي مصر، مثلاً، يساهم الخواصّ بحوالي ١٠٪ في تمويل البحث العلمي، والجامعات بـ ٣٠٪، على حين تساهم الحكومة بـ ٦٠٪. وللإشارة، فإن مصر تحتل المرتبة الأولى عربياً من حيث عددُ حاملي البكالوريوس والماجستير والدكتوراه المشتغلين في مجال البحث والتطوير. وفي المقابل، نجد أن التمويل الحكومي لأنشطة البحث العلمي يتراوح ما بين ٢٠٪ و٣٠٪ في الدول المتقدمة، ويتحمّل الخواصّ والشركات العبء الأوفر من هذا الدعم المالي. فالقطاع الخاص، مثلاً، في الولايات المتحدة يساهم بنسبة ٧٠٪ في مقدار الإنفاق على البحث العلمي، وتتجاوز مساهمته في تمويل هذا النشاط البحثي، في اليابان، الـ ٨٠٪.

- غياب سياسة واضحة للبحث العلمي في الوطن العربي؛ الأمر الذي يفرز ظواهرَ مِنْ قبيل الارتجال والعشوائية وغياب التخطيط. ويعد هذا العامل من أبرز معيقات البحث العلمي لدينا؛ كما يؤكد كثيرون. يقول صاحبا دراسة (مشكلات البحث العلمي في العالم العربي: رؤية إسلامية) إن «المشكلة لا تكْمُن في فقر الدول العربية، ولا في ميزانيات الجامعات العربية، ولا في ضعف الميزانيات المرصودة للبحث العلمي، بل تكمن - بالدرجة الأولى - في غياب السياسات الموجِّهة للبحث العلمي الوجْهةَ الصحيحة، سواء على مستوى الدول أو على مستوى الجامعات. وهذا ما نعتبره أسَّ البلاء، والأساسَ الذي يمكن أن تنبثق منه جميع المشكلات المتعلقة بالبحث العلمي في عالمنا العربي».(٨)

ولعل هذا الكلام مقصودٌ به الدول الخليجية، التي تتوافر لها من الإمكانيات المادية والمالية ما يمكّنها من إمْداد جامعاتها بأرْصدة مهمة جدّاً، بخلاف ما عليه الأمر في سائر الدول العربية. ويلحّ آخرون على أنّ لا سبيل إلى النهوض والرقيّ في هذا المجال، على الصعيد العربي، إلاّ بوضْع إستراتيجية مُحْكَمَة فعّالة واضحة للبحث العلمي لدينا. إذ نقرأ - مثلاً - في كتاب

«دليل البحث التربوي»، الصادر عن المنظمة العربيـــة للتربية والثقافـــة والعلوم: «لا يمكن تحقيق أي تقدم علمي حقيقي من غير وضْع سياسة عامة للبحث العلمي، وتحديد أهدافه ومحاوره وموضوعاتــه. ويجب أن تكون هذه السياســة واضحة لدى القطاعــات المُنتجة والخدميــة، وتُبيِّن الأثر الذي يمكن أن تسهم به البحوث العلمية المحلية في إيجاد الحلول المثلــى للقضايا والمشــكلات التي تعترض القطاعــات الخاصــة، بــدل اعتمادها على الحلول الجاهــزة والمُسْتــورَدَة من الخارج. ومــن هنا تأتــي أهمية توافــر سياسة تنظِّم البحــث العلمي، وتضع أسســه، وتعمل على وضع الأولويات بما يخدم التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية».[٩]

– ضعــف إعــداد الباحثيــن وتأهيلهــم لممارسة البحث العلمي، مما يجعل عدداً منهم غيرَ متحكِّميــن بَعْدُ في مهارات هذا البحث وتقنياتــه، على الرغم من أنَّهم من المفترَض أن يكونــوا قد درَسوا قَبْلاً مــوادّ في مناهج البحث وآلياته. ومــن مظاهر ذلك الضعف: صعوبــةُ اختيــار موضوع البحــث ومشكلته – نقصــ على مستــوى التحكم فــي اللغات العالميــة وتكنولوجيا المعلومــات والاتصال – الارتباك فــي تطبيق المنهــج أو المناهج المختــارة للدراسة – مشــاكل على مستوى التعامل مع المحيط الوثائقي – ضعف فيما يخص الاقتدار على ممارسة مهارات التحليل والمقارنة والاستنتاج...

– أثّرت الاضطرابات السياسية سَلْباً على تطويــر البحــث العلمي، وتوفيــر بنياته وما يستلزمــه من أشكال دَعْميّة. فمن المعلوم أن دولاً عربية عدة عانت من تأثيرات هذا العامل؛ كما حصل في أثناء الحرب الأهلية في لبنان، والخلاف الذي نشب بيــن العراق والكويت، وتداعيات ما سُمي «الربيع العربي» على جملة من بلدان العالم العربي منذ ثلاث سنوات وما زالــت مستمرة. على أن هذا العامل قد يكون محَفِّزاً على الاختراع والتطوير وإغناء حقول علمية بعينها، ونستحضــر، هنا، ما وقع في فترة الحرب العالميــة الأولى؛ حيث شجّعت ظروفهــا وما شهدتــه من تنافــس وتصارع حادين بين الدول الكبرى آنذاك على الابتكار واختراع أساليب جديدة في أكثر من ميدان، وأسهمــت بقوة في تطويــر صناعة الأسلحة ومُعــدّات الحروب، وكانــت وراء تشييد كثير مــن المراكز والمنْشَآت ذات الصلة؛ إذ أنشئ خلال تلك المرحلة المجلس القومي للبحوث في الولايات المتحــدة الأميركية (١٩١٦م)، وأنشأت بريطانيا – قبل ذلك – هيئة البحث العلمي والصناعة...

وبَعْــدُ، فهــذه لمحة عجْلــى إلى واقع البحث العلمي في الوطن العربي الذي يعاني مجموعة من الصعوبات والإكراهات، تجعله متخلفــاً عن اللَّحاق برَكْب البحث العلمي في

البلاد المتقدمة. وقد كان مُسْتَنَدي في تقديم هــذه الصورة التشخيصية لــه مجموعة من البيانات والمعطيــات الإحصائية، التي تعود إلى سنوات مختلفة، ومن الدراسات الكشْفية المنشورة... ولن يرتفع هذا الوضع إلا بإيلاء مجال البحــث العلمي ما يستحقه، فعلاً، من عناية، وتوفير ما يحتاجه من موارد وطاقات على اختلافها، وتشجيع الباحثين المشتغلين به مادياً ومعنوياً، مع ضرورة إعادة النظر في المنظومة التربوية والتعليميــة المتّبعة الآن فــي العالم العربي عمومــاً؛ باتخاذ مبادرات إصلاحيــة حقيقية تفضي إلى تجاوز طرائق التدريس التقليدية، واعتمــاد إستراتيجيات ديدكتيكية أخــرى تقوم على تكريس الحوار، وتشجيــع الإبــداع والتميز، وتثميــن التعلم الذاتي، وغيرها ممّا يَضْمَنُ لتعليمنا تحصيل مُخْرَجــات ذات جــودة وكفــاءة وفاعلية في المحيطين الخاص والعام معاً.

الهوامش

١- دليل البحث التربوي، إصدار: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ٢٠١١م، ص٩.

٢- المصدر السابق نفسه، ص١٦- ١٧.

٣- المصدر السابق نفسه، ص١٧.

٤- مصطفــى عبد العظيم الطبيب: ضمان جودة البحث العلمي فــي الوطن العربي (دراسة تحليلية - ميدانية)، المجلة العربية لضمان جودة التعليم الجامعي، صنعاء، مج٦، ع١٣، ٢٠١٣م، ص١٠١.

٥- المصدر السابق نفسه، ص١٠٤- ١٠٥، بتصرف.

٦- عمــاد البرغوثي ومحمود أبو سمرة: مشــكلات البحث العلمي في العالم العربي، مجلة «الجامعة الإسلامية»، جامعة القدس، مج١٥، ع٢، يونيه ٢٠٠٧م، ص١١٣٧- ١١٣٩.

٧- المصدر السابق نفسه، ص١١٤٠.

٨- المصدر السابق نفسه، ص١١٤٨.

٩- دليل البحث التربوي، ص٢٧.

النوم في حياتنا

ترجمة: محمد الدنيا ❁

يتعرض كثير من الناس لاضطرابات نوم، أو لا ينامون كما يجب. مع ذلك، التعويض عن نقص النوم ممكن، شرط أن نعرف كيف نوفر الظروف الأفضل للنوم، الذي يعتبر وقت الراحة ثميناً. ولعل في النصائح التالية، التي ساهم في إسدائها عدد من العلماء، ما يجعلنا ننام بشكل مريح.

بشكل عام، نكرس ثلث وقتنا، يزيد أو ينقص، للنوم كل يوم. تتعلق بهذا النشاط الحيوي قدرتنا على مواجهة النهار الآتي. يمكن أن تكون ليلة النوم السيئة كارثة: قد يتمخض النعاس عن حوادث كثيرة، منها حوادث الطرق، وهي ليست قليلة. وتعود هذه الحالة إلى أسباب رئيسية عدّة، بشكل خاص: ليالي النوم القصيرة جداً، وفروق التوقيتات. إذن، تشكل قلة النوم خطراً حقيقياً على الطرقات بل تنتج عنها أيضاً تأثيرات سلبية على حالة الجسم الصحية (اضطرابات استقلابية métaboliques مثلاً).

كيف نتعرف إلى إيقاعنا البيولوجي

كي نحدد معدل نومنا الطبيعي الخاص بنا، ينصح الاختصاصيون بالإفادة من أوقات العطلة: أن ننام عندما نشعر بالحاجة إلى

❁ مترجم وباحث سوري.

النوم، وأن ننهض عند الإحساس بالحاجة إلى ذلك، يعني ذلك أن نحدد أوقات النوم ومغادرة السرير، على مدى أسبوع أو عدة أسابيع، وأن نسجل هذه الأوقات في مفكرة. وكي نتعرف إلى مدة دورات نومنا الوسطية، علينا أن نسجل بالطريقة نفسها أوقات استيقاظنا خلال الليل ومدة قيلولاتنا خلال النهار. ومع انتهاء أيام العطلة، نبدأ بتكييف وقت الاستيقاظ واستثمار الزمن وفق إيقاعنا الطبيعي، إذا كان نشاطنا المهني يسمح بذلك.

النوم حتى وقت متأخر صباحاً

عند نهاية أسبوع عمل طويل، أو بعد سهرة حتى وقت متأخر من الليل، أو بعد ليلة أرق، يغدو النوم حتى وقت متأخر من الصباح مغرياً. لا شك في أن للاستسلام لهذه الرغبة فوائدها. وكانت دراسة أميركية نشرت عام ٢٠١٠م قد أوضحت أن نوم ليلة لمدة عشر ساعات يعوض عن «دَين» أسبوع من نقص النوم. تقتضي ليلة الأرق مع ذلك ليلتي نوم مديدتين، إن لم يكن أكثر، لاستعادة العافية. ولكن، يجب الحذر من فروق إيقاعات الحياة، التي يمكن أن تؤدي فيما بعد إلى اضطراب النوم. أخيراً، النوم كثيراً، كما النوم قليلاً، يزيد من مخاطر الأمراض الوعائية القلبية.

أنسب أوقات للغفوة

يتبع جسمنا إيقاعاً بيولوجياً يسمى «يوماوياً» (حوالى اليوم) مدته نحو ٢٤ ساعة. بعض الفترات خلال هذه المدة أكثر مناسبة للإغفاء، وهي تحدث عند انخفاض حرارة الجسم، بين الساعة ٢٢ و٢٣، ونحو الساعة ١٣. يشجع انعدام الضوء أيضاً على إفراز الميلاتونين mélatonine، وهو هرمون ضالع في عمليات الغفوة. لهذا، يوصى بالنوم في مكان معتم. أما فترة نهاية الصباح ونهاية ما بعد الظهر، حين تكون حرارة الجسم في ذروتها، فهما الأقل مناسبة كي نغفو.

تأثير مشاهدة التلفزيون ليلاً

إن لمشاهدة التلفزيون ليلاً تأثيراً مباشراً على الإغفاء. «التعرض لضوء الشاشات الصناعي قبل الرقاد يعرقل إفراز الميلاتونين، ويقوي حالة اليقظة ويشوش الدورة الطبيعية اليوماوية بحوالى ساعة، مما يجعل الغفوة أصعب»، يشرح «تشارلز كزايسلر» Charles Czeisler من Harvard Medical School، الذي أنهى دراسة عام ٢٠١١م بعنوان Sleep in America. لا بد إذاً من تحاشي الشاشات قبل وقت النوم. ينبغي أيضاً عدم وضعها في غرفة النوم: يؤكد الاختصاصيون على أن هذه الغرف يجب أن تبقى خاصة بالنوم. أما فيما يتعلق بالقراءة، فإن الآراء متباينة

بصددها: يمكن أن تحث على النوم، إلا إذا بقيت الرغبة في معرفة نهاية الحكايات مؤرقة خلال قسم هام من الليل!.

الفراش الأنسب للنوم

ليس نوع الفراش بلا أهمية، خصوصاً إذا كان الشخص يعاني من الألم القَطَني: أوضح باحثون أسبان عام ٢٠٠٣م أن ٩٥٪ من المرضى الذين ينامون على فراش معتدل الصلابة هم أقل إحساساً بالآلام ممن ينامون على فراش صلب. فضلاً عن ذلك، أظهرت دراسات أخرى أن حالة النوم تتحسن عند تجديد فرش السرير، أخيراً، يمكن أن يكون لوضعية النوم التي يتخذها الشخص دور: ربما كان الفراش الذي تتغير صلابته وفقاً لمناطق استناد الجسم أفضل ملاءمة للأشخاص الذي يفضلون النوم على ظهورهم.

أطعمة تساعد على النوم الجيد

تساعد السكريات البطيئة على الإغفاء، وكذلك الأطعمة الغنية بالتريبتوفان tryptohane، وهو حمض أميني موجود في الرز الكامل، والجبنة، والشوكولا، على سبيل المثال. وعلى العكس، يقلل الحليب من قدرة التريبتوفان على الجريان في الدماغ. ومن الجدير بالذكر أن الهضم يزيد حرارة الجسم، وهو شيء غير ملائم للإغفاء. لذا من الأفضل تجنب العشاء الوفير المشبع والمتأخر.

الرياضة قبيل النوم

«تزيد الرياضة الجسم حرارةً، بينما ينبغي أن تكون هذه الحرارة منخفضة وقت النوم»، يقول «إيف دوفيلييه» Yves Dauvilliers طبيب الأعصاب واختصاصي النوم في «مركز الاستشفاء الجامعي» في «مونبلييه» بفرنسا. ينبغي إذاً تجنب ممارسة نشاط بدني قبيل الذهاب للنوم. ولكن إذا لم يستطع الشخص أن ينام، فلربما يكون غير متعب كفاية. وقد أوضح باحثون أميركيون، منذ عام ١٩٩٧م، أن ٣٠ إلى ٤٠ دقيقة أيروبيك (رياضة بدنية تمارس على إيقاع الموسيقى) أو المشي السريع، ٤ مرات في الأسبوع، كانت تتيح لأشخاص تجاربهم، من عمر ٥٠ إلى ٧٦ سنة، إنقاص الوقت الذي يستغرقونه حتى يناموا بمقدار النصف.

أهمية القيلولة

أوضح العلماء أنه عندما لا تكون مدة نوم الليل كافية، فإن قيلولة قصيرة مع بداية ما بعد ظهر اليوم التالي تؤدي إلى زيادة التيقظ، وتحافظ على الأداءات إن لم نقل أنها تحسّنها خلال الساعتين ونصف الساعة التي تليها. في حالة نقص النوم، تخفض القيلولة النعاس، خصوصاً لدى من يعملون في توقيتات متفاوتة. وكانت وكالة الفضاء الأميركية قد خلصت منذ أكثر من عشرين سنة إلى نتيجة مفادها

أن طيـاري طائرات النقـل ذات الخطوط بعيـدة المسافة جداً الذيـن ينامون قيلولة لمدة ٤٠ دقيقة في حجـرة الطائرة يبدون أكثـر سرعـة فـي الاختبـارات الحركية النفسيـة psychomoteurs ممن يبقون مستيقظيـن. مع ذلك، إذا كانـت الدراسة متفقة حول التأثيـرات التصليحية للقيلولة لمـدة ١٠ دقائق، فإن نوم النهـار أكثر من ٣٠ دقيقة يمكن أن يسبب تأثيرات عكسية. ويميز طبيـب الأعصاب «إيـف دوفيلييه» بيـن «قيلولة للتمتع وقيلولـة للحاجة». إذا أصبحـت القيلولة حاجة عارمـة وتلقائية، فذاك يمكن أن يكون علامة على وجود مرض نوم. بالمقابل، إذا كان المرء يجد فيها متعة، وإذا لم تكن وظيفتها الوحيدة التعويض عن ليلة نوم قصيرة جداً، وإذا استمرت أقل من ٣٠ دقيقة، فإنه ينصح بها.

موجات الهواتف والنوم

«لم يثبت بعد أن الحقول الكهرومغنطيسية تشوش النوم، ولو أن بعض الدراسات النادرة التي أنجزت على ليلة نوم تجريبية أظهرت حدوث تحويرات في نوم الأشخاص»، حسب عبارة «جويل باكـرو» Joël Paquereau اختصاصـي الفيزيولوجيا العصبية ومدير مركـز النـوم فـي «المركـز الاستشفائي الجامعـي» بمدينـة «بواتييـه» الفرنسية. سجلـت هـذه التجارب تحويـرات ضعيفة في الموجات الدماغيـة، وازدياداً في مدة النوم الخفيـف وانخفاضاً فـي مدة النوم العميـق لـدى أشخاص يخضعـون لحقل كهرومغنطيســي (شبيه بـذاك الصادر عن الهواتـف المحمولة) قبل النوم. إلا أن هذه التجارب ليست واسعـة بالقدر الذي يكفي لتميز بوضوح بين تأثير هذا الحقل والكرّب العادي المرتبط بالتجربة. ومؤخراً، درست جامعة برلين نوم ٣٩٧ شخصاً يعيشون على مقربة من محطات الهاتف المحمول. شُغّلت تلك الهوائيات وأوقفت عشوائياً، لمدة اثني عشر يوماً، دون علم منهم. النتيجة: لم يظهر أي فـرق في نومهم. «إلا أن المحطات بحد ذاتهـا يمكن أن يكون لهـا تأثير ذاتي سلبي على حالة النوم»، استخلص الباحثون. تبقى حالة فرط الحساسية لدى بعض الأشخاص إزاء الحقـول الكهرومغنطيسية بلا تفسير حتـى الآن بالنسبة للطب علـى الرغم من الإقرار بواقعية أعراضهم.

الاستيقاظ برفق

بعـد ليلـة نـوم طبيعية طويلـة، يكون الاستيقـاظ أكثر رفقـاً إذا ما جرى خلال طور النوم الخفيف، حيث يكون الجسم في حالة شبيهة بحالة اليقظة. ومن هنا أهمية أن يعرف المـرء إيقاعه الطبيعي كي يعمل علـى تكييف وقـت استيقاظـه. يبقى بعد ذلـك التغلب على ما يسميه الاختصاصيون «خمـول النوم»، فترة عـودة تنشيط البدن. هذه الفترة وجيزة عند البعض، وقد تستمر

٤٥ دقيقة عند آخرين. ولكن يمكن تقصيرها من خلال التعرض منذ الاستيقاظ لضوء النهار أو لضوء صناعي كافي الشدة بهدف إعادة مزامنة الساعة البيولوجية مع الجو المحيط. أخيراً، من أجل إتمام الاستيقاظ، من المستحسن تناول الكافيين أو التايين théine (قلواني من الشاي) مع شيء آخر من السكريات يمنح الجسم طاقة.

مدة الليلة المناسبة

كلما نما الدماغ تتباين حاجات الشخص إلى النوم: وسطياً، ١٦ ساعة للطفل الرضيع، و١٢ ساعة للطفل بعمر ٤ سنوات، و١٠ ساعات لفترة ما قبل المراهقة، و٧ – ٨ ساعات لعمر البلوغ. هنالك مع ذلك فروق هامة بين الأشخاص، دون معرفة السبب؛ ولكن تأكد من خلال دراسات أنجزت على توائم مربين على نحو منفصل أن هؤلاء يحتاجون بشكل عام إلى مقدار النوم نفسه، وهو ما يتيح الاعتقاد بوجود مكوِّن وراثي. مع ذلك، ووفقاً لمعطيات دراسةٍ أميركية حديثة، شملت نحو ٣٠٠٠٠ شخص، فإن مدة النوم التي تقل عن ٥ ساعات أو التي تزيد على ٩ ساعات في الليلة يمكن أن تزيد من مخاطر التعرض لأمراض قلبية وعائية لدى البالغين السليمين. ويتضاءل الخطر حين النوم نحو ٧ ساعات في الليلة (بين ٦ و٨ ساعات).

أما فيما يتعلق باتجاه الرأس خلال النوم، فإنه لا توجد أية دراسة علمية تفيد بحسن أو سوء النوم تبعاً لاتجاه الرأس.

النوم على الظهر أم على البطن؟

المسألة في الحقيقة مسألة راحة شخصية، بل ومسألة عمر وصحة أيضاً. فيما يخص الطفل الرضيع، أظهرت دراسات عديدة أن وضعية النوم على البطن تنطوي على عامل خطر أساسي فيما يتعلق بالموت المفاجئ: تسبب هذه الوضعية تضاؤلاً في ضغط الدم يمكن أن يؤدي إلى قصور في دوران الدم. أما فيما يخص النوم على الظهر، فلا ينصح بها بالنسبة لمن يعانون من آلام الظهر، والشخير وانقطاع النفَس النومي apnée: من شأن النوم على الجانب، مع ثني الساقين أمام البطن، في هذه الحالات الثلاث، أن يخفف الأعراض.

الأرق

أسلوب الحياة المتوازن، والمنتظم، والاسترخاء، أو أيضاً المنوِّمات، التي لا ينصح بتعاطيها إلا بشكل محدود وعرضي أو لبضعة أسابيع في أسوأ الحالات، هي أمضى الأسلحة في مواجهة الأرق. فضلاً عن ذلك، أظهرت الدراسات التي أنجزها عالم النفس واختصاصي النوم الأميركي «آرثر سبيلمان» Arthur Spielman، من جامعة «نيويورك»، أن المصابين بالأرق غالباً ما يمضون وقتاً طويلاً في السرير

على أمل الإغفاء بشكل أفضل: يستحسن أن لا يذهبوا إلى النوم قبل أن ينعسوا، وأن ينهضوا من الفراش إذا استعصى عليهم النوم فعلاً. يلزم أيضاً أن يتجنبوا التعويض من خلال القيلولة، التي يخشى أن تسبب أرقاً في الليلة التالية.

المنومات

تعمل المنومات على تقليل المدة التي يستغرقها الإغفاء وأيضاً تقليل مدة حالات الاستيقاظ خلال الليل. تتيح كذلك زيادة مدة النوم الكلية، وتوصَف لمن يتعلق أرقهم، المؤقت، بكرب حاد أو بفوارق توقيت. عندما يصبح الأرق مزمناً، يمكن للاستخدام الأحياني للمنومات أو لمزيلات القلق أن يتيح أيضاً التخلص من حلقة الأرق المفرغة. بالمقابل، لا ينصح باستخدام هذه الأدوية على مدى يتجاوز بضعة أسابيع، أولاً لأن الجسم يعتاد عليها، ثم بسبب التأثيرات الجانبية التي يمكن أن يتمخّض عنها: النعاس خلال النهار، واضطراب الأداء، وحالات فقد ذاكرة.. فضلاً عن ذلك، إذا كان حجم النوم يزداد بفعل المنومات فإن جودته تضعف بها.

المصدر: Science & Vie septembre ٢٠١١م.

مع: الأديب غسان ونوس

إعداد: محمد خالد الخضر *



الأديب غسان ونوس كاتب متعدد المواهب أجاد في الشعر والقصة والرواية وبرع في أغلب المناحي الأدبية والثقافية تميزت الرواية في عطائه الأدبي، وحول كثير من تداعياته كان الحوار التالي

- الأديب المهندس غسان كامل ونوس؛ أنت تكتب الرواية والقصة والشعر، وهي أجناس مختلفة؛ هل تتوافق عندك؟! وماذا يعني كلّ جنس بالنسبة إليك؟!

• هي تنويعات لحنيّة إيقاعية في فضاء الإبداع الأدبي، أصلها واحد وفروعها في الأرض والسماء؛ فالأجناس الأدبية تلوينات وتشكيلات؛ تتكاثف، وتحلّق أكثر؛

* أديب وصحفي.

فيكون الشعر، الذي تتنوّع نبضاته ورعشاته، وتتوزّع حسب الحالة والإحساس؛ وقد تتناثر كويكبات بكائنات محدودة، تتحرك في المحيط القريب، وتشعّ أبعد، بلا مدارات محددة؛ فتكون القصة؛ أو تطول المسارات، وتزداد الكائنات، وتتعالق الأجيال؛ فتكون الرواية..

أَمْرُ التخلّق ذاته، وعناصر التكوين، ومتطلّباته؛ لكنّ نماذجه مختلفة؛ من الحبو، والبيئة القريبة المحدّدة أو بعضها،إلى التحرك القريب والبعيد خطواً، أو قفزاً، إلى الدوران في المكان؛ فالتعمّق والغوص، أو الطواف والتحليق..

الأهمّ ليس الطول والقِصر والمحدودية والتعدّد في العناصر والكائنات والصفحات؛ بل الغنى الروحي والمعرفي، والقدرة على التمثّل والتمثيل، والإحساس القابل للانتقال إلى متلقّين لا نعرفهم، ولا يعرفوننا.

ما أودّ تأكيده، أنني لا أختار مسبقاً الجنس الأدبي الذي أكتبه؛ بل الفكرة والحالة والرغبة والموقف هي التي تملي.. والأجناس في القرب إليّ تتنافس، ولا أعترف لأيّ منها بأنّه الأقرب والأكثر نداوة ورواء! ودعْني أقرّب الأمر أكثر: حين يهطل المطر، وتُشبَع الأرض، يمكن أن يخرج منها الماء سيولاً، وجداول، وأنهاراً، وينابيع، وآباراً ارتوازية،وبخاراً؛ متفرقة في الزمان والمكان، أو مجتمعة؛ منها ما يخرج من نفسه بيسر، وقد يحتاج بعضها إلى جهد للوصول إلى الأصفى والأنقى؛ المادة واحدة مع اختلاف بدرجة العكر أو النقاء، أو الكثافة، أو الاستمرارية، أو إمكانية مقاربته والارتواء منه..!!

- أين تجد نفسك؟! علماً أنك كتبت بشكل إبداعي في الأجناس الثلاثة..

• أجد نفسي في كلّ ما كتبت، وأتمنّى أن يجدني القراء كذلك؛ علماً أنني كتبت أشكالاً أخرى، أسميتها «كتابات»، تشمل الخاطرة، والنص النثري المكثّف، والمقال الأدبي، والمقال الصحفي، والزاوية المتنوعة.. ولا أعتقد أنّ من المنطقي أن تختلف بصمات الشخصية الأدبية، باختلاف الأشكال التي تكتبها؛ فالمعاناة عينها، والقلق ذاته،والتساؤلات، والبحث عن خلاص لن يأتي، وأمان لا يدوم، والتعامل مع خيبات ذلك، والمواجهة مع أسئلة الوجود والمصير، التي لا يستطيع الكائن «العاقل» الحيّ منها فكاكاً، ومتطلبات العيش، التي تلحّ، والعلاقات والأمنيات والحاجات التي لا تنتهي!!

ويمكن أن تتداخل هذه الأجناس، فتنتشي القصة بالشعر، أو تتناهض الرواية إليه؛ وقد يتلفّت الشعر أكثر نحو العلامات الفارقة، فيتلمس متكآت القصة والرواية،

وقد يقف على تلالها، ويتزلّج على سفوحها.. وجميل أن يكون لكلّ منها حضوره وخصاله، وجوقته التي يختلف أفرادها، وتتنوع مهاراتهم، وجميل أيضاً أن تكون أشكال أخرى من الكتابة، قد تحتاج إلى مسمّيات، ولا تتطلّبها، لتعيش وتصمد، ولا يضيرها ما يقال عنها؛ إذ يختلف «الخلق جرّاها، وقد يختصمون»، فيما تمضي إلى لا مستقرّ لها، بثقة وعمق وإقناع..

- هل ترى أنّ الرواية تنافس الفنون الأخرى؟! وهل تشبه القصة؟!

• لا أعتقد أنّ العلاقة بين القصة والرواية، تستدعي الكثير من الكلام؛ فهما ينطلقان من العناصر ذاتها: النثر الذي يتضمن السرد والوصف والحوار وسوى ذلك، والحركة والزمان والمكان... وإن كان مقدار كلّ منها، يتعلق بالنص وشخوصه وأفكاره وكاتبه؛ مع ذلك؛ فإنّ لكلّ من الجنسين خصاله، التي قد تتواشج، وتتقاطع، وتنحسر، وتفيض؛ وليس من الضروري أن يتحول كاتب القصة إلى روائيّ، وهناك روائيون لم يكتبوا النص القصصي.. ولا تصحّ المقارنة بينهما، ولا يستقيم التقويم؛ سهولةً أو صعوبةً، ولا قِصَراً أو طولاً؛ بل يمكن أن يجلّي الموهوب الجادّ في أيّ جنس أدبيّ؛ كما يمكن أن يتعثّر الأديب هنا أو هناك، حتّى لو أجاد مرات؛ وقد يبقى الكاتب يدبّ على أسواره، ويتمسّح بعتباته!

ولا بأس من الإشارة إلى أنّ هناك من يقول: إنّ صناعة النص القصصي المقنِع والمؤثّر بصفحاته المحدودة، وكلماته المعدودة، تتطلّب مهارة أكثر من التعامل مع بيئة أو بيئات، وفضاءات، وعناصر، وكائنات، وعلاقات، وأفكار؛ كما في الرواية؛ متناسياً أنّ إدارة هذا الكمّ بكيفٍ يتلاءم مع كلّ منها، ويولّفها معاً، لتشكل عملاً روائياً منسجماً مضبوطاً بلا نشازات، ومفتوحاً بلا إطارات، يتطلّب مثل تلك المهارة والدقة والخيال والسعة والرحابة..

ومثلما كان الشعر ديوانَ العرب، وسفيرَ العالم، أزمنة طويلة، دارت أحاديث، وسرتْ تقويمات زمناً، ترفع من شأن القصة القصيرة، التي تنسجم أكثر مع إيقاع العصر المتسارع، عدم قدرة الكائن المشغولِ على الوقوف طويلاً لقراءة رواية أو التمتّع بالشعر. لكنّ المفارقة أنّه مع ازدياد تسارع العصر، وانضغاط أوقاته، وانشغال كائناته، خرج من يقول إننا نعيش اليوم عصرَ الرواية، وإنّ الشعر والقصة دخلا في مدار الأفول! ربّما يعود ذلك،إلى أنّ لدى الكائن القلق المأخوذ بالحيثيات، والمبلبل بالتفاصيل، والمحاصر بكلّ أدوات الراحة والاتصال، رغبةً بمعرفة النهايات والمصائر، أو خلاصات التجارب

المعيشة أو المتخيّلة.. التي قد تقدّمها الرواية؛ إضافة إلى اعتماد السينما العالمية، والتلفزة المفتوحة أربعاً وعشرين ساعة، على الأفلام والمسلسلات، التي تتطلّب زمناً أطول، وتتناول حيوات وعلاقات وأجيالاً.. يمكن أن تتواجد في الروايات الأدبية، أو تستدعي كتابة رواياتها الخاصة المهتمّة بالمشهديات والرومانسيات، والإثارة والرغبات، التي تجذب المتلقّي حتى في أوقات انشغالاته؛ أمّا أنا، فلا أنشغل بهذه المقارنات والمقولات، وأرى أنّ لكلّ جنس أدبيّ ساد، أو يمكن أن يسود، أهميتَه ودورَه وحضورَه وفنانيه وقراءَه..

- لقد اعتمدت في رواياتك على الإثارة والتشويق، كما في «المآب» مثلاً، وعلى اعتماد لغة الشعر؛ هل ترى أنّ هذا أكثر وصولاً من الرواية الحديثة؟!

• لن أعلّقَ على رؤيتك أنّ في رواياتي إثارة وتشويقاً؛ سواء في «المآب» آخرِ ما صدر لي من الروايات الأربع، أو في الروايات الأخرى، وإن كان مهمّاً بالنسبة إليّ، أن ينشدّ القارئ إلى ما أكتب، وأن يستمرّ في فعل القراءة إلى منتهاه؛ ولكنّي لن أكون سعيداً، إذا ما اقتصر الأمر على ذلك، أو طغى على سواه؛ لأنّ ما يغبطني كثيراً، أن يهتمّ القراء بما بين السطور، وما خلف الواقعة من أفكار وأصداء وأسئلة؛ أي ما تترك الرواية، وأيّ نص آخر كتبته، من انشغال أو اهتمام أو أثر؛ لأنّ الإثارة قد تكون آنية، والتشويق قد ينتهي مع القراءة؛ إنهما مهمّان لمتابعة القراءة؛ لكن الأهمّ: ماذا بعد؟! ولا أرى ضيراً - بالإشارة إلى ما ورد في سؤالك عن لغة الشعر - في أن تتحلّى بعض متون الرواية بفضاء الشعر. وفي الواقع، وبما أنّني لا أختار الكتابة في هذا الجنس أو ذاك - كما ذكرتُ آنفاً-؛ فلا أتقصّد أن يكون في ما أكتب إثارة أو تشويق، ولا أتوسّل لغة الشعر وأدواته، في القصة أو الرواية؛ بل إنّ ذلك يتعلّق بخبرة الكاتب وأسلوبه وخصوصيته. ويمكن أن يكون للّغة المجنحة أثر مهمّ حيناً، وقد تضرّ بالسياق العام؛ موقفاً أو رأياً أو فكرة، أو انبتاتاً وخروجاً عن القناعة والاستساغة. والمبالغة في أيّ عنصر، لا تكون مناسِبة؛ إلّا إن كان هذا من السمات التي يعتمدها هذا النص أو ذاك في سريانه..

أمّا القول فيما إذا كان ذلك أفضل من الرواية الحديثة؛ فمن قال إنّ هذا لا يندرج في الرواية الحديثة؟! وما هي المحددات المميّزة للرواية الحديثة، حتى لا يكون ما أكتب منتمياً إليها؟! وهذا بحث يطول..

- **الرواية الرمزية ما زالت تبحث عن ذاتها؛ ما السبب؟!**

• الجواب على هذا السؤال أيضاً، يحتاج إلى تدقيق أكثر في مضمونه؛ فالبحث في الرواية الرمزية، لا يمكن أن يتمّ جزافاً، ولا أن تطلق الأحكام حولها من دون تبصّر وشمولية، في البحث عن عناصرها ومميزاتها وممارسيها وأعدادهم؛ وهذا ما لا أدّعي الإحاطة به؛ لكن، يمكن القول إنّ أيّ شكل جديد من الرواية، والأدب عموماً، يتوغّل، أو يتوزّع، أكثر ممّا اعتاد القراء عليه، أو يبالغ في التقليل من المتكآت والمفاتيح التي يحتاج إليها المتابع العادي، الذي سيجد بعض العسر في القبول والاحتفاء والسيادة؛ على الرّغم من أنّ هناك من يحمّل هذا الأمر تبعةَ إهماله أو كسله، في التلقّي الجدّي المهتمّ لِما يُنشر؛ من دون أن نغفل عن أنّ الخلل يمكن أن يكون في النص وكتابته؛ ومن المناسب أن أقول رأيي في أنّ الارتهان إلى شكل مألوف بحجّة القرب من القراء، - وقد يكون السبب الحقيقي العجز والشحّ - يؤدّي إلى موات الحيوية الإبداعية، حصاراً أو محدودية في انطلاقاتها، التي يُفترض أن تجد مدياتٍ تتّسع لها، أو أعماقاً تغنيها أو تغتني بها، وفي هذا حياة متجددة للإبداع والأدب والثقافة عموماً؛ كما أنّ إطلاق الأحكام غير المعلّلة سلباً أو إيجاباً، قد يسهم في هذا الموات.

- **لماذا تراجع الشعر كثيراً؟!**

• إن الاهتمام بالشعر - وسواه من الإبداع - قد تراجع بتأثير الحالة العامة؛ لانشغال الناس أكثر باحتياجاتهم، وعلاقاتهم، التي تعقّدت، وابتعدت أوقاتهم عن البساطة والأريحية؛ على الرغم من ازدياد أدوات الراحة.. لكنّ ضجيج الحياة أفقد الناس فرص العودة إلى النفس، والالتفات إلى ما تقوله، وما يقول الشعراء في أمور الحياة وشؤونها وعناصرها، التي لم يعد يتسع لها الشعر، أو ينشغل بها، ولم تعد للشعراء «الأسوياء» متاحةً فسحاتُ التأمل والتعمق والسوحان؛ بل صارت الدروب محتشدة، حتّى ما قبل النزوح والتشرد، بالهائمين على حاجاتهم، أو رغباتهم، أو نزواتهم، التي باتت - أيضاً- تنشغل بها الأركان، وتكتظّ باللهاث والأنين خيباتٍ ومراراتٍ وقلقاً؛ حتّى المناسبات التي كانت، وما تزال، تحتاج إلى الشعر ولاءً أو رثاء، لم تعد مجزية؛ فهناك ما هو أدسم!

فالقلق الوجودي، والتساؤلات عن السبب والغاية والمآل، لم يعد لها حضور مؤثّر، وحلّ محلّه قلق حياتيّ آنيّ ضاغط، يتعلق بالأمن الذاتي، والخلاص الفردي، الذي لا يعتمد على الشعر وبُناه وأطيافه وخيالاته؛

بـل على منـاورة، أو مـداورة، أو ممالأة أو استسلام..

كما أنّ اللغة، التي تشكل العنصر الأساس فـي الشعر، وسـواه من الأجناس الأدبية الأخـرى، حُوِّرت، وعُكّـرتْ بلهجات ولغات أخـرى، وفيما أصبح العالـم سوقاً متصلة ومتفرّعة وعابرة للحـدود، فقد تأثرت لغة الشعر بهـذا، فصارت أقلّ حناناً وحميمية؛ كما العلاقات بيـن الناس، حتّـى الأسريّة منها.

وخيـول الشعر باتت تُعثِرهـا الأسلاك الشائكة، حتّى فـي النفس، والضباب صار تمويهـاً بشرياً،بعدمـا كان ظاهرة طبيعية؛ كالمطر الذي غاب أو تحمّض، أو غدا نتاج استمطار لا يُشبِع.. والحال هذه، لا تستطيع أن تنتج نصوصاً شعرية مميّزة -من دون أن ننفـي وجود مجموعات منها -؛ إضافة إلى أنّ المواقع والميادين والمنابر الإعلامية والثقافية والاجتماعية، العامة والخاصة... مشغولة بأمور أخرى، وروّادها – للأسف – كذلك!!

- هل هناك مواهب لم تصل إلى حقّها؟!

• لا أعتقـد، ولا أتخيّـل، أنّ جميـع أصحاب المواهب وصلوا – ويصلون – إلى ما يستحقون في أيّ عصر؛ منهم من يتحمل مسؤولية ذلك؛ فهو لـم يهتم بموهبته، ولم يُغنِهـا، أو يسعـى إلى إظهارهـا؛ وآخرون لـم يستطيعـوا الوصول، علـى الرغم من مساعيهم وجدّهـم؛ لأنّ ممـرات إبداعية عديـدة مشغولة، أو غائمـة، أو ضائعة بين الثغرات التي فتحهـا عابثون، أو حاقدون، أو مدّعون.. وحراسها كذلك، في غالبيتهم، للأسـف؛ ومثلهـم كأندادهم فـي الشرائح الأخـرى، وإن كانوا لا يعترفون بذلك؛ فيما يكيلـون التّهـم لأولئك، ويمارسـون ما هو أفظـع في الإبداع؛ لأنّ قتـل الموهبة أشنع من قتل النفس بغير حـق؛ فهو قتل لأنفس مشعة، وتبديد لرصيد لا ينضب، ولا يفنى؛ وبالتالي تدمير لمستقبل وأجيال! فليس من يقـوّم مُحقّاً فـي أحوال كثيـرة، أو عارفاً، أو خبيـراً، أو موضوعيـاً، وليست الحدود واضحـة، ولا المعايير قاطعـة، إن وجدت، أو اُعتمـدت، ليُستَنَـدَ إليها فـي المنح أو التعويم، وهذا يتيـح لكثيرين أن يَعبروا بلا جـوازات إبداعية، ويتسيّدوا بلا مشروعية، ولا إمكانيات حقيقية. مـع ذلك، فإنّي أثق أنّ الموهبـة الأصيلة، تستطيـع أن تخترق بانبثاثها الحجـبَ، وبانبعاثاتهـا الحواجزَ والحـدودَ المادية والمعنويـة، - ولا بدّ من تضحيات – إن أصـرّ أصحابها،والمهتمون الجدّيون، على احترامها وصونها وتغذيتها، والمضيّ بها ومعها إلـى ما يمكن أن تصل إليه،فتفيض وتُقنع.

- ما سبب التراجع الثقافي بشكل عام، والأدبي بشكل خاص؟!

• ذكرتُ بعض الأسباب في حديثي عن تراجع الشعر، وأكمل في ذلك؛ لأنّ الموضوع يستحق، والحال التي وصل إليها العالم الآن كارثية؛ إذ إنّ الأمر يتعلق بظروف مستمرّة، وأخرى مستجدّة، بكائنات تغيّرت أولوياتها، وتبدّلت جداول أعمالها، وتلاقت أو اتّفقت أحياناً، أو اختصمت أكثر.. تضاعفت إمكانيات التواصل، وتفاقمت أسباب الخلاف، وانتشرت المواجهات بكل دمويتها، والمماحكات بكل شراستها، عبر الشاشات والإذاعات التي تتوالد لهذه الغايات القاتمة؛ ازداد التصنيع في المادة، والدمج والتخليق والتسويق.. وبرز التدجين في الكائنات، والتشويه في القيم والرموز والأخلاق،وتعويم مظاهر التسطيح، وسلوكات الاستهلاك، وطفا النفاق، وعام التملّق، واستوى على عروش الأقدار الأرضية تجار مواقف وشعارات وفتاوى ومدارس وأقوال، تجرّم على التفكير؛ ناهيك عن القول والممارسة، حتى صارت الأقدار الأخروية مدار مساومة وابتذال وإرهاب.. وتضاءل الهاجس الثقافي أمام الهموم الأخرى!

وحتّى من أراد الخلاص من الشرّ والبلوى، وكان حسنَ النية، تشوّشت لديه الرؤى، وضاعت جهات الوثوقية، وغابت الثقافة في الإعلام وانتشر التضليل والإعلان والتعويم والاستهلاك..

فخفّت حصانة الكائن، وضعفت الروابط الانتمائية، وأصيب بالهشاشة المناعية، والضبابية الرؤيوية، والترقّق المعنوي، وصار عرضة للمؤثرات الغابيّة، التي تنوّعت، وتجدّدت بقصد مباشر من أصحاب النوايا السيئة، ونتاج غير مباشر من الكائنات المشوّهة، والسائد من الأفكار والمصطلحات والمفاهيم والممارسات، وصار رواد الثقافة من المغضوب عليهم بالسبب، أو بالنتيجة.

لقد قلّت القراءة، وخملت المتابعة، وبهتت حال الندوات والأمسيات والمحاضرات؛ ومازلنا نعلّق على قلّة الحضور، وندرة المتابعين من الجيل الشاب، تضليلاً لأنفسنا، واتّهاماً للغائبين: بأنّ الكرام قليل! من دون أن ننظر إلى ما يُقدَّم، ومن يقدِّم، ومن يشرف، أو يُعِدّ، ومن هم القائمون على المؤسسات الثقافية، ومن يعيّنهم، وعلينا أن لا ننسى أنفسنا؛ نحن الذين ننتخب من لا يستحقّ، ونمالئ، ونجامل، ونرضى بالقليل من الفُتات، ونسكت عن الكثير من الارتكابات والتقصير والممارسات غير الأدبية، تحت ستار المهمة الأدبية..

وليس ممكناً استمرار الحال الثقافية البائسة هذه؛ ولا يمكن أن يحلّ تغيير جدّي، بالآلية نفسها، عقلية وتفكيراً وتسويغاً ومصالح ذاتية وهواجس غير ثقافية!

لقد أظهر العدوان الظالم على سورية خواء الجبهة الثقافية، واقتصارها على كتابات قليلة هنا أو هناك، وحالات فردية من الوعي والموقف والرؤيا؛ ولا سيّما من النخب الثقافية! فيما كان الحسّ الشعبي الفطري، في كثير من المواقع والجبهات، أساسياً في المواجهة المعقدة، بمراحلها المتبدّلة، وفصولها القارسة..

وفي رأيي،إنّ أصل الأزمة الكارثية التي نواجه، ثقافي، وبالتالي؛ حلّها الحقيقي لا يكون إلا ثقافياً، والحلول الأخرى الضرورية أيضاً في ظروف وأحوال ومواقع عديدة، تبقى مرحلية، وموضعية، ومحدودة التأثير، وقاصرة عن الوصول إلى العلاجات الآمنة المديدة، وهي تحتاج، بعناصرها ورؤاها وخطاها، إلى الثقافة في كلّ وقت؛ فالحلّ الثقافي أشمل وأوسع وأغنى وأكمل وأوثق؛ ابتداء من البحث في الأسباب، وتحليل الوقائع، ومتابعة الجبهات، وقراءة النتائج.. وصولاً إلى تصوّر واع ومسؤول عن الهدف والغاية، والسبل المضمونة للخلاص، والكفيلة بالتحصين المادي والمعنوي المستديم! وقد كتبتُ، وتحدثت حول الحلّ الثقافي، في أكثر من موقع!

- أين النقد؟! ولماذا غاب؟!

• ومتى كان النقد موجوداً فاعلاً ليغيب؟!

فالناقد يحتاج إلى رؤى ثقافية أو معرفية عامة؛ إضافة إلى مهارات وإرادات وأدوات وعناصر، ولا يتوقف الأمر على قراءة مستعجلة، ومحفوظات من الآراء عن المناسب وغير المناسب، الجيد والرديء، وأفكار مستهلكة، ومواقف مسبقة. ومن المؤكد أنّ الرغبة أساسية في ذلك، والمسؤولية عما يقول الناقد أو يقرّر، أولاً وأخيراً..

فما هو عدد النقاد الذين يتصفون بهذا أو جلّه؟!

وبالتالي؛ هل يمكن أن نتوقع، أن نقع على مشروعات نقدية جدية ومجدية، تنطلق من أرضية خصبة حيوية،وإمكانية الحركة والفهم والبحث، وتتعامل مع ما هو موجود من نصوص، بصرف النظر عن الأسماء ومناصبها ونفوذها، وكيفية وصولها ونشرها وتسويقها إعلامياً وسياسياً واجتماعياً؟!

هنــاك أصــوات فرديــة ناقــدة، ولها محــاولات جدّية، ولكنهــا قليلة وباهتة في مجرى القول المجانــي، والحكم المتسرّع، والتقويــم العاطفــي المتعلّــق بالعلاقــة الشخصيــة والمصلحيــة؛ حتــى العرض الصحفــي، يخضع كثيــره إلــى مثل هذه المواقف؛ فيهتمّ بكتاب لفلانة أو فلان، ولا يهتمّ بكتــاب آخر. وللقائمين على المواقع والمنابر الثقافيــة والإعلامية دور مهمّ في ذلــك؛ ولا سيمــا إذا كانوا مــن المثقفين؛ فيسهّلون عبور من «يبيّضون الفال» بالرنين أو الطعــم، ويعقّدون المنافــذ أمام آخرين، لايملكون سوى الموهبة للوصول؛ أمّا الإقامة الآمنة، فهي في علم الغيب، والراسخين في النشر والتسويق والنقد..!!

كتاب الشهر

«على أجنحة الخيال وفي أدغال السرد»

عرض وتقديم: سمر الزركي ❋



تبدو علاقة الحب ملاذاً يلجأ إليه كثير من الناس في الأزمات الكبرى والحروب؛ وذلك لشعور المأزوم، بأنَّ حالة الحب التي يعيشها مع آخر، تمنحه الأمان في عالم يمور بكل ما هو مخيف ومفاجئ، كونه لا يخضع للقانون المتعارف عليه من قبل الجميع..

فالعالم لمعظم الناس في الأزمات والحروب، أشبه ما يكون بالرمال المتحركة؛ وبالتالي فإنَّ احتمال التلاشي والغياب في جوف هذا الوحش المتحرك والمخادع قائم في أي لحظة، ولن ينجي الحذر الشديد من خطره القائم. وبناءً على ذلك يظن البعض أنَّ علاقة الحب مع الآخر هي الأرض

❋ كاتبة سورية.

الثابتة التي لـــن تقلب ظهر المِجن للمحب.. وفي الوقت ذاته تشكل للعاشق فضاء يناقض الواقع المأزوم يفـــرغ فيه من خلالها طاقته الحسية المنفلتة إلى جانب الطاقة الشعورية النبيلة.

وهنا تسأل الكاتبـــة (الروائية والقاصة) فائـــزة محمد داوُد في كتابهـــا «على أجنحة الخيال وفي أدغال السرد».

هل الحاجة إلـــى الكتابة في خضم عالم مـــأزوم تساوي الحاجة إلـــى الحب؟ وقبل أن تجيـــب الكاتبة داوُد عن هـــذا السؤال، تسأل عـــن دور الأديـــب في الأحـــداث شاعراً كان أم قاصـــاً أو روائياً؟ ولا سيَّمـــا أنَّ كثيراً من الأعمـــال الروائية الملحميـــة الكبرى، تناول أصحابها من خلالهـــا أحداث الحروب التي شاركـــوا فيها كجنود مقاتلين، أو كصحفيين. وليس ذلك فحسب بل هناك أعمال أدبية كان فيها الأديب إمَّا مراقبـــاً للأحداث، أو قارئاً للتاريـــخ، أو حتـــى متبنياً للذاكـــرة الجمعية الســـاردة عبر الأجيال لحـــدث تاريخي مؤثر في حيـــاة جماعة بعينها، وفيـــه من التخيّل والفانتازيا ما يفوق الواقع..

وقد ذكـــرت الكاتبة فائـــزة محمد داوُد رواية (الحـــرب والسلام) لـ(ليف تولستوي)؛ مبينـــة أنَّ الرواية لم تكـــن لتنضم إلى روائع الأدب العالمي لو لم يكن تولستوي قد عرف عن تلك الحرب الكثيـــر من التفاصيل، وهنا يحق لكل متابع أن يضـــم صوته إلى أصوات تتساءل عن دور الأدباء في الأحداث التي تمر بها المنطقة العربية، حيث يرى أصحاب تلك الأصوات غيابـــاً شبه كامل لدور الأدباء على الأرضـــ لدرجة يخَيَّل فيها للبعض أنَّ الأدباء ربَّما يسكنون كوكباً آخر..

ومن ثمّ طرحت الكاتبة داوُد سؤالاً هاماً؛ حـــول مـــا إذا كان حضور الأديـــب ضرورياً ومؤثراً في الشارع العربي الراهن؟

وقد نوَّهت الكاتبة إلى حقيقة أنَّ حضور الأديب في الحراك الـــذي شهدته الساحات العربية فـــي الأشهر الأخيرة لم يكن كما كان يعتقد البعض غائبـــاً تماماً، لكنّه في الوقت ذاته، لم يكن مؤثراً إلّا بمقدار تأثيره في الأيام العاديـــة، وعدم التأثير هذا ليس عائداً فقط إلى عدم وضوح الرؤيـــة عند معظم الأدباء؛ وبالتالي عدم الرضوخ للانقياد إلى المجهول، بل كذلك إلـــى أنَّ من قاد الحراك، أو شارك فيه، ربما لم يقرأ رواية، أو حتى قصة قصيرة، أو بيتاً واحداً من الشعر، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية، قـــدّرت داوُد أنّ الحراك اعتمد في معظمه على خطاب يداعب الغرائز أكثر مـــن أنَّه يخاطب الفكـــر والمنطق. وماجعلها ترجح هذا التقدير اعتمـــاد المحرّكين على بضع عبارات تمّ نشرها عبر شبكات التواصل الاجتماعي (الفيسبوك أو التويتر)، وأصحاب هذه الثقافة اعتمدوا فـــي تجييشهم للشارع

علـى الشبكة العنكبوتية، وهذا التجييش كما يعلم الجميع لا يحتـاج إلى التعمّق والثقافة، وبالتالـي قـد يؤثر فيـه فنان مـن الدرجة العاشرة، أو مطـرب شعبي مع مزماره، ومن المؤكد أنَّ المؤثر لن يكون روائياً من الدرجة الأولى، ولا قاصّاً حاز على جوائز عالمية.

وقدّرت الكاتبة فائزة محمد داوُد أنَّه في حال وصـول أصحاب الثقافـة (الفيسبوكية والتويترية) إلى الهـدف الذي يشتغلون عليه فلـن يكونـوا مهتمين البتـة بعالـم الأدب، وسيتعاملـون مع الأدباء علـى أنهم شيء من الماضي اللامجدي وربّما العفن.. على الرغم مـن الحماس الذي يبديه بعضـ الأدباء لما فعله أولئـك عبر (الشبكة العنكبوتية) والذي وصل ببعضهم حدَّ الانقيـاد لشعارات برّاقة لطالما تمنوا أن تكون في عالمهم (اليوتيوبي) الـذي كتبـوا عنـه، وحلمـوا بتحقيقه على أرض الواقع.. علـى أنَّ معظم الأدباء تعامل مـع هذا العالم بحذر شديـد، وتقدر الكاتبة داوُد أنّ السبـب الرئيسي لهذه المعاملة يعود إلـى علاقة الأدباء بالتاريـخ. وهذه العلاقة المسؤولـة تقتضي منهـم وبسبب اطّلاعهم على التاريخي والجغرافي ليس فقط انتظار انتهـاء الولادة، بـل كذلك تجـاوز المرحلة (الدعمصيـة) وظهـور الملامـح الحقيقية للمولود الجديد.

وبعـد ذلـك بينـت داوُد أنَّ العلاقة بين العالم المأزوم، والكتابة الإبداعية المرهونة – دائماً – بالواقـع المجرد والمنفعلة به هي أمر حتمي.

ومن «الحـب والإبداع وعلاقتهما بالواقع المـأزوم» إلى مضمون كتـاب «على أجنحة الخيال وفي أدغال السرد»، الصادر عن وزارة الثقافـة – الهيئة العامـة السورية للكتاب – دمشق – ٢٠١٤م. الذي يقع في مئتين وخمس وخمسيـن صفحـة من القطـع الكبير. وهو بمثابـة مقالات ودراسات أدبية تهتم بالإبداع عامـة والكتابة خاصـة، (موضوعاً، ودوافع، وصياغة، وأهدافـاً). قُسّم الكتاب إلى أربعة فصول، يتضمـن الفصل الأوّل منها، «الواقع وظلال الأسطورة» علـى مواضيع عدّة، وقد ركزت فيهـا الكاتبـة داوُد علـى الأسطورة والملحمة، ودورهما في الحراك الإنساني.

فجاء «حصان طروادة والأحصنة العربية واستغلال المقدس» فـي مقدمة المواضيع. ولاسيّمـا أنَّ العالـم يُجمـع علـى أنَّ إلياذة (هوميروس)، هي ملحمة شعرية تناولت حرباً دامت عشر سنـوات بين الأغارقة (الآخيين) كما يسميهم (هوميروس)، وبين الطرواديين. كما أنَّ الكثير على يقين من أنَّ الحرب كانت مـن أجل (هيليـن) أجمل امرأة فـي العالم، لكن قلة من المتابعين لحراك العالم تعلم أنَّ الحرب الضروس التي أكلت الأخضر واليابس إنّما وقعت لأسبـاب اقتصادية بحتة كما هو

حال كل الحروب عبر التاريخ مع فرق يتجلى في رهافة روح هوميروس الشعرية الذي صاغ الحرب على شكل ملحمة.. تناول فيها الشاعر الأعمى قصة حب بين ابنة زيوس (هيلين) وبين (باريس) ابن بريام ملك طروادة، حيث تنبأت الآلهة للأخير بأنَّ ابنه سيكون السبب في دمار طروادة، ولم يكن البشر بما فيهم الملوك ليعترضوا على رؤية الآلهة؛ ولذلك قام الأب بنفي ابنه خارج حدود طروادة ليصبح (باريس) راعياً لماعز الآلهة على جبل الأولمب. ظنّاً منه أنَّه بنفيه أجمل أبنائه وأقربهم إلى نفسه إلى مكان مهجور، إنّما يحمي مملكته محصنة من الأعداء. ويمنع عنها الدمار والخراب، ويبعد عن شبابها الموت والفناء، ويصون نساءها من السبي.

ومن ثم أوضحت الكاتبة داوُد، أنَّ ثمة حقيقة أغفلها هوميروس؛ وهي الخديعة التي دبرها يوليسيز (داهية الأغارقة) الذي دثّر الخديعة المدمّرة برداء المقدّس الخيِّر. وما كان من القادة الأغارقة إلَّا أن دسوا لأهل طروادة السم في العسل وسارع الأخيرون إلى تذوقه، والتمتع بحلاوته من دون أن يخطر في بالهم أنَّ في الأمر حيلة ستؤدي إلى دمار شامل لمملكتهم.

وتساءلت الكاتبة: هل كان هذا الدرس هو الأوَّل والأخير في حياة البشرية؟ أم أنَّ التاريخ يعيد نفسه بحيث نستطيع القول: إنَّ الخديعة والتجلي حالتان رافقتا الإنسان منذ بدء الخليقة، وحتى اللحظة التي نعيش فيها؟

وفي الفصل الثاني، «الخيال الحديث ودور المصطلحات الجديدة في السرد» تنقلنا الكاتبة داوُد من خلاله – فكرياً – إلى عالم «بنات الخيال ودروهن في الأدب، وحضورهن في الحياة»، إضافة إلى تناولها «الأدب والفن على أجنحة الخيال»، و«الغضب الخلّاق ودوره في الأدب»، و«السر وحضوره في الإبداع» و«التغرب ودوره في الإبداع»، و«مفهوم الشعرية في السرد» وغيرها من المواضيع التي لا تقل أهمية عمّا ذُكر.

ويأتي الفصل الثالث، «التاريخ وترddاته الواقعية» بتسعة عشر عنواناً. بُدئ بموضوع «من الأنغلوسكسونية إلى الأنغلوبدوية»، وانتهى بعنوان «عندما يردد السياسي مفردات الأديب ليسوِّق مشروعه الوهمي».

ومما جاء بينهما من المواضيع نذكر: «فرعنة أميركا الديمقراطية وديمقراطية مصر الفرعونية»، و«الزنوجية والعروبية بين ثقافة التجذر وفكرة التهديم»، و«عن انقلاب المفاهيم وخلط الأوراق»، و«التراجيديا العربية بأقلام المثقفين»، و«عن الأدب والفن وعلاقتهما بروح الثورة»، و«عن المرأة وتموضعها الجديد»، و«عن المثقف الإيجابي والمثقف السلبي»..إلخ

في الفصل الرابع والأخير، «ومضات سردية» تلفت الكاتبة داوُد الانتباه إلى العناوين التالية:

- الفن الافتراضي والخبرة الشامانية.
- الملامح العامّة للكتابة النسوية.
- الأدب بين جواسيس الله وجواسيس الشيطان.
- الإبداع بين معطف أكاكي أكاكيفتش وبندقية الصياد.
- الرواية العربية بين هاجس التقليد ومسؤولية البحث عن هوية.
- أنماط القراءة العربية، ودورها في الإبداع.
- عن دور الأدب في حراك المجتمعات.
- الغزو الثقافي العربي ودوره في الحراك الأدبي الأوروبي.
- الوجه الآخر للكاتب، قرينه المحتجب وملهمه في الإبداع.

وغيرها من العناوين الهامة التي تشدّ إلى قراءتها قراءة متأنية، وعلى سبيل المثال ما جاء تحت مسمى: «عن الكتابة وجدواها» حيث أشارت الكاتبة إلى أن الأسئلة التي تتعلق بجدوى الكتابة ما تزال تطرح نفسها على الجمهور وعلى الكتّاب أنفسهم.

وقدّرت أن سؤال «لماذا أكتب؟» تردد صداه في نفس كل كاتب. مبتعدة عن السؤال الذي طرحه خوسيه ساراماغو في عام (١٩٨٥م) عند استلامه لجائزة نوبل للآداب حول ما إذا كان العالم أصبح أفضل بعد نصوصه. فإنَّ البعض يرى في الكتابة حالة تصيب لعنتها أو رحمتها من تشاء، وهي هم إنساني يصعب الفكاك من أسبابه، وقد يعتقد معظم الكتّاب بعدم الجدوى من الكتابة ورغم ذلك يستمرون كما لو أنَّ أحدهم يظن نفسه نزل على هذه الأرض لأجل أن يحكي عن كل ما يراه يتنافى مع طبيعة الإنسان الفطرية تماماً (كما كانت جاندارك تعتقد أنَّها مكلفة بأمرٍ إلهي يقضي بتحرير بلدها فرنسا من المستعمرين).

ورأت الكاتبة داوُد أنَّ وصف وزير ثقافة حكومة ستالين الأدباء بمهندسي الأرواح يلامس جانباً من سر الإبداع، ولو لم يكن كذلك ما استوقفتنا على سبيل المثال ليالي شهرزاد الطويلة، وجعلتنا نتساءل عن جدوى الحكي المكتوب أو لنقل لماذا يدون الحكي وفي كل يوم تولد ربما عشرات الحكايات؟

ومن ثم دوّنت داوُد قصة (الليلة الثالثة) من كتاب «ألف ليلة وليلة» التي جاءت على لسان شهرزاد لشهريار.. وفيها تحدّثت شهرزاد عن صياد عجوز وفقير، لا يحالفه الحظ في اصطياد أيّ شيء، سوى الطين والحجارة. إلّا أنه في مرة من المرات، رمى الصياد شبكته، وسحبها فكانت ثقيلة. ووجد فيها قارورة صغيرة من النحاس. دفعه فضوله، وربما جوع أطفاله لسحب سدّادتها.

وبعد محاولات عدّة، فشل في نزع السدّادة فاستعان بسكينة ثم راح يخضها ليخرج ما بداخلها وأخذه الذهول عندما رأى دخاناً كثيفاً يخرج منها ويتجمع على شكل غيمة؛ ثم يتخذ شكل عفريت انتصب فوق رأس الصياد وأخبره أنه من الجن المارقين الذين حبسهم الملك سليمان في قوارير عقاباً لهم على عدم امتثالهم لأوامره، وحكى العفريت للصياد الفقير، كيف أنَّه مكث بعد رميه في البحر في قارورة ألف عام. وعاهد نفسه خلالها أنّه سيعطي من يخلصه من السجن كل ثروات الدنيا، لكن لم يأت أحد ويخلصه من السجن. ومكث الألف الثاني، فعاهد نفسه أنّه سيعطي لمن يخرجه من سجنه كل حكمة الدنيا. وهذه المرة كانت كسابقتها لم يأت أحد ويخلصه من سجنه الطويل. وأثناء الألف الثالث، عاهد نفسه أنّه سيحقق لمن يخرجه من القارورة ثلاث أمنيات يتمنّاها، لكن لم يأتِ أحد. وخيباته الثلاث المتكررة، أصابته بغضب شديد، وعاهد نفسه أنّه سيقتل من يخلّصه من سجنه هذه المرة. ولن تأخذه به رحمة وكان الصياد، من يستحق القتل (برأي العفريت)؛ لأنَّ شبكته هي التي اصطادت القارورة، وقام هو نفسه بإخراجه منها. ولم تنفع توسلات الصياد الفقير في جعل قلب العفريت يرق لحاله، ولم تفلح حججه المحققة وبراهينه المنطقية في إنقاذه من الموت؛ حتى استخدم مكره ودهاءه اللذين فرضهما عليه (الحكم الجائر، والظرف القاهر) فتمكن من إعادة العفريت إلى قمقمه، وبعد ذلك رمى القارورة النحاسية في البحر، وبالتالي تمكن من إنقاذ نفسه من موت محقق.

لم تسرد الكاتبة داوُد هذه القصة من فراغ، وإنّما بيّنت أنَّ هذه الحكاية الشهرزادية القصيرة، تطرح أسئلة عدّة يتعلق أوّلها، بأسباب الخلاف بين من أسمتهم الحكاية، بالجان المارقين والملك سليمان. حيث الأخير آمر، والطرف الثاني، مارق ورافض الانصياع للأمر. والسؤال الذي يطرح نفسه: ترى ألم يكن ثمّة إمكانية للحوار بين الطرفين قبل أن يصدر الحكم بسجن من أسمتهم الحكاية العفاريت المارقين؟

أمَّا السؤال الثاني، فيتعلق بالعلاقة المسبقة التوتر بين العفريت والصياد. والتي وضع شروطها الطرف الأوّل، رافضاً التنازل عن قراره الذي يفتقد للمنطق والعدالة. فيما الثاني، وجد نفسه ضحيّة جريمة لا علاقة له بها سوى أنَّه يبحث عن صيد يسكت به جوع أطفاله.

واللافت هنا، أنَّ الوصول إلى حلٍّ بين العفريت والصياد كان مستحيلاً. لا لشيء إلّا لأنَّ الأوّل، رفض مبدأ الحوار. وأصرَّ على تنفيذ الحكم الذي اتخذه حين كان في القارورة.

وبعيداً عن الأجوبة المحتملة، عن الأسئلة السابقة. فإنَّ السؤال عن جدوى الكتابة، يشبه السؤال عن جدوى الحياة. لأنَّ ديمومة الحياة تعني بكل تأكيد استمرار هاجس الكتابة. خاصة، وأنَّ النفس الإنسانية، عدا أنَّها مازالت تمور بالتناقضات والأطماع والرغبات، فهي كذلك محكومة (في كثير من الأحيان) بسمة الظلم عند المقدرة. ولذلك فهي - غالباً - ما تختار الضحية الضعيفة والبريئة..

وأخيراً: لابد من الإشارة إلى أنَّ الكاتبة فائزة محمد داوُد سارت على خط الأسئلة المتوالدة والإضاءات المتعددة الاتجاهات، وانفتاح الموضوع على موضوعات ومقارنات، ثم العودة إلى الموضوع المحوري في كتابها «على أجنحة الخيال وفي أدغال السرد» معتمدة على حركتي المد والجزر، بكل سلاسة وانسيابية؛ لما تمتلكه من القوة التعبيرية، وتمكنها من جمع كثير من الرؤى والتداعيات والأفكار، وحلول الإسقاطات في المكان المناسب.

وقد استندت على ركائز وأسس التاريخ، والأدب الذي هو بالضرورة، انعكاس لحاجات التاريخ، وانفضاض لمحتواه.

نافذة على

إصدارات جديدة

إعداد: حسني هلال ❋

جدل الثقافة والسياسة في الفكر القومي العربي



مذ كانت أول سلطة للفرد على حوزة من الملكية (أرضاً كانت، مشغلاً، أو ما شابه) وعلى جماعة من البشر يعملون بها ويديرونها لصالحه. وممارسة ذيّاك الفرد المالك أسلوباً معيناً (سياسة) توفر له استغلال تلك الجماعة واستغراقهم، جسداً وفكراً وتفكيراً، لآخر رمق في خدمته. وجد هناك مَنْ يُعْمِل عقله ومعرفته مستعيناً بخبرته الجمعية والشخصية (ثقافته) من أجل رفع الضيم والاستغلال اللاحقين به وبجماعته.

وإلى اليوم، ومع تغيّر وتطور وعلمنة كلٍّ من

❋ كاتب وصحفي.

السياسة والثقافة، أسوة بما عداهما من البنى الفوقية للمجتمع. ما انفك السياسي ينظر إلى المثقف كمزاحم له على السيادة، من باب اشتغال الثاني على إقناع سواد الشعب بجور سلطة الأول.

صدر مؤخراً عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق، كتاب:

جدل الثقافة والسياسة في الفكر العربي، للكاتب إسماعيل الملحم.

يتألف الكتاب من /١٥٣/ صفحة من القطع الكبير، وزّعها الكاتب على خمسة عناوين رئيسة هي:

- جدل الثقافة والتاريخ.
- جدل الثقافة والسياسة.
- جدل الثقافة والسلطة.
- ثقافة التغيير والخصوصية القومية.
- الفكر القومي العربي بين الثقافة والسياسة.

يتمتع كتاب الباحث إسماعيل الملحم مثار تنويهنا هذا بلغة صحيحة وأسلوب عرض وتحليل واضحين.

ومما جاء على الغلاف الأخير:

خطف السياسي الثقافي من مساره الصاعد ووظفه في خدمة أغراض لم تنتج غير العجز والتخلف عن اللحاق بالعصر. دخلت الثقافة في حالة من الدوران، لم تستطع تجاوزها. وفقدت حيويتها بسبب من توظيفها في خدمة السياسة التي مازالت تعاني من قصورها وتبعيتها وتخلّف أدواتها. وفقدانها للإرادة اللازمة للنهوض بالمجتمع.

❁ ❁ ❁

ما بعد موت.. ما قبل حياة

العنوان: الروح الثامنة.

تأليف: ديمة داوودي.

نشر: دار بعل بدمشق.



الــروح الثامنة، أو «روح الشــام في سماواتها السبــع» كما أسمتهــا المؤلفــة ذات إهداء، هي الرواية الأولى للأديبــة الصحفية الزميلة «ديمة داوودي» الصادرة مؤخراً، والتي تدور إحداثياتها حول الأحداث الدموية على الأرض السورية.

تتألــف الروايــة مــن /٢١٣/ صفحة من القطــع الوسط، تــوزع علــى /١١/ فصلاً. وتهديها الكاتبة:

إليكَ يا مَنْ استطعتُ
مسح مرآته وتعرّيتُ أمامها
بحثاً عن نافذة روح

بلغــة المشاعر وتلقائية «المحكيّة»، وشفافية الحــزن، تنزف «ديمة» كلمات روايتها، مصورة فيها، بعضاً من مشاهد المحنة التي ألمت بوطننا السوري.

تقول الكاتبة من على غلاف روايتها:

كلماتي.. سحقاً لها، لا أقوى على أيّ لفظ، شُلّتْ لغتي، اغتالها العراء، كل ما أقوله محسوب عليّ، لم أشعر من قبل أن لعملي وكياني تلك الأهمية، حتى اليوم..

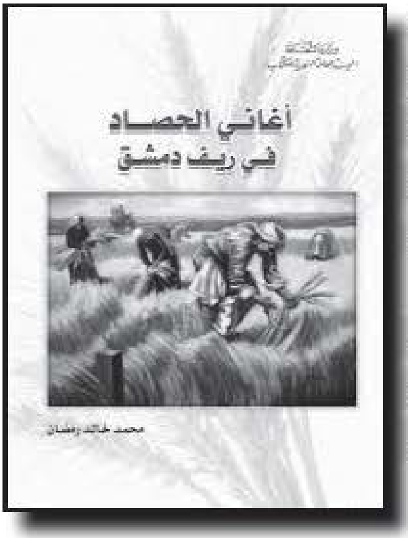
لم أكــن أتوقع يوماً أن أسمع في سوريــة مثل تلك الكلمات والنزعات التي كنّا نراها في بــيروت، حينها جهدت لأنسى ما سمعت وما رأيت. لكن سورية بل الوطن كله، بعد شهور، وقع فيما رأيت، على محيط أوسع لم يكن في حسبان أي أحد، ما سمّوه «الربيع العربي».

❁ ❁ ❁

من أغاني العمل

صدر حديثاً عن الهيئة العامة السورية للكتاب في دمشق، كتاب جديد للأديب الباحث «محمد خالد رمضان» تحت عنوان «أغاني الحصاد في ريف دمشق».

يعدّ الكتاب /٢٣٦/ صفحة من القطع الكبير، ويقسمه الكاتب إلى /٤/ أبواب، وكل باب إلى فصول عدّة.



يعرض محمد خالد رمضان في كتابه، كل ما يخصّ الحصاد: معنى الحصاد، زمنه، أدواته، مواده، أكل الحصادين، نومهم، مؤونتهم، فضلاً عن أغانيهم. وذلك على امتداد رقعة محافظة ريف دمشق، من النبك، دوما، إلى قطنا، فيبرود والتل والزيداني والقطيفة وداريا وقدسيا.

إضافة إلى أغاني العمل الأخرى بعد إنجاز الحصاد، مثل أغاني الرجيدة والدراس، فالتذرية والسليقة، والبرغلة، وصولاً لأغاني التكشيك.

أغاني الحصاد

هو إضافة جديدة جادة وهامة، لصاحب «زيدانيات» و«المسكن في التراث الشعبي» و«حكايات من الشام» و«الورد في التراث الشعبي» وسواها من الأعمال التي أغنى بها الكاتب مكتبة التراث السوري بعامة، والدمشقي منه بخاصة. فهلاّ كانت أعمال «رمضان» في التراث، حافزاً لكتّابنا.. وكان صاحبها في ثمانيناته أمثولة للهمة والنشاط؟!

❁ ❁ ❁

عصام وشهرزاد

عصام حسن

حدثِّينا يا شهرزاد

أرواد للطباعة والنشر/طرطوس.

يتألف كتاب الأديب «عصام حسن» بعنوان «حدثينا يا شهرزاد» من /٢١/ قصة قصيرة. تعود القصص بأجوائها، للريف السوري بعامة، وللساحلي منه بخاصة. وتنهل أحداثها من المجريات الشخصية والأحداث البيئية، للكاتب وأبناء جلدته.

من عناوين القصص:

خالتي السكّرة».«عمي والعصفور».. السيد «آسف».«العصافير لا تلبس ربطات



العنق».. دفتري الأسود قلبه أبيض.. أنا وابنتي والحب.. الصفحات ٢و١٢.. ريّة النمل.. إكسكيوزمي..

يهدي «عصام» مجموعته القصصية: (إلى الغائب الكبير، والحاضر الأكبر، في قلبه وقلب محبيه «بو علي ياسين») ويستهلها بالقصة الأولى: «دق، دق، دق» التي تقول:

أذكر كنّا صغيرين أنا وهي. وأذكر الشجرة التي كنّا نتسلق، كانت صغيرة مثلنا. أذكر أسفلها كانت بيوتنا. بضع حجارة مصفوفة بعناية طفل، تفصل بينها ضحكاتنا وشيطناتنا. بيوت بنيناها وقسّمناها وتشاركنا فيها ساعات لهونا.

أذكر كنّا نزور بعضنا، نقف في الباب، نطرق الهواء ونصدر صوت «دق، دق، دق» من أفواهنا. تفتح ضاحكة وتميل بخصرها: فتّح، فتّح. أبتسم بأدب، أسلّم عليها: كيفك جارتنا؟ تبتسم هي الأخرى وتسلّم بأطراف أصابعها، أستغلّ انشغالها بتمثيل الدور وأبوسها.

❁ ❁ ❁

ومن الرهان ما خسر

لا أريد للشعر أن يُصلب، أن يشدّ إلى تعريف.

ذلك ما قاله المرحوم الشاعر «عبد السلام عيون السود» في محاولة لإطلاق جناحيّ الشعر وسع الفضاء وبعد الخيال.

أما الشاعر «مازن الخطيب» فيقول:

أن تكونَ

الماءَ

أن تكونَ

الشجرةَ



تلكَ معادلة الشعر

عن دار التكوين صدر حديثاً في دمشق، مجموعة شعرية للشاعر «مازن الخطيب» بعنوان «الرهان.. مَنْ يصل ثالثاً» عدد صفحاتها /١٤٠/ صفحة من القطع الوسط وبغلاف واستهلال للفنان «ياسر حمّود».

نقتطف من على الغلاف الأخير للكتاب:

الحريّة/ أن تهدي الذئبَ/ نصف دجاجاتك/ أن تزرعَ وردةً/ على خصمِكَ/ أن تذهب مسافة نهار/ لتشارك بفرحٍ/ من لا تعرفه/ أن تحتضنَ/ امرأةً/ رفضها الجميع.

❁ ❁ ❁